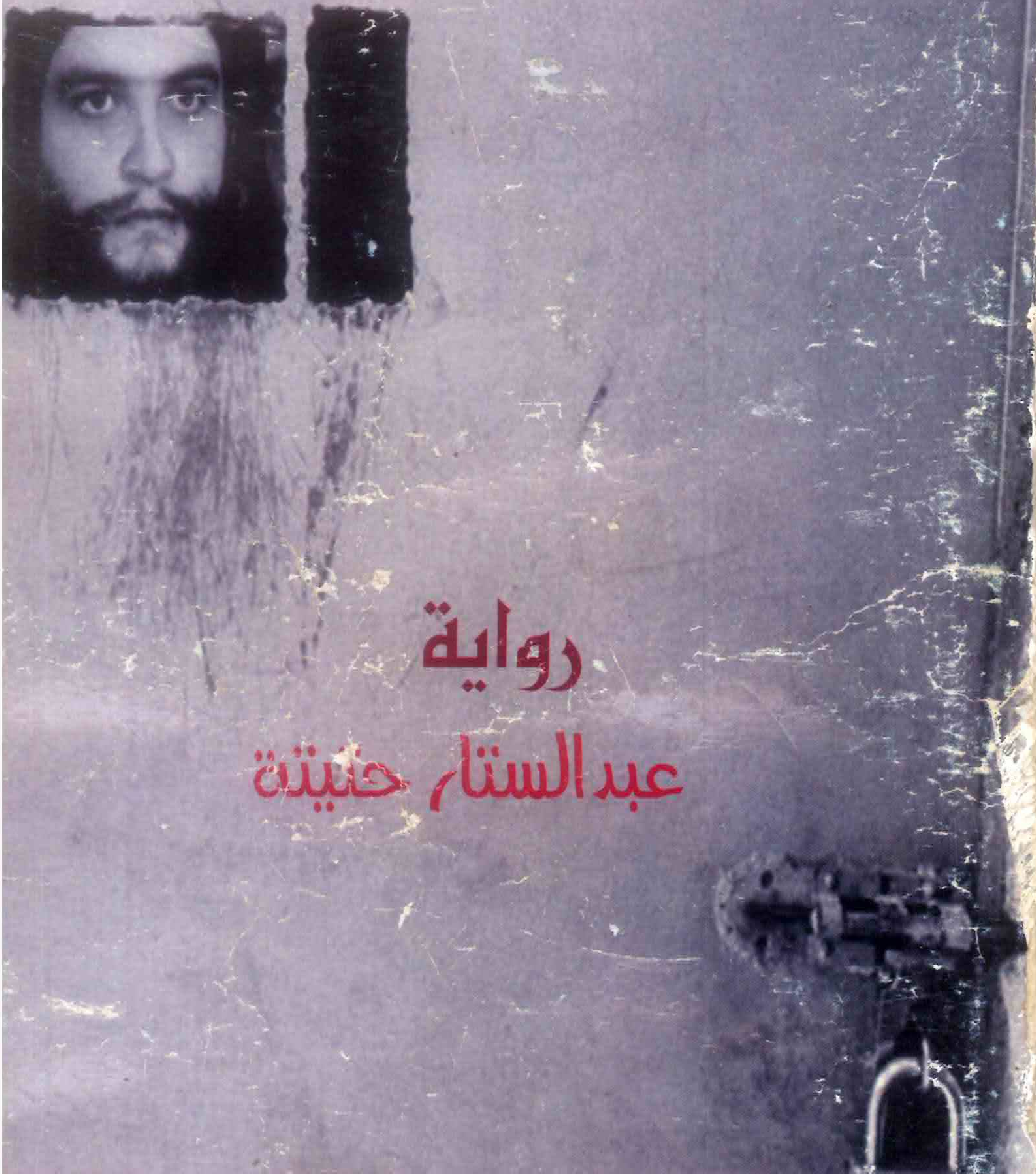
استراحة الشيخ نبيل



رواية

عبد الستار حتيتة

استراحة الشيخ نبيل

[رواية]

عبد الستار حتيتة

دار العالم الثالث

استراحة الشيخ نبيل

[رواية]

عبد الستار حتيتة

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

الناشر

دار العالم الثالث

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس ٢٣٩٢٢٨٨٠

e-mail: elguindimohamed@hotmail.com

تصميم الغلاف: أحمد السجيني

email: aalsegainy@hotmail.com

رقم الإيداع : ٥٠٦٥ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي (I.S.B.N) : 2 - 98 - 5222 - 977

إهداء خاص إلى روح الشاعرة
طرايف بنت دولات العشيبية
والفارس المرحوم
إبراهيم بو خضر الجريدي

إشارة

أحداث هذه الرواية مستوحاة من قصة حياة الشيخ نبيل عبد الرحمن، الداعية والمقاتل الإسلامي السابق، والتفاصيل الواردة فيها لا علاقة لها بسيرته الذاتية، والوقائع المذكورة التي قد تتشابه مع الواقع- سواء داخل مصر أو خارجها- ليست بالضرورة وقائع حقيقية.

عبد الستار حتيتة

ما قبل الصفر

حاولت على مدى شهور، بصفتي الطبيب المُعالج للمؤلف، منعه من الكتابة لأنني كنت أعلم أن حالته العقلية والنفسية لن تمكنه بأي حال من كتابة أي موضوع متناسق أو ذي جدوى..

حاولت كثيرا بأن كنتُ أمزّقُ ما يكتبه من مئات الصفحات كل أسبوع، وألقي بها في سلة القمامة، على اعتبار أنني أرسلت الموضوع لدار النشر..

حاولت حتى تملكني اليأس من أن يتوقف في أي يوم من الأيام عن الكتابة..

وبعد أن يئست، وبعد أن تفاقمت حالته، وبعد أن تكدست الأوراق على سرير غرفة العناية الفائقة، حاولت من جديد منعه بأن عنفته، وأخبرته بالحقيقة، وقلت له إن كل ما كتبه راح أدراج الرياح في المحرقة المركزية للنفايات..

حاولت لكنه أخذ لساعات يئن في ركن غرفة العناية عارياً ينتفض من البرد والوهن بعد أن نزع خرطوم الأكسجين ونزع خرطوم الجلوكوز ونزع ثيابه..

حاولت لكنني وجدت نفسي مضطرا، حفاظا على ما تبقى من حياته، أن أدعه يكتب ما يريد، حتى إذا مات أتخلص منه ومن أوراقه.. لكنه لم يمت.. وظل يطالبني بإرسال ما كتبه، إلى المطبعة، وهو الآن في انتظار كلامه المفكك وجمله غير المترابطة، وقد أصبحت بين ضفتي كتاب يحمل اسم رواية..

حاولت، لكن لا مفر..

الرواية تتكون، في أولها، من عِدة صفحات تحملُ الرقم صفر(٠)، وهي صفحات اعتبرها المؤلف تمهيدا للدخول إلى عالم الرواية؛ إذ يرويه على لسان البطل الذي أطلق عليه اسم "الشيخ نبيل"، وهو رجل حقيقي تربطه بالمؤلف علاقة غامضة، على ما يبدو، بل زاره في المستشفى عدة مرات، وكان آخر رجل يواظب على زيارته قبل أن يختفي..

0

ليس كُلّ ما يتذكره الإنسانُ صحيحا بحذافيره..عَمِلْتُ مُراسلا صحافيا لعدة سنوات في المناطق الصحراوية الجرداء الممتدة من غرب الإسكندرية حتى هضبة السلوم.

ولم يكن من المتاح لي أن أحافظ على قواي العقلية وسط تلك المساحات الواسعة من الفراغ ومن الوحدة ومن الحر..

كان معي راديو ترانزستور وحمار وكاميرا قديمة روسية الصنع..

حقول الألغام تنبسط حولي في المناطق الجنوبية من الصحراء .. هذا هو المكان الوحيد الذي أتردد عليه بين الحين والآخر أملا في الحصول على تفاصيل قصة صحفية جديدة والتي غالبا ما تكون عن هلاك قطيع من الإبل في حقل ألغام، أو انفجار قذيفة قديمة من مخلفات الحرب العالمية الثانية في راعي أغنام..

أي عذاب هذا.. لا فتيات ولا شوارع مرصوفة ولا أضواء ولا شجر ولا ناس.. أقرب نجع يقع، من مرمى بصر الحمار الذي أمتطيه، على بعد ثلاثين كيلومترا؛ نجع عيت بلوزة.

وفي أحد الأيام الحارة مشيت مع حماري نحو عشرين كيلومترا حيث اكتوينا بنار الشمس.. وسقطتُ أنا مغشيا عليّ، على ما أتذكر.

ونقلني سائق شاحنة تصادف مروره في المدق الترابي إلى المستشفى العام بالعلمين ومنه إلى مستشفى مرسى مطروح العام.

وأنا لا أحب المستشفيات ولا الأطباء ولا اللون الأبيض للملاءات والأسرة وملابس الممرضات والقطن والحبوب، ولا الروائح الكريهة للكيماويات التي يطلقون عليها أدوية..

لهذا وافقتُ على العرض الوحيد الذي تلقيته من أحد الزوار.. كان رجلا متجهما اصطحبني في تاكسي إلى شقته التي تطل على شارع الإسكندرية؛ الشارع الرئيسي بمرسى مطروح.

تقع الشقة في الطابق الخامس، وأمضيتُ فيها مع ذلك الرجل نحو ثلاثة أشهر بين الغيبوبة والحمى والهذيان والجنون.. بشكل عام كنت أتخيل أشخاصاً وأحداثاً وأتكلم حيناً مع الجدران وأحياناً مع أبواب الغرف والنوافذ والستائر، أو هذا ما أذكره، وليس كل ما يتذكره الإنسان صحيحاً بحذافيره..

المهم أنه في اليوم التالي من انتقالي للشقة عرفتُ أن صاحبها يلقبونه باسم "الشيخ نبيل"، وأنه لم يكن قد خرج منها منذ عدة أشهر.. وأنه كان في الحقيقة يبحث عن كاتب يروي له قصته.. وحين سمع عن وجود مراسل صحافي مريض بالمستشفى قرر أن يعالجه بطريقته، ويروي له أحداث هذه الرواية..

واليوم، حيث مرّت نحو أربع أو خمس سنوات على تلك الواقعة، أجد بين يديَّ أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كتبتها في الطابق الخامس.. ورق أصفر وورق أبيض.. ألواح كرتون وكرّاسات ودفاتر دونتها بأقلام الحبر السائل والحبر الجاف وبأقلام الرصاص وبأقلام الرسم الخضراء والزرقاء والحمراء..

لكن لا أعرف حتى الآن، إذ ما زلتُ أتلقى العلاج من مرض الجنون والهذيان الذي أصابني.. لا أعرف إن كان ما دونته هو فقط ما رواه لي ذلك الرجل، أم أنني كنت أكتب ما يقوله وما لا يقوله.. إن اكتشاف هذا قد يتطلب علاجي في الخارج على نفقة الدولة..

إن حالتي، كما قال الأطباء هنا، تزداد سوءاً، لأنني في كثير من الأحيان أظن أنني أنا هو الشيخ نبيل ذاته؛ مجاهداً مقاتلاً في دنيا الله لرفع راية الإسلام، لدرجة أنني أهربُ من أرض إلى أرض خوفاً من خطوات رجل عربي أو أمريكاني أو إسرائيلي، أو ما أدري.. يريد توريطي في قضية ما أو أنه يريد قتلي.. أسمع خطوات تلاحقني.. خطوة ثنتان ثلاث.. أنتظر الرصاصة في رأسي أم في صدري.. أشعر بالحنين لأيام البروفات المسرحية.. أشم رائحة البارود على جبل

الهندكوش، مثل الشيخ نبيل، وأرى، مثله، المحققين الألمان وهم يستجوبونني، وأتهرَّب، كما كان يفعل، من أسئلة ضباط أمن الدولة في لاظوغلي، وفوق كل ذلك أظل، مثله، أياما أسْتَرقُ السمع لصوت قدميّ فايزة على درج العمارة صاعدة، لعلها تأتي.. بالضبط كأنني مازلت، كأنني هوَ.. ملقى على أرضية الشقة معلقاً في الطابق الخامس بشارع الإسكندرية في مرسى مطروح..

نهايته أن الشيخ نبيل ظل يروي ويحكي دون أن أتأكد إن كان مستيقظاً خلال ذلك أم نائماً.. وأنا أكتبُ ما أسمعه منه أو ما بدا لي أنني أسمعه منه، والله أعلم..

1

تَرَقّى ما تَرَقّى قالَ راقصةٌ ذهبتْ لمكتبه إذ ذهبتْ فأغرَتْهُ إذ أغرتْ إذ لم يكن ثمة مانع إذ يتبختر داخل بزة حرير يتربع أمـــام قصـــعة أرز ولحم يحكي عن سلام وأحضان فلا تحسبنّ الذين آذوا أبناءكم وإخـــوانكم في سيناء والجولان وبيروت والقدس وأفغانستان يريدون بكم وبأبنـــائكم وإخوانكم خيراً هم أعداء لكم ولذويكم فأعدوا لهم ما اســـتطعتم..إذ أبْقَـــى ممدداً على الفراش لا أعِي نهاراً من ليل.. الماءُ داخل البـــراد يغلـــي.. يتحولُ الشاي لسائلٍ أسْوَدَ مثل العسل.. يتحول العَســـلُ لقـــرص مـــتفحم داخل براد الشاي.. الدخان يتصاعد من المطبخ.. يتـــوهج البـــراد فـــوق النار.. يملأ الدخان الشقة.. من تحت البـــاب يخـــرج.. مـــن النوافـــذ.. طـــَـــرقٌ شديد.. خبط وخبط:

–"يا شيخ افتح.. افتح يا شيخ نبيل.. الشقة تحترق.. افتح!"–

المهم أنني لـــم أكـــن أريـــد منـــذ البدايـــة التطـــرق لمثـــل هـــذه الموضوعات.. بدا واضحاً أنهم لم يتوقعوا ما عثروا عليه؛ إذ وجـــدوني كومة لحم أسود فوق الفراش.. حين دخلوا الشقة، وتوسطوا حجرتي في الطابق الخامس،.. تفوّهتُ بهمهمات واهنـــة أو مـــا أدري.. لكـــن مـــن المستحيل أن أكون قد أخبرتهم عن ملحمة خوست أو الأسيرة الروســـية أو حتى عن تلك المشاوير بين ساربروكين وسار لـــوي حيـــث أتعثـــر بالعجائز الألمانيات والجواسيس.. أما موضوع إمدادات أسامة بـــن لادن وأحابيل الطبيب الأردني فأنا على يقين من أنني لم أشر إليهما إطلاقاً..

نهايته.. أخذتُ أهذي فيما أظن بكلماتٍ شتى آمـــراً إيـــاهم إغـــلاق الباب ثم تمتمتُ مستوثقاً:

–"هل أوثقتَ الرّتاج؛ حسناً.. فليُعِدّ أحـــدكم بـــراد الشـــاي؛ شـــاي العصر.."–

.. وعصرتُ بيديَّ جانبيّ السرير.. شددتُ جسدي الميـــت للخلـــف فأضاءَ نورُ الشرفةِ صفحة وجهي العـــريض؛ ذقـــن مهملـــة.. عينـــان

زائغتان، وفي نفس الوقت ساخرتان، ومتحديتان أيضاً كما تخيلتهما.. عينان واسعتان فيهما بقايا طيبة؛ طيبة قديمة. نعم.. ذكرتُ لهم اسمي؛ فـقـل إن عَرَمَة اللحم ما زالت تستطيع التعرف على نفسها حيث كنتُ أسعلُ منتفضاً مفصّلاً لهم كل كنية ولقب من الصاحب والأخ.. للأب وجد الجد. فهل أثرتُ دهشتهم أم عطفهم أم اشمئزازهم:

–".. وأين إثباتات شخصياتكم.. فقط للإطلاع عليها.. ليس لكي يطمئن قلبي، ولكن هكذا جرت العادة معي على الأقل، أما قلبي فبأي شيء تفيده الطمأنينة.."–

أخذ المصور المرافق يلتقط صوراً؛ فأشحت بيديَّ.. بكفيَّ أواري سحنتي ملتزماً الصمت.. بهذه الحالة، حتى شربوا الشاي:

–"و ما النتيجة.. أقصد لاحقاً.. عقب كتابة هذا التقرير.. أعني كيف ستكون الأوضاع؛ فربما يلقون القبض عليَّ مرة أخرى.."–

تساءلتُ مُستريباً على ما أظن بعد وقت طويل من الانتظار.. وكانوا مشغولين بترهات جانبية.. كما أنهم لن يحركوا في واقع الحال ساكناً، وهو ما حدث. وكان المأزق بعينه..

وضع الأول؛ المصوّر، الكاميرا في حقيبته بينما استمر الثاني يسجل بعض الملاحظات.. إن هذا الرجل بالذات له سحنة تظهر من داخل رأسي.. من بعيد تتماوج من خلف السراب والضباب وتختفي له هيئة أعرفها.. شكل ضابط في بنطلون أسود وقميص أبيض ونظارة سوداء.. أتفحصه ملياً لأتذكر إن كان هو.. هو أم هو ليس هو.. وحين يتبرم من عينيَّ المفتوحتين أمامه، أدير وجهي فأجد الثالث صامتاً يجلس بطريقة غريبة عند طرف السرير من ناحية قدميَّ منكباً على الأرض يحدق البلاط قابضاً بكفيه جانبيَّ رأسه كأنه يقاوم البكاء يحبس داخله الدموع..

سألني مسجل الملاحظات؛ فامتعضَ من الإجابات المشتتة التي رسمتها له.. نعم إنه يمتعض مثل الضابط ذاته، كأنه هو ذاته.. كانت

ردودي تخرج من بين شفتيّ المخدرتين على شكل أسئلة جديدة لتعذبه، من قبيل:

-"هل تشككون في قدرتي؟ مازلت قويا، وسأتزوج قريباً.."-

أو أستفهم منهم كلهم لأغيظهم:

-" كيف هي الأحداث هناك؟ أ مازالوا يلقون القبض عليهم.. أتعرفون أنهم نشروا اسمي خطأ في قضية الاغتيالات الكبرى.. قرأته في الصحف وأنا أتقاسم البيرة مع الهواري.. الهواري صاحبي قال إنهم ربما كانوا يحتفظون باسمي بين الملفات على سبيل السهو.. صحوتُ من النوم لأقرأه مرة ثانية.. استعدتُ الصحيفة من كومة القمامة، وتهجيته مرة أخرى.."-

وأسحبهم لأبواب وأعمدة من تلك التي كانت تنشرها الأهرام عن المحاكمات:

-".. وما شأني باغتيالات خان الخليلي، والهجوم على البنوك. في الحقيقة أنا كنت في ساربروكين.. نعم كنتُ، وعدتُ ليلقوا القبض عليّ بالمطار.. اطّلعوا على تلك الأوراق.. احتجزوني ما أعرف ستة أشهر أو تسعة.. ثم أطلقوا سراحي؛ لكن الصحف ما انفكتْ تنشر اسمي مع أسماء المتهمين عند كل جلسة.. ما العيب في أن يأتي الواحد منا مكبلاً في الأغلال من السعودية فيتسلمه أهله في أمن الدولة؛ فيكرمونه أيما كرم.. فماذا يعني أن تستمر الأهرام في نشر اسمي كل يومين في رأيكم.. أ مازلتُ مطلوبا؛ متهما.."-

خيّم السكون، والمساء اقترب..

الخيوط الأخيرة لشمس اليوم اختفت..

كان نهاراً طويلاً شاقا لا مثيل له في هذه الشقة المعلقة وراء الخارطة.. كانوا يريدون كل التفاصيل.. كلها، بما في ذلك تحقيقات لاظوغلي.. وكان أحدهم قد أشار إلى أنها تنقسم لجزأين الأول كان قبل هجرة مصر، والثاني عقب العودة من ألمانيا لليمن فالسعودية ثم، الله لا

يوريك، قسم ترحيلات الخليفة؛ فمن أين حصلوا على تلك المعلومات.. ثم ما أدراهم بأن احتجازي وضربي بمطار القاهرة لم يكن وقت رجوعي من فرانكفورت فقط.. بل سبقته واقعة الترانزيت بمدة طويلة. ويعلمون أيضاً بأمر غرفة المرايا الملونة تلك؛ فمن أين جاءوا بالله من أين.. أم ترى أنها حيلة جديدة من الضابط ذاك ذي البنطلون الأسود والقميص الأبيض والحذاء اللامع، للحصول على المزيد من المعلومات؛ فقُل اللعنة عليهم جميعا..

خرج المصور للشرفة بينما جلس زميله يسجل المعلومات المهمة من وجهة نظره عن يوم اعتقالي.. وكانت أياماً وشهوراً، وعن تاريخ تسريحي من المعتقل؛ تواريخ عديدة، وعن وسائل التعذيب التي تركت آثارها على لحم جسدي.. وهي لا حصر لها. وفجأة قال لصاحبيه مثلما كان يفعل الضابط بقميصه الأبيض:

-"هيا نأكل.. ألا تشمون رائحة الشواء من هنا.. انسوا العودة الليلة.. لا توجد مواصلات للقاهرة.. نأكل ونبيت في الأوتيل، ونسافر صباحاً"-

كان قد كتب عدة صفحات في كراسته.. وهي كراسة زرقاء على رأس غلافها عنوان يحمل اسم مركز حقوق الإنسان لمناهضة شيء ما كالصعق بالكهرباء أو التعليق من القدمين. وكنتُ محقاً عندما ظننتُ حينها أن الرجل لن يذكر في التقرير السنوي للمركز ما بينته له بالضبط. مجرد أنّ أمري انتهى لعبارة ركيكة لا تستدر عطفاً ولا أهمية ولا إثارة وسط مئات الصفحات. كما لم ينشروا صورتي.. وجدتُ العشرات من أسماء الأخوة الذين أعرفهم ولا أعرفهم. أما المصيبة فكانت في وضْع اسمي بين طيات فصلٍ خاص يدور عن الإرهاب والإرهابيين.. وفي صفحة منه قرأت مقتطفات تثبت سوء النية أو الجهل أو الرغبة في التقعير والتنظير.. يقول جانب منها إن رافدين يمثلان الرؤى الفكرية للأفغان العرب.. أي أنا والأخوة.. طيب.. الرافد الأول

الذي يجمعهم هو خط فكري سياسي يطلــق عليــه الاتجــاه الجهــادي السلفي.. ماشي.. والرافد الثاني هو ما تلقوه.. أي أنا والأخوة؛ شــوف.. قال إنه يتمثل في التلقين والشحن العقائدي الذي تلقوه، أي تلقينــاه، فــي أثناء الجهاد بأفغانستان.. وأن هذا الرافد شاركت فيه أيضاً وسائل إعــلام وعلماء دين رسميون من مصر والسعودية أصــدروا فتــاوى بفرضــية الجهاد في بلاد الأفغان..

فماذا أفعل سوى أن ألوم نفسي؛ أقول لها ما رأيك يا نفس لو خضنا الليلة في بحر من البيرة..

منذ عودتي لمرسى مطروح.. بيتي العزيز، وأنا أدرك أنني تحولت لكومة لحم لا يتردد فيها نفسٌ، ولا تجــري فيهــا الــدماء، ولا يســندها عظمٌ..

الرعب لا بدَّ يملأ من يراني، وأنا أراوحُ ذراعيَّ الطــويلتين بــين دورة المياه، وفراش النوم.. يصعد أحــد الأخــوة القــدامى.. يحــدقني طويلاً.. يجلس جواري؛ وعندما يأخذنا السهر يمد يده ليلمســني فــأتطلع بلا مبالاة لسحنته الغائبة في الظلام متسائلاً:

-"ماذا؟"-

و أواصل التدخين في هدوء وسكينة إذ أتلفتُ حيث لم يكــن ثمــة مخلوق.. وحدي بين الجدران المعتمة. انتظرتُ أسابيع عقــب صــدور التقرير.. أنْ تحاصر قوات الشرطة العمارة.. أنْ يقتحم الضابط بقميصه الأبيض وبنطلونه الأسود باب الشقة.. أنْ يصيح فــي وجهــي كعادتــه؛ المكان محاصر.. سلّم نفسك.. إلا أن أحداً لم يحوّمْ حول المبنــى، ولــو حتى مخبر واحد..

الخادمة في بيت أبي ترسل لي قِدْر مكرونة مطبوخــة بالطمــاطم والديوك.. آكل منها كيفما اتفق على مدى الأيام.. وأحياناً تتراكم القــدور ليتعفن فيها الطعام.. إلى أن تأتي فايزة مساء الخميس ســراً؛ فتغســلها.. تدعك جسدي.. تبعث فيه الحياة، وخفية تمضي.. تتركني أدور بــذراعيَّ

الطويلتين ما بين دورة المياه والسرير. تهجرني فأنام يومين متتاليين بلا حراك..

أستيقظ.. أجرُّ لحم بدني المتقيح للشرفة أطل على شارع الإسكندرية المظلم. تضربُ رياح الخريف وجهي.. أرى المصلين، مع ذلك، بجلابيبهم البيضاء يجتازون طريقهم لمسجد الجامع الكبير المجاور.. إلى صلاة الفجر..

التقرير مذيل بعنوان المركز بالقاهرة.. بأرقام الهواتف والفاكس. أتحسس الورق الفاخر.. الطباعة الثرية. أشم رائحة العطر.. نفس الرائحة التي كانت تفوح من أربطة العنق.. من بزات الرجال الثلاثة.. كان الخاطر بين ضلوعي ينادي فيما أتحدثُ إليهم أنْ اصمتْ. هل قلت لهم شيئاً ذا جدوى.. لا؛ ليس إلا سرداً لعناوين أقاصيص شتى، وتحذيرات، ونصائح، وما بدا لهم تأكيدات مثيرة من قبيل:

–"لا يجب تجاهل دور المخابرات الأمريكية، والموساد.. من بنجلاديش، ولاجوس لألمانيا.."–

وأخبرتهم أيضاً عن أنَّ:

–"هناك أشياء تدور لا بد من التطرق إليها.. فلم تعد حدود الدول تعني.. كما تعلمون هناك الاتصالات.. التحالفات، وفي النهاية كله يصب هنا.. يصل إلينا، وهذا يستحق التنويه عنه فيما ستكتبونه.. هه؟ أقول لكم هذه هي النتيجة.. أنا الآن أمامكم.. انظروا أي نهاية.. لحمٌ كالعجين أحرق في أتون الأنقاض.. بيد أنه لا حرب تراها.. هه؟ يعني من الممكن أن يعتقلك أهلك فيما العدو يحتل الأرض جوارك لا أعرف بالضبط ما أريد أن أعنيه حقاً.."–

ضحك كاتب الملاحظات الملعون. أشارَ للمصور كي يلتقط مشاعر الغضب التي ارتسمت دون شك على وجهي.

هكذا إذن جاء التقرير مخيباً للآمال لا يمت لي بصِلةٍ حتى أنه لم يتضمن أي إشارة لاسم سيد؛ آه يا كلاب.. تصفحتُ أوراقه

الملساء مليا للمرة التاسعة، وحملته تحت إبطي. اتصلتُ من هاتف الشارع ثم اتصلتُ مرة ثانية، وثالثة.. وأخيراً ردَّت سكرتيرة المركز. سافر المدير إلى الخارج، ولن يعود قبل خمسة أسابيع..

في مساء ذلك اليوم علِمَ الهواري أنني خرجتُ من الشقة، وأن البعض شاهد هيئتي المخيفة أمام كابينة الهاتف؛ فجاء لسهرتنا الليلية حاملاً معه الصحف مستقصيا الأخبار.. نشرتْ جريدة الشعب فصولاً من التقرير، وشنت هجوما على المركز ذاته المُمَول من الأمريكان. وردتْ عليها الصحف الحكومية، واتهمتها بالدفاع عن الإرهابيين الذين يقتلون الأطفال والأبرياء، ويدعون للفتنة الطائفية وضرب السياحة وترويع الآمنين، في وقتٍ تمرُّ فيه البلاد بمرحلة مهمة من الاستقرار السياسي الذي يتواكب مع إصلاحات اقتصادية، و.. إلخ إلخ..

يجدُ الواحدُ نفسَهُ في وادٍ، والعالم في وادٍ آخر. هل تريد أن تقول شيئاً في هذا.. حاول؛ فكأنك تؤذن في مالطا..

كما لو كان الهواري يخاف عليَّ من الوحدة، وتقلُّب الفكر، والحال..

هو يدرك أن معرفة ما حدث لا تكون بالبحث فقط؛ بل ثمة هاجس بين الضلوع ينمو معك ويكبر، ليشير إليها مسبقاً. ومَنْ يُولد في مرسى مطروح، ويشبُّ فوق الصحراء الصفراء، وعلى الشواطئ البيضاء يُولد ويشبُّ معه قرينٌ مغبَّر الوجهِ لحوحٌ لا يهدأ. ينخسُكَ.. يدفعُكَ إلى الأفق البعيد؛ فإذا بلغته يبدأ من جديد ليأخذك لأفق آخر، ولا يكتفي. قد تقضي سنين العمر تجاهد لتطرده من داخلك. وقد تغطيه بأجولة الخيش، والتراب، والحجارة.. تدفنه؛ فلن تجد أمام قدميك أية طريق.. تسقط في هاوية ظلام مخيف وليل بارد لا ينتهي..

طيب.. كيف توصَّل مركز حقوق الزفت ومناهضة القطران لاسمي وعنوان سكني.. ثم من أين أتوا بتلك المعلومات.. كاتب الملاحظات يسأل كأنه يحيط بكل التفاصيل علماً.. يقول واثقاً:

– "أنت حاربت مع المجاهدين.. هذا معلوم، لكن جواز سفرك بلا أية تأشيرة تدل على ذلك؛ فكيف.. لو فقط الترتيبات كيف كانت.. لن نسجل ذلك في التقرير إذا أردت..هه؟"–

صوتٌ يهتف برأسي أنْ اصمت؛ ومع ذلك كنتُ أريد الاستفاضة في الشرح.. أن أملأ الدنيا كلاماً، وأقول ما وسعني القول، وكم كان الخطأ شنيعا..

الأخوة في مرسى مطروح تغيروا.. سِحْنات غريبة.. هي ذات الوجوه التي كانت تصغي في الصفوف الخلفية بمسجد الفتح لخطب الجمعة، وإلى دروس بعد العشاء. اليوم أصبحوا شيوخاً لا أول لهم ولا آخر.. يتجولون بلحاهم وجلابيبهم البيضاء في شوارع المدينة أمام ضباط أمن الدولة دون أن يقبض عليهم أحد. لقد تعلموا ما لم أفلح فيه.. عرفوا حدود المسالك والدروب.. حصلوا على خرائط بمواضع الألغام؛ فما حاجتهم اليوم لوجه قديم كوجهي الحليق وجسدي المنهك في قميص ألماني وبنطلون جينز صنع في فرنسا:

–"أهلاً يا شيخ.."–

يمر أحدهم فيجدني، وهكذا يفلت من اللقاء بهاتين الكلمتين، ولا يزيد..

لماذا لم يرسل المركز رجاله المثيرين للريبة في البداية.. أي عقب عودتي من فرانكفورت مباشرة حيث كنتُ ما زلت ألتزم الصمت.. كيف تمكنوا من اختيار الوقت المناسب لطرح الأسئلة.. الوقت الذي بدأتُ فيه التدخين وشرب البيرة والانعزال عن الدنيا في الطابق الخامس:

–".. معلوم أنك التقيت حكمتيار.. لكن الأهم هو ابن لادن؛ أسامة بن لادن.. حاولْ أن تتذكر بالمأسدة التقيته أم في المضايف العربية.. كان مساعدوه يشرفون على المضايف، أما هو شخصياً فبيت القصيد.. يعني في زيارته لمعسكر جاجيمدان كان قادماً من المضايف رأساً؛ صح.. وفي اليوم التالي وصلت شحنة من البي إم ديوازدة

والكلاشنكوف.. ومعها عدد من مساعديه.. الأسماء.. حاول أن تتذكر اسم أي منهم.. حتى لو كان من أولئك المقيمين بشكل دائم في المضايف.. اشعل سيجارة، وحاولْ.."–

و أخذتُ أدور بالحديث مداوير بعيدة عن الموساد وشوارع فرانكفورت، وغيرها..

و حتى تلك الليالي الجليدية كان لديه خلفية ضبابية عنها بما فيها حقيبتي التي تركتها في محطة القطارات، وحصار سيارات البولتساي، وكل شئ كل شئ. من أين أتى مندوب المركز بكل تلك الوقائع عليه اللعنة. هل هو أقوى من الضابط ذي القميص الأبيض والبنطلون الأسود؛ قال:

– "هيا اغمض عينيك، وارجع للوراء فترى ما فات كأنه اليوم. ستجد ولو اسماً واحداً مثل كرم أو عاصم أو محمد علوان أو عبد السلام حسن أو غيرهم من العرب أياً كانوا.. ها.. هل كان أي منهم مشرفاً على المضايف أو مسئولاً عن شحنات البي إم ديوازدة.. مازال لدينا الوقت لحكاية عميل الموساد، والأردني المزعوم.. سنتحدث عن فرانكفورت لاحقاً.. آه؛ أنت لا تُقدَّر بثمن.. فقط إذا أسعفتك الذاكرة الآن.."–

مكثتُ أنتظرُ صدور التقرير حتى فوجئت به داخل مظروف أبيض تقدمه لي الخادمة في بيت أبي مع قِدْر المكرونة المعتاد.. ناولته، فارتسمتْ على وجهي لأول مرة ابتسامة فتشجَّعتْ إذ تعاود إلحاحها لتنظيف الشقة، وإصلاح التليفزيون:

–".. كي يسليك"–

و تقدم جاهدة مزيداً من الإلحاح قائلة إنها ستشتري لي معلبات وخبز وجبن أبيض وآخر رومي:

–"لتكون ثلاجتك عامرة.. تجد ما تأكله في غيابنا؛ فقد تسافر الأسرة للإسكندرية قريباً.."–

بعد نحو ساعة عادتْ بالمكنسة والمِمْسَحَة وما أدري.. حولها أطفال الأسرة الصغار والكبار.. عطسَ بعضهم وسعلَ آخر من الروائح العفنة والغبار.. وتهللوا مغتبطين:

-"عمي.. عمي.. خالي.. خالي.."-

أوقفتهم جميعا:

-"لا.. ليس اليوم.. ربما الجمعة القادم.."-

سقط الصابون والفرشاة من يد الخادمة، واستعانت بأولاد أخي وأختي لإقناعي بخطر انتشار الصراصير والفئران وأعقاب السجائر.. كما استنجدتْ بأخي؛ فصعد من الطابق الرابع، وأنشأ يتوسل:

-"لن يستغرق الأمر أكثر من دقائق.. بعدها ستتغير الشقة.. ستتغير حياتك، لو تركت الخادمة تنظف هذه الحجرات من التراب والرَّماد، والبق.. هيا.. هيا انزل معي فلن تخسر شيئا.. والدك يسأل عنك.. سيفرح إذ يراك.. تعال الآن كما أنت. عندي بيجامة جديدة.. تستحم، وتجلس معنا. لم نتحدث منذ سنين.."-

خابَ رجاؤهم.. أغلقتُ الباب.. قرأتُ التقرير عدة مرات..

وحدي بين جدران الشقة فيها أدور مطلق السراح عارياً أتجول بين الحجرات أراوح بذراعيَّ الطويلتين من فراش النوم لدورة المياه فوق النار أضع براد الشاي أتقيأ ما شربته في حوض الغسيل فألتفُّ على نفسي أواريها تحت البطاطين يقهقه في أذنيَّ صوت القرين المغبر الوجه يهتز في رعشة البرد جسدي يتفصَّدُ العرق من كومة اللحم الشوهاء يبلل السرير بهذه الطريقة أهمدُ لا أعي نهاراً من ليل.. يتحول العسل لقرص متفحم داخل براد الشاي.. الدخان يتصاعد من المطبخ.. يتوهج البراد فوق النار.. يملأ الدخان الشقة.. من تحت الباب يخرج.. من النافذة.. طَرقٌ شديد.. خبط وخبط.. فَقُلْ: هذا ما آلت إليه الأمور في نهاية المطاف..

2

مرّت سنوات بلا سيد، أو أخباره.. لا رسمه، أو نبراته..

أقولُ مساء هذاك اليوم خرجنا مبكرين عن موعد انتهاء البروفة..

كان المخرج قلقا يصدر التعليمات المتضاربة للممثلين:

-"استراحة"-

ثم أردف:

-".. والأربعاء البروفة الأخيرة، وبعده الافتتاح.."-

رَدَّدَهَا بعصبية تنم عن أن الأمور لن تسير بالطريق التي كانت عليها. الآن عشية قاتمة باردة؛ بيد أنني وسيد أدركنا إلغاء العرض حيث لن يكون يوم الخميس، ولن يكون أبدا؛ ومع ذلك توجهنا في اليوم التالي استعداداً لليلة ختام البروفات.. خلفنا ظلالٌ غريبة تعد خطواتنا:

-"خطوة.. ثنتان.. ثلاث.."-

الصاحب الصحيح يتحول بمرور الأيام لروح تسكن داخلك قرين لا يفارقك إلا بالموت حتى إنْ غابَ جسده تبقى ضحكته تنبض حكاياته في عروقك حين صحوك أو منامك كلٌّ مِنّا يرى ثمة مَنْ يتتبعنا فلا نبصره إذن ليلاحقنا غير أننا لم نتحدث في الأمر بلْ نزيدُ مشيتنا نستحثها للأمام كلما اقترب دبيبُ الأقدام في أثرنا طوال الليل نتلفتُ خلفنا لا نتبين الوجوه ليس سوى خطواتٍ تتبعُها خطواتٌ بلا كلل..

كان سيد يلح ليحيط بكيف يسير الترام علماً، وكان بي شوق لتعلم طريقة حياة البدو؛ كلامهم. ولم يطلب أيٌّ منا ذلك صراحة من صاحبه:

-"لو تأتي معي لأخوالي وأعمامي بالإسكندرية.. هناك ستركبه بنفسك فوق العجلات الحديدية على قضبان مغروزة بطول الشارع تدور.."-

و لا يسأل عمَّن أدراني برغبته تلك. وربما كان يندهش عندما أحاول متعثرا التحدث باللهجة البدوية، مثله.. وأن آكل الأرز المطبوخ بالطماطم، مثله..

الشيء الوحيد الذي ضمّنا على شريط واحدٍ، ومضى بنا سويا إلى الأمام، كان هو تمثيل شخصيتي الجنديين بحيري وغريب في الفرقة المسرحية بقصر ثقافة مطروح. ومن بعدها سارت بنا الطريق أيضا، إلا أنها تشعبت فجأة.. عبثاً حاولتُ أن أسلك الدروب والمفارق في كل الاتجاهات؛ فلم أعثر له على أثر. والدته انحنى ظهرها.. تقف عند آخر الشارع ترقب مدخل العمارة يومين، ثلاثة، أسابيع.. فإذا خرجتُ يعلو صوتها:

-"قتلت وليدي.. قتلته.. سيد وليدي قتلته.."-

أهرب. أصعد الدرجات. أغلق باب الشقة، ولا جديد..

على خشبة المسرح كنا، وكان سيد يحفظ وراء المخرج الأصلع دور الجندي غريب، وأنا أتقمصُ دور الجندي بحيري.. هكذا تعلمنا ما لم نكن نعلم. فتحة الرِّجْل على المسرح ليست مثل نقلة القدم التي اعتدناها ماشين للبيت أو الشارع أو المدرسة.. في التمثيل كلُّ شيء بحساب.. بدلالة مدروسة سلفاً.. المخرج يعرف إلامَ تومئ، ولأين تشير. الالتفاتة الصغيرة التي كنا نظنُّ أنها تفلت مع الريح نجدها هنا تحمل التفاصيل الجوانية والبرانية الخاصة بها وحدها لا غيرها، وهذا ما لم نكن نلقي له بالاً من قبل..

كان علينا أن ندرك أن الضوء الأحمر يختلف هُنا عن الأصفر، وأن تسليط البروجوكتور على الستارة الخلفية لا يأتي عبثا، وأن نعي المغزى من رسم خطوط الماكياج على الخدود والجباه والشفاه بتلك الصور المضحكة المبكية في آن.. لا شك أن زملاءنا الطلاب الذين يجلسون في القاعة لمشاهدة البروفات لم يتعرفوا علينا من الوهلة الأولى.. وهذا ما شجعنا على الاستمرار.. على إخفاء الأمر عن والدي ووالده؛ فلو جاءا هنا لن يصدقا إننا ابنيهما.. سيد يناديني من فوق خشبة المسرح:

-"بحيري.. هل حقيقة ما يسمى بوقف إطلاق النار.."-

و أزعق بدوري على سيد:

-"و ماذا يهمك يا غريب.. ليوقفونه؛ أما نحن فمعنا ما يكفي من الذخيرة.."-

عَهدنا مخرجَنا كهلاً ترك الجيش برتبة مقدم يحفظ تفاصيل ما دارَ منذ احتلال سيناء حتى مستقره الجديد في صحراء مرسى مطروح، ولم نكن ندري. أنا قرأتُ مذكراته بعد سنوات؛ أما سيد فلم يعُد من غيبته..

و أذكر حينذاك أنه كان لا يتوقف يحدثنا طوال الوقت عن مسرح يوسف وهبي، وهنريك إبسن، وعبد المنعم مدبولي. ثم يشرع فيما تبقى من الليل يسرد وقائع الكر والفر من أيام الاستنزاف لأيام النصر:

-"هذا من حيث الشكل، أما الموضوع.. موضوع المسرحية، فإن الحديث ينصب على مغامرات بحيري، وغريب، وفراقهما المحزن حيث لم يكن يدري أيٌّ منهما أنه سيفقد الآخر في حومة العبور العظيم. الصاحب صاحب؛ لا يتبدل، ولا يتغير.. تطويه الليالي.. تخفيه المحطات المزدحمة.. تضيعه جبهات الحروب وخطوط النار.. القلب يحفظه.. ينبض بضحكته، ويتوجع.."-

هذه إذن الدنيا التي قذفت بالمخرج الأصلع من حدود مصر الشرقية لحدودها الغربية. طوَّحتْ به عالياً في الهواء.. مزَّعتْ بزته الصفراء ورتبته العسكرية بعدما كان آمراً على صفوف طويلة من الجنود.. يأكلون الخبز والباذنجان.. يَحْشُونَ القذائف في مؤخرة الأسلحة الثقيلة؛ ليلقوا حتفهم أمام القناة قبل مطلع النهار..

نستمعُ، ونستكمل صورة الحرب بما وعيناه من ظلام دامس مفاجئ في مرسى مطروح حيث الصوت ينادي أمي وأم سيد وأمهات أطفال الجيران.. يقول:

-"اطفي النور يا ولية.. جاتك غارة إسرائيلية.."-

أكمشُ في صدر أمي. تحومُ الطائرات فوق المدينة.. تدوي الفرقعات هنا وهناك. البيت يهتز.. زجاج النوافذ المدهونة باللون الأزرق يتهشم رغم تأطيره بأشرطة اللصق الورقية.. رجالٌ يتصايحون يزعقون في المارة.. اطفئوا السجائر احتموا بالأرصفة.. صوت صفارة الإسعاف، وبعد ساعة أو يزيد يحل الصمت..

تجلس أمي.. وأنا جوارها؛ لنحمل أنا وسيد صباحا المؤن للمرابطين من شباب المقاومة وشيَّابها..

كنتُ أحسبُ إسرائيل وقتذاك قطعة أرض وسط البحر تتحرك مع الأمواج تنطلق منها الطائرات كل ليلة لتقتل كل ولية لا تطفئ النور في المدينة.. أضعُ يدي في يد سيد مع طلعة الشمس ننقلُ زجاجات المياه والخبز لمتطوعي فِرَق المقاومة.. ونحن نفكر إن كانوا قد استشهدوا؛ لا.. مازالوا رابضين بطول شاطئ العوام يصفُّون أكياس الرمل حول حواف الصخور، ومنها تبرز مواسير البنادق والمدافع.. وفي البعيد نرى الدخان يتصاعد من ألسنة اللهب من إحدى طائرات العدو.. بينما المتطوعون يرفعون أسلحتهم ابتهاجا.. وفي الجانب الآخر نرى صفوف الجنود القادمين لمساعدتنا من ليبيا والجزائر وتونس والمغرب.. وهم يستعدون لمواجهة غارة جديدة.. كانت دبابتهم قد مزقت الشوارع بجنازيرها الحديدية.. وفوق كل مدرعة علم الدولة التي تنتمي إليها يرفرف مع الريح..

كبرنا.. وكبرت معنا الدنيا وتشربكتْ أطرافها ببعضها البعض.. من مُخرجنا ذاك عرفنا أين كانت تدور الحرب، وكيف كانت..

تعلقتُ أنا بالجندي بحيري قلَّدْتُ وقفته.. حركته.. بعزيمته امتلأتُ وهو يتأهب مع وحوش الصاعقة في مواجهة الطائرات المغيرة تحت السماء البيضاء لبورسعيد..

سيد أصبح هو فرد الاستطلاع غريب؛ تراه كثيف الشعر.. أسمر صموت، ولا تعرف في الحقيقة إن كان من رجال الاستطلاع أم

سلاح المهندسين أم من مجموعة تخريب المواقع الخلفية للعدو. كان يعمل على الجبهة كأنه جندي نفسه ومشيرها..

يعطي المُخْرِجُ الأمرَ لمهندس الإضاءة.. يتموج ماء القناة الأزرق على الستارة الخلفية.. يدخل غريب من الجهة اليسرى فارع الطول واثقا. هنا لابد أن تأخذني أنا الجندي بحيري المفاجأة فأفتح ذراعيَّ آخذه في صدري ملهوفا أخبط بيديَّ ظهرَهُ كأني أنفض عن كتفيه التعب:

-"التمثيل مثل الحياة الأخرى.."-

يقول سيد مأخوذا بالدهشة من كثرة الجُمل التي حفظها مئات العبارات آلاف الكلمات يرويها فوق خشبة المسرح على لسان غريب نقفُ سويا أمام المقاعد الخاوية نقول ما قلناه في الشهور الماضية يجلس المخرج جوار فايزة بطلة المسرحية فيما يرقب مدير قصر الثقافة مجرى الأحداث حوله زملاؤنا طلاب المدرسة الثانوية للمرة الأولى عرفنا معنى أن تكون محور قصةٍ سيشهد افتتاحها المحافظ وضعَ الخطاط اسمي أولا فاسم فايزة ثم سيد بحروف حمراء كبيرة فوق لوحة خشبية ضخمة علقها أمام مبنى قصر الثقافة قبْلَ ذاع الخبرُ في المدينة فاعتصم والدي بالسكوت ربما لأنه شاهد لقبه يلحق بنعتي في خطوط ملونة مع شعار جهة رسمية كالهيئة العامة لقصور الثقافة أما والد سيد فأرجَعَ سبب وجود اسم ابنه ثلاثيا إلى تفوقه في الصف الأول الثانوي هكذا إذن تسير الأمور على ما يرام كانت إلى أن تم تغيير موعد عرض الافتتاح إلى وقت لاحق لم يُحدد أصبحنا عليه نتلاقى مساء كل يوم انتظارا لمخرجنا اختفى داخل الفناء نراوحُ بلاه بينما يمرُّ مدير القصر قصير القامة يقول لنا بلهجة أبوية:

-"التفتوا لدروسكم هذه الأيام.. الميزانية ألغيت. نصرف على مسرحيتكم منين؟ مافيش.."-

عصرا نتخذُ من باب المسرح المغلق مجلسا عقب المغرب يدخل المدير ليباشر عمله المسائي يلتفت إلينا مرددا نصائحه المربية متجاهلا

الإشارة للمخرج. ومن جانبنا نرتجلُ ما يعنُّ لنا من مشاهد؛ فيخطو الهواري إلى الأمام خطوتين وإلى الخلف.. خطوة ونصف لليمين.. وأخرى ونصف لليسار.. تصفق فايزة، ونتمايل معها.. يحلّقُ الهواري بذراعيه يشبُّ محاولاً الطيران، ويتراجع.. بيد أننا كنا ننتظر إشارة البدء منها:

-"هيا للمكتبة.."-

تقول؛ فنلحق بها طائعين..

الكتب مصفوفة بنظام فوق الأرفف الطويلة:

تسألنا فايزة الحبوني:

-".. ومَنْ في ظنكم كاتب مسرحيتنا. إنَّ لها عنواناً على الغلاف لكن المؤلف مَنْ هوَ.."-

نلتزم الصمت برهة حتى تجيبنا واثقة:

-"المخرج ذاته مؤلفها. كان يجلس هنا، ويدوّن.."-

لم يكن من أحدٍ يتردد على المكتبة حينذاك غيرنا. ربما كان المخرج وحده يقضي ساعات الصباح معتكفا على القراءة والكتابة حيث موظف المكتبة يثني مرفقيه تحت رأسه في نوم عميق يغط. العنكبوت ينسج خيوطه الواهنة على زوايا الجدران وحواف السقف.. أكثر من نصف المصابيح غير موجود أو لا يعمل.. بقايا الإضاءة تجدها فقط ترتعش فوق الركن المخصص لكتب المسرح ولمنضدة الإطلاع المجاورة. تمتدُّ اليد.. يد فايزة إلى الكتاب؛ فنهم بأيدينا معها.. تفتح الصفحة الأولى.. الفصل الأول؛ فنقرأ معها. تغلق الكتاب؛ فنفتح أعيننا على وجهها المشرق. نرقبها من الرصيف المقابل تمشي حتى ترد خلفها باب بيتها؛ فنطمئن، ونتفرق في شوارع المدينة على غير هدى. قد يكون عذرنا الوحيد المعلن أنها يتيمة.. توفي أبوها رمياً بالرصاص صبية لم تزل، وعلينا نحن أن نكون جميعاً الحبوني الذي لم يمت.. أذكرُ ما أذكرُ ثيابك الكستور المرتقة في رأسي يا فايزة.. شعرك الطويل الأسود

المسدل من الأمام على جبينك الأبـيض ومـن الجـانبين علـى أذنيـك الصغيرتين. أصغي للهجتك البدوية المهذبة بطراوة وادي النيل.. حتـى لغتك الفصحى إذ تواجهينني فوق خشبة المسرح يفوح منها شذا الربيـع تهزُّ القلبَ:

-".. انظر يا بحيري للشمس تغرب باكية.. كل يوم أقعدُ قبالتهـا.. تسقط وراء الأرض، وأنت وحدك بعيداً تواجه الموت منتظـراً عودتهـا فتتلقفها من الجهة الأخرى.. أنام معك، مع رحيل الشمس.. أصحو بـين ذراعيك في كل طلعة فجر. أنت ستعود؛ لا بد مِـنْ أجلي.."-

ما أطيب هذا المشهد فيه تقترب يدها تمسُّ كتفي ثم تقسـو رويـداً رويدا على قلبي تعصره:

-"و لِمَ الخوف؟.. نحن نحارب جنوداً أقوياء شجعان إذا مـا كنـا نائمين.. وضعفاء جبناء حين يتطاير الشـَّـرَرُ من أعيننا. أنا لا يغمض لي جفن؛ سأعود!"-

كم تمنيتُ أن أظل أمثل المشهد ذاته آلاف المـرات؛ ولهـذا كـان اختفاء المخرج يعني توقف لغة التواصل الوحيدة الخاصة مـع فـايزة.. حتى عندما كان الهواري يستدير بجسده طائراً في رقصته، وهي تصفق مع فريق التمثيل.. أقف أنا جوارهم كالمنبوذ، ولم يكن هنـاك أي سـبيل كي تمسَّ بيدها الحبيبة ذراعي أو إصبعاً مـن أصـابع يـديَّ العشـرة المبعثرة أمامها على طاولة القـراءة بالمكتبـة.. أو مجـرد أن يلامـسَ كـُـمُّ تنورتها كـُـمَّ قميصي، ولو عَرَضاً..

الانتظار يلتف خانقاً عنقي مثل حبل مـن الليـف الخشـن طـوى النسيان مخرجنا الأصلع بأسرع مما كنا نحسب إذ تسرَّبَ الممثلون واحداً تلو الآخر بعيداً عن فناء قصر الثقافة والمكتبة المُهْمَـلة..

وحدها فايزة داومت المجيء في الموعد نفسه عصراً.. الرجاء أمام باب المسرح المهجور.. القراءة في الجانب المضيء على الطاولة نفسها فيما سيد يشد يدي ويلح:

-"هيا؛ لم يعد أحد يأتي هنا.."-

فأعترضُ بلا مواربة:

-"لكنها مازالت تقرأ تلك المسرحية. تعال.."-

نلقي تحية المساء؛ فتشرق بوجهها.. تتبسَّمُ؛ فتتيرُ أرففَ الكتبِ الجدرانُ المعتمة تلمعُ ثم تتلفت حولها فتزيد النورَ نورا قُلْ داومتُ على نسج الحيل لإقناع سيد بالمرور على مبنى قصر الثقافة متعللاً بأن البروفات قد تعود لنجدها في جلستها المعتادة.. يوم وراء يوم حتى أوقفني غاضباً:

-"أنت تبحث عنها هي.. تريد الذهاب إليها لا غير.. نعم هوَ ذاك. أينما كانت في أثرها.. أما أنا فلن أسكت.. لها قبيلة معروفة بالاسم فلا تتلاعب؛ يعني ابنة عمي أيضاً فلا تتلاعب.."-

تقودنا أقدامنا للبحر ماذا لدينا غيره على الرمل الأبيض نتصالح في الشتاء تحلق طيور النورس فوق الصخور الداكنة من بعيد ترتفع الأعراف البيض للموج المتمرد على حاله يريد الفكاك ينفلتُ ملقيا فورة غضبه بالشاطئ فإنَّ الأفق له حنين يموج بين الضلوع بطعمه المالح يمزجُ حدَّ البحر بطرف السماء أ هوَ الماءُ ذاك الذي وراءه الدنيا تغيب من حيث تظهر رؤوس ضخمة لسحب سوداء تزحف زحفا بحملها تلقي فوق أسطح البيوت تضرب به شوارع المدينة تكنس أرصفتها تغسلها من الدنس:

-".. أية مدينة؟"-

يسأل سيد مستنكرا، ويزيد:

-".. إنها تذهب إلى هناك. تمطر على الصحراء ترطبها. إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق المياه لتملأ الآبار. أما الإسفلت فأي نفع له من الغيث.."-

أتقلب على السرير.. على نواح أم سيد أكتوي كأنه أنين أم الحبوني يعصرني وينفضني ويرميني.. بهذه الطريقة أهمدُ لا أعي نهارا من ليل.. الماء داخل البراد يغلي.. يتحول الشاي لسائل أسود مثل العسل.. يملأ الدخان الشقة.. من تحت الباب يخرج.. من النافذة..

3

كان ذلك منذ وقت طويل. والآن ماذا جنَــتْ يداي..

السحب هي السحب.. في الخريف ثقيلة سوداء إذ تهـب ريـحٌ لا ساخنة ولا باردة، ولا تشبه ما كان في بيشاور أو ساربروكين أو حتـى لاجوس ذات الغابات الواسعة والقرود كثيفة الشعر وطحين الموز طيـب المذاق..

هنا في مرسى مطروح لا يعرفون طحين الموز.. كما أن أحداً لـم يصدق حين أشرتُ لذلك النوع من الخبز الشهي. كانت فايزة تنصت ملياً ثم تغير الموضوع وهي تتمتم:

-"آه.. نعم.. الموز!"-

أما الهواري فلم يكن يطيق الحديث عن لاجوس..

هو يريد أن يعرف إن كنت أنا الـذي ألقيـتُ بسـيد فـي مهالـك خوست.. يستحثني بالحيلة والمراوغة لأجيبه عمّا إذا كان مازال يسـعى حيّاً موفور الصحة بجلبابه الأبيض بين شوارع فرانكفورت ومسـاجدها فأقول له:

- "لو تعلم يا هواري.. لو تتخيـل معـي كيـف يشـبه الرغيـف المصنوع من طحين الموز.. إنه مثل أن تكون ضائعاً بعيداً عن مرسـى مطروح في بلد قصيّ من بلاد الدنيا وحدك.. تتمدد على سرير بارد في فندق تلفه الأشجار السامقة التي تخفي الأشياء وراءهـا.. هنـاك كنـتُ أبحث عن سيد، وعن طريق آمنة للعودة. إن طعمه لا يُـنـسـى.."-

يتصادف أحياناً أن أضطر لإلقاء خطبة في أحد مساجد لاجـوس، ويكون ذلك عقب وجبة من اللوبيا الحمراء المغموسـة بخبـز المـوز، وعندها يتملكني الشوق إلى مرسى مطروح.. وحدث في خطبة طويلـة عن التوحيد أنْ انحرفتُ فجأة قائلاً من فوق المنبر:

-".. وفي مدينة مرسى مطروح بمصر لدينا قبائل أيضاً.."-

و لا أذكر بالتفصيل عما تحدثتُ حينذاك. لقد كانت جُملاً قصـــيرة متلعثمة. واستحسنَ الأخوة من المصلين النيجيريين مـــا ذهبـــت إليـــه.. فخلافات اليوربا والهوسا ساخنة لم تزل..

هنا في لاجوس أجدُ مقتفيا ما أحسبه آثار أقدام سيد.. وأقـــول لـــو تيسر لي الأمر ورجعتُ لمرسى مطروح فكيف أدخلها بدونه؛ ولا أنام..

ليلاً أتصور وجه والدته.. أرى ظهرها المحني تسرح وراء الظلال البعيدة للسحب تسأل عنه، وتعاود مشيها خلف الغربـــاء والآيبـــين مـــن غربتهم تستعلمُ بلا كلل تسأل حتى المعيز والنعاج والخيول الطليقة فـــي البراري الجنوبية؛ وكأنها أم الحبوني ذاتها..

و في النهار أتركُ السيارة والحرس المخصص لي مـــن الســـفارة أسعى بين أهل لاجوس كالطريد. كان البعض يستوقفني ليسلم علـــيّ أنـــا الشيخ العربي خطيب المدينة المشهور.. نعم؛ إلا أن ســـيد كـــان يســـير جواري، ويقف حيث أقف. أدقق النظر فلا أبصره.. أمد يدي فلا ألمـــس غير الفراغ.. أمشي؛ فتضربُ أقدامُـــنا الأرضَ كما كنـــا فـــي هاتيـــك السنين، وخلفنا يتردد صوت الخطوات تتعقبنا؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

أتلفتُ؛ فليس غير سحنة رمادية بأول الطريق، وأخـــرى ســـوداء بزاوية المنعطف حيث يتعيش المتصوفة على الماء والهواء لا تجد فـــي حياتهم غير موائد الصبر وخزائن الرجاء المديد.. وفي الحواري الخلفية تنتشر مساجد الشيعة وطاولات الكتب تحمل صور آيات الله وأحبابه من مشايخ إيران والمغرب فانظر أهلَ لاجوس فقراء يتقوتون بخبـــز المـــوز ويسعدون أنفسهم مرة أو مرتين كل شهر بوجبة من اللوبيـــا المطبوخـــة بصلصة الطماطم..

و يتخذ الأغنياء من مقاطعات وسط المدينة مســـتقراً لهـــم داخـــل حصون يفوح منها عبق الزهور والبســـاتين والعطـــور الذكيـــة.. ومـــن شوارعها النظيفة الواسعة المحاطة بأشجار الكمثرى تمرق سيارات الدفع الرباعي المصفحة. ولا تجد بين الأسوار مساجد أو كنائس أو أية معابد.

ليس غير النظارات الشمسية السوداء تطل من خلف فوهـــات الأســـلحة الرشاشة عبر نوافذ العربات والفيلات والقصور..

في كل حيٍّ من الأحياء السكنية البائسة الجائعة بلاجوس تقف مئذنة واحدة على الأقل شامخة مهيبة.. ويكلف المسئول المحلي مناديــاً يـــذيع بمكبر الصوت أن مسجدهم وقع عليه الدور ليلقي فيـــه الشـــيخ العربـــي خطبة الجمعة؛ فأقف مجدداً فوق المنبـــر الخشـــبي المـــدعم بالمســـامير والحبال.. الميكرفون يردد جلجلة البسملة والحوقلة. معي شاب مـــتجهم يترجم مفصلاً وعيد الله للعُـــصاة وترغيبه للطـــائعين بنبـــرات لا حيـــاة فيها.. بيد أن الخطب النارية عن قتل الأطفال الفلسطينيين كانت تستهوي جموع المصلين:

-".. وبعد ذلك دخلتْ السياسة على الدين؛ لدرجة أن بعضهم يزعم أن الإنسان غير اليهودي مجرد حيوان منطو على الخصال الدنيَّـــة مـــن الشهوات، ويجب تعليمه الطاعة بإرهابه.. بالإرهاب الذي يولد الخـــوف والفزع.. انظروا أيها الأخوة المسلمون ماذا فعـــل الصـــهاينة بفلســـطين ولبنان ومصر.. في القرى التي لا تملك غير الحجارة سلاحاً يكسِّـــرون الأذرع اللدنة حتى ينعجن اللحم بشظايا العظم.. الرجال والنســـاء وكـــل حي يدفنون بالبلدوزرات يدمرون البلاد.. أرض الله عزَّ وجلَّ يحرقـــون؛ فهل تحركت الأمم المتحدة.. ماذا فعل الغرب الذي يتغنى بالديمقراطيـــة والحضارة ورعاية الكلاب.."-

كل يوم خميس أتسلم دعوة على عنوان السفارة الســـعودية لألقـــي محاضرة مسائية في ندوة من تلك التي تغص بالوجوه العربية المقيمة في لاجوس..

و بعد نحو شهرين من وجودي هنا أخذتْ صحف المدينـــة تنشـــر صورتي مع مواعيد المحاضرات، واسم المسجد المقرر لخطبة الجمعـــة التالية..

فأين أنت الآن يا سيد، يا أيها الشيخ البدوي المتقلب.. لو كنا معاً لأخذتْ الدعوة بإفريقيا طريقها للنهاية.. لكنا من الفاتحين للقرى والنجوع القصية.. لأقمنا بيوت الله في الأرض.. العشرات من مساجد الفتح نؤسسها بكل قلبٍ وكل طرف..

بدونك يا سيد تعبتُ..

أمضّني الترحال لدرجة أنني كثيرا ما أهمُّ بتسليم نفسي لأي سفارة مصرية من تلك التي أمرُّ بها عابرا كالهارب من الثأر أتنقلُ بين نوافذ الطائرات ومكاتب التأشيرات.. ولا يجوز هنا مقارنة نفسي بعُمر بن الخطاب، رضي الله عنه..

هكذا أكلّمُ نفسي ليلاً تحت الجدران الباردة أقول أ هذا هو الحال بعد أن افتديت بلاد الإسلام بروحي وما أملك. أردُّ متمما أنْ نعم؛ حتى لو كنت قد جاهدتُ مع المجاهدين بما في ذلك تحرير خوست. نعم.. لم يعد يتملكني اليوم الحماس القديم لنشر الدعوة..

جذوة قلبي التي استعرت لسنواتٍ لم يتبق منها غير رمادٍ دافئ بالكاد يبقيني شيخاً عربيا تحت الغطرة له حضورٌ ومهابة في أرجاء نيجيريا.. أما التفاسير والخطب فوحدها امتدت لمدينة كانو على مبعدة نصف ساعة بالطائرة الداخلية التي تعاني العطس والكحة والوهن. زرتها مرة واحدة منذ وصولي إلى هنا.. إلى لاجوس؛ والحين ازدادت التحذيرات والريبة من كل شخص أتعامل معه، وكل شئ آكله بما فيه أرغفة الخبز وثمرات التفاح والموز..

فِبِمَن أثق يا ترى..

أ في سيادة السفير؛ الأخ..

أم الملحق العسكري، الشقيق..

و قلت ملعون أبوهم جميعا.. وبدأتْ السفارة تشدد الاحتياطات دون أن أعلم كُنْه القصة بالضبط..

طاقم حراسة خاص بسيارة مجهزة تسير وراء العربة الدبلوماسية التي أستقلها أينما توجهتُ.. وعقب خطبة الجمعة في مساء ذاك اليوم أدركتُ ما يدور إذ أشار الممثل الدبلوماسي للاحتجاجات الواردة من مكتبٍ للمساعدات الإنسانية يقع في الضاحية الجنوبية يديره ثلاثة يحملون الجنسية الأمريكية، واثنان معهما الجنسية البريطانية والفرنسية.. وهمس بأن هؤلاء جميعا يحملون الجنسية الإسرائيلية أيضاً، ويمثلون محور نشاط اللوبي الصهيوني المعادي للعرب ولشيوخهم المحرضين ضد السامية في لاجوس وعموم نيجيريا..

.. وهكذا عرفتُ أنَّ ثمة لوبي؛ وعليه لم تعد الخطب الدينية تكتفي بالهجوم على الصهيونية ككيان دولي غير محدد المعالم يسهر على خدمة إسرائيل بلْ أخذتُ أشيرُ بإصبعي تجاه مكتب المساعدات المزعوم من فوق المنبر أحث المصلين أنْ يهبوا لتطهير أرضهم ممن يدنسونها هنا..

و هكذا سارت الأمور إلى الأسوأ..

السفارة في حرج..

فرع رابطة العالم الإسلامي الملحق بالسفارة أرسل بدوره خطابا للمقر الرئيسي بجدة.. وعواصف المحيط هبَّت ليلاً؛ فتساقطتْ زخاتٌ من الأمطار الرعدية المدمدمة بشرِّ العواقب..

الريح تعود نهارا لتجرَّ السحب السوداء من جبال الكاميرون.. فإذا دَنَا المساء تكون السماء فوقنا قد تجللت بغمامة من الرهبة والخوف.. ولم تتجدد المناوشات والخصومات بين قبائل لاجوس إلا في هذا التوقيت المشحون بالتوتر والرغبة في الخلاص من كل ما في النفس من هواجسٍ، وخَبَلٍ..

الله أعلم بما إذا كانت السفارة تبتغي شد أذنيَّ أم أن التهديد بالقتل قد وصل من مجهولين بالفعل..

في بعض الطرقات يأمرني السائق الخاص أنْ أخفض رأسي عن مستوى زجاج النافذة الجانبية..

أذهبُ للندوة الصباحية أو لدرس المساء بسيارة بيجو، وأعود بمرسيدس لزوم التمويه..

فمن أين ستنطلق الرصاصات على رأسي..

و تمر الأيام بطيئة ثقيلة..

الشمس تشرق ثم تحتجب خلف الغمام..

ينساب النسيم رخوا على شاطئ المحيط..

فلو قُـتِـلتُ هنا فأنا حينئذ شهيد، وستنقل الإذاعات والصحف الخبر لما وراء الحدود؛ فيدرك سيد، أينما كان، موضعي الأخير..

هل هو لم يخرج من أفغانستان. أ مازال على قيد الحياة..

أضع رأسي فوق الوسادة بالطابق الثالث من السفارة.. الخدم يضعون أطباقا واسعة مزدحمة بثمار العنب والموز ثم ينصرفون. أبقى أحدق في السقف المزين بالزخارف والثريا كأنني على خشبة المسرح لم أزل غير أن الحجرة تضيق ثم تضيق.. الصدر ينقبض تسيل دموع القلب؛ فمن يأخذني إليك يا مرسى مطروح الآن..

كيف لن أعود للدفء عند الشمس الهينة الحنون ووجوه الأخوة والأصحاب ومنبر مسجد الفتح أخطب ما شئتُ بلا مترجم..

آه لو كنت هناك توا..

لكني لم أكن إلا هنا أجمع شتات نفسي مستغفرا الله من الشيطان الرجيم أجلس أسجل الخطوط العريضة للدرس القادم بمقر الجالية اللبنانية التي تمثل التجمع العربي الرئيسي بين أهل لاجوس ودكاكينهم الصغيرة وشركاتهم الكبيرة حيث يقيم أصحابها داخل الأحياء الثرية تلك بقلب المدينة..

التعامل مع اللبنانيين له مذاق كالمانجو؛ الكلمات مرنة طرية تنتهي بالتواءات مطاطة.. ولهذا أنتقي لهم درساً خاصاً:

-".. أما اليوم أيها الأخوة المسلمون فإن المجرم منهم عندما يرفع بصره إلى الشمال فيرى سهول لبنان وسورية الخصبة، وإلى الشرق فيجد وهاد الفرات ودجلة الغنية بالمياه والبترول، وإلى الجنوب حيث مناجم سيناء وشريان قناة السويس.. هكذا أيها الأخوة يفكر الواحد منهم ويقول إنه لن تكون لديهم القدرة الكافية على النمو والاستيطان إن لم يسووا كل تلك القضايا من موقع القوة. وهم يرون ألا محالة إجبار العرب والمسلمين، أي نحن، على الخضوع التام لهم.. وفي مدارسهم يُفهمونّ التلاميذ أن خارطة إسرائيل ليست خارطة بلادهم.. يقولون لهم لدينا خارطة أخرى؛ وعليكم أنتم طلبة وشبيبة المدارس اليهودية تجسيدها في الحياة، وعلى الأمة اليهودية توسيع رقعتها من النيل للفرات. أيها المسلمون السنة والشيعة، وأعلم أن بينكم مسيحيين ودروز.. لكني أسأل عمّا يعنيه السلام هكذا.. أقول لكم إنه لا سلام ولا عهود. إن السلام على هذه الشاكلة محض استسلام، والمعاهدات خيانة.. في حديث لأحد المجرمين يتفاخر زاعماً أن العربي منا عندما يرى فوهة البندقية يولي الأدبار هارباً.. ويتبجح بأنه لو لم تكن هناك الأمم المتحدة لكانت قناة السويس منذ زمن طويل في أيديهم.. ولذبّحوا المصريين مثلما ذبحوا هؤلاء اللبنانيين جميعاً؛ هكذا كان المجرم منهم يشير للرؤوس المقطوعة والبطون المبقورة معلناً من فوق دبابته وسط أنقاض بيروت.."-

أين أنت يا سيد.. أجد التشتت يفرق جماع ذهني. ولو كان الآن معي هنا لتعاركنا أو لضحكنا، ومشينا نلعب على شاطئ المحيط..

و أنا أدرك بما يتردد داخلي من هواجس أنّ الأخ السكندري بالسعودية يعرف مكانه. وعندما شجعني على الالتحاق بالرابطة كان يشير من بين همهمته إلى أنني سأجده في موضع ما بلاجوس لكن أحداً لم يكن يدرك ملامحه بالتحديد.. الأخ سيد؛ الشيخ القادم من مرسى مطروح.. نعم، ولا نعرف الآن أين اختفى. وفي السفارة بدا لي أن البعض التقاه في مكان ما، ولا إجابة..

طيب هل أصبحَ حقا شخصا خطرا إلى ذلك الحد؛ وإلا لماذا أخذت المكاتبات تذهب وتعود من الرياض عن موعد انتهاء انتدابي، والرجـوع للمقر الرئيسي بجدة..

و لم يكن السفير سيئاً.. هو مغلوبٌ على أمـره.. موظـف أو مـا أشبه.. أخذني في الأيام الأخيرة مع موكبه لمشـاهدة الأفيـال الضـخمة طيبة القلب، والأسود الجائعة المتحفزة..

انطلقنا في خمس سيارات مجهزة إلى الغابة التي يطلقـون عليهـا حديقة الحيوان المفتوحة. الأشجار سامقة كثيفة تحجب السماء.. الغزلان من بعيد تنطلق راكضة.. النمور المرقطة تكشر عن أنيابها قليلاً قبـل أن تشيعنا خائبة الرجاء متلفتة بين الفينة والأخرى نحـو موكبنـا الحديـدي المصفح، وقد تيقنت من جبن الإنسان الذي لا يترجل أو يتـرك أسـلحته في بيتها الأخضر هذا..

جاء موعد الرحيل بعد خطبة عيد الأضـحى المبـارك.. السـاحة مفروشة بالنجيل الأخضر وسط لاجوس حيث توافد الآلاف من الأحيـاء الفقيرة. وردَّدتْ العشرات من مكبرات الصوت النداء.. هزَّت صـيحات الله أكبر الله أكبر ولله الحمد قلب العاصمة..

دعوتُ فيما دعوت على أمريكا بالفناء، وعلى الصهيونية بالهزيمة:

–"آميـ.........ـــن.."–

تردد صفوف المصلين ورائي..

ويتحرك وجهي عنوة نحو النافذة لأعرف إن كنت الآن ملقى علـى فراش بالطابق الخامس في مرسى مطروح، أم أنني ما زلت على سرير السفارة حيث أطباق الفاكهة من حولي.. ومن حـولي فـروع الشـجر المحملة بالثمار والزهور والروائح الطيبة.. لكن الدخان يمـلأ الشـقة.. طـرقٌ شديد.. خبط، وخبط:

–"يا شيخ افتح.. افتح.. الشقة تحترق!"–

4

يبدو أنه لم يكن من الصواب أبداً العودة إلى مرسى مطروح؛ لمصر..

إذا كانت الجبال الشوهاء والوديان المتلولبة في آسيا وأفريقيا وأوربا قد أنزفتْ عَرَقِي، وامْتصت قوتي؛ فإن روحي تقطّعت أربعاً في غرف التحقيق وصناديق الحبس الانفرادي عقب العودة؛ قبْلَ مباشرة كانت المسلخة..

أدْركُ اليوم أن الأخوة الذين لم يغادروا أفغانستان أو الذين ارتحلوا عنها لباكستان والسودان وألمانيا قد نجوا بأنفسهم حيث يواصلون الفرار من حدود إلى حدود. وإذا ما دخلوا مطاراً من المطارات لا يقدمون جوازات السفر لمنافذ الدخول والخروج إلا بأسماء مستعارة..

الله يلعن الحنين..

فمنذ اليوم الأول في معسكر جاجيمدان أنشأ الشوقُ للعودة إلى مرسى مطروح يرفع رأسه شاكياً ثم بمرور الأيام تعالى نحيبه في قلبي باكياً كمن فقد أمه، وعبثاً أصرخُ فيه أنْ أسكتْ فلا يرد إلا بالعويل والتمرغ في التراب متمرداً بلا رادع..

و اليوم حيث انتهى أمري معلقاً في الطابق الخامس أمدُّ يدي في قلبي لأوقظه وأهزه أن يصحو.. أجر رأسه إلى النافذة، وأقول له ها قد عدنا إلى مرسى مطروح انظر لشوارعها الخربة ومحلاتها المهجورة ومساجدها التي احترفوا فيها الكذب والرياء..

هيا انظر، وأخبرني إن كنت الآن قد انفطمت واسترحت؛ ولا يجاوبني.. فقط يفتح واحدة من عينيه ثم يغمضها مستغرقاً في رقدته لا يفيق.. يعذبني ضاغطاً بثقله على قلبي المريض فأغلق النافذة كأني مازلتُ هناك أمام الأفق المسدود مُختبئاً بالتلال الجرداء يقصفني الطيران السوفيتي ليل نهار..

.. كنا تسعة؛ أنا ومصري آخر، وليبيّن، وجزائريّن، وفلسطيني، وعراقي، وسعودي تحت إمرة قوات عبد رب الرسول سيّاف. في هذاك النهار تسلم كلٌّ منا بطانية وبعض المتعلقات المهمة مثل الزمزمية وغيرها.. استرحنا في مضيفة فقيرة طعامنا الطماطم بالخبز الجاف مثل خبز بيشاور إلا أنه مستطيل، ومشرَّحٌ بالسكين..

في اليوم الثالث جاءنا عبد رب الرسول نفسه تسبقه مهابته. وقف بيننا.. قامته متوسطة.. يرتدي عمامة مبرقشة بالأبيض والأسود على صدره لحية مدورة وأحزمة رصاص، وخلف كتفه امتدت ماسورة سلاحه الخاص بالإضافة لمواسير أسلحة الحرس.. هنأنا بسلامة الوصول، وألقى علينا محاضرات شارك فيها، إن كنتُ لم أنسَ، حكمتيار وبعض دعاة السنة والجماعة من المجاهدين العرب.. كان سياف يشرح بالعربية وشعر ذقنه يهتز على صدره.. لا أذكر التفاصيل بالضبط الآن، لكن السفر كان يأخذني بعيداً.. إلى جبال نجد والكفار يتربصون بنا.. صوت السيوف أسمعه حمحمة الخيول تدفع الدم في عروقي حيث ركبنا كلنا سيارة لاندكروزر مسلحة مخترقين الشّعاب والدروب مخلفين وراءنا القمم الأخيرة للجبال الباكستانية منزلقين عبر الوهاد الضيقة لقمم الجبال الأفغانية.. كلما سألنا قائد القافلة عن موقع المعسكر يجيبنا:

–"قريب يا شيخ، قريب.."–

و لم يكن قريبا أبداً..

بعد ساعتين تعطلت السيارة؛ فمشينا على أقدامنا نصف نهار عبر مدقات وعرة تتخللها تأكيدات القائد بأنه قريب يا شيخ.. قريب، ونحن نمشي على الحواف الحادة حيناً، والمنبسطة تغطيها رؤوس الشوك الجاف كالإبر حيناً آخر.. ومن فوقها لاحت خطوط باهتة لسلاسل جبلية وسهوب مفتوحة بلا نهاية. وفجأة نبهنا القائد:

–"فليأخذ كل واحد حذره.. الآن قدامنا حقل ألغام. هيا.. قريب يا شيخ.."–

و أشار لقمةٍ تناطح السماء:

-"هنااااك معسكر التدريب.."-

اختفى الجزائريان.. إنهما يتعاركان بالمؤخرة أو يتجادلان بلهجتهما المحلية حول أمر ما. أخذ السعودي يحثهما على مواصلة السير، ثم عاد ووقف معهما محركاً ذراعيه في الهواء غاضباً..

أشرقتْ الشمس في اليوم التالي لنجد أنفسنا داخل المقر الجديد؛ حجرات مبنية بالطوب اللبن تداوم على زيارتها العقارب والثعابين وموريتاني أو ما نعرف له مستقرا يظهر في موعد نوبته لحراسة الدبابات الثلاث الموجودة حذاء السور قبل أن يتسلم حصته من الخبز والطماطم المطبوخة، ويتوارى منزلقا في المنحدر الصخري..

قد يكون عددنا قد وصل لسبعين مجاهدا.. بنا وبمن وجدناهم من الأخوة هذا إذا وضعنا في الحسبان الأخ غريب الأطوار الذي يشبه الجواسيس أو مخبري المباحث. لم تكن معه أية أوراق تثبت شخصيته، ولا يتحدث غير الأفغانية:

-"أنا أخوكم؛ مسلم.."-

و لا يزيد.. يقوم بصيانة الأسلحة أمام طاولة الخشب المصبوغ بالزيت والشحوم السوداء. يخلع قميصه بعد انتهاء التدريبات مساء كل نهار منكباً على إصلاح الكلاشنكوف والآر بي جي.. ونتعثر به صباحاً يتجول قرب مخزن الأسلحة منتظرا فحص أي عطل جديد.. وأقول إنه ربما كان في النهاية يحمل رتبة مهمة، وستكون النهاية على يديه.. وأسخر من تلك الهواجس؛ فما أدراه بمن أكون أو من أين ألقت بي المقادير.. ثم إنه أصلاً لا يسأل..

في تلك الأيام اكتشفنا نحن العرب أنه لا يمكننا الاستمرار في خوض التدريبات ونقل المؤن للمعسكر نهاراً، وهرش آثار لسع الزواحف وهش الهوام الطيارة ليلاً.. كما أن جميعنا لا يفقه من اللغة الأفغانية حرفا..

سيارات اللاندكروزر تفرغ حمولتها عند أقدام الجبل تحتنـــا، وقـــد بدت من البعيد مثل طبق الطعام الصغير.. تمر ساعات قبـــل أن تبـــرز نحونا رؤوس المجاهدين يبلـــل العـــرق والتعـــب ملابســـهم وجبـــاههم وأسلحتهم..

و أحيانا يصل إلينا آخرون على صهوات الجياد. قال حكمتيار:

-"كل بيت فيه اليوم شهيد.. الحرب مع الـــروس طويلـــة، بـــدأناها بالسكاكين والمسدسات في ظروف لم يكن الواحد منا يحوز رغيف الخبز الذي يقيم أوده، والساعة تغير الحال بفضلٍ من الله.. حتى مدافع البـــي إم ديوازدة أصبحت معنا. الأخوة في الخارج يقفون خير وقفـــة أبقـــاهم الله وحماهم.."-

يمزق قلب الدين حكمتيار الذي يربو عمره عن الثلاثين سنة بقليـــل، قلبي بالشوق لبحر مرسى مطروح حين يسرد ذكرياتـــه عـــن رحـــلات الصيد مع والده عند نهر جيحون.. عند موطنه في مديرية "إمام صاحب" بولاية قندز.. يشطر قلبي بسكين وهو يسرد أيام دراســـته فـــي مدرســـة شيرخان الثانوية فيفيض صدري بالحنين للمدرسة الثانوية فـــي مرســـى مطروح، ثم حين يحكي عن انتقاله إلى المدينة الكبيرة؛ كـــابول ليلتحـــق بالجامعة، كما فعلت أنا وسيد حين انطلقنا إلى جامعـــة الإســـكندرية، إذ كان، مثلنا، لا يطيق الشيوعيين الملاحدة يهاجمهم مـــن خـــلال "جمعيـــة خدام الفرقان"، و"حركة الشباب المسلم".. وربما لهذا السبب اعتقل، مثلما اعتقلت أنا.. هو قال، وهو يمسح لحيته، إنه تغلب على السجن بالفرار.. مثلما فررت أنا وسيد، وهاجر من جامعته وبلاده.. تسلق الجبال وحفيت قدماه في الوديان في الطريق لباكستان، مثلما هاجرنا نحن مصـــر، بـــل فعل هو كما فعل سيد بالضبط، إذ كل منهما لم يتمكن من إتمام دراســـته بالجامعة.. يروي لنا عن الأيام العصيبة التي تسلل فيهـــا لـــيلاً ملاحقـــا تُسلمه مطاردات الملك محمد ظاهر شاه إلى مطاردات الرئيس الانقلابـــي الجديد محمد داود.. قال:

_ "قبضت السلطات على عبد رب الرسول سياف.. لكنه نجا من مذبحة خليفة داود، الرئيس تاراكي.. تاراكي قتل داود.. وأمر بإعدام المعتقلين السياسيين الأعضاء بالجمعية الإسلامية.. سيّاف سلّمه الله من رصاص القتلة، إلى أن خرج من السجن أيام الرئيس بابرك.."–

–"وماذا فعلت..؟"–

سأل أخونا السعودي وكأنه كان يعرف الإجابة مسبقاً ويريد على ما يبدو أن نسمعها جميعاً من هذا القائد الأفغاني نفسه.. ثم، بعد أن تطلع لوجوهنا، سأل مرة أخرى:

–".. أنت لم تيأس من رحمة الله بل جاهدت وجمعت الأخوة، كيف كان ذلك؟"–

لم يشأ حكمتيار شرح التفاصيل، لكنه قد يكون أراد إخفاء أشياء كان يرى أنه لا لزوم لذكرها أمام شبان متحمسين للموت في سبيل الله مثلنا.. ومرّ هذا الرجل بتجارب عديدة عرفنا شذرات منها على فترات متفرقة وفي مناسبات مختلفة، سواء حين أعاد، مع برهان الدين رباني، تنظيم الجمعية الإسلامية الأفغانية بمنطقة بيشاور، أو حين افترقا لأسباب لم نعلمها أبداً، أو حتى حين بدأ حكمتيار في السعي مجدداً لجمع أبناء قندز وبغلان وننجرهار، حول الدعوة والجهاد ضد الكافرين.. المهم أن وجود ذلك الرجل في الميدان متنقلاً بين جبهات القتال زادنا طمأنينة وعزماً على الجهاد.. بل استجاب لطلبنا نحن العرب بالانتقال إلى تجمعات المأسدة حيث وجدنا ثمة معسكر جيش حقيقي يديره الأخوة القادمون من الدول العربية بنظام صارم..

العرب أذكى من الأفغان.. أو ربما أكثر وعياً ومكراً أو.. قد يكون ذلك بسبب قدرتهم على توفير الأسلحة والذخيرة بلا أول ولا آخر..

هنا فقط تمتد نحو ألف خيمة أو يزيد. تتسع الواحدة منها لخمسة أفراد. وحالما انخرطنا في التدريبات، ومع ذلك كان الأخوان الجزائريان يحتدان ولا يتوقفان إلا عندما ينهرهما الأخ السعودي الذي ظل طوال

الرحلة، وأيام الكر والفر تلك، يعرف عنهما أكثر مما نعرف قبل أن يختفوا جميعاً في خضم المعارك سواء بمواجهة الموت أو العودة لمعتقلات بلادهم إن كان ظني صحيحاً فكأني ما التقيت بهم يوماً، ولا أكلتُ أو صليتُ جماعة معهم ناهيك عن الملاحقات والتحقيقات في الفنادق، والطرق السريعة..

كان معسكر العرب هو خير مكان يمكن العثور فيه على سيد أو، على الأقل، معرفة الوجهة التي سلكها. أخذتُ أتقصى أثره منذ اليوم الأول في المأسدة:

- "المجاهد سيد المصري.."

أجاب أخٌ أصهب اللحية معمم على الطريقة الأفغانية يبدو أنه كان من البحيرة أو كفر الشيخ أو ما شابه، وأشار بطول ذراعه لمقبرة ناتئة فوق مرتفع في الجنوب، وكنت أحسبه يعرف ما حدث..

هل يا ترى مشيت أم جريت حتى وصلت إليها..

السماء تبكي فوق القبور النائمة..

لقد حاول سيد العودة عبر الحدود الباكستانية إلا أن المسالك وقتها لم تكن آمنة؛ فاستكمل الحرب في صفوف المجاهدين.. وكان كل قادة الجبهات الأمامية يريدونه معهم؛ فهو مقدام لا يتراجع قيد أنملة حتى علِقَ داخل حقل ألغام..

عبثاً حاولوا إنقاذه..

كان معه ثلاثة؛ عربيان وأفغاني يستكشفون أحد المواقع الروسية المتقدمة..

هكذا تناثر جسده إلى مزق جمعها الأخوة..

صلوا عليه، ودفنوه هناك..

الشمس ترسل أشعتها الحمراء الأخيرة.. سلَّمتُ على قبره.. جثوت على ركبتي أدعو له؛ وفجأة انفجرتُ باكياً كطفل. أتحدث إليه فلا يرد. أسائله فيحرمني الجواب.. أحرثُ بأظافري كومة التراب أستصرخُ قطعة

الحجارة المكتوب عليها بالعربية الشهيد سيد المصري. أذكـّـرهُ بأيامنا القديمة.. أردد عند رأسه الآيات والأناشيد التي حفظناهـا سـويا؛ فخـيَّمَ الظلام بينما أكلمُ نفسي جالساً تملكني الذعر والخـوف.. توكـأتُ علـى ماسورة الكلاشنكوف.. عدتُ أجرجر خطواتي؛ فإذا التفتُّ رأيتُ مدفنـه يشعُّ نورا.. وفي الفجر أيقظني البرد. توضأت مشتت الذهن قائمـاً مـع المصلين لا أدري إن كنت في الركعة الأولى أو الثانية.. حييتُ مختتمـاً. أخرجتُ المصحف الصغير قرأتُ عدة آيـات؛ فغابـت الحـروف وراء الدموع، وعاودني غصباً عني البكاء:

–".. ومن قال لك إن سيد قد استشهد.. سيد يقود مائتي مجاهد كأنه من الصحابة الأقدمين.. تلك الجبال تراها قريبة لكنها على مسيرة ثلاثـة أيام خبباً؛ في المقدمة هنااالك.."–

وجدتُ أخاً صغير السن من أمريٍ المعسكر يربت على كتفي..

و أؤكد له أن ثمة جبَّانة.. الجبَّانة هناك توجد، وقبـر سـيد فيهـا رأيته..

و أيهم.. العشرات من المتطوعين يتخذون الاسم نفسه؛ لكـن سـيد الذي أعدت وصفه وتفصيله مازال هنا يقاتل العدو ويكبده الخسائر..

ثم هل هناك مقبرة حقاً فوق ذلك المرتقي..

سجلتُ اسمي في قائمة الصاعقة التي أعدها الأخ الصغير ذاته على عجل؛ فقد طمأنني، وزادني ثقة، وأراح نفسي، وأزال الغمة عـن قلبـي حين وعدني بلقاء سيد قريباً على الجبهة. وقبل زوال الشمس أمسيتُ مع تسعة عشر مجاهداً نتدرب في الميدان تحت الرصاص الحـي وقصـف الطائرات، ونحن نتقدم يوماً بعد يوم إلى الأمام..

و أخيراً نزلنا بوادٍ أسود عميق..

الخيام الثلاثة نصبناها داخل فالق ينضح بالمـاء. وبـالقرب مـن موقعنا ينساب نهير ينحدر من الجبال الشمالية ويصبُّ في الجانب الآخر بمكان ما عند الجنود الشيوعيين المرابطين تحت الأفق. ومن هنا أيضـاً

يصلنا صوت الفرقعات المتقطعة للمناوشات التي يقوم بها جماعتنا ضد شاحنات الإمداد الروسية التي تلوح بين وقتٍ وآخر..

على أية حال شرعنا في العمل قبلما نتبلـّغ بلقمة.. أحطنا الخيام بسور ارتفاعه نصف قامة رَجُلٍ تحسبا لأي فيضان مفاجئ.. ثم زرعنا حوله الأسلاك الشائكة والألغام المضادة للأفراد. خلعنا الأسمال الأفغانية أدخلنا سيقاننا وأذرعنا في الملابس الحربية المتباينة؛ سراويل وقمصان يعود بعضها للجيش السوفيتي، وبعضها لقوات الحكومة الأفغانية العميلة للشيوعيين، وأحذية عسكرية أمريكية لا يعلم إلا الله كيف وصلت إلينا.. انكفأتْ العمائم على رؤوسنا الحليقة.. ربطنا البيادات حول أقدامنا حتى عصرناها وأفرغناها من الدم والعَرَق.. أسكتنا فيها كل عرق نابض؛ فكأنها الحجارة أو أشد بأسا:

– "إستعداااا.. دن؛ ابدأ.."–

قائدنا المجاهد الصغير أصبح من طول البقاء شبيهاً بالأفغان خبيراً يعرف من أين يأتي الجبال ينزلق خفيفاً من الشقوق يتخطى المنحدرات الوعرة بين الأجمات النابتة يكمن في الوهاد السوداء دون أن تكشف موقعه الطائرات المغيرة أو تصيبه نيران المدفعية الثقيلة..

صاح فينا أنْ انتباه..

وبدأتْ التدريبات..

نقفز كالأسود الجائعة تطارد غزالاً فوق السفح نلقي بأنفسنا من العلياء مَنْ يتراخى أو يتردد يئز حول عمائمنا الرصاص نطير من جانب التبة نتدحرج لقعر الوادي على ظهورنا نرفع جذوع النخيل نجري بها مرتدّين صعوداً إلى القمة مرة أخرى:

–"هؤلاء الجرحى إخوانكم سقطوا أمامكم تـواً؛ هيا.. جذوووع احمل.."–

يستصرخنا المدرب؛ فنزأر مندفعين بأثقالنا خفافا:

–"الله أكبر الله أكبر.."–

بالديناميت فتحنا في جدار صخري أصم كهفين كبيرين.. الأول ستَّـف ْـنـَـا فيه الذخيرة، والثاني استعملناه كملجأ للطوارئ..

وبعد يومين رصد العدو موقعنا..

أرسل أربع طائرات صباحاً؛ فأبعدها الأخوة المرابطون عند التلال المجاورة بصواريخ ستينجر.. ربما كان سيد رابضاً يتربص معهم لصد الهجمات المضادة.. أو لعله بمكان قريب من هنا؛ فنلتقي غداً أو بعد غدٍ، ولا أدري..

كانت أياماً ممتلئة بكراتينَ تحملُ أسماء لهيئات إسلامية مختلفة.. منها تخرج معلبات السلمون واللحم الحلال والفول المدمس المجهز بزيت الزيتون والكمون والملح..

الإفطار بعد صلاة الفجر له طعم آخر..

عقب شروق الشمس تلعلع طلقات الكلاشنكوف تصيب الأهداف تمزع قلب كل صفيحة تشق الحجر كل راقد على أرض الوادي تقلبه فتحيله تراباً نضربُ واقفين جالسين أو راقدين على جنوبنا نزحف مشواراً طويلاً يصيح القائد بغتة فنهب مندفعين نصبُّ النيران علي رأس العدو بلا رحمة تدوي الطلقات تتكتك نافضة مواسير البنادق أمامنا..

ولا نستريح أبداً..

في وقت القيلولة ننظم مباراة لاصطياد الصناديق الفارغة يطوحها أحدنا في الهواء مَنْ ينالها بالطلقة الأولى له مئة روبية باكستانية أو خمسين إذا أصابها من الرصاصة الثانية..

كان القائد يدفع بسخاء حتى قرَّرَ:

-"غداً نبدأ مع القنابل اليدوية.."-

أنْ تشدَّ فتيل التفجير في نفس الوقت الذي تحدد فيه مسافة الهدف داخل عقلك تطوح بيدك خلف رأسك تخطو نصف خطوة للأمام قبلما تدفع بجسدك بل بكل قوة تطلق معه ذراعك على طولها تقذف بالقنبلة تصيب كبد الهدف الذي حددته في اللحظة ذاتها..

لم تكن العملية سهلة أبدا. أي خطأ أو تردد أو ارتباك في أقل من طرفة العين تكون رأسك قد طارت عن كتفيك مع رؤوس من بجوارك أيضا..

في الأسبوع التالي وصلت شاحنة محملة بأسلحة تبرق تحت الشمس تفتح الشهية..

خمسة رشاشات من ماركة مات الفرنسي، وسبع من العوزي الإسرائيلي، بالإضافة لنحو ثلاثين قطعة مدفع خفيف ماركة بورسعيد الدفاعي سريع الطلقات..

أيام أخرى، وتهدر شاحنة بالمزيد من الجرينوف المزود بشريط يسع مئة طلقة حتى امتلأ الكهف بالآلاف مما نحتاجه وأكثر. وصارت الغارات أشد ضراوة..

تحوم الطائرات في محاولات حثيثة لتفادي نيران المدفعية من قمم الجبال المجاورة حتى جاءتنا الإمدادات الحقيقية؛ مدفع عيار اثنين وثمانين ملليمترا، واثنان عيار سبعة وعشرين ملليمترا، وأعطى ذلك لقوتنا قوة..

و هكذا تواصلت التدريبات من جديد..

تبعتها تمرينات مرهقة على فك الألغام المضادة للأفراد، واكتشاف الرسائل، والأقلام المفخخة..

تغيَّرَ لون الطعام أيضا؛ عرفنا الشحم المطبوخ بالطماطم طازجاً نشمه على النار ينضج نافخاً بخاره ساعة الظهر..

و أحيانا تولم لنا إحدى القبائل الأفغانية عِجْلاً أو مجموعة خراف صغيرة.. وبعد صلاة العشاء يقلب شيخ القبيلة درسنا الديني ليعدد مساوئ حكومة نجيب الله:

–".. الذي أدخلَ السوفييت بلادنا، وكأننا جزء من بلاد الشيوعيين. أولادنا اليوم يجاهدون ضد القوات الحكومية من جانب، والغزو الأجنبي من جانب آخر فأي مشقة.."–

تعج بلاد الأفغان بشتى القضايا التي لم أفهم لها مبتدأ، ولا خبراً..

أساطير تتصاعد كالدخان من أفواه الوديان، والجبال.. تعلق في الفضاء أمامي، وورائي؛ فأستدير متلفتاً هنا، وهناك لأمسك بأول الخيط فلا أجد له طرفاً.. ومع ذلك أحببتُ معسكرنا الجديد أيّما حب؛ الآفاق الضبابية كلها تقول بأنّ سيد في مكان ما هنا لا شك..

توثقتْ الصلة فيما بيني، وشمس العصاري، وزقزقة الكروان، وشجرة التوت المجاورة للشلال الجنوبي.. أحببتُ حتى شوك المُريسر، وجذوع النخيل الثقيلة. أنهينا وقتها تدريب الحرب النظامية، وفتحنا فصولاً طويلة أخرى من التمرينات الشاقة على حرب العصابات؛ الاشتباك بالأيدي.. بالسونكي.. كيفية تفادي طعنات الخصم مستخدمين كل أنواع اللعبات الرياضية من الكونغ فو إلى الاختباء كالحرباء لا يرانا العدو بلون التراب، والعشب نكون:

-"قد تجدون بينكم عميلاً للمخابرات.. إذا اكتشفتموه؛ فمصيره الموت هنا.. أما جثته فطعام لأكلة الجيف يصير.. تعرفونها هذه الأرض لا يُدفن فيها غير الشهداء.."-

يذكرنا قائد المعسكر بالتحذيرات كل يومين أو ثلاثة..

يوجد مُخبرون.. نعم؛ لكن من أي دولة، ولمن يعملون، لا يمكن أن تعرف..

عرب ينقلون خططنا للحكومة الأفغانية، ومعارضين أفغان على صلة بدبلوماسيين عرب، وروس يبلغون المخابرات الأمريكية عن المجاهدين الفلسطينيين.. أما عملاء إسرائيل فكانوا ينشطون على الحدود في بيشاور، والمضايف العربية حيث مقر استقبال المجاهدين من بلادهم، ومقر عودتهم لبلاد لا يعلمها إلا الموساد.. طاخ.. طاخ.. هذا خبط على الباب أم دوي المدفعية الثقيلة.. رائحة براد الشاي يحترق هذا أم أنه رائحة البارود..

5

.. أتنصتُ للفضاء الرحيب عند انحدار الشمس بقعة حمراء تتوسط الجلد الأصفر الرمادي المشدود على الحواف الغربية فأسمعُ المخرج الأصلع في هدأة الوحدة بعد نهار التدريبات الملبد بصيحات الأوامر المشحون بفرقعات الذخيرة بعيداً عن مَجلس الأخوة أمشي كالنائم فيمشي سيد جواري في طريقنا لمسرح قصر الثقافة..

يرتفع صوت المخرج يتردد غير آبه لمسحة الغروب وغبش المساء على الخشبة الواسعة العريضة وعلى الستارة الخلفية مترامية الأطراف يقف مطوحاً رأسه يميناً وشمالاً يتفرّسُ وجهي الصبياني المذعور من زعيقه المتواصل ومما يحمله من أوراق وكوب شاي ومما حولنا من المقاعد المصفوفة المتراصة الخاوية.. يصدر تعليماته الصارمة:

– "افهم، أنت الآن في المسرحية تنسى تماماً اسمك.. انتباه؛ أنت الجندي مجند مَنْ..؟"–

فأهبُ متنبهاً للمرة العشرين:

–"بحيري.."–

ثم يلتفت إلى سيد بالسؤال، فيجيبه:

–"الجندي مجند غريب، يا أفندم.."–

و على هذا النهج.. بهذين اللقبين عشنا ستة أشهر من الليالي مع المخرج..

في الصباح ينادينا مدرسو الصف الثاني الثانوي باسمينا الحقيقيين، وفي المساء نتحول بين أروقة المسرح إلى بحيري وغريب حتى حفظنا كل حركاتهما وسكناتهما وما بينهما من ارتعاشاتٍ في القلب والحشا..

قبيل موعد البروفة النهائية التي تسبق يوم العرض المقرر كان المخرج يطرف بعينيه الدامعتين تحت صلعته المضيئة.. هي نفس الصلعة التي أحاطت بها خمس رؤوس حليقة لأناس بدا أنهم مهمون..

تحدثوا في البداية حديثاً ودياً خافتاً ثم رفعَ أحدهم عقيرته متوعداً فيما كان الآخرون يضغطون على أسنانهم لا يجدون صبراً. جرى ذلك بسرعة أمام الباب الخارجي لركن المسرح الملحق بمبنى قصر الثقافة. كنا نحن التلاميذ أعضاء فرقة التمثيل نقف كأبناء الأب المديون الذي يتفاوض مع دائنيه على عتبة البيت. انصرفوا على عجلٍ كما جاءوا، واندفعنا نحوه في جمهرة صغيرة نريد أن نسأله عمَّن هم هؤلاء، وما إذا كانوا يريدون مشاهدة العرض غداً أم ماذا. تطلَّعَ بصلعته إلى وجوهنا الجافلة قليلاً ثم نكّسَ رأسه، وأجّلَ بروفة هذه الليلة إلى اليوم التالي؛ أي في الوقت الوجيز الذي سيسبق الموعد المُعْلَنَ للافتتاح الرسمي مساء الغد، وهذا أمرٌ لم يكن ليحدث.. كما أنه لم يحدث؛ فقد اختفى، ولم نعثر له على أثر حينذاك.. وبدلاً منه جاء مدير قصر الثقافة القصير البدين ليلقي نظرة ساخرة على جمْعِنا الصغير المنتظر بباب المسرح المغلق تحت شمس آخر النهار.. مفاتيحه ترنُّ بين أصابعه.. توجّه لمكتبه في الطابق العلوي، بعدما نصحنا بالانصراف، قائلاً بلهجة قاطعة:

-"التفتوا لدروسكم فقط.."-

.. وبدأ راقص المسرحية الهواري يضربُ الأرض بقدميه يعيد بجسده الإلتواءات والوثبات التي طالما كررها في بروفات التمثيل.. كان له دور رئيسي في سياق المسرحية.. مع إيقاعات أغنية وآه يا عبد الودود.. يا رابض على الحدود..

من وراء الستارة البيضاء يظهر ظله حيث تكون الإضاءة مسلطة عليه من الخلف.. من الكواليس. تقترب بقعة الضوء منه فيزداد ظل جسمه طولاً وعرضاً على الجدار القماشي الممتد بالمؤخرة. أما في المقدمة تحت الأنوار الخافتة أمام الجمهور مباشرة، فأكونُ أنا الجندي مجند بحيري ملطخا بالأصباغ كي أبدو منهكاً من الجوع والعطش بعد أن عبرتُ وأوغلتُ في العبور جرياً؛ فأسقط.. أزحفُ على بطني بينما الأغنية ورقصة الهواري تملآن جنبات المسرح بالألم والشجن:

-"عساك تكون مليح.."-

يرفرف الظل في الخلفية كأنه يشبُّ إلى العُلا، وهنا لابد أن أهمد منكفئاً على وجهي متشبثاً بما تحتي من تراب، و.. تصمت الموسيقى فجأة تنطفئ الكشافات البيضاء والحمراء والصفراء مرة واحدة، ولا يتبقى منها غير شعاع واهن يأتي من بعيد كضوء القمر، ومعه يصل صوت الجندي مجند غريب خافتاً يناديني من وراء الأفق..

في هذه اللحظة يقتحم سبعة جنود يرتدون زي الجيش الإسرائيلي خشبة المسرح مدججين بالعتاد يديرون بدني بأحذيتهم يغرزون مواسير بنادقهم في صدري وبطني.. ويعترض أحدهم:

-"لا.. انزعوا المعلومات من رأسه أولاً.."-

.. هكذا كان المخرج الأصلع يدربنا، ويزيد في تدريبنا ليلة بعد ليلة..

يقذف من يتمادى في الخطأ بفنجان القهوة بالشلوت يضرب الأغبياء منا ليتحولوا لأذكياء فيتحولون، ولا أعرف كيف..

في الأيام العادية يجمعنا مساءً.. يغلق علينا باب المسرح..

البروفات تستمر لما بعد العشاء..

أما في أيام الجُمَع فيعتقلنا مع صفوف المقاعد الشاغرة من الصباح لليل يشتري لنا كيساً منتفخاً بأرغفة الخبز مع قالب كبير من الجبن الفلاحي الماسخ يضعه في قصعة واسعة يقطّع عليه الطماطم ثم الخيار فالفلفل الأخضر يرشه بالملح بزيت الزيتون يعجنه يوزع الأرغفة:

-"هلمُّوا؛ كُلوا.."-

أثناء استراحة ما بعد الغداء حيث نشرب الشاي الأسود يتحول المخرج إلى رجلٍ لم نعرفه من قبل؛ يستدير برأسه يتفحصنا ملياً كمن يرانا لأول وهلة مندهشاً يتبسم بكلمات مدغمة يتمتم لنفسه بين الفينة والأخرى.. يسأله أحدنا فيرد باقتضاب:

-"لا أقصد بتلك السنوات مسرحيتنا هذه..أعني أنها أمامكم.. مازال هناك ما هو قادم، وكل منكم.. هه؛ يكبر.."-

لقد رأينا منه آخر ما رأينا صلعته، وقد انطفأت بين رؤوس مَنْ تحاوطوه، ثم انصرفوا بعدما همسوا في أذنيه وزأروا..

أنظرُ لجسدي المسجى فوق السرير وحده بالطابق الخامس في شقة بمرسى مطروح لا يدخلها عدوٌ ولا حبيب.. أتطلعُ إليه أسألُ إن كنتُ الآن في الحقيقة نائماً أم مستيقظاً أم ما بين بين.. أتفرّسُ في الأرجاء المظلمة أقولُ ها هو بدني العاري سيمرُ مؤرجحاً أطرافه بين دورة المياه والمطبخ يلوك المكرونة في فمه يُعِدُّ الشاي.. رأسي أعصره أبكي فينساب الدم ساخناً من العينين.. وجهي أتلمسه قطعة قطعة؛ فمَنْ يخبرني إنْ كنتُ الآن في الحقيقة معلقا على جبل جاجيمدان أم على شارع الإسكندرية أم على طاولة الصعق بالكهرباء..

و أتلفتُ لأستفيق لنفسي..

ها أنا ذا قد دربتُ ذاكرتي، وحشوتُ الفراغات داخلها بقطن المرتبة والفُوَط المتاحة، ونجحتُ..

ربما لم أنجح بالضبط.. فهُمْ لو كانوا قد اطلعوا على التقرير لجاءوا..

أهرعُ للنافذة فلا أرى أي مخبرين؛ طيب..

و الحين أين وضعتُ علبة السجائر. إنها هناك لا ريب.. نعم؛ فأين اختفى تاركاً فرقتنا المسرحية العزيزة؛ فمن غيره لا نور وجهك رأيتُ يا فايزة، ولا امتدت يدك ليدي، ولا من خلف الكواليس أقبلتِ بثوبك الفلاحي الأخضر ينعكس عليه النور ويشعُّ من أصباغ الماكياج وكحل العينين الواسعتين الدامعتين حزناً على فراق الجندي مجند بحيري..

تسألين في صمت كالكلام الحزين.. صمت رسمه مخرجنا الأصلع على مدى الشهور، وفي الخطوة التالية من المفترض أن أفتح فمي ولا أقول شيئا.. أنْ أستسلم لكفيك تمسحان مني الخدين والعنق.. أتراجعُ..

نعم؛ كما أراد المخرج.. أتراجعُ جالسا على الدرج الخشبي مأخوذا بلحظات الوداع؛ فتجلسين أصابعك في أصابعي تتشبثين بي.. تدفعينني لمركز التدريب.. عيناكِ في عينيَّ.. لحظات، ويُغيِّبُنا العناقُ الطويلُ في فضائه ننتفضُ فجأة.. نعم؛ كما أراد المخرج.. يوقظنا غريب.. وأحسنَ سيد تمثيل المشهد حيث يرتفع صوته من خلف الكواليس ضاربا خطواته بقوة في طريقه لخشبة المسرح.. هنا كان لا بد أنْ تنهضي يا فايزة مذعورة تلملمين أطراف شعرك تحت المنديل.. وأسبقه بالجواب:

–"أنا هنا.. سنمضي حالاً إن كنت جاهزا للسفر.."–

هل كان سيد يريد أن يعلم ما طيب العناق.. أنْ يدري كيف تكون غفوة العصر بين السهوب الربيعية.. بين أحضان فايزة؛ لكنه لم يسأل، وربما لم يجرب، ولم يعرف أبداً..

يبقى السؤالُ يراوح على طرف لسانه ثم يتراجع لِحُلْقُومِهِ.. وبعد أسابيع سقط السؤال ذاته ليستقرَّ في مكنون قلبه.. لم يبح به.. ومع ذلك ظل هو غريب، وأنا بحيري تتبدل بنا الأيام، ولا نجدها بيننا كأنها كانت حقاً هي ذاتها بثوبها الأخضر ذاك، وكأننا كنا حقاً جنديين على الجبهة، ولم نكن غير أن الشوقَ يعتصرني بحثاً عنها بطول الشوارع وعرضها، فلا أشمُّ ريحها كالمغضوب عليه.. المسرحُ غُلِّقَتْ أبوابه؛ فأين هي الآن، أين..

يحملق سيد غير مصدق كأنه سمع السؤال من بين طيات الموج المتقلب واقفين فوق الصخور سوياً.. أظن أحيانا أن ذلك كان شتاء، ومرات أخرى أقول إننا كنا لا بدَّ في الصيف أو ما بين هذا وذاك من شهور الإنقلابيْن؛ فهكذا هي مرسى مطروح.. قد تبيت الليلة، والخريف تصفر رياحه من النافذة الغربية، وتصحو على نسيم الربيع ينساب رخاءً يُلاعبُ ستائر الشرفة المفتوحة. هنا بالصخور نأتنس متطلعين لسفن الصيد تغادر خليج روميل المقابل الملتف حتى شاطئ الغرام:

-".. وكأننا أمام قناة السويس لا تنقصنا غير الخنادق.."-

يضحك سيد مازحاً محاولاً طرد ظلال فايزة من حولنا.. ثم يسافر إلى الأفق البعيد؛ فماذا يفتقد هذا البدوي الخشن يُقلِّبُ وجهه في السماء يقيس الريح؛ سرعتها.. برودتها:

-"ستمطر بعد العصر.."-

و الغريب أن رشرشات الماء لا تلبث تتطاير مع الريح الشمالية تضرب جلابيب المصلين، وجدران البيوت تغسلها تكنس الوسخ عن الأرصفة. كان سيد يعرف؛ لكنه لم يتمكن من قياس درجة الدفء والراحة بين ذراعيك يا فايزة.. فهل جرَّب فيما بعد أم تراه قد أدرك ذلك في تلك الأيام ذاتها حيث مرَّ فصلُ البرد بطيئاً ثقيلاً آخره موعد الامتحانات اقترب، وفجأة.. أمام بوابة المدرسة.. في هذا الموضع الذي طالما احترقتُ فيه أنتظرك بلا جدوى يا فايزة.. هنا استحال الرماد لجذوة متقدة إذ أنتِ بين يديَّ تحملين كتبك تحثين زميلتك:

-"حان وقت العودة للبيت؛ تأخرتُ فهيا.."-

هنا التقينا بعد شهور الغياب، وهنا أبصرتُ بعد العمى العينين السوداوين الدامعتين قُدَّامي، وهنا تتفحصينني، وترمقين سيد متحفظة.. مماذا، هه. ترتبكين ثم تتبسمين كأنك ترين النار أحرقتْ قلبي وثيابي. هنيهة، ويأتي صوتك العذب.. ماذا يقول؛ فليقل ما يشاء.. لا يهم غير النبرات تردد خليطاً من الأحرف العذبة الطيبة:

-"زرتُ جدتي بوادي ماجد.. كانت مريضة لكنها رفضت المجيء للعيش معنا في المدينة؛ أنا، وأمي. كانت تبكي، وأمي لا تطيق ذلك.. يعني لا تتحمل بكاء أحد، وجدتي لا تريد أن تبرح خيمتها.. بقيتُ وإياها نرعى غنماتها.. نحلبها، ونتحدث معها أيضاً.. ثم عنَّ لها اصطحابي لسيدي يونس..لم يكن ثمة أي زوَّار حينذاك في غير موعد المولد يعني..الرَّايات الخُضْر ترفرف فوق الحُجرة الصغيرة النابتة بالصحراء الجدباء؛ تعرفونها.. غرفة تساقط عنها الجير الأبيض،

وبداخلها يرقد سيدي يونس في قبر مجلل بالقماش الأخضر. نمنا الليلة جوار الباب هناك أو تظاهرنا بذلك فيما الوديان المزروعة بالحصى وشوك المُرير تصدر أنّاتٍ متوجعة.. تنتحب جدتي على رأس القبر تستعطفه تحت جنح الظلام تقول له يا سيدي يونس بركتك هذي بنت الحبوني.. بنت وليدي.. هاته لها يا سيدي يونس خاطرك. تعبتُ من الدعاء أنا، ولا أبتغي شيئاً؛ لكن ما ذنبها؛ تقول جدتي.. أنظرْ لها يا سيدي يونس بُريكتك.. بنت الحبوني.. الحبوني وليدي إنْ كنت نسيت؛ فانظرْ.. أنت تحسبها نائمة لكن البُنـيَّة تبكي؛ يعني أنا البُـنـَيـَّة.. وتمسح جدتي دموعها بكم ثوبها تصلي الليل تطرد النعاس.. وخلاص؛ ها ها ها.."-

كنا نسير بجوار فايزة نقهقه لمزاحها، ونعتصم بالسكوت لصمتها. نرافقها عبر الأزقة حتى بيتها بالعزبة الغربية.. لم تتوقف عن سرد الحكايا، وكان سيد يعقب مقاطعاً مبدياً الملاحظات على وصفها للوديان المحيطة بحجرة سيدي يونس.. واصَلـَتْ:

-"صحيح لم أكن نائمة.. كما أنني لم أكن أبكي.. أنينُها أفزعني؛ فأنتفضُ أرفعُ الغطاء في هدأة السَّحَر، ولا أراها.. جدتي لا تنام.. تدور تدخل وتخرج من الحجرة التي تفوح منها رائحة الكفن والعطن.. تحملق قليلاً في السواد الملتف تمسح الأرض براحة يدها تفرش أطراف ثوبها الواسع أمامها تسجد مترنمة بما يشبه الآيات أو أسماء النبيين تتوسل حتى الفجر حيث وجدتُ نفسي أهبُّ أصرخ في وجهها ووجه الحمار الذي جاء بنا وبه نعود.. حمارٌ عجوز وُلِدَ معها ويموت معها ويختلف عنها في مسالمته وقلة شكواه لا تسمع له نهيقاً.."-

ضحكتْ ما أطيب ضحكتها.. خصلات شعرها على خدها وعنقها وكتفها انحدرت جدائل فنفضتها، واستدارت ملوحة بيدها لتختفي وراء باب بيتها. ويختتم سيد مثل هذا اليوم الربيعي بالكـَدَر فيزعقُ أنْ هيا؛ ولا يتوقف إلا وأقدامنا عارية مبللة فوق الصخور نجلس متحفزين. هكذا

لا نفترق بعد انتهاء اليوم الدراسي يرافقني مثل ظلي في بيتهم وبيتنا داخل مكتبة والدي لا نبرحها إلا والليل قد انتصف؛ لأجده عند الباب صباحا يستحثني لنمضي إلى المدرسة نردد في الطريق وداخل الفناء ما حفظناه البارحة من سورة البقرة.. أراها من هناك مع صاحباتها عند آخر السور حيث مكتب الناظر؛ فيرتفع صوت سيد بالتلاوة مختتماً دوره لينهرني مجددا أنْ اِقرأ.. وأنشأ يملأ مني المَتْنَ والحواشي يسوّدُ كل فراغ؛ فلا مكان لك يا فايزة ترك ولا منفذ.. على هذا الحال حتى انقضى العام الدراسي، وجاءت الإجازة الصيفية فلم أرَ فيها ابتسامتك وضحكتك ما سمعتُ غير صوته البدوي الخشن ينفض الغبار عن الكتب القديمة في وقار وهيبة.. يعدّدُ صور التبرج مِنْ كَشْفِ الوجه للقناع الشفيف مرورا بالملابس الضيقة القصيرة المفتوحة من جهة الصدر والساق سواء عند الخروج من البيت أو ارتداؤها أمام المحارم مما قد يؤدي لافتتان الرجال.. وما تلبث نبراته ترتفع في حنجرته مشحونة بالغضب من حال النساء الكاسيات العاريات المميلات.. رؤوسهن كأسنمة البُخْتِ المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها.. كما إن أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت بقوم ليجدوا رائحتها؛ فهي زانية..

6

سواء كان سيد يجاهد مع المجاهدين أو استُشهد فإنني أراه رغم ذلك يلحق بي عبر الصحارى والحقول من مرسى مطروح للقاهرة حافي القدمين لاهثا ملهوفا في جلبابه القصير ولحيته المدورة يصيح:

- "لا.."-

أرى كابل الكهرباء السميك..

قدماي معلقتان في السقف تتدلى رأسي فوق الظل الممدد تحتي..

إنه ظل جسد الضابط نفسه يهتز آمراً:

"اعترف.."-

.. فرويت قصة طويلة أتحدثُ فيها للبلاط الأملس المقابل لعينيَّ.. يسيل العرق من جبهتي.. أعترفُ، وحبات العرق تتقاطرُ وتكبر ثم تلتحم ببعضها؛ فتجري في خط مائي صغير..

قلتُ شيئا عن طريقة تكوّن الأنهار..

الضابط بحذائه اللامع وبنطلونه الأسود اعتقدَ أنني أسخرُ منه فأوسعني لكما وركلا ثمَّ..

اهتزَّتْ أوصالي، وانتفضَ الجذعُ مني كأنه انخلع..

وجدتُ بدني بعدها كومة من الخردة في زنزانة انفرادية.. زنزانتي المعهودة.. كأني ولدتُ بداخلها.. أصحو وأنامُ فيها.. الخبزُ الناشف آكله هنا.. وعلى الأرض أتبرز وأبول..

لكن في الليل تستحيل الأرضية الجافة إلى رمال بيضاء، ويتزحزح الجدار ليصير أفقا بعيداً وراء بحر أزرق ممتد.. فوقي سماء ترفرف فيها أجنحة النورس..

النسيم المالح يهب رخاء على شوارع مرسى مطروح:

-"هيا.. هيا.."-

يستحثُّ المارة بعضهم بعضا.. مكبرات الصوت تغني:

-"يا جمال يا حبيب الملايين.."-

أنا وسيد وجهان صغيران يطلان من بين آلاف الرؤوس بطول شارع المحطة مترقبين وصول القطار. صفرت الأبواق. زغردت النساء. الهتافات تصاعدت، واندفع الناس ملوحين بعمائمهم:

-"بالروح بالدم نفديك يا جمال.."-

-".. والليلة في شارعنا حنا..هييه.. عبد الناصر تم لنا..هييه.."-

الأجساد النحيلة لرعاة الأغنام تراها قد غطاها التراب جاءوا من النجوع والوديان القصية..

زحام أمامنا وخلفنا.. نجاهد لنرى كيف يكون وجه الرئيس..

الحبوني يحتضن فايزة، ويغيب بين الحشود التي دفعتنا دفعاً نحو شارع الكورنيش ثم هرولتْ السيقان والثياب حولنا، ونحن وسط الجموع الغفيرة نجري.. إلى مبنى الكلية الحربية، حيث اختفى الموكب. أغلقتْ البوابة الحديدية الضخمة، وردد مكبر الصوت الأخبار من الداخل، وكان أهمها أن الرئيس سيصلي الجمعة في المسجد الكبير..

ضجت المدينة طوال الليل وسهرتْ مثل أيام العيد..

الغناء لم يتوقف في المقاهي والدكاكين والبيوت..

نام الرجال القادمون من الصحارى بدون أغنامهم هذه المرة على الأرصفة..

تحلـّقـتْ فِرق الناس ملأوا الطرقات المحيطة بالمسجد الكبير صلوا الفجر جماعة، وراوحوا في أماكنهم انتظاراً لصلاة الظهر..

الرئيس اعتلى المنبر، وانبرى يخبرنا بنبرة حزينة عن المرحلة الخطيرة المقبلة التي نستعد لدخولها حالاً.. مرحلة التحدي والردع، بعد ما خضنا حرباً مخططة سلفاً بطول القناة يعرفها رجالنا في القوات المسلحة بمرحلة المواجهة.. سقط الشهداء.. أولادنا من الصعيد ومن الدلتا ومنكم.. من هنا؛ من مرسى مطروح. اليوم تكلـّمْتُ مع العمدة أبو طرّام عن قلة المطر السنة وعن المعركة التي تنتظرنا في الزراعة

وعلى الجبهة. معنا ضباط روس هنا قاعدين عندكم.. قاعدين في المطار الحربي وفي الكلية العسكرية.. معكم.. مع أولادنا الضباط الجدد.. ليس عيباً أن نتعلم من أصدقائنا. الأسبوع الذي فات كنت على خط النار.. الصواريخ السوفييتية واقفة في قواعدها.. جاهزة بسواعد المصريين.. نحن لم ننهزم.. العدو طلب هدنة؛ فأمرْتُ بوقف إطلاق النار، وهو ما توصلنا إليه في الأمم المتحدة، وأؤكد أن هذا لا يعني أننا نلقي السلاح.. لا.. أولادنا لم يرجعوا من الجبهة.. ساهرون هناك.. يبنون الدشم، ويحفرون الخنادق.. لن نعود من الجبهة إلا بتحرير الأراضي العربية.. سيناء والأراضي الفلسطينية واللبنانية والسورية؛ لنصلي في القدس الشريف.. أيها الأخوة المواطنون.. أعاهدكم؛ إنني لن أتخلى عن الاستراتيجية العليا للدولة.. الاستراتيجية التي بدأت بمرحلة الصمود، ولن تنتهي إلا بمرحلة حرب الـ...

بمثل الكلمات تلك المعجونة بالتحدي والتعب كانت العبارات غير متراتبة تدوي وتهوِّم.. تطول وتقصر.. وأنا وسيد في نهاية الصفوف الممتدة للشوارع الخلفية نسمع الصوت، ونراه يطير فوق أسطح العمارات المجاورة قبل أن يتبعه سربٌ من التصفيق المدوي..

تصفيق من داخل المسجد وخارجه..

زغاريد ترفرف من شرفات البيوت..

برهة، ويواصل مُجهَداً ينهر الجماهير الصاخبة:

-"أيها الأخوة.. أيها.. أيها.. أيها الأخوة المواطنون كفاكم تصفيقاً. نريد هنا أيادٍ تعمل، وعيون تسهر؛ فأمامنا عدوٌ مدعوم من الولايات المتحدة ومن بريطانيا وفرنسا.. إننا نحارب الإمبريالية العالمية.. لكنني أقول لكم إننا نحارب معها الجهل والأمية.. هذه هي الطريق.. نحارب بكم أنتم.. بالشعب نحقق النصر، والله أكبر.."-

كانت كلمات الرئيس تصارع بعضها بعضا حتى ظننا أنه زعلان أو به، لا سمح الله، وجعٌ..

سيد يهمس في أذني قائلاً إنه يخطب بكلمات سريعة مندفعة كمن يلوك في فمه شيئاً ما كالحنظل.. حنظل من ذاك المر النابت في وادي سيدي يونس..

نحن الصغار المشاغبين التزمنا في هذاك اليوم الصمت جالسين، ويأتينا كلامه من فوق المنبر متخطياً الجدران والطرقات والأرصفة إلى حيث أنا وسيد، وقد أحنى كلٌ منا ظهره مقلدين الرجال الكبار الذين يفترشون الشوارع أمامنا..

هكذا نصيخ السمع متوجسين من أن ينفجر الرئيس باكيا؛ فلا بد أنه كان غضبان. بيد أن نبراته كانت تتحول فجأة لهمس ضعيف متقطع كأنه يستجدي شيئاً ما.. هنيهة، وتنوح مكبرات الصوت بما وقع قبل أيام في الأردن.. بالطريقة التي تم بها إنقاذ ياسر عرفات.. لكن ماذا حدث بالضبط؛ لم نكن ندرك حينذاك التفاصيل لدرجة أن سيد كان يظن أن عمّان بلدة تقع بجوار الإسكندرية..

دوت الهتافات مجددا؛ الله أكبر.. الله أكبر.. بالروح بالدم نفديك يا جمال.

ضعنا في خضم العمائم البيضاء وتلك المزركشة بالأسود والأحمر..

أخذتنا الثياب المبللة بالعرق عبر التقاطعات والمفارق..

الجماهير تتزاحم على جانبي شارع المحطة..

الحبوني يحتضن فايزة يغوص بجسده في الجموع الغفيرة..

مالت الشمس، وأرسلت أشعة واهنة، وكان القطار قد صفّر مودعاً المدينة وأهلها..

زحف الليل سريعا؛ غطى الظلام الأرض ونجوم السماء ماتت..

مصابيح المقاهي والحوانيت أنارت وسهرتْ حول كلمة الرئيس التي ما انقطع المذياع يعاود بثها من وقت لآخر تعقبها الموسيقى الحماسية فيما المذيع يقول لنا وللجالسين حولنا أنْ اعرفوا عدوكم..

عدونا الذي اغتصب أرضنا من الشتات جاء معه كل أدوات القتل التي اخترعتها العصابات في مشارق الأرض ومغاربها لذبح الأطفال كمهمة إلهية يباركها الرب؛ فانظروا..

أتجول مع سيد ثم ندلف لشاطئ البحر حيث فرق المقاومة الشعبية، وفي الأنحاء تتواصل المارشات العسكرية عبر الأثير.. تتوقف؛ ليبدأ المذيع مجدداً كأنه يوجه تحليلاته هذه المرة إلى الموظفين والعمال المتطوعين المرابطين على الساحل..

أعرف عدوك..

برنامج من إعداد..

تنساب الأناشيد يعقبها كلام في كلام عن قيام الخصم بتنفيذ خطة الحرب.. بنقله لأعماله العدوانية إلى أرض الخصم.. إلينا؛ أي لمصر والأردن وسورية.. أيها الأخوة المواطنون قامت القوات الصهيونية بتطوير سلاحها الجوي، ومضاعفته لتضمن تحقيق الضربة المفاجئة.. لنا. أما لماذا لم تهتم كثيراً بقواتها البحرية؛ فلأنها كانت تدرك أن الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط جاهز تحت الطلب، وهكذا قامت بضربة صهيون ضد جيوشنا العربية الثلاثة..

و يختتم البرنامج بالمارشات، وبعدها خطب الرئيس..

لقد مرَّ أسبوعان مُذ كان في مدينتنا..

غادرها؛ ولا ريب أنه حمل معه صور الوجوه الضامرة لرعاة الأغنام..

و كنا على الجانب الآخر نتوقف بين الحين والآخر نقرأ ملامح الرئيس المعلقة على أعمدة الضوء وجدران المقاهي وواجهات المحلات. ها هو يضحك ملوحا لنا بيده. هو ذا يفكر مستغرقاً في صمت. هناك بنظارته الشمسية السوداء وبدونها..

تعود أجهزة المذياع نفسها لتبث آياتٍ من الذكر الحكيم.. يقابلها من الضفة الأخرى من الطريق عويل النساء النائحات على الأبواب

والشبابيك. ساعة، وتغصُّ المدينة بآلاف العمائم من القوم الباكين يهيمون من رصيف لرصيف.. يتكاتف المصلون يتقدمهم حاملو النعش.. نعش فارغ ملفوف بعلم الجمهورية يطوفون أرجاء المدينة في هيبة وجلال.. هكذا نركض وراء الجنازة حتى تفرق الناس؛ فخيَّم الظلام.. أغلقت المقاهي.. الدكاكين سكَّرت أبوابها.. في مثل تلك الأيام ماتت أمي..

و كان سيد قد اختفى عند جده أسابيع عدة تركني وحدي أدور كيفما اتفق.. شجر النبق الذي كنت أتسلقه فرحاً بالثمر الطيب أصبحتُ أمر جواره ولا أبالي.. رجُلٌ غريب يحمل وعاءً وفرشاة يخط على الجدران بلون الدم؛ إلى جنة الخلد يا جمال.. يُعلِّمُ فوق الحوائط البيضاء الواطئة بيتاً بيتاً.. هنا وهناك حيث أشجار الزيتون متناثرة بين مرابط الحمير وحظائر الخراف والماعز.. من العزبة الغربية لمبنى الكلية الحربية تسمع دوي الأحذية العسكرية للطلاب المتحفزين القادمين من القاهرة والمدن العربية البعيدة.. هُبْ.. هُبْ..

لكن الحزن ما برح جالساً على العتبات ونواصي الشوارع. ولا شكَّ أنني حينذاك كنت طفلاً تائها تحت سماء مرسى مطروح الباردة على غير ما أصبحتُ عليه الآن جثة ملقاة كالخردة المهملة في جانب المخزن..

.. وأخيرا عاد سيد بالحكايات الأخـَّاذة.. جده اصطحبه لسيدي يونس.. يمشي وأمشي جانبه ما بين الرمل والماء نطبعُ أقدامنا واثقين نجحنا في السنة السادسة ابتدائي، والبنت الصغيرة فايزة انتقلت للمدرسة الإعدادية معنا.. تقول:

-"و أنا أيضاً سنأخذني جدتي لسيدي يونس.."-

والدتها سكندرية الأصل بيد أنها من ملبسها وحياتها المتقشفة تبدو كمن ترعرعت مع القبائل سكان القفار المحيطة بالمدينة. وهي فوق ذلك تفهم ما تقوله جاراتها البدويات؛ لكنها لم تتحمل حياة العزلة التي كانت تعيشها مع أم الحبوني في وادي ماجد. واكتفت في نهاية المطاف بأن

تنطلق كل أسبوع لزيارة الجدة في خيمتها المشرفة على بيداء جرداء قاحلة أبداً. ثم تباعدت فترات الزيارة لواحدة كل مرة يعود فيها الحبوني من رحلاته المتقطعة عبر حدود ليبيا. تقدم لها الهدايا بيديها؛ ليبدأ زوجها في تكرار الإلحاح على أمه العجوز:

–"ماذا يعجبك هنا.. المطر ضنين، وإذا رشرشتْ في طوبة فلن يطلع الزرع. ثم مَنْ يحرث لك الأرض يا أماه؛ لو تنصتين.. الوليَّة كيف أتركها، والبنت وحدها بلاكِ.. ثم ما العمل إذا أصابك، لا قدَّر الله، مرضٌ .. في العزبة الغربية كهرباء، وراديو تسمعين عبد الناصر. ولكِ ببيتنا حجرة خاصة بكِ وحدك، هه.."–

تشيح بيدها.. تخرج من خيمتها تستنجد بنعجاتها ومعزاتها .. ينهق الحمار من جانب فيتضامن معه الكلب نابحاً من الجانب الآخر.. هكذا تستثير ضدهم عالمها الصغير المترامي الأطراف..

كانت فايزة تحب جدتها وتخافها..

تتحدث بلسانها الصحراوي الناشف، وبلسان والدتها الحضري الطري.. تخبِّرنا تلوي عنقها واصفة ما جرى من جدال وعناد؛ فينسدلُ شعرها على جانب وجهها الضاوي.. نجمع لها النبق من الشجرة المائلة على سور المدرسة الابتدائية.. نترجلُ معها الهوينى ساعة المرواح مخلفين وراءنا التلاميذ ندخل بها الأزقة القريبة من بيتها؛ فيشدني سيد من ذراعي أنْ كفى..

نعود للبحر..

فوق الصخرة السوداء ها هنا انزلقتُ.. الدمُ يسيل من رأسي حتى نصل لدكان والدي في شارع الإسكندرية.. لافتة؛ ماذا.. مغلق لوفاة زوجة صاحب المحل؛ أمي..

أرى سيد يمسح براحة يده كتفيَّ وخديَّ وما تحت عينيَّ.. أسمعه يهمس بألا أبكي. قالها، وجلس يبكي.. وفي بيتهم ضمتني أمه بصدرها، وأكدت أنها هي أيضا سوف تموت، وستذهب لأكل الفاكهة مع أمي في الجنة:

-"و سأترك معك ابني المشاغب هذا.."-

ضحكتُ، وسيد أيضاً هزني فمسحتُ دموعي، وشهقتُ بما يشبه القهقهة؛ إلا أن الجدار كان قاتماً.. وباتت الزنزانة أشدُّ ضيقاً في آخر الليل عمّا كانت عليه في أوله، وعليه تمرُّ دورة طويلة من الزمن يحملني فيها اثنان من الحرس من تحت إبطيَّ يجران أوصالي الميتة إلى غرفة التحقيق مجدداً أمام الضابط نفسه الذي يتمجلس طاوياً ردنيّ قميصه الأبيض المكوي فوق ذراعيه يفتلُ حبالَ الصمتِ فوقه ضوءُ المصباح معلق بالسقف يدخن.. يكتب.. يقرأ الصحيفة الرسمية.. يشرب الكوكاكولا.. دون كلام يتجول.. يدور حولي.. حول طاولة التحقيق؛ وبعد نهار أو ليلٍ مديد من الانتظار يبدأ:

- ".. مدون هنا أنك دخلت السعودية.. ثم سافرت منها لبنجلاديش.. لتنتقل منها بعد أسبوع واحد إلى باكستان.. نعم؟ ومدون هنا أيضاً تاريخ عودتك إلى السعودية، ومنها رحلتك عن طريق رابطة العالم الإسلامي للدعوة في نيجيريا.. نعم؟ ومدون كذلك تاريخ دخولك اليمن، وهروبك منها لألمانيا.. نعم؟ طيب.. نعود للبداية.. لماذا ذهبت إلى باكستان؟!"-

الجدران الأربعة الضيقة في الزنزانة الانفرادية أحالت رأسي لكرة فارغة تتقاطع داخلها ومضات الصعق الكهربائي.. أم أن ذلك بسبب برد الليل والظلام المقيم.. كل ذلك نزع الغطاء العازل عن أسلاك مخي.. أشدُّ حبال جسدي عن آخرها.. أشدُّ ما تبقى من عروق ظهري.. ترتجف فروة الشعر المبلل بالعرق والدم فوق جمجمتي.. تضيق الحدقة من عيني اليسرى وتتسع الأخرى وحدها.. عند تلك اللحظة فقط أجاوبه من الغياهب السحيقة:

- "لـ.. لـ.. للتبـ.. للتبليغ والدعـ.. دعوة.."-

يمسحُ مغتبطاً رأسي كأخ كريم، ويواصل:

–"كويس.. وكان هنالك أخوة يعبرون الحدود من باكستان إلى أفغانستان.. صحيح.. لازم يكون صحيح.. إحنا عارفين إنه صحيح.. إحنا متأكدين.. عايز منك تقول على اللي أنا عارفه وأنت عارفه.. إنت رحت أفغانستان عن طريق بنجلاديش وبعدين باكستان متخفي مع اللي معاك على إنكوا جماعة تبليغ ودعوة.. بس هم برده.. يعني الأمريكاني اللي شكله عامل زي الأسبان والمترجمين البنغاليين اللي معاه، لما استجوبوكم في الفندق.. قول انت.. هم كانوا عارفين وسابوكم، واحنا كنا عارفين وسايبينكم.. قول انت باقي الحكاية.. أوصفها زي ما حصلت.. زي ما إحنا كلنا عارفين..قول.."–

و أبدأ في جمع شتات العقل الشارد من أطراف الدنيا:

–"أنـ.. أنا لم أذذهب لأف.. لأفغانستان.."–

يزيلُ الضابط الغضب عن وجهه براحة يده المعطرة.. يشعل بعد تنهيدة صغيرة سيجارة مارلبورو.. يدور حول الطاولة؛ حولي:

–"طيب أنت لم تسافر إلى أفغانستان.. لكنك تعرف الأخ كرم، وتعرف الأخ عاصم.. صحيح؟"–

تشعُّ من ضباب مخي صور بيوت المضايف العربية تحت سفوح جبل الهندكوش.. ومِنْ جديد أشد وثاق نفسي أضغط أسناني أدوس على الوجوه حتى أطفئها في قعر جمجمتي:

–"لا.. لا علـ... ـم لـ... "–

احتكاك الحذاء ببلاط غرفة التحقيق أسمعه؛ احتكاك غضب.. هذا يعني بداية فصول جديدة من التحقيقات بالغرفة الأخرى عبر الباب الداخلي من هنا حيث السياط والعصي المكهربة والكابلات الصاعقة..

وكم تعذب معي جوال الخيش الأزرق ذاك.. تهوي عليه جنازير الحديد وقضبان الخشب فيسيل دمي يبلله.. تتناوله الأيدي باللكمات والأقدام بالركلات فيتدحرج يتمزق مع لحم بدني.. حتى عندما ينزعونه عني تمهيداً للضرب بالسياط، يلقونه.. ويدوسون عليه، وهم يدخلون ويخرجون بلا مبالاة.. مجرد إنني أسمع الخبط يهز الجدران من بعيد.. بهذه الطريقة أهمدُ لا أعي نهاراً من ليل..

7

في البداية اعتقدنا أن المخرج الأصلع ما هو إلا مـــدرس الفلســـفة الجديد..

صامتاً كان طوال طابور الصباح يسير جيئة وذهاباً خلف المعلمين والناظر كأنه يتفقد جنوده المتأهبين. توقف مرتين؛ الأولـــى عنـــد تحيـــة العلم. والثانية حين صعدت الطوابير للفصول في الطوابق العليا..

كانت له نظرة عسكرية صارمة، ولهذا سرت شائعة بين الطـــلاب لاحقاً بأنه ليس سوى المفتش الذي يخشاه مدرس اللغة العربيـــة. وعلـــى هذا الأساس قررنا الانتقام من مدرس المادة المدمن على شرب الســـبرتو وترديد قصائد لقيس بن الملوح وجريـــر والفـــرزدق بمناســـبة وبـــدون مناسبة.. ولم يكن يشرح لنا معاني الكلمات أبداً.. وحصة اللغة العربيـــة على ذلك النحو كانت هي العذاب المقيم..

في فسحة اليوم الدراسي ذاته كومنا القماطر فوق بعضها الـــبعض تحت لوحة الكتابة.. مزقنا ما استطعنا من الدفاتر والكتب أشـــعلنا فيهـــا النار..

أنا وسيد آخر من قفز عبر سور المدرسة؛ إلى الخارج..

و دق جرس انتهاء الفسحة لنشاهد من المبنى المجاور مدرس اللغة العربية والموجه المفترض يسعلان تحت سحابة الـــدخان. لقـــد نجحـــت الخطة.. تم فصل جميع الطلاب المسجلين في حجرة الدراسة المنكوبـــة لمدة خمسة عشر يوماً.. بالإضافة إلى تشميع الفصل، والتحقيق بواســـطة الشرطة..

عدنا، وعاد الموجه، وعرفنا أنه مخرج يبحث عن طـــلاب لفريـــق التمثيل بالمدينة. في المساء كنا نجلس تحـــت أضـــواء مســـرح قصـــر الثقافة.. وتعلمنا منذ هذيك الليلة كيف نتحدث بلسان الآخرين. فيـــا أيهـــا المخرج الأصلع كم لعنتك وأنا في الجامعة، وأنا فوق منـــابر المســـاجد، وأنا في زنازين أبي زعبل وطرة.. في سراديب التعذيب تحـــت مطـــار

القاهرة.. تحت أرضيات أقسام الشرطة. فكم لعنتك يا أيها المخرج الأصلع..

كأنك جئت بكل أدوات الهندسة، ورسمت ما شاء لك الرسم..

حولت رأسي لدائرة كبيرة ترتكز على حوافها الخطوط والزوايا إلى ما لا نهاية.. إلى مرسى مطروح التي لا تعرف غير الأشكال الهلامية أينما أطلقتَ ناظريك من هناك ترتد لداخلك فلا تجد غير الضباب سُحُب دخان رخوة.. تضرب في الشوارع كيفما اتفق.. في الإعدادية جاءت فايزة للمدرسة تبكي.. مشتْ، ومشيتُ جوارها من هنا، وسيد بجانبها من هناك.. إلى مستشفى مطروح العام. في آخر العام الدراسي لا أحد يسأل عن الحضور والغياب.. الحصص تنفتح على بعضها البعض حتى أنك لا تخرج منها بجملة مفيدة. المدرسون جاءوا على عجل من مدن النيل البعيدة.. كلُّ مَنْ وقعتْ عليه عقوبة أرسلوه إلينا.. يقول الواحد منهم:

-"سنة من العمل في بلدتكم الخاوية هذه، وأعود.."-

لم يعد أي منهم. تزوجوا وأنجبوا أطفالاً كبروا وعرفوا طريق شجرة النبق وصيد الطيور واللهجة البدوية الناشفة.. آباؤهم أدمنوا لعب الدومينو والطاولة على نواصي المقاهي. يقول الواحد منهم لصاحبه:

-"سنة من العمل في هذه البلدة المقفرة، وأرحل.."-

تمرُّ السنين كالأيام..

فايزة الصغيرة الباكية بدون سبب صباح كل يوم على بوابة المدرسة الابتدائية ها هي قد كبرت. عرفتْ الطريق لمستشفى مطروح العام..

البكاء لم يفارقها، ومن ذلك اليوم داومت على القراءة.. تفتح حقيبتها أوان الفسحة. تمدُّ أصابعها البيضاء بين الكتب الدراسية البغيضة لتخرج بكتاب ملون غريب..

هل كل من يصرع والده رصاص الحدود يعتكف على المطالعة.. أم لأنه ظلّ ينزفُ في صندوق الجيب من السلوم حتى المستشفى العام هنا.. وهنا منعوا الزيارة من الظهيرة لما بعد صلاة العشاء، وعلى هذا جلس ثلاثتنا بجوار أم الحبوني وزوجته على الرصيف المقابل.. السيارات الجيب تدخل وتخرج.. ثم أخذت تمضي ولا تعود.. الرجال أولاد عم الحبوني سدوا البوابة معتصمين انتظاراً لتصريح الدفن..

صرخة..

تعقبها صرخة..

تهتز الأرض..

العجوز تسقط..

ترتمي عليها الزوجة المكلومة..

ثياب بيض لرعاة الأغنام التفوا حولنا.. دفعوا بهنّ للشاحنة؛ حملوهن، ويَمَّموا وجوههم شطر النجوع القبلية..

يشدني سيد فيما المقاهي تصطف على الجانبين:

–"شيش جهار.."–

يواصل معلمونا الخبط على المناضد. يمتصون دخان الشيشة بيد يفركون زهرَ الحظِ باليد الأخرى..

ماذا لنا غير البحر..

في الليل تحجبه ملاءة سوداء رطبة يطرطش خلفها الموج الصاخب..

الرذاذ يبلل شعر سيد..

يسيل على وجهي..

نصغي للدوي الأصم القادم من السماء..

يقذف سيد بالحَبَّةِ البيضاء إلى جوفه دون ماء.. أبتلعُها، فيقشعرُّ بدني خوفاً من أن يراني أحد.. ننزلق إلى الأعماق.. إلى بطن الصخور. ينير عود الثقاب سحنته.. تتوهج السيجارة.. نسعل مع هدير اليم؛ فمن

سيسمعنا غيره ويشم الدخان غيره.. هنا في قعر الدنيا.. الشهور تعقبها الشهور. السبرتو الأبيض له طعم مختلف.. نتحدى به عواصف الكورنيش الباردة.. نستكشف الكهوف العميقة أمام الشاطئ. وفي الصباح نهرب من فايزة.. من صمتها.. من ضوئها الباهر.. نثير العراك مع المعلمين..

أجلسُ في أول الصف انتظارا لمعلمة الموسيقى القادمة من الإسكندرية.. بكعبها العالي الأبيض تدخل مثل فراشة.. فستانها قصير إلى ما فوق ركبتيها؛ لونه أبيض.. لحمها أبيض.. شعرها مربوط بشريط أبيض:

-" تافا تيفي تا.. تا.."-

تقرع القماطر بالعصا..

أقلد نبراتها العصبية..

أنقر بأصابعي الدرجَ.. نردد في نفس واحد:

-"طافا طيفي طا.. طا.."-

يصفق سيد متمايلاً برأسه طربا. تدور هي بين الصفوف. ترسم بالطبشور الأبيض صندوقا كبيرا:

-"هذا أوكرديون.. قولوا معي؛ أوكرديووون.."-

و تخط جواره شكلاً يشبه الكوريك:

-"و هذا عود.. قولوا معي؛ عووود.."-

أصابنا الملل.. نهتف ناعسين:

-"دو.. ري.. مي.."-

بصوتها الحاد تزعق دون جدوى.. تأخذ فايزة تحت ذراعها العاري وقت الفسحة.. تتحادث معها تضاحكها.. تعزف لها على الصندوق الضخم الذي يتوسط حجرة الموسيقى.. صندوق أسود له أصابع سوداء وبيضاء.. لم يكن يشبه صورة الأوكرديووون أو العووود بأي حال..

لكن حالما تبدلت حصص الموسيقى والفستان الأبيض إلـــى وقـــت لدراسة العلوم ومعلم طويل عريض لا يعرف في هذه الدنيا غير حمـــض الكبريتيك ومعادلات ثاني أكسيد الكربون وغاز الهيدروجين..

فيما يخص سيد فقد دق بالمسامير مربعا خشبيا شد عليـــه الخيـــوط النايلون.. ضرب بأصابعه على الأوتار، وأنشأ يغني:

-"طيفي.. طا طا.. طااا.."-

هربنا بالآلة العجيبة للبحر يدير السبرتو الأبيض رأســـينا.. تـــرن الأوتار نتمايل معها طائرين عند الأفق البعيد..

فجأة صاح والد سيد من حافة الصخرة:

-"أنت يا كلب يا بن الكلب؛ أحفظك القرآن لتصنع المعازف.."-

و أعقبه صراخ والدي من الحافة الأخرى:

-"هذا البدوي الإبليس أفسدك.. أفسدك.."-

قفز، ولحقت به.. فيما هما يتعاركان مهرولين وراءنا..

قـُــلْ إنَّ إجازة الصيف تمحو الزعل لا بد؛ لأن أبي حـــين فـــتح الباب بداية الخريف، ووجده أمامه، نادى يستحثني:

-"أين أنت؛ الشيطان البدوي يريدك.."-

أما عندما ذهبتُ لأسأل عن سيد فدعاني والده قائلاً:

-"يا أيها الإبليس المصري ادخل لتتناول الغداء معهم.."-

هكذا بدأنا الصف الأول الثانوي.. زيارة هنا وأخرى هناك. يـــدخل كلٌّ منا منزل صاحبه حاملاً كتبه تحت إبطه:

-"أين سيد لنذاكر الكيمياء.."-

طول الصحراء وعرضها الواسعين ينفتحان بلا نهاية على مشـــرق المدينة ومغربها. في الجنوب ترتفع الهضبة العالية.. يخترقهـــا شـــارع الإسكندرية صاعدا بالشاحنات المسافرة والآيبة من وإلـــى بـــلاد التـــرام والزحام والمياه العذبة المنسابة من الصنابير. بـــلاد الفســـتان الأبـــيض والـــ.. تافا تيفي تا.. تا.. من هناك يعود الطلاب الـــذين غـــادروا قبـــل

شهور للجامعة.. يرجعون بأنواع جديدة من الحبوب البيضاء؛ تدير الرأس الأمعاء تقلبها لحد التقيؤ.. لا ننام بعد الحبة الثانية الليل نصله بالنهار في شوارع مرسى مطروح الخاوية نهيم.. من زقاق لزقاق.. السبرتو الأبيض هنا وثمة سجائر الحشيش.. نترنم بالشعر والألحان معهم.. نأكل الجبن الرومي والخبز الساخن في عرض الطريق.. سيد يظن أن الإسكندرية كما يقول والده مفسدة. عبثاً أحاول إعادته لشريط الترام وهيبة المرسي أبو العباس. نتقاسم كوز السبرتو.. نتجادل حتى يبللنا ندى الليل. نستمع لحكايات طلاب مدينتنا الذين يدرسون في الجامعة بأزاريطة، ويقيمون هناك بمدينة الطلبة بسموحة.. قصص عن فتيات بملابس بيضاء شعرهن مربوط بشرائط بيضاء كالفراشات من بحري للشاطبي..

في اليوم التالي تستيقظ مدينة مرسى مطروح على زعيق المهربين.. الشوارع التي يضرب فيها أهالي النجوع بأحذيتهم البالية صباحاً، تعود بعد الظهيرة خواء صهد شمس وذباب يطن؛ فعلى هذه الشاكلة تكون بداية العام الدراسي من كل عام. فرحنا بالزي الرمادي الموحد بالصف الأول الثانوي.. نعم فرحنا؛ فلم يعد أمامنا غير عامين لنلحق بأولاد الحرام أولئك، ونقيم معهم في سموحة. نسهر ما شاء لنا السهر، ونغني ما طاب لنا الغناء. لكن هل ستستكمل فايزة دراستها أيضاً، وتذهب إلى هناك. وليكن.. ستقيم عند أخوالها، وأقيم أنا أيضاً عند أخوالي:

– "لا.. لن تدعني وحدي؛ معي في المدينة الجامعية.."–

قال سيد غاضباً، ونحن في مرسى مطروح لم نزل حيث بداية الصيف تعني بداية العمل. اتخذنا موقعنا خلف أحواض الغسيل في كازينو الـ جي. آر.. على الكورنيش. نقف منذ المساء، والقدور والأطباق والأكواب الوسخة لا تنتهي.. دفعات وراء دفعات.. تتخدر أيدينا من الصابون اللزج والماء البارد.. نرتشف ما تبقى في قوارير

الويسكي والبيرة تدغدغنا وتزيدنا حماساً فنحرك أقدامنا على إيقاع الباند الغربي.. السماعة الضخمة المجاورة لباب المطبخ تهز الكؤوس المرصوصة وراءنا. يبدأ الفاصل الشرقي.. من خلف الستار نسترق النظر لأرداف الراقصة القادمة من الإسكندرية لتوها وكأنها معلمة الموسيقى تلك ذاتها..

8

ركبتُ الطائرة من مكة إلى صنعاء، وركب معي الخــوف.. هــذا الرجل الجالس بالمقعد المجاور.. أيتعقبني؛ رأيته قبل الآن في القاهرة أم جدة. ربما يراقب شخصاً آخر. ماذا يهمني.. أنا في طائرة إذن أنا علــى أرض دولية. نزلتُ، ونزلت معي الريبة. اســتقبلني عشــرات اليمنيــين المسلحين بالخناجر.. لم ألتفت إليهم.. سرتُ خطوات فخطــوات حتــى ألقيتُ بجسدي داخل أول تاكسي:

ـ"يبدو أنّ المطارَ مطوق برجال الأمن اليوم.."ـ

استثرتُ السائق:

ـ"لماذا؟"ـ

نظر إليَّ دهشا:

ـ"لأن جميع مَنْ في المطار يحملون خناجر في جنوبهم"ـ

ثم أشار إلى خصره:

ـ"مثل هذي.."ـ

و كان خنجراً أيضاً:

ـ"كل اليمنيين يحملون مثل هذه الجنابي.."ـ

و إلى أبي بعثتُ رسالة..

كتبتها على عجل ..

حي الكويت، صنعاء، ٣ مارس..

والدي العزيز..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

تركتُ العمل في جدة، وتسلمتُ وظيفة جديدة في مدرسة خالد بــن الوليد بصنعاء. أما عن العودة لمرسى مطروح فلا مجال للحديث عنهــا. ولن أرجع للإسكندرية أيضاً. أنت تعلم.. كما أخبرتك مراراً وتكراراً أن حلّ المشكلة ليس بيدي. أنت تعلم كيف ماطلوا في إجراءات التعيين.. ثم أنهم هم الذين سهلوا لي الخروج من البلد كلها. أنت تعلم جيــداً أنــه لا

سبيل.. ولن أكون معلما في أي مدرسة بمصر؛ هذه إجــراءات أمنيــة.. لقد أخبرتك بذلك مرارا وتكرارا. أما العمل في جدة فلم يكن كما توقعت. وأنت عندما تقول لي لا تذهب لليمن فهذا لأنك لا تقيم معي بجدة. قررتُ الرحيل لليمن.. الأجر أفضل، والسكن على حساب وزارة التعليم. ومِــنْ هنا أستطيع أداء فريضة الحج كل سنة في مكة. وأدخرُ مالاً أيضا. فــلا تقلق، وستكون أول حَجَّة من أجلك..

و السلام عليكم..

سماء صنعاء صافية تحتها يسرحُ النسيمُ العليل بين أحضان الجبــل يدور؛ فيعود باردا لطيفا يهفهف على وشاوش الشجر ورؤوس الأعشاب البرية. أهل صنعاء مثل الناس في مرسى مطــروح البعيــدة؛ طيبــون وبدو.. كما كان يصفنا المخرج الأصلع بالضبط إذ يقــف علــى خشــبة المسرح.. يقول:

ـ"أنتم طيبون، وبدو.."ـ

و يشرح لنا الكلمة الأخيرة. كل يوم يفسر لنــا معانيهــا ســاعة أو يزيد.. حتى خفناه وكرهناه:

ـ"البدوي.. إنه إما أن تكون معه على طول الخط أو ضــده علــى طول الخط.. لا مجال معه للحلول الوسط.."ـ

ماذا نفهم أنا وسيد وزملاء الفرقة المسرحية بقصر الثقافة:

ـ"لم يعد البدو هم المرتحلون خلال البراري.. إنك تجدهم اليوم في القاهرة ودمشق وبغداد.. وغيرها من المدن العربية. فهــل اتفقنــا نحــن العرب.. لا.. لم نتفاهم أبدا؛ لأننا بدو.."ـ

يبدأ المخرج هكذا في أوقات الاستراحة خاصة أيام الجُمَــع. نأكــل من قصعة الجبن المعجون بالطماطم والخيــار وزيــت الزيتــون. هــو يتحدث، وسيد ينتفخُ بالمهانة:

ـ"هذا الحديث كله ينصب عليَّ وحدي.."ـ

يهمس لي، وتمر الأيام..

تسطع الشمس على الهضاب البعيدة. يتماوج السراب، وتسير دون جدوى. فلا شئ غير الفراغ أمام عينيك والحصى الأسود تحت قدميك وظلك يتبعك بلا كلل. بهذه الطريقة حاولت أن أجدَّ البحثَ كي أصل. لم يكن هناك شئ بالتحديد أريد أنا أو سيد الوصول إليه. هو من بدو أولاد علي، وأنا من أصل سكندري لكنه يمتد إلى قبائل حضرموت.. كان مجرد السير كيفما اتفق، والعرق ينزُّ حول ياقة قميصي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف. كنا نريد أن نصل أولاً إلى غدير مياه.. إلى بئر؛ وربما لهذا السبب ندفع بأقدامنا للأمام.. إلى السراب البعيد..

بين جبال صنعاء آكلُ من قصعة الجبن المعجون بالطماطم والخيار؛ لكني فردا كنتُ. أصابعي تتخلل شعر لحيتي لساني يلهجُ بالآيات الكريمة بعدَ صلاة العشاء أتجولُ قليلاً. أوامر السفارات العربية والأجنبية تحذر رعاياها من الخروج ليلاً. صدام حسين دخل الكويت.. دولٌ تقفُ معه وأخرى ضده.. أصبح ثمة خطر على حياة المصريين في الدول التي وقفت مع العراق..

طرق أذني فجأة تكتكة أعرفها لسَحْب أجزاء رشّاش؛ إذن فهناك رصاصة على وشك الانطلاق فالتفت مسرعاً تجاه خيالات تقف في الظلام:

ـ"قف.."ـ

وتبعه صوت آخر ينهاه بلهجة يمنية:

ـ"إسكاااا... إسكاااا.."ـ

بيد أنه أصر:

ـ"سأضرب المصري هذا.."ـ

كان كلاهما يقف أمام محل البقالة المجاور للعمارة التي أسكنها، ولسوء الحظ كان مغلقا.. الليل يخيم على الحي. اليمنيون حشدوا أعدادا كبيرة من الجنود على حدودهم مع السعودية.. مظاهرات عارمة ترفع

صور صدام.. لعنات تصبها الصيحات المختلطة على رأس أمريكا.. تهتف:

ـ"بالكيماوي يا صدام.. بالكيماوي يا صدام.."ـ

في الليل حظر تجول.. تقدم اليمني بماسورة بندقيته غرزها في صدري.. نهره صاحبه.. إسكاااا.. إسكااا؛ لكن لم يرتدع:

ـ"المصريون دخلوا صنعا من غير غُسل.."ـ

قال حيث دفعني للوراء:

ـ"سأقتلك يا صهيوني.."ـ

ـ"أنا مصري.."ـ

رددتُ بلهجة واثقة مسالمة أبحث عن طريقة استحوذ بها على السلاح في لمح البصر، وكان خلال ذلك يهرف قائلا:

ـ"أنتم المصريون خونه.. تعاونون اليهود والأمريكان ضد العراق.."ـ

الشرر يتطاير من عينيه مغتاظا، وقد تحولت لكنته لما يشبه العتاب؛ فأجبته:

ـ"مضبوط.."ـ

و هنا صاح:

ـ"أتسخر.."ـ

قلت:

ـ"لا.. لكن إذا كانت مصر قد شاركت في مؤامرة ضد العراق علانية، فإن اليمن شاركت في نفس المؤامرة سرا.. لقد أعلنتْ مصر أنها لن تمنع عبور حاملات الطائرات الأمريكية لقناة السويس. أما اليمن فأظهرت مناصرتها للعراق، ولم تعلن أنها سمحت للحاملات الأمريكية ذاتها أن تعبر مضيق باب المندب وتسهر على خدمتها وهي في طريقها لضرب بغداد.. وإذا أردت مزيدا من الحوار كأخوة عرب، فأنا أسكن في العمارة هذي.."ـ

هنا تراجعتْ فوهت الماسورة؛ فانطلقتُ نحو شقتي أنتظر طلقات الرشاش تخترق قفاي أو ظهري أو مؤخرتي. أغلقتُ الباب خلفي. هرقتُ كل ما أملك من زيت وسمن داخل قِدر كبير وضعته فوق النار ليغلى ويغلى.. ترقبت اليمني المسلح طوال الليل. أشرقت شمسُ الصباح ولم يأت أحد. بدأ يوم جديد في صنعاء صاخباً بالمظاهرات. انتقلت بعدها للسكنى في بيت تابع لقبيلة الأحمر كي أضمن، على الأقل، التجول بحرية عقب صلاة العشاء..

حينذاك ألقتْ قوات الأمن القبضَ على جميع اليمنيين الذين سجلوا أسماءهم فى مكاتب التطوع عند بداية الحرب لإخراج العراق من الكويت. كنتُ أنا قد اكتفيت بالتبرع بلتر أو يزيد من دمي أحمر اللون جرى في خرطوم شفاف حتى الكيس امتلأ.. لتر وآخر في يومين:

ـ"خير يا مطوع.."ـ

قال الممرض اليمني ساخرا يردد كلمات باللهجة اليمنية عن القوات المصرية المرابطة في حفر الباطن.. كنت أشعر بتزايد الخطر على حياتي مع تزايد غضب اليمنيين على موقف مصر من الحرب على العراق.. خاصة بعد أن ألقى المتظاهرون المتصايحون الريالات اليمنية على مبنى السفارة المصرية.. كانت ريالات فضية ترتطم بالأسوار الحديدية وتصدر رنينا.. ولم يفهم السفير المصري المغزى من ذلك إلا بعد حين.. ولم يدرك في البداية أن اليمنيين يلقون بالريالات على من يكون قد باع موقفه بالدولار..

لقد هدأت حركة الباعة والمشترين في سوق باب اليمن. اختفت أكوام الملابس الملونة.. الجديدة والقديمة. لم يتبق غير تجار العملة بين أشباح المباني السوداء المعتمة يفرون بأصابعهم الدولارات والريالات على أضواء البطاريات اليدوية. أزقة طويلة ضيقة تصب في شارع السلاح الذي تحوم حوله سيارات الشرطة.. الرشاشات والمسدسات والقنابل وبنادق الصيد بأحجام متباينة وماركات مختلفة. سوق منصوبة لآخر الليل لا تهدأ:

ـــ"إركاااب.."ـــ
فاجاني صوت ممطوط من تويوتا لاندكروزر:
ـــ"لا؛ شكرا.."ـــ
رفضتُ في وجهتي سرتُ أحث الخطى فيما السيارة تتبعني:
ـــ"اركب يا وهابي.."ـــ
أصرّ السائق فاستدرتُ نحوه زاعقا:
ـــ"أنا لست وهابيا، ولا أريد صحبتك.. شكرا.."ـــ
لكنه كان لحوحا إلى حد لا يطاق.. هدرَ محرك التويوتا في لهجة تهديد:
ـــ"أطلع.. أقول لك فاسمع.."ـــ
وهنا حاوطتني ثلاث سيارات من ذات الماركة..
ثم نزل رجال الأمن من كل تلك السيارات.. اقترب مني الضابط بجسمه الدقيق الأسمر.. شعره مثل نتف الصوف الأسود. ضغط بفوهة مسدسه تحت عنقي:
ـــ"أطلع.. نشتهيك شوية وترجع.. ما في حاجة.."ـــ
قُـلْ وجدتُ نفسي في نهاية المجادلة جالسا أمام محقق مغتبطٍ بمبنى الأمن القومي أو ما أشبه مِن تلك المسميات المعهودة. نعم كان فرحا إذ استقبلني مرحبا:
ـــ"أيش اسمك؟"ـــ
أجَـبْـتُـهُ فعاد بسؤال آخر:
ـــ"في أي شئ تشتغل؟"ـــ
ـــ"مدرس؛ معلم.."ـــ
ـــ"أيش الخطب اللي تقولها عن اليهود؟"ـــ
ـــ"و هل هذا يضرك في شئ.."ـــ
ـــ" شوف.. لا تخاف. نحن فقط نبتغي نعمل تعارف معك.."ـــ
ـــ"حسنا.."ـــ

ـ"مَنْ يمول جماعتكم هذه التي تكـره اليهـود؛ فأنـا قـد أنضـمُّ إليكم.."ـ

ـ"هذا ليس تعارف.. هذه قضية أمن قومي أو أمن دولة كما نقـول نحن في مصر.. كما أنني لا أكره الدين اليهودي بل اليهـود الصـهاينة الذين يحتلون الأراضي العربية مثلما يقول تليفزيون صـنعاء والـرئيس اليمني رئيسكم.. هـل هـذا الأمـر يحتـاج لجماعـة.. لا أعـرف أي جماعات.."ـ

ـ"يعني ما مشيت لأفغانستان تجاهد مع الأخـوة اليمنيـين.. بـس جاوبني.. من رجع معك.. من ومن؟" ـ

ـ"لا أعرف عما تتحدث ولا أعرف أي أخوة لا من أفغانستان ولا من مصر.. أنا في حالي.. جئت بلادكم وحدي وأخرج منها وحدي.. أنا مدرس.. معلم لغة عربية ودين إسلامي.. وأحيانا أخطب الجمعة بـبعض المساجد بما يمليه عليَّ ضميري.."ـ

ـ".. ومن أميركم؟"ـ

ـ"ليس لي أمير، وكلمني لو سمحت بصيغة المفرد لأنني مسـئول عن تصرفاتي فقط، وغير معنيٌ بتصرفات الآخرين الـذين هـم ليسـوا مسئولين عن تصرفاتي.."ـ

ـ"اسمع.. أنت تعرف بأية طريقة شديدة تتعامل معكم مصر؛ فـلا تضطرني.. فنحن تلاميذ مصر في الإجـراءات الأمنيـة القادمـة مـن الطريقة الأمريكية"ـ

ـ"أعرف.. كل شر.."ـ

ـ"نحن تعلمنا منهم الشر بجانب دهاء عرب الجزيرة.."-

ـ"عظيمٌ؛ فأنا اليوم في حضرة الخداع والمكر.."ـ

ـ"أتعرف يا مطوع.. أنت ميت القلب، والحوار معك جميل، فـلا تهابني.."ـ

ـ"نعم؛ لكن إلى أين ينتهي؟"ـ

ـــ"حسب إجاباتك.. نشوف ونقرر.. أين تسكن؟"ـــ

ـــ"فى بيت من بيوت الضيافة التابعة للشيخ الأحمر.."ـــ

و فجأة انتفض المحقق مذعوراً:

ـــ"و إنْ كنت تكذب؟"ـــ

-"اسأل وافعل ما تشاء.. الآن اعطني الهاتف أطلب لــك الأحمــر، وهو ذاته سيتكلم معك.."ـــ

إلا أنه بدل لهجته خلف مكتبه. مازحني قليلاً وهو يتململ فــوق مقعده. استدار مشيراً لما وصفه بالاضطهاد الذي نتعرض له في مصر، وأنه لا يريد التضييق علينا فــي بلــدنا الثــاني. ولا أدري لمــاذا عــاد لمخاطبتي بصيغة الجمع.. لكن تأكد لي حينها أن قبيلة الأحمر لهــا مــن الشأن ما لم أكن أعلم. بيد أنَّ هذا لم يمنع من انخفــاض الأجــور فــي اليمن..

تفاقمت أزمة الخليج. زملائي المعلمون يغــادرون لــبلادهم؛ إلــى الوطن.. جلستُ أنا على رصيف شارع الثورة. كان ظــلام.. ســيارات مسلحة تمرق مسرعة وتعود. لن يستوقفني أحد طالما كنتُ داخل ملابس أهل البلاد فأنا منهم؛ ثوبٌ أبيض فوقه چاكيت.. سروال يغطي ســاقيَّ.. حمَّادة خضراء فوق رأسي. فإلى أين المصير..

معلقٌ اسمي بقوائم المطلوبين على منافذ الدخول لمصــر البعيــدة وراء مرتفعات صنعاء.. خلف جبال البحر الأحمــر؛ أمــواج وأعمــاق ووحوش البحر المفترسة.. ثم الصحراء الشرقية الجرداء. وبعدها شريان نهر النيل. أغطسُ فيه أشرب منه فأرتوي.. أصلُ لمحطة رمسيس فــي القطار أنام؛ فأصلُ لمرسى مطروح حيث أعاود البحث عن سيد:

ـــ"سافر لأفغانستان من سنوات ولم يعد.."ـــ

لكن هل كان ذلك صحيحاً.. لقد طفتُ بتلك البلاد وشُــفت؛ لكــن أقول سأجده حتماً في غوط رباح آخذه بين أحضاني نتعــانق ســاعة أو ساعتين أقبل رأسه أمسحُ ما فيها من زعل يتبسمُ ويصالحني فوق الرمال

البيضاء نستلقي تبلل مويجات البحر أقدامنا تهدهدنا النســماتُ الرخــوة فنميل يغلبنا النعاس.. ونحلم. بيد أن سيد يهب بغتة غاضباً:

ــ".. وبأي شئ نحلم. هيا الآن.."ــ

فنعود لمسجد الفتح. نخطب فى أهالي مرسى مطــروح. يصــيح يحاصرني مؤنباً فيما يستحثُّ الخُطى نحو الجامع.. هكذا، والعرق ينــزُّ حول ياقة ثوبي وتحت عمامته.. كان العرق والشمس والريق الناشــف. كنا نريد الوصول أولاً لغدير مياه.. لبئر.. وربما لهذا السبب كنــا نــدفع بأقدامنا إلى الأمام؛ إلى السراب البعيد..

9

رَعْدَة الحُمى حملتني من صنعاء.. نفضتني تحت سماء مكة حيث الجلابيب تمر، وتمرُّ السراويل..

سيد يرتل القرآن فتهزُّ حنجرته الخشنة حنايا قلبي وفي عقلي ترنُّ ضحكة فايزة قادمة من الأفق القصي..

أحتضنُ رأسي بين ضلوعي تحت البطاطين أغيبُ.. الأضواء الخافتة على خشبة المسرح لا تشبه أضواء الشوارع ولا البيوت.. تلمع تحتها صلعة المخرج يرْشَحُ مِنْ وجههِ الأحمر العرقُ والغضبُ والابتسامات الحميمة:

ـ"تعال هنا.."ـ

يأخذني تحت ذراعه:

-"أنت الآن الجندي بحيري.. سأذكّرك لآخر مرة؛ بحيري المشحون بالحماس بعد شهور التدريب.. أفهمت؛ تدريبات الوحش العنيفة. بدنك نحيل مثل قضيب الحديد.. القامة فارعة رغم برد الليل لا تعرف الخوف. أكلتَ الثعابين والعقارب فركتها بين أصابعك.. مشيتَ الليالي.. صعدتَ قمم الهضاب.. سبحتَ عبر البحيرات.. هيا يا بحيرى الآن!"-

و يضع يده على كتف سيد.. يواصل التعليمات:

ـ"صاحبك الجندي غريب.. زميلك على الجبهة يقسم لك أن يعبر سيناء حتى بئر سبع.. ثم يقسم لك أن يمضي مقاتلاً حتى القدس.. هنا أنت تندفع نحوه.. تشد على يديه في ودٍّ.. إصرار.. عزيمة.. هكذا؛ في هذا المشهد.. إذا أحسنتما أداءه فأي تصفيق من الجمهور.. هيا فلنرَ غريب الجندي الشجاع صديق الموت.."ـ

أمام المخرج لا يهتز لنا طرف نحفظ التعليمات لنبدأ تمثيل المشهد. عشر بروفات.. عشرون.. مئات البروفات. المشاهدون، زملاؤنا من طلاب الصفوف الأولى بالمدرسة الثانوية، ينادوننا بأسمائنا الجديدة بالمسرحية:

-"يا بحيري، و.. يا غريب.."ـ
كان الجميع فى انتظار ليلة الافتتاح.. وهل حقيقة ستكون بتذاكر.. ويحضرها المحافظ.. ومديرو المديريات.. يعنى أنتم ممثلون حقاً.. تكتب عنكم الصحف؟!

و على هذا المنوال لا يتوقف طلاب المدرسة عن الثرثرة..

كم نحصي مِـــنْ سنواتٍ. سنين كثيرة..

أستيقظُ مساءً فزعا.. تأخرتُ عن موعد العرض.. لم يكـــن هنـــاك أحدٌ ليصفق.. اختفى المخرج.. فرّقَ مدير قصر الثقافة أعضـــاء الفرقـــة المسرحية..

كم مرَّ منْ أعوام. أعوام عدة..

عبر شرفة الطابق الخامس أطـــّـلُ على شارع الإسكندرية.. فندق ريفييرا بالاس مظلم شتاءً.. بارد الوجه.. التقرير فوق المنضدة.. عنوانه يرمقني في الرواح والمجيء بمعانيه الموحية الكاذبة؛ مركـــز مناهضـــة أدري وما أدري.. التقرير السنوي قال..

عصرتُ بيديَّ جانب الســـرير.. شـــددتُ جـــذعي لأجلـــس فـــوق الفراش.. أضاء نور النافذة جانب وجهي العريض.. ذقن مهملة.. عينان زائغتان، وفي نفس الوقت ساخرتان، ومتحديتان أيضاً. عينان واســـعتان وفيهما بقايا طيبة.. طيبة قديمة. لم أكن أريد منذ البداية التطـــرق لمثـــل هذه الموضوعات.. بدا أنهم لم يتوقعوا ما عثروا عليه.. لقـــد وجـــدوني كومة من اللحم الأسود ملتصقة بالوسائد والبطاطين..

وما هي النتيجة.. أقصد بعد ذلك..

بهذه الطريقة أهمدُ لا أعي نهاراً من ليـــل.. المـــاء داخـــل البـــراد يغلي.. يتحول الشاي لسائل أسود مثل العسل.. يتحول العســـل لقـــرص متفحم داخل براد الشاي.. الدخان يتصاعد من المطبخ.. يتـــوهج البـــراد فوق النار.. يملأ الدخان الشقة.. من تحت الباب يخرج.. مـــن النافـــذة.. طـــَـرقٌ شديد.. خبط، وخبط:

-"يا شيخ افتح.. افتح.. الشقة تحترق!"-

أتطلعُ لوجهي بالمرآة فلا أتذكره.. أشعل سيجارة.. أجمعُ قطرات على قطرات داخل عظام جمجمتي؛ لتلتقي في مجرى واحد لكنها لا تلتقي. أضغط من هنا ومن هناك لعل وعسى..

في الأيام الأخيرة أدركتُ أنني تحولتُ لرجُلٍ ميت.. كان الرعب يملأ من يشاهدني أدور بذراعيَّ الطويلتين بين دورة المياه وسرير النوم. يحدقني الواحد منهم.. يجلس جواري، وعندما يأخذنا السهر يمد يده ليلمسني فألتفتُ نحوه غير مبالٍ متسائلاً:

-"ماذا؟!"-

و أواصلُ التدخين هادئاً مستكيناً حتى آذان الفجر؛ بيد أن أحداً لم يكن ليؤذن في أي وقت من الأوقات لمدة سنة أو أكثر داخل السجن..

عندما وقعتُ على ورقة الخروج أخبروني أنها كانت ستة أشهر فقط.. كيف، وهي سنة أو يزيد..قُلْ من ربيع ذلك العام إلى ربيع العام التالي، على الرغم من أن الناس كانوا يقولون إنه الصيف لا الربيع، لكنني كنت أشم عبق أزهاره الفواحة الطيبة الغالية على روحي طوال الطريق الصحراوي من القاهرة لمرسى مطروح..

شارع الإسكندرية كعادته في بداية أبريل؛ الريح تهب من البحر.. البحر يهدر من بعيد.. من شق النافذة أحصي السيارات عددا.. واحدة.. سبع.. خمس عشرة.. من طراز النصر الكبيرة المحملة بجنود الأمن المركزي. تحطم الباب.. إلى مبنى مباحث أمن الدولة بمطروح:

-"يعني مازلت تصر على الإنكار. طيب.. دعنا من أفغانستان الآن.. خذ هذه الأوراق.. امسك القلم، واكتبْ كل ما جرى في ساربروكين بما فيها لقاءك بعاصم وكرم.."-

و ظلت الصفحات بيضاء يومين أو ثلاثة حتى وصل الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض وحذائه اللامع.. لم أره، بل شممتُ رائحته في الناحية إذ تقرر شحني في الزنزانة المتحركة تهتز طوال

نهار اليوم التالي موغلة في السفر.. إلى الضجيج وطول الانتظار عند إشارات المرور.. إلى العاصمة الداخنة حيث بدأ العمل في تقديم الخدمات الجليلة؛ أولها حلقوا الشَّعْرَ مني فأصبح جلد جمجمتي ناعماً كالحرير..

و ثانيها خصصوا لي بدلتين من الخيش.. واحدة عبارة عن غِرَارة طحين فارغة عليها رقمي الخاص بي، وهو ثمانية تسعة تسعة تسعة. والأخرى غِرَارة طحين أيضاً لكنها مصبوغة بلون أزرق، ومطبوع عليها الرقم ذاته..

كان موعد تغيير البدلة الزرقاء بالخيش السادة يعني مرور أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة داخل زنزانتي الانفرادية.. زنزانتي المعهودة.. كأنني ولدتُ بداخلها.. أصحو وأنام فيها.. الخبز الجاف آكله هنا.. وعلى الأرض أتبرز وأبول. الظلام أمام عينيَّ، ومِنْ حواليَّ السوادُ المقيم.. عَرْضُهَا أقصر من نصف جسدي، وطولها لا يتسع لمد الساقين.. ارتفاعها يبلغ عنان السقف؛ فَقُلْ هي تشبه الماسورة الواقفة.. في نهايتها كوة معلقة فوق رأسي عششت فيها الطيور حتى سدتها وأخفت ضوء النهار.. حجبت الطريق الوحيد نحو السماء!

الجدران ملطخة بالإسفلت.. أرضها مدكوكة بالقار.. بابها حديدٌ مُصْمَتٌ.. أما حبات الفول فكانت سوداء، والخبز محروق من الوسط والأطراف.. فراشي قطعٌ من الليف الخشن المضفر بالبق والبراغيث..

.. وهل أنا أفضل من نبينا صلَّى الله عليه وسلَّمَ.. بدنه الكريم يفترش الحصى والتراب داخل غار حراء في شقوقه ثعابين وعقارب.. كان هو، وأبو بكر، وثالثهما الله سبحانه وتعالى لا شريك له.. رب السماوات والأرض وما بينهما؛ فاعبده.. واصطبر لعبادته.. هل تعلم له سميًا. ويقول الإنسان أ إذا ما متُ لسوف أخرج حيًا.. ألا يذكر إنّا خلقناه من قبل ولم يكُ شيًا.. فنمتُ إذن أم استيقظتُ.. قُلْ بيديَّ مَسَحْتُ على الحائط الأصم.. إن الوضوء يصلح هكذا تيمماً..

صليتُ ركعتين أو ثلاث أو أربع؛ دون أن أعرف لموضعي وجهة أو لصلاتي ميقاتا..

يفتحُ الجنديُّ الأسود باب الزنزانة.. يضع أرغفة خبز وحبات فول وكوز ماء.. ماءٌ أخضر عطن.. يغرفُ البرازَ بجاروفه.. يمضي، ولا يعود إلا بعد دورة طويلة من الزمن..

أنا داخل غِرَارة الخيش.. الغِرَارة في زنزانة.. الزنزانة رقمها سبعة من بين سبع عشرة واحدة مماثلة.. السبع عشرة زنزانة تصطف على ممر كالسرداب.. فَـسَـقِـيـفٌ؛ هذا هو العنبر رقم واحد يا سيد..

ناديت ثم ناديت بأعلى صوت:

ـ"ياسيااااد.."ـ

تردد الصدى بين حيطان الحجر والحديد:

ـ " يااااد. ..."ـ

عمَّ السكون.. تجاوبتْ قهقهة عالية.. لم أكن أنا. عاد الصمت مُجددا؛ فهل كنت أحاورُ روحي أم أنها كانت تحاورني..

أنت يا سيد لا يلقون القبض عليك.. تأكل الأرز الأحمر.. بين بيوت القبيلة تدور بثوبك الأبيض حُرا.. تخطب بمسجد الفتح تلقي فيه الدروس، وفى مربوعة العمدة.. لكن لا أحد يحتجزك أو يعتقلك أو يستجوبك؛ هذه حقيقة عليها افترقنا في شارع الإسكندرية.. كان خريف.. الريح تهز الشجر.. الورق الناشف يتكسر تحت أحذيتنا، وصوتك الغاضب يطرطش على الصخور:

-"أنا عميلٌ.. قلها! أنت تريد إيجاد مبرر.. أنا أعلم .. خطابات الفسق تكتب لها.. فايزة فى كتب الدين. المرأة.. غلبك الشيطان؛ فاستعذ بالله.. أما أن تتهمني.. اتهم.. قلها.. قل أنا والعمدة عملاء للأمن.. تعني أن العمدة عميل، والأمن يحميني. الضابط يدعوني لسبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. هه؟!"ـ

عدتُ من الجامعة بعد خمسة أشهر.. سألتُ عنه فلم أعثر له على أثر.. سافر للعمرة.. سافر للمجاهدين الأفغان.. لم أجده. تم اعتقاله.. لم تكتب عنه الصحف.. حُكم عليه بالسجن المؤبد.. لا.. لقد التحقَ بالعمل في رابطة العالم الإسلامي بجدة، ومنها لألمانيا.. فتشتُ عنه هناك دون جدوى.. استُشهِدَ في كمين للشرطة بالصعيد، ومن يعرف.. وهكذا تداولني الأيام تسطع الشمس على الهضاب الرمادية.. تغرب وسيد لا يعود. والآن.. رعدة الحمى تعتصرني على رصيف مكة حيث الجلابيب تمر وتمرُّ السراويل..

في صدري الضلوع اليسرى يبست كالحطب.. والضلوع اليمنى استحالت لشرائح من الطين.. تتفتت كلما شربتُ ماء..

مسحتُ فمي فكأني ارتويتُ من المبرد الكهربائي على جانب الطريق.. جوار الحرم.. رواد المدينة هنا يلقون بفضلات الطعام.. أجمعها ليلاً.. عدد التكايا يتزايد مع اقتراب موعد الحج.. وتتزايد كسر الخبز..

رعدة الحمى جاءت بي.. نفضتني قُرب سور بناية.. تمرُّ الجلابيب والسراويل تمرُّ:

ـ"أيش هذا؟!"ـ

نهاراً.. وعند العشاء أزحفُ.. أجرُّ ثيابي اليمنية. كنتُ أول الأمر أميّزُ بين الصالح والمتعفن من الطعام. وبعد ثلاثة عشر يوماً أو ما أدري اختلطتْ ثيابي بلون الأرض، وتقيأتْ معدتي خليطاً من الزبالة. وأقول لو بقيتُ مع الأخوة في خوست ألم يكن ذلك أفضل.. بيد أني الآن بين أشقائي العرب فانظرْ ماذا ترى:

ـ"هيا؛ اسند بذراعك هنا.."ـ

يبدو أن أحداً يحاول انتشالي:

ـ"هل أنت مصري؟"ـ

سألني، ونحن في شقته، مبدياً دهشة مصطنعة:

ـــ".. وما هذه الأسمال.. حمَّـــاديَّة!"ـــ

أعطاني من ملابسه.. أمرَ زوجته بإعـــداد الحمَّـــام لـــي، وأعقبــه الغداء:

-"الأحوال تتدهور.. مصريون، وجزائريون، وغيرهم يهيمون فـــي جدة ومكة. جاءوا من اليمن عقب انخفاض الأجـــور.. قيمـــة المرتبـــات تدنت هنا أيضاً، وفي طريقها للأسوأ.. السعودية تواجه خطران؛ صـــدام حسين شمالاً، والتحركات اليمنية جنوباً.. لكننا ســـنتدبر الأمـــور كيفمـــا تكون. أنا هنا منذ سنوات.. لدي معارف من الكبـــار كمـــا نقـــول فـــي مصر.. مصر تركتها من نحو عشرة أعوام.."ـــ

أوقفَ مضغ الطعام بفمه، وسألني عن الإسكندرية سؤال شقيق عن شقيقته.. إلا أنه لم يكن يستمع إليَّ؛ بل يفكر على ما يبـــدو فـــي أشـــياء أخرى.. في سنوات بعيدة.. أبعد مما كنت أظن..

مسحَ لحيته بيديه، وقال:

ـــ"سيد؛ الشيخ سيد.. نعم. سمعتُ الاسم هنا.. لكن لم ألتـــق بـــه.. الأخوة في الرابطة ذكروا الاسم.. قد يكون من العائدين من أفغانســـتان.. ألم تلتقيه هناك!"ـــ

كنت قد حدثته خلال يومين عن الدعوة التي قمنا بها لنشر صـــحيح الدين بصحراء مصر الغربية، وعن مسجد الفتح والمعـــتقلات، ورفـــضْ مديرية التعليم توظيفي أو السماح لي بالعمل معلما بالحصة في أي مـــن المدارس هناك..

فهو إذن يستمع لما أقول، وفي الوقت نفسه يفكر.. يتنبه فجأة لمـــا أرويه.. يرمقني بجانب عينيه ثم يظهر كمن سرح بفكره بعيداً بلا مبـــالاة إلى أن يشيح بيده:

ـــ"تعنى أنك لن تستطيع العـــودة لمصـــر فـــي الوقـــت الحـــالي.. فهمتُ!"ـــ

ولم أكن قد أشرت أمامه لفترة الجهاد في أفغانستان.. وقلت ربما كان المصريون هنا يعتقدون أن كل طريد يهيم بعيدا عن مصر يكون بالضرورة قد سافر بشكل ما، في السابق، لأفغانستان.. فجأة بدأ يتحدث بلهجة أخافتني إذ قال إن جناح الحكم الشمالي في اليمن الموحد لم يكن على وفاق مع جناح الحكم الجنوبي.. وحين لم أعلق أردف أن الجناح الأخير، يقصد شيوعيي اليمن أو ما يسمى بالحزب الاشتراكي قدم لسلطات مصر قائمة بأسماء المصريين الذين وفدوا لليمن من بعد عودتهم من أفغانستان..-"فلماذا جئت إلى المملكة ولم تغادر إلى السودان أو البوسنة والهرسك كما فعل إخوانك المجاهدون؟"-

التزمت الصمت.. هز رأسه دون أن أعرف ماذا يعني لكنه بعد هنيهة أخرجَ كراسة تليفونات.. اتَّصَلَ برقم.. ثم آخر؛ لم يكن هناك أحد:

ـ"لا شك أنهما سافرا للدعوة في السودان. كلاهما كان هنا قبل أسبوع.. يعرفانك جيداً ولا بد أنك التقيت بأحدهما.. أخوة بلا عدد يتطوعون لصحيح الإسلام في بلاد الوثنيين بإفريقيا وآسيا.. ولا ريب أنَّ الأخ سيد في بلد من تلك البلاد؛ ما رأيك؟"ـ

و.. هكذا بعد أيام دخلتُ المصعد.. ضغطتُ الزر للطابق الثالث من مبنى الرابطة المجاور لفندق كونتيننتال على أطراف مكة، ومن خلفه الجبال السوداء الملتحمة بالأفق..

تمضي الليالي الشمسُ تسطع على الهضاب الرمادية يتماوج السراب تسير دون جدوى فلا شئ غير الفراغ قُدَّام عينيك تحت قدميك الحصى حاد الحواف يتبعك ظلك بلا كلل إلى أن أخفته الأضواء الباهرة المنعكسة على الجدران الرخامية لمبنى الرابطة الذي تشم من أبهائه رائحة الطمأنينة داخل الغرفة الواسعة الوثيرة المعطرة وقفتُ أمام خمسة شيوخ أتلقي الامتحان:

ـ"أعربْ؛ إنما يخشى الله من عباده العلماء.."-

طلبَ الثاني تحديد عمل الفعل اللازم وأوجه اختلافه عن المتعدي.
وافتتحَ الشيخُ الثالث سؤاله بطريقة مربكة:

-"أوراقك تثبت أنك مصري.. لكن لهجتك مختلفة.. فهل أنت صعيدي أم ماذا؟"-

فأوضحتُ:

ـ"أنا أخوكم في الإسلام.. ولدتُ وكبرتُ بمدينة مرسى مطروح.. حيث هناك القبائل البدوية، أما أنا فعربي من عائلة العدوي بحضرموت اليمن؛ من مواليد محافظة الإسكندرية، ووالدتي أيضاً.."ـ

-".. وفي جواز السفر أنك تنقلت.. تُراك كنت تسوح ببلاد البنغال والباكستان.."-

-" كنتُ.. نعم؛ للتبليغ والدعوة. أدعو لسبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. أنام في بيوت الله، وآكل مما يأكل الناس.."-

أوقفني الشيخ عند ذلك الحد. ثم طلب بنفاذ صبر شرح ماهية وجود الله في كل مكان.. وكيفية هذا الوجود!

أما الشيخ الرابع فيبدو أن النوم كان يغالبه، أو أنه كان مريضاً.. الله أعلم.. سألني سؤالاً قصيراً عن اليهود، وفلسطين، وموسى، والأنبياء.. لم أفهم السؤال. عاد للنعاس، وأجبتُ أنا بطريقة ما. كان رجلاً مسناً مكتفياً بما سمعه خلال السنوات الغابرة على ما يبدو..

الشيخ الأخير؛ الخامس.. يفور بحمية الشباب كان. فاجأني بعدة أسئلة دفعة واحدة حول الديمقراطية، والشورى، والنظام البرلماني، وعلاقة كل ذلك بالحكم الإلهي والتشريع القرآني. وكان خلال إجابتي يقاطعني بأسئلة تفصيلية:

ـ"كيف؟"ـ

أو:

ـ"لماذا؟" ـ

أو:

ـ"أوضح يا شيخ النقطة هذي بمزيد من التفصيل"ـ

ثم اختتم كل ذلك بأسئلة إضافية:

-"هل الجهاد فى أفغانستان واجب؟ وما هو الدور الحقيقي للولايات المتحدة الأمريكية بأفغانستان؟ هل واشنطن كانت تبتغي نصرة الإسلام.. أم أنها كانت تساعد المجاهدين لتحقيق مصالحها الخاصة في المنطقة؟"ـ

حاولتُ أن أجدّ البحث حتى أصل.. لم يكن هناك شئ بالتحديد أريد أنا أو سيد أن نصل إليه. كان مجرد السير.. هكذا، والعرق ينزّ حول ياقة ثوبي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف. كنا نريد الوصول أولاً إلى غدير مياه.. إلى بئر.. وربما لهذا السبب كنا ندفع بأقدامنا للأمام.. حيث السراب البعيد..

أعلنت النتيجة بعد أسبوع.. ناجح بامتياز؛ وعليك التوجه لمسئول الدعوة الخارجية بالرابطة، وتقديم جواز السفر لإنهاء الإجراءات اللازمة؛ إلى نيجيريا..

كلمة غريبة. ردّدتها عدة مرات ضاربا الأرض أدور فى طرقات مكة.. نيجيريا تعني كلمتين فقط.. اليوربا والهوسا..

تفحصتُ التأشيرة وتذكرة السفر.. السفر على الخطوط المصرية.. هل هو شَرَكٌ لتسليمي لمصر.. الطائرة ستقلع من مطار جدة منتصف الليلة في طريقها للاجوس مرورا بالقاهرة..

في الدرجة الأولى ركبتُ، وركب معي الخوف. هذا الرجل بالمقعد المجاور.. أيتعقبني. هل رأيته قبل الآن. ربما يتعقب شخصاً آخر. ماذا يهمني. أنا داخل طائرة؛ إذن أنا على أرض دولية.. نحن الآن نحلق فوق القاهرة.. سنهبط ترانزيت، وهبطنا للفخ سالمين!

صدرتْ الأوامر من مكبرات الصوت.. على ركاب طائرة نيجيريا التوجه للشباك رقم ثلاثة. جمعوا جوازات السفر كلها.. وهناك مرت ساعتان من الانتظار. عقرب الثواني في ساعة يدي يتك؛ تك.. تك.. أسمعه وسط لغط الركاب..

بنطلون أسود وقميص أبيض ونظارة شمس.. ثـم صـوت أجـش أعرفه ردّدَ اسمي رباعيا، وقال:

-"أهلاً بك في مصر يا شيخ هيا.."ـ

خوذات الجنود وأسلحتهم.. دائرة تقف حـولي، وأمـامي النظـارة والقميص الأبيض والبنطلون الأسود. سار الضـابط قُـدَّامي.. ذراعـاه تتأرجحان تحت كتفيه.. يتمايل جواز سفري الأخضر بيده اليسرى.. إلى مبنى مباحث أمن الدولة.. فرع المطار..

صعدنا درجاتٍ للطابق الأول.. فوق..

هبطنا درجات للطابق الثالث، بالعكس، تحت..

في بطن الأرض بدأت التحقيقات.. وبعد أسبوع:

ـ"يا شيخ.. نحن متأسفون. كان هناك خطأ. هذا جوازك وتـذكرة إلى لاجوس في طائرة اليوم.."-

و أقول لنفسي يبدو أن الرابطة أجرت اتصالات على مستو عال!

10

أسحبُ ملاءة السرير فوق جسدي؛ على كومة اللحم الأسود..

أشدها فوق رأسي..

أجفف الماء المتقاطر من وجهي.. عرقٌ أم أنها دموعٌ.. ويزحف الليل..

تزحف الصراصير بين جدران الشقة.. فيا أيها المخرج الأصلع كم لعنتُك طالباً بالجامعة.. مرتقياً منابر المساجد.. مخفياً في زنازين أبي زعبل وطرة.. داخل غيابات التعذيب تحت المطار. أسفل الأرضيات حيث السراديب؛ فكم لعنتك يا أيها المخرج..

أخذ سيد يتلبَّسُ شخصية فرد الاستطلاع بسلاح المهندسين؛ الجندي غريب.. عاش فيه يوما بعد يوم.. بروفة عقب بروفة.. على خشبة المسرح يقف في الزي العسكري.. الماكيير رسم تقاسيمه خطوطاً عابسة أحاله لأسد جائع يزأر على مشارف العبور مبتغاه غزة وما يليها..

صبغ سحنتي كهيئة جندي الصاعقة آكِل الثعابين والعقارب..

وجه غريب زميلي على الجبهة ضامرٌ أسمر.. شعره أسود مبعثر فوق كتفيه.. يخطو بطوله الفارع على رمال الضفة الغربية للقناة هنا.. سيناء البعيدة هناك، والصمت المطبق، والأضواء الخافتة.. دقيقة، وتبدأ الموسيقى.. هنيهة، ويظهر ظل الهواري على الستارة الخلفية. ظلٌّ يشبُّ للأمام يتعثر.. يحاول من جديد، فيسقط..

كان سيد منذ البداية لا يتقن تمثيل شخصية غريب. نلتف حول طاولة بروفات القراءة التمهيدية.. المخرج يقيس الأدوار.. يمثل الشخصيات.. يقلد جميع أصواتها بما فيها همس النساء.. ونستمع إلى أن يشرع سيد في أداء دوره؛ فترتعش أصابعه، ويتعلثم:

-"هذه الفرقة.. كلها مصريون.."ـ

يتمتم بلهجته البدوية الخشنة.. ماذا تعني.. ألست مصرياً مثلنا.. يسأله المخرج مازحاً باللغة الفصحى.. يحتدم النقاش، ويضطرب سيد متشكيا:

–".. ولماذا لا تكون لغة المسرحية كلها بالفصحى.. لماذا هي باللهجة المصرية. هذا ما أقصده. لا أعرف.. اللهجة هذه.. كيف أقرأ كلمات مثل كده.. كدهوه.. دهوه.. ما تستعجلش. بينما يمكن أن نقولها بالطريقة الصحيحة. أي هكذا.. كذا.. هوَ.. لا تتعجل.. هَذِي الكلمات لو نقرأها بحالتها.."–

ينعقد لسانه.. يصمت برهة ثم يواصل منكسرا:

–"أنتم مصريون تتكلمون لهجة مصراوية، وأنا مصري أتحدث لهجة بدوية مثل كل البدو.. أهلي.. قبيلتي.."–

ربما لهذا السبب سهر المخرج بصلعته اللامعة وضوء المصباح يشع فوقها.. يقلِبُ جميع الألفاظ للفصحى، وحالما شرع يدربنا على نطقها..

المهم أنني أخذتُ أمثل دور الجندي بحيري منادياً زميلي غريب.. بطول صحراء سيناء أزحف، وأستصرخه..

ينتهي صدى صوتي بين جنبات المسرح بسقوط ظل الهواري عن الستارة الخلفية..

سبعة جنود مسلحون يرتدون زي جيش الاحتلال يدخلون.. يديرون جسدي بأحذيتهم.. يغرزون مواسير بنادقهم في صدري وبطني:

–"لا.. انزعوا المعلومات من رأسه أولاً؛ فقد يكون ضابطاً.."–

كان المخرج يطرف بعينيه الدامعتين تحت صلعته المنيرة تلك منفعلاً مع كل مشهد من وقائع المسرحية التي لم تكتمل..

هي نفس الجمجمة الناعمة التي أحاطت بها رؤوس حليقة لأناس مهمين.. تحدثوا بداية تلميحا خافتاً ثم ارتفعت أصواتهم تصريحاً وهم يضغطون أسنانهم متعجلين تنفيذ الأوامر. كان الليل قاتما بارداً إلا أننا

أنا وسيد أدركنا أن العرض لن يكون يوم الخميس، ولن يكون أبداً. بيد أننا ذهبنا لنستعد للبروفة الأخيرة مساء الغد. خلفنا ظلال غريبة تعد خطواتنا؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

نمشي حذاء شاطئ البحر.. على رصيف الكورنيش تغرب شمس مرسى مطروح فوق رأسينا.. وأنادي.. يا غريـ يـ يـب. لكن سيد يختفي خلف الصخور.. لا يرد. نمثل المشهد.. والمشهد الآخر وحيدين أمام الماء المالح والامتداد الأبيض المقفر..

اعتاد زملاؤنا في الصف الأول بالمدرسة الثانوية السؤال عنَّا بـ.. أين الجندي غريب.. ألم يرَ أحدكم الجندي بحيري اليوم؟ أو.. أيها الجنديان أتركا الجبهة قليلاً وتعالا لحصة القواعد النحوية!

لم يكن ثمة شئ بالتحديد أريد أنا أو سيد الوصول إليه.. كان مجرد المشي على تلك الشاكلة، والعرق ينزُّ حول ياقة ثوبي ومن حواف عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف. كنا نريد أن نصل أولاً لغدير مياه.. لبئر؛ وربما لهذا السبب ندفع بأقدامنا للأمام.. للسراب البعيد. كان بحيري وغريب في المسرحية يدفعان بأقدامهما إلى الأمام.. إلى التدريبات العسكرية الشاقة..

ستة أشهر تمضي الصحراء تجري للوراء.. وعام كامل من العذاب.. بدأ كل شئ عقب الشهور الأخيرة من النكسة.. في صفوف طويلة، وأسماء لا أول لها ولا آخر تنتظر التعليمات:

ـ"جندي مجند غريب.."ـ

يتردد الصدى بين أسوار معسكر التدريب فاتحاً الطريق أمام الحشود المتأهبة للجبهة..

على خشبة المسرح يتناهى النداء تحت الأضواء الخافتة.. فوق مدينة مرسى مطروح.. بامتداد البساط الأخضر للوادي والدلتا.. على طول ضفتي قناة السويس.

يلف غريب حزام العبوات الناسفة حول وسطه.. على جانبيه مسدس كاتم للصوت وخنجر. يتسلل ليلاً.. استخدام الأسلحة أو المتفجرات عند الضرورة القصوى فقط:

-"إلى الموت دُر.."-

يأمر نفسه؛ فتبتلعه المياه السوداء.. يشد بدنه تحت الأعماق باتجاه الضفة الأخرى.. كثبان رملية تحتها غرف خرسانية مسلحة.. أعلى كل منها عربة كاملة من عربات قطارات السكة الحديد:

-"تلك العربات يا بحيري كانت لنا.. كانت تنقل الجنود والأسلحة والذخيرة.. وحتى الدبابات إلى حدود فلسطين، وفي يونيو الماضي دمرها العدو.. استخدم ما تبقى منها لبناء خط بارليف"-

و اكتشف غريب أن بداخل كل عربة كذلك صبّة من الخرسانة المسلحة محصنة بقضبان من مخلفات السكك الحديدية أيضاً.. كله فوق صفوف الغُرف.. ويغطي هذا وذاك أكداس الرمال عليها أسلاك تحذيرية.. ترسل إشارات لوحدة المراقبة الإسرائيلية. إذا اقترب منها أي كائن حي، حتى الجرو الهائم على وجهه، تخطر عنه العدو..

في الصف الثاني خطوط من الأسلاك الشائكة المكهربة. القنابل الصغيرة تنتشر بطول الصف الثالث.. تربط بينها توصيلات مشربكة. الكلب إذا ضل طريقه هنا تحيله رماداً. يحبو غريب على ذراعيه وركبتيه.. زميلاه يزحفان خلفه. يحدق في الظلام.. في أسلاك الإنذار.. في الأسلاك المكهربة.. في رؤوس القنابل. ينبح كلبٌ.. تخترق طلقة لتكشف الليل؛ لكنه كان يمر بطريقة ما. وحين ينتهي غانما من رحلة الموت الليلية يعطي نفسه يومين أو ثلاثة كاستراحة يقضيها مع فرقة المدفعية المرابطة في الشمال قبل أن ينطلق من هناك مجدداً إلى خلف خطوط العدو. يستلقي بجوار خندق صاحبه بحيري الغارق في أفكاره، والذي اعتاد في الفترة الأخيرة الرد على أسئلة غريب وحكاياته بكلمة واحدة:

-"ماذا؟"ـ

و يواصل بحيري الصمت متطلعا للفراغ ساهيا بوجهه المعفر المكفهر تحت الخوذة..

كان غريب يشير لمواسير النابلم.. لا يريد الموت مسلوقا. يموت بالرصاص؛ نعم.. بالقنابل؛ نعم لكن في مياه تغلي؛ لا.. ولهذا السبب كان يوصي بحيري وفرقته قبل أن يغطس تحت المياه مجتازا للضفة الشرقية:

-"لا تطلقوا النار إلا إذا أشرنا لكم ثلاث مرات.. إذا وجدتم الإشارة تتكرر ثلاث مرات أطلقوا النيران بكثافة. أما قبلها، فلا.."ـ

أنابيب النابلم مدها الإسرائيليون من الضفة الشرقية حتى وسط قناة السويس.. تحت المياه ترقد مثل حرف تي باللغة الإنجليزية رأسها هنا وقاعدتها تحت خط بارليف.. تحت الساتر الرملي. إذا أشعلها الإسرائيليون فستصل درجة حرارة المياه مئة درجة مئوية على الأقل.. حيث الغليان:

-"ستجدني حينها ملقى طرح الشاطئ كالأرنب المسلوخ؛ المسلوق.."ـ

حين تهدأ العمليات على الجبهة يترك غريب صاحبه بحيري ومدافعه المتأهبة أبدا، ويتنقل بين الفرق والكتائب المرابطة.. يغيب أسبوعين أو ثلاثة ثم يعود يمدد جسده الطويل بجوار بحيري.. يقص عليه رحلات الليل الاستكشافية التي قام بها تحت حماية جنود المواقع الجنوبية المواجهة لسيناء.. يقول متفاخرا واثقا من نفسه:

-"التفَّ حولي أفراد الفرقة هناك.. الضابط استقبلني استقبالا خاصا.. لغرفة العمليات أخذني، وأمر لي بغداء من الطعام الساخن لكني لم آكله.. لم تعد مصاريني تتقبل الغذاء الكثير الطازج. هل لديكم أرغفة قديمة؛ خبز ناشف يتقرقش.."ـ

في العام الأول للهدنة افترق الاثنان، ولم يلتقيا أبدا..

جاء قرار وقف إطلاق النار.. وعاد غريب عصراً لموقع مجموعة بحيري.. لم يستلق بجوار الخندق كعادته؛ بل أخذ الاثنان يتمشيان قبل غروب الشمس، وعادا ليلاً.. غاب كلٌّ منهما عن الآخر بين الصحراء والبساط الأزرق..

هل حلق غريب شعره في يوم ما من الأيام اللاحقة.. لقد أقسمَ في تلك الساعة، كما حلف لقائده مراراً، بألا يقصه إلا في غزة، أو يموت..

أ كانت الأمور تسير وفقاً لما يشتهي..

المهم أنني على العكس من غريب وبحيري.. لم أكن أجد حتى الطريق التي يمكن أن أمشي عليها للنهاية..

أستطيع الآن النظر ورائي وأطيل النظر محدقاً أستكشفُ المساحات الواسعة من البيداء الجرداء؛ لا نهاية لها تنثني فوقها سماءٌ صافية بيد أنها لا تلتقي بها.. ليس إلا جسد سيد بثوبه يتماوج خلف السراب ولا يعود.. إذن هل لديك تواً قدمان جيدتان.. حسناً؛ فسِرْ ما طاب لك الترحال لحد الأرض القصي فلن تجد غير أفق جديد يلمع من وراء الآل، وسماء صهدتها شمس الضحى تنكفئ على الصحراء دون أن تمسسها.. وهكذا تتراجع الأيام بالهضاب الرمادية خلفك؛ فلا شئ غير الفراغ أمام عينيك والحصى الأسود تحت قدميك وظلك يتبعك بلا كلل..

على هذا النحو حاولتُ أن أجدَّ البحث لكي أصل.. لم يكن مِنْ شئ بالتحديد أريد أنا أو سيد الوصول إليه.. كان مجرد السير هكذا، والعرق ينزّ حول ياقة ثوبي ندفع بأقدامنا للأمام، وألتفت فلا أجده جواري..

أقفُ فوق جبال المأسدة منادياً، يا سيااد..

ترددُ الوديان ورائي..

أهز رأسي على المساحات الجرداء المحروقة..

هل صحتُ باسمه أم أن الصوت جاء من مكان آخر..

وحدي بين شعاب الوديان والجبال والليل. أدخل لخيمتي أنتظر اليوم التالي حيث تشرق عمائم المجاهدين البيضاء.. قل اصطففنا جميعاً أمام الأوامر الجديدة.. التدريبات عقب صلاة الفجر تبدأ.

جدران المسجد مسيجة بالجريد الناشف.. أما الجذوع؛ جذوع النخيل.. فنحملها فوق ظهورنا مع الأسلحة والقنابل.. نهبط الوديان، ونتسلقها مرة أخرى.. ننحدر من الشعاب، ونرتقيها.. ليس عمودياً؛ بل صعوداً بزاوية ميل يكون أسهل وأسرع لحافة الأخدود المجاور..لا يتوقف المدرب عن ترديد التعليمات بلغة عربية فصيحة. نترك الجذوع.. نشرع في التمرينات السويدية، وبعدها الجري نصف نهار بطوله.. أهرول بمدفعي الرشاش وقنابلي.. أعدو لتحرير أفغانستان..

تتوسط الشمس السماء.. درجة الحرارة ترتفع.. تتشرب ملابسي العرق؛ لونها يتغير. نصف نهار إضافي والخَبَبُ لا يتوقف.. لحيتي تخربش سترتي المعفرة وماسورة السلاح تخبط على كتفي بلا هوادة..

عشرات البيادات تضرب الأرض.. من فلسطين وحتى موريتانيا. أجري فتتخدر مني القدمان والذراعان.. حلقي يجف ويتلاشى النداء.. يا سياااد.. يعدو الآن قفزاً أمامي أم خلفي أم تراه مات!

أمشي مع المساء للشلال أستمع لخرير المياه تغريد الكروان يهز الحنايا مني أسير فالخطوات الرتيبة تدوس الأديم ورائي فتتوقف إذ أتوقف أتلفت فيبدو وجه سيد كأنه كان متفجعاً أصيح يا سياااد ناديتُ أم أن الصدى جاء من مكان بعيد..

تحت شجرة التوت قبالة الشلال أجلس. تتجمع الأمواه على رأس جبال المأسدة وتصب هنا؛ حيث تحرق الطائرات اللون الأخضر، ويعود من جديد..

بكيتُ أم أن المياه طرطشت على وجهي..

و ما هي النتيجة.. أقصد بعد ذلك.. أي عقب كتابة هذا التقرير.. فربما يلقون القبض عليَّ نوبة أخرى؛ فماذا سيجدون، وأي نفع..

شددت جسدي للخلف، فأضاء نور النافذة خـدي وأنفـي. أسـعل وأنتفض فهل أثرتُ اشمئزازهم. أذكرُ أنهم كانوا يستمعون بفراغ صبر.. يريدون معلومات محددة عن تفاصيل معينة. لم يكن لـديهم أي اسـتعداد لمعرفة القصة بحذافيرها من البداية للنهاية. كانوا مريبين، وفي الوقـت الذي كان يجب أن أتوقف فيه عن الكلام اكتفيتُ بخداع نفسي إذ سألتهم:

-".. وأين إثباتات شخصياتكم. فقط أريد الإطلاع عليهـا.. لـيس ليطمئن قلبي، ولكن هكذا جرت العادة معي على الأقل. أما قلبـي فبـأي شئ تفيده الطمأنينة.."ـ

دخلوا، وتوسطوا حجرتي بالطابق الخامس. مضوا..

يظل قدر المكرونة المطبوخة باللحم إلى أن يتعفن.. إلى أن تـأتي فايزة مساء الخميس سراً.. تغسله.. تدعكه، وتدعك أوصالي.. تبعث فيها الحياة:

-"أنا جئت.."ـ

تفتح الباب.. على السرير، بجوار كومة اللحم الأسود.. بجـواري تستلقي. يغوص جسدها اللدن المعطر في الصمت.. في مرتبة السـرير يغوص. كفـَّـاها تعصران عنقي.. ظهري.. أنفاسها خلف أذني تحـرك الدم بعروقي.. تشعلها بلهاثها بهمسها المحموم.. ثم نستفيق.. تقول:

-"ها!"ـ

و تتجول عارية بين حجـرات الشـقة؛ ببـراد الشـاي تعـود.. بضحكتها.. بأسنانها البيض بشفتيها الحمـراوين.. وصـدرها الصـغير النافر..

أشد ملاءة السرير فوق جسدي؛ على كومة اللحم الأسود..

أشدها فوق رأسي..

أجفف الماء المتقاطر عن وجهي.. عرق أو أنها دموع.. ويزحـف الليل.. تسعى الصراصير بين جدران الشقة. أحدّق فيها.. في شـواربها الطويلة؛ وتحدق فيَّ.. فيْ أصابع قدميَّ الكبيرتين. هنيهـة ثـم نفتـرق؛

لنلتقي اللحظة التالية داخل المطبخ.. دورة المياه.. سرير النوم. ويزحف الليل. يصيح المخرج الأصلع من تحت السرير مشيراً لمهندسي الصوت والإضاءة والممثلين:

-"سكوت؛ الانكسار الآن.."-

أنتفضُ.. أتنصتُ.. أقلبُ المرتبة، وأنتظر:

-"نعم. انتظرْ التعليمات.."-

يتردد صوته الغاضب أسفل مصابيح المسرح الخافتة. يمسك بتلابيب قميصي يشدني.. يجذب سيد من كمه، ويصيح:

-"هنا.. سينطفئ كل شئ بالتدريج.."-

و نبدأ تمثيل المشهد.. بحيري يسقط فوق رمال سيناء هذه العطش.. جرى بأسلحته.. مشي بها.. ترنح.. ثم سقط. الجمهور الآن ينتظر نزول المظليين من الطائرات.. هذه ساعة العبور.. لكن المظليين لن ينزلوا.. ولن يسمع الجمهور أي صوت لطائراتنا.. لا يسمع غير الصمت وأنين بحيري.. يتلفت المخرج لمصمم الديكور.. هذه ساعة من الفراغ الأصم؛ حتى ظل الراقص خلف الستارة سيسقط هذه اللحظة.. أين هو.. الراقص.. أين الهواري أين.. ويشتم الجميع مهتاجاً؛ لنبدأ في تنفيذ المشهد.. مشهد بحيري يعبر للضفة الأخرى..

إظلام..

بحيري يرفع العلم فوق خط بارليف..

إظلام..

بحيري يقف وحده في صحراء خاوية..

إظلام..

بحيري منهك القوى يبلله العرق.. يصيح:

-"يا غر يـــ يـــ يـــ ب"-

صمت..

يسير خطوات نحو الجمهور متعباً..

تخفت الإضاءة.. يسقط؛ ويفرد ظل الراقص جناحيه على الستارة الخلفية إلى السماء في محاولة أخيرة للطيران. فجأة تسكت الموسيقى ليدخل سبعة من جنود العدو المدججين بالأسلحة:

-"لا؛ انزعوا المعلومات من رأسه أولا.."-

كم مضى من الشهور نعيد البروفات ونزيدها. لا يمل المخرج ولا يكل. تلمع صلعة رأسه تحت الأضواء في حديث متصل عن بحيري وصديقه غريب.. هل كان يعرفهما. يروي لنا قصصاً لا يتضمنها نص المسرحية.. لا النص العامي القديم، ولا النص الفصيح الجديد. وإذا استشعرَ التعب على سحناتنا المندهشة يعجن لنا الطماطم بالجبن والخيار.. الخبز يوزعه علينا.. هلموا.. كلوا؛ فنلوك اللقيمات بالأسئلة عما إذا كان المخرج نفسه كان معهما على الجبهة.. في تلك السنوات البعيدة حيث جاءت شاحنة عسكرية لنقل الجنود. رأس بحيري تحت الخوذة تتمايل. غنّى الجنود.. دخنوا السجائر ثم ناموا على أكتاف بعضهم البعض.. الصحراء يغطيها الليل. محرك الشاحنة يهدر.. إلى بورسعيد. أشرقت شمس الصباح. بدت المدينة خاوية بداية الأمر، وبعد قليل التف الأطفال والنساء والشيوخ مهللين ترحيبا بطلائع الصاعقة.. وحْش.. وحْش.. وحْش.. وحْش.. ثم صفقوا؛ فارتفعت السواعد ملوحة بالأسلحة الرشاشة والبنادق الآلية. تمركز الجنود عقب ذلك على مرتفع سيجوه بالأسلاك وأقاموا الدشم شمال رأس العُش. وحالما نصبوا كميناً بممر المعاهدة. معظم أفراد المجموعة ماتوا تحت القصف؛ استشهدوا..

الميراج خمسة الليلة تقصف بورسعيد.. تضرب الجندي مجند بحيري فيما يحشو مدافع الهاون ويطلقها دون جدوى. وربما لهذا السبب صدرت الأوامر بالتحرك لما بين رأس العش والكاب على مبعدة عشرين كيلومتراً أو نحو ذلك.. الطرق حفرتها عبوات الألف رطل.. تعطلت الشاحنة. على أقدامهم.. على ظهورهم الذخيرة.. يجرُّون القاذفات

والمهمات الضرورية حتى وصلوا لموقع التينة حيث رحب بهم الناموس، واستقبلتهم الزواحف بالفحيح..

لم يكن من سبيل للحصول على الماء.. يوزعون الكمية التي تصلهم مع التعيين كل أسبوع أو عشرة أيام بينهم منتظرين الأوامر الجديدة..

مكان موحش هنا. مخيفٌ.. تلفه النباتات الملحية المُرة.. مَرَّ أبريل، وجاء الحرُّ والشمس اللافحة.. مكلفون بالدفاع والمراقبة بهذه البقعة الغريبة.. متمركزون فيها ليلاً ونهاراً.. تزحف الأيام ثقيلة، ولا تتقدم. ومع الضوء الأخير من الشهر التالي اجتازت جماعة من القوات الصغيرة الضفة الشرقية، وغابت هناك الليل بطوله. ومع الخيوط الأولى للفجر بدأ بحيري مهمته تراه يجاهد خلف الماسورة الضخمة تنطلق منها الحمم حتى الرابعة عصراً. وهكذا حطموا عشرات من الدبابات والعربات المدرعة للعدو. أسروا رقيباً إسرائيلياً زنجياً.. من إفريقيا. وفى الوقت نفسه دمرت القوات المتقدمة في العمق ست دبابات وعربات مدرعة أخرى عند نقطة الكيلومتر أربعة وستين، وأسرت ضابطاً برتبة نقيب عرفوا فيما بعد أنه كان من أبطال إسرائيل فى السباحة. سلموه للمخابرات.. واحتفلوا تلك الليلة واستنفذوا مخزون المياه. بدأ العطش صباحاً. ومعه شرع الطيران المغير يقصفهم بالنابلم من مطلع الشمس لمغربها.. استراحة.. ثم يبدأ القصف من العشاء للفجر.. احترقت وجوه واحد وتسعين من أفراد القوة.. تفحمت أجسادهم.. أسنانهم السوداء برزت من جماجمهم المتفحمة.. يصيح الناجون ينزلقون على الأرض السبخة؛ فيقذفهم الطيران بمزيد من النابلم. يوارون رفات رفاقهم داخل الحفر، ويمضون هيا.. هيا.. يغمسون أبدانهم بالطين إلى الأمام تحت جنح الليل.. باتجاه المنزلة.. ثلاثة كيلومترات كأنها مسيرة ثلاث سنوات. هنا اختبأوا داخل مقبرة لجنود ممن سبقوهم من أيام الهزيمة.. هنا دفنوا أجسادهم ومدافعهم.. وانتظروا حتى أحرق الطيران كل حي..

كل بعوضة.. كل عِرق أخضر في المساحات السبخة مــن التينــة ومــا حولها. طائرات من طــُــرُز مختلفة منها الأوراجاني، والسوبرماستير، والهوك، والميراج..

بعد يومين عاد بحيري.. جمع أشلاء رفاقه، وبين مقابر بورســعيد حفر حفرة كبيرة، ودفنهم..

11

عمارات المغتربين ، ٧ مارس، جدة..

والدي العزيز..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أما بعد، فقد حاولتُ فهمَ ما قلته بالضبط؛ لكن يؤسفني أن الأمور تختلف تماماً عما تظنه. هل أريدُ العودة لمصر؟ نعم، والآن. بيد أنه، كما تعلم، لن أستطيع بأي حال.. ليس خوفاً، إنما خشية عليك. أنت الآن على الأقل مرتاح البال. تذكر عندما تم القبض عليَّ وعلى الأخوة عقب مقتل السادات. كنت أنت هناك عندما هجمتْ سيارات الشرطة والجنود، وألقوا القبض عليك.. ما علاقة أخي. لا أعرف.. مُنعتْ الترقيات عنه وانقطعتْ الحوافز والمكافآت توقفت.. هو الموظف الغلبان. كان الله في عونه..

أنا لن أعود من أجل هذا.. لأجلك، ولصالح مستقبله. لا تصدق أنني تعرضت للتعذيب باليمن.. لا. لقد تركت تلك البلاد برغبتي قبل ستة أشهر. الحرب غيرت الأحوال. تدهورت المرتبات، ولم يعد العمل مدرساً مجدياً لا بصنعاء ولا غيرها. قضيت الفترة الماضية في نيجيريا كداعية. أي شيخ بأوراق موثقة بختم رابطة العالم الإسلامي؛ فلا تخف إطلاقاً على مصيري.. جميع الأوراق كانت مختومة، وفي لاجوس استُقبلت استقبالاً رسمياً. وقضيت الشهور الماضية في تفقيه المسلمين بأمور الدين. ها أنا أعود لمكة المكرمة سالماً والحمد لله. وهذا عنواني الجديد..

و السلام ختام..

و لم أشر للضابط ذي البنطلون الأسود والقميص الأبيض والنظارة السوداء. لم أشر للأيام السبعة تحت مطار القاهرة. هناك حيث مضت الطائرة إلى لاجوس، وبقيت أنا.. موثق اليدين بغطرتي الحمراء على عينيَّ عِصابة سوداء من القماش تغطي وجهي حتى آخر شعرة من لحيتي.. صوت الضابط حاد لا يطيق انتظاراً:

ـ"أين كرم؟"ـ

ـ"لا أعرف.. من هو كرم هذا؟"ـ

ـ"أين يختبئ عاصم؟"ـ

ـ"لا علم لي.. ومَنْ هو؟"-

بدأ التهديد:

ـ"نحن الآن نتحدث بالراحة.. لكن بعد ذلك لن تجد مثل هذه المعاملة. ما دورك في التنظيم خارج مصر؟"ـ

ـ"أنا غير منضم لأي تنظيم. أنتم ألقيتم القبض عليّ وأنا متجه للدعوة في سبيل الله. خرجتُ من مصر قبل سنوات غير هارب. ودخلت مطار القاهرة رسمي.. معكم أوراق تثبت أنني مبعوث من رابطة العالم الإسلامي إلى نيجيريا.."-

لكنه لم يقتنع. صاح بأعلى صوته:

-"أنت يا شيخ نبيل كذاااب.."ـ

فجأة سقطتْ العِصابة عن وجهي؛ فرأيتُ منصة التحقيق. القميص الناصع البياض وأمامه النظارة السوداء.. الضابط يتوسط أربعة من رؤسائه. قفزوا جميعاً أسفل الطاولة.. وفي لمح البصر تناولتني أيادٍ من الخلف لفتْ رأسي برباط القماش ووثقت عصبه بالضرب والشتائم:

-"لماذا اسقطتها.. لماذا؟"ـ

نبح أحد رؤسائه مذعوراً، فأفحمته:

ـ"كيف أسقطها ويداي مغلولتان بالغطرة من الخف.."ـ

ـ"لا.. أنت تعمدت رؤيتنا لتحفظ ملامحنا وتغتالنا فيما بعد.."ـ

لماذا يخاف الضباط.. هكذا سألت نفسي، وسألتهم:

ـ"من منا يجب أن يخاف الآخر.. أنا أم أنتم. ما دمتم خائفون فهذا يعني أنكم تعلمون أنكم لستم على صواب.. تعلمون أنكم جالسون هنا لتلفيق التهم للناس كما تحاولون تلفيقها لي الآن.."-

كنت أحدثهم ولا أراهم.. وأنتظر مع كل حرف أن تشل يافوخي ضربة مفاجئة..

في الليل التالي بدأت التحقيقات بداية غير طيبة.. خلعوا ملابسي جميعها. نزعوها وفتحوا فوق رأسي شلال ماء ساخن.. ثم شلالاً بارداً.. وهكذا تهاوى مني الجسد والرأس سقط تحت البنطلون الأسود للضابط.. بجوار بوزيّ حذائه اللامع:

–"و الآن.. هنيهة استراحة تقرر إما أن تعترف، أو.."–

و ابتسم. مال بعنقه على ياقة قميصه، وانصرف. الباب الحديدي انغلق خلفه.. وانطلقت الريح داخل الغرفة.. لم تكن ريحا؛ كان صوتها.. صوت عاصفة ورعد وأمطار وكلاب تعوي.. ثم خفتت تدريجياً. وانبعث من الصمت أنين متصل.. نحيب.. بكاء.. صراخ، وعويل، وأبواب تنصفق، ويضرب بعضها بعضاً.. عاد الضابط بعد دورة طويلة من الفصول والمآسي. وضع الشال الصوفي الخشن على عينيّ مجدداً وسحبني خلفه.. لغرفة التحقيق. أجلسوني فوق كرسي لكن الإعياء أسقطني. وهكذا بدأوا يستجوبون كومة اللحم العارية المتهاوية على البلاط البارد:

ــ"أنت تعرف مكان كرم.."ــ

ــ"لا.. من كرم هذا؟" ــ

ــ"أنت تعرفه، وتعرف مكان عاصم.."ــ

ــ"لا.. ومن هو؟"–

هنا سمعت صوت خطوات تقترب:

ــ"انهض"ــ

أمرني الضابط؛ فحاولتُ غير أن بدني تهاوي تحتي كالعجين مرة أخرى. مِنْ تحت العصابة السوداء.. من جانبي قصبة أنفي أرى الحذاء يقترب. ألمح ظل عصا الكهرباء متجهة نحو إبطي.. قضيب عليه عداد بوحدة الفولتات. انتفضَتْ أوصالي في الصعقة الأولى انقلب ظهري

جانباً. هبَّ جسدي مع الثانية وانهبدَ على البلاط وقد استدار للجهة الأخرى. هل صرخت أم هم الذين كانوا يصرخون:

ـ"أعترف.. الآن، تكلم.. الآن اعترف.."ـ

يلدغ طرف العصا حلمة صدري اليسرى:

ـ"أين كرم؟"ـ

و تمس الفولتات حلمة صدري اليمنى:

-"أين عاصم؟"ـ

و يصعق ما بين فخذي:

-"أنت التقيت بهما في دكا وفي إسلام أباد.. أين يقيمان الآن أين.. تكلم الآن أين ذهبا..أنت كنت تأويهما بصنعاء. سافرتم على طائرة واحدة لجدة؛ ومن هناك اختفيا أين.. قل.. أجب الآن.. أجب.."-

لا أدري بعد ذلك ماذا حدث.. أجدني ملقى داخل غرفة تشبه صالون الحلاقة جدرانها المرايا الملونة.. سقفها مرايا ملونة.. أرضها مرايا ملونة. ومن خلف كل هذا أضواء باهرة.. ساخنة.. أضواء تعكس عَرَق جلدي.. جميع أعضائي؛ كل شعرة ببدني.. تعكسني آلاف المرات بشرائحها الكثيرة.. أرى نفسي من فوقي وتحتي.. ومن أمامي وخلفي.. وعن يمني ويساري. ها أنا الآن ألف ألف جسدٍ ملون مكوم عار مصعوق جائع يرتجف.. فجأة جلست على الأرض فإذا باب الزنزانة عليه استيكر سريالي بألوان متداخلة أصفر.. أحمر.. بني.. أخضر.. ومرسوم شباك على الاستيكر فيه ثلاثة قضبان حديدية صغيرة مذبوح عليها حمامة ودمها يقطر على اللون الأصفر.. كان منظراً للقتل يثير الرعب..

ستة أيام بين الماء البارد والساخن.. تحت صعقات الكهرباء.. وفي السابع اعتذار مرفق به وجبات من اللحوم المشوية والعصائر الطازجة.. يبدو أن الرابطة أجرت الاتصالات اللازمة لأواصل رحلتي للاجوس.. حيث كان هناك رجلان يقفان أمام بوابة الخروج بالمطار يحملان لافتة

عليها ثلاث كلمات عربية؛ دعاة الرابطة الإسلامية.. رجلان في بـــدلتين وربطتا عنق خضراوين.. غير ملتحين. اللوحة المعدنية للســـيارة مذيلـــة بالأحرف العربية؛ هيئة سياسية. وحدي يهدهدني المقعد الخلفي.. أشـــاهد النباتات المتناثرة على جانبي الطريق. أما داخـــل المدينـــة؛ العاصـــمة.. فالأشجار تكاد تحجب المباني.. مدينة وسط غابة..

في الطابق الأرضي أحاطنا الخدم على مائدة الغداء.. السفير رجل كريم. هنا مقر السفارة السعودية. قصر مكون من ثلاثة طوابـــق. نأكـــل بالملاعق والشوك لحوم وأرز وخضروات على الطريقة اليابانية أو مـــن تفانين الطبخات الأمريكية والموسكوفية.. كلٌ حسب ما يشتهي من هـــذا البوفيه المفتوح بلا حساب.. وفي الليل تفحصتُ مقر إقـــامتي بالطـــابق الأخير. معي خادم.. وتحت إمرتي سائق.. أما السيارات المخصصة لي فثلاث.. اثنتان من ماركة بيجو والأخيرة مرسيدس:

–"تحسبا لأي محاولة لتتبع تحركاتك.."ـــ

قال السفير في أحد الأيام اللاحقـــة، وانصـــرف تاركـــاً الشـــكوك تترى..

لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بـــالتقوى. بَشَـــرةُ النيجيـــريين سوداء. أوراق الشجر خضراء.. سماء لاجـــوس زرقـــاء. أفـــتح بـــاب السيارة.. السيارة البيجو السوداء. كـــل شـــئ قـــاتم.. أخطـــو بجلبـــابي الأبيض.. أريحُ بيديَّ وضع الغطرة الحمراء. أدخل مســـجد الرحمـــة.. مبنى صغير مفروش بالحصير المهترئ في حي فقير جنوب العاصـــمة. أعلى المسجد مئذنة.. بالمئذنة مكبر صوت، وعلى ياقـــة ثـــوبي مايـــك صغير بحجم عقلة الإصبع:

–"بسم الله، والحمد لله، والصلاة على رسول الله، أما بعد.."ـــ

أبدأ؛ فأسمع الصدى يتردد فوق أســـطح البيـــوت الفقيـــرة حـــول المسجد.. يتبعه صوت المترجم للإنجليزية، ثم يعقبه المترجم للغة قبائـــل اليوربا والهوسا:

ـ" عن معاني جملة لا إله إلا الله.. يكون درس اليوم.."ـ

و تعود دورة الترجمة.. تطير الكلمات بين الحواري المستكينة. أتفحص سحنات المستمعين بأسمالهم البائدة، وأنتظر حتى ينتهي المترجمان، لأستكمل من جديد..

بعد أيام نظم طلاب مدينة جامعة لاجوس حلقة دروس دينية في مخيم تعليمي.. كنت مع طلاب الجامعة لمدة أسبوع.. معنا قدور ضخمة نطبخ فيها كميات كبيرة من اللوبيا.. حبات اللوبيا ذات عيون سوداء.. لوبيا بالطماطم .. بالصلصة.

كانت اللوبيا لا أول لها ولا آخر تملأ فصول الدراسة ومخيمات المبيت وحقائب الطلاب.. لوبيا حمراء بكل مكان.. حتى إن علم المخيم كان يرفرف بلون اللوبيا المطبوخة بالطماطم.. كنت على وشك استكمال حلقة الدروس لهؤلاء الطلاب عن ضرورة الحذر من مخططات اليهود لاحتواء أفريقيا، منذ كانت مجرد فكرة في عقل الصهيوني هرتزل الذي رأى قبل مئة سنة من اليوم أن حلم إقامة دولة من النيل إلى الفرات يعني، لتحققه، سيطرة الدولة الصهيونية على منابع النيل ببحيرة فيكتوريا.. والسيطرة على الموانئ والملاحة بالبحر الأحمر، واستمر الهدف هو الهدف، مع مرور السنين علينا، نحن المسلمين، ونحن مستسلمون..

-"يا شيخ.. ألن نبدأ؟"-

قطع المترجم استرسالي في التفكير، وحالما خرجتُ للساحة الكبيرة المواجهة للمخيم.. الطلاب ينتظرون في شوق لسماع الدرس عن تغلغل الصهيونية في بلادهم.. أمسكت بالميكروفون وبدأتُ بالحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه،

ورضي الله عمَّن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين، أما بعد.. فإن الدول التي استعمرت أفريقيا في العقود الماضية أسهمت في ترسيخ الوجود اليهودي الصهيوني في هذه القارة النقية قبل أن ترحل.. هيأت يا إخواني.. بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستعمارية التي عاثت في بلاد المسلمين والعرب.. كل تلك الدول الاستعمارية هيأت بلدان أفريقيا لقبول الدولة الصهيونية العنصرية المغتصبة لأرض فلسطين المغتصبة للقدس الشريف.. كيف هيأت ذلك لما يسمى بإسرائيل من خلال فتح القنصليات لها في بلدان أفريقيا وإدخالها.. إدخال الكيان الغاصب المحتل ليفرض وجوده المغلوط.. ليفرض كيانه المشوه على أفريقيا من خلال منظمات الأمم المتحدة المعنية بالإغاثة والزراعة والتنمية والتعليم وغيرها.. حدث هذا قبل حتى أن تنال العديد من البلدان الأفريقية استقلالها.. وأغرت يهوداً أفارقة بالهجرة إلى ما تسميه أرض الميعاد؛ فلسطين، لكنها في الحقيقة لا يعنيها غير أن تثبت أقدامها في أفريقيا، خاصة في أوساط الأفارقة غير المسلمين، لكسر الحصار العربي الإسلامي المفروض عليها من الشمال والشرق حيث الأردن وسوريا، ومن الجنوب حيث مصر.. إن الصهاينة يلعبون على أرض أفريقيا لعبة بعيدة المدى متوهمة أنه سيصبح لها جبهة في أفريقيا تقلل بها أكبر تهديد لها، وهو مصر والسعودية.. يعني هي تريد أن يكون لها تأثير على قرار حكومات الدول المطلة على بحيرة فيكتوريا.. أترون الخبث.. وما أدراكم ما بحيرة فيكتوريا وأهميتها لمصر.. إنها الحياة إنها.. هذا الكيان الصهيوني يريد أيضاً أن يكون له تأثير على قرار دول أفريقية مطلة على البحر الأحمر ومضيق باب المندب، وما أدراكم ما أهمية البحر الأحمر ومضيق باب المندب لمصر.. بل مصر والسعودية واليمن والسودان، وحتى الأردن.. إنني إذ أحذر أحذركم من مخاطر النشاط الصهيوني لتكريس الحروب بين أبناء كل دولة أفريقية حتى إذا ضعفت سهل لها التدخل وتصعيد حكام لسدة

الحكم يأتمرون بأوامر البيت الصهيوني.. إنني أحـذر إذ أحـذركم مـن مخاطر التفرقة العنصرية وإثارة الفتن والحروب والنزاعات بـين أبنـاء الوطن الواحد والدين الواحد واللون الواحد..

أذكر على ما أذكر أن الحلقة الدراسية في مخيم الطـلاب تناولـت فيها العديد من القضايا.. وأذكر على ما أذكر أن كثيراً منهم كـان يريـد أن يعرف منزلة الجهاد في الإسلام؛ فقلت إنها عظيمة.. الجهاد هو ذروة سنام الإسلام بل أعلى مراتب الإيمان.. به تعلو الكلمة وتعز الأمـة.. إذا داس الكفار شبرا من أرض المسلمين أصبح الجهاد فرض عين على كـل مسلم في تلك الأرض، بمن في ذلك المرأة حتى لو لم يأذن لها زوجهـا شرط أن يكون معها محرم كالأخ أو الأب أو نحوه.. والعبد حتى لو لـم يأذن له سيده، والمدين حتى لو لم يأذن له دائنه، والولد حتى لو لم يـأذن له والده.. فإن لم يكف كل هؤلاء لصد الكفار مـن الصـهاينة وأمثـالهم يكون واجب فرض العين أوسع.. أي على من يليهم في أرض المسلمين إلى أن يعم فرض العين الأرض كلها.. أقول لكـم إنـه، منـذ سـقطت الأندلس حتى اليوم فإن الجهاد فرض عين على الأمة الإسلامية جمعـاء في أي أرض..

أعود لمبنى السفارة.. وفي الأيام العاديـة تنتهـي رحلـة الـوعظ والخطابة عقب صلاة الظهر عـادة، فأغتسـلُ سـاعة داخـل حمـامي الأفرنكي الفخيم قبل أن أهبط مساء لسهرة العشاء الرسمية.. الحديث عن صدام حسين وقوات التحالف والكويت.. ممنوع، أو هذا ما بدا لـي فـي أول الأمر.. أغرز الشوكة في صدر الرومي.. في فخذ الحوليّ المشوية، والوذ بالصمت.

السفير ينهض يقدمني لضيوفه من الدبلوماسيين وممثلـي جاليـات عربية وإسلامية في لاجوس لإلقاء درس ما بعد صلاة العشـاء.. قمـت محذرا إياهم من الحال والمآل الذي ينتظر الدول العربية والإسلامية حال صمتها على الأطماع الصهيونية في الشرق الأوسط وآسـيا وأفريقيـا..

كنت ألمح بطريقة ما لخطر استقدام الكفار لمحاربة العراق وإخراجه بالقوة من الكويت.. كنت أشدد على وجوب الجهاد ضد الغزاة أيا كان مبرر غزوهم لديار الإسلام.. فلا يجوز أن تستعين فرقة من المسلمين بفرقة من الكفار لقتال فرقة ثالثة من المسلمين.. قرأت في عيون كثير من الجلوس وكثير من الجالسات عدم رضائهم عن حديثي عن الجهاد، فزدت فيه قائلاً إن الذين يجادلونك في الجهاد كثرٌ، فهم إما جهلة وإما مغرضون..إن القاعدين عن تطبيق شرع الله.. إن الذين يجادلونك في الجهاد ارتضوا العيش في الترف والبذخ ورفاهية النعيم والتنعم لا يجوز لك، أي لي، الجلوس معهم..

ويبدو أن السفير السعودي أدرك أنني أعني ما أقول وأنني سوف أنسحب من الجلسة، فتدخل بطريقة مهذبة، لتخفيف حدة التوتر.. لكن لا أعرف من ذا الذي وجّه دفة الحديث حول صدّام حسين الذي هاجمه الجميع؛ وأثنوا على قوات التحالف.. وسافرتُ بعيداً، وأنا جالس في موضعي، ومنه سمعت ضحكة عالية.. ضحكة سيد، أم أنها ضحكة المخرج الأصلع:

–".. وما رأيك يا شيخ.. ماذا لو لم تكن هناك قوات تحالف.. النتيجة، يا إخوان.. أنتم تعلمون، ولا شك.."–

سألني الملحق المصري بلاجوس.. وأعاد، بسؤاله، الجلسة إلى حالة الترقب التي كانت تخيم على الجميع وهم يتابعون التصريحات الجديدة للرئيس الأمريكي.. شتم فيها، من محطة السي إن إن، الإرهابيين وأعداء الحرية في البلدان العربية والإسلامية.. أعادنا السؤال لأجواء ما قبل درس الجهاد، حين كان كلٌّ يحبس مشاعر غامضة حول الحشود العسكرية المتجهة لتحرير الكويت كما تبدو لنا من شاشة المحطة التلفزيونية الأمريكية.. لم يكن أحد يرد على الآخر بشكل مباشر أو صريح:

–".. وإلا ما رأيك يا شيخ؟"–

الملحق المصري يطاردني بأسئلته.. يلاحقني بعينيه الواسعتين وخديه المنتفخين الأحمرين.. كان الرئيس الأمريكي يلوي شفتيه إلى جانب قائلاً بطريقة مضحكة:

ـ"ذا آراب كانتر ز ماست دو إت.. ناو.."ـ

ثم يلتفت للجهة الأخرى من الشاشة ويمط شفتيه يساراً:

ـ"وات صداموهوسين وونت؟"ـ

واستمر الملحق المصري يحفر ليعثر على إجابة:

ـ"و ما رأيك يا شيخ.. أنت مع قوات التحالف.. أم أنك مع صدام حسين؟"ـ

لم يكن أحد ليسأل مثل هذا السؤال من قبل. كنا نتجمع عقب صلاة العشاء، ونقطع بالملاعق والسكاكين جلد السمك المشوي المشرب بالليمون.. نضرب أطباق الحساء بالملاعق.. وبها نغرف الأرز المخلوط بالمكسرات:

ـ".. وهل تظن أنت أننا في مصر حتى تتذاكى كضابط مباحث مبتدئ؟!"ـ

أجبته؛ فتطلعتْ تجاهي عشرات الوجوه.. عيون دبلوماسيين متحفظين وزوجات لهم وبنات محتجبات ومنتقبات وسافرات.. بعد حديث طويل وجدال ومناقشات، صعدتُ للطابق الثالث.. حيث خادمي وسائقي الخاص والبانيو الواسع المعطر؛ إلا أن السفير استدعاني؛ ليبدأ نصائحه الموحية المريبة باسم الطلعة ضاحكاً.. ربت على ظهري مشجعاً في غير الأوان.. أثنى على ذكائي لكنني لم أطمئن إليه أبداً..

جسدي ينتفض..

هكذا دائما يهب فجأة.. يستكين طويلا متأملاً ربطات عنق الدبلوماسيين وأردية النسوة وجلدهن المطلي بالفازلين.. بين كلمات الحرية والانضباط والمودرن؛ ثم يرتعد مرة واحدة.. فمي يرغي ويزبد بكلام المجاملات الفارغ والتفاسير السهلة لأمور الدنيا والدين التي تريح

العاصين من هؤلاء القوم المغضوب عليهم.. تهتز لحيتي يميناً وشمالاً بلا جدوى..

يلوي سيد عنقه غاضباً- لا بد- من السيارات المخصصة لي. ومن اللحوم ينزُّ فيها الدسم، ومن رائحة تفاح السهرة المثلج آكله جالساً وسط النسوة العاريات وأزواجهن من أنصار قوات التحالف.. يومئ المخرج برأسه الصلعاء جواري ساخراً.. أتلفتُ؛ فأسمع كلماته من آخر الردهة:

ــ"يا أيها البدو.. دعوا بينكم مساحة للتفاهم.."ــ

و يدور كل من المخرج وسيد بأرجاء البهو؛ فإذا هممت بالمنادة عليهما يكونان قد انصرفا في لمح البصر.. اختفيا، وتبقى عيون الدبلوماسيين وزوجاتهم يرمقونني مذعورين..

عمارات المغتربين ، ٢١ أغسطس، جدة..

إلى والدي الغالي..

لقد عدت لجدة مرة أخرى..

ليس صحيحاً أنني تعرضت للتعذيب في لاجوس.. لا أحد هناك يملك سلطة اعتقالي.. العمل بالتدريس لم يعد مجدياً الآن.. لا توجد مرتبات.. كما أن الأوضاع لا تختلف عن مصر كثيراً.. حتى في السعودية هناك أشخاص غير مرغوب فيهم ومحظور عليهم العمل بالتعليم أو أي مجال حكومي أو شعبي آخر بما في ذلك الخطبة على منبر المسجد..

أنا في انتظار موسم الحج. سأحج لك هذا العام..

أدعو الله يهديني سواء السبيل..

و السلام..

12

شارع الإسكندرية طويل آخره عمارة..

في الطابق الخامس كومة اللحم الأسود ملقاة فوق السرير..

تمسح عينا فايزة ذراعيَّ وساقيَّ.. يضغط خدها بطني.. تعصر كتفيَّ وعنقي تخنقه. تبعث لأوصالي الدفء.. أشم، فأشم رائحة البحر، وصوته يدوي من بعيد:

ـــ"لماذا أنتَ هكذا.. كأنك متزوج من نساء كثيرات في بلاد كثيرة؛ وهربت منهن جميعاً إلى هذه الشقة.."ـــ

تغمز فايزة ضاحكة.. ترتدي قميص نومها الأحمر الشفيف أولاً ثم فستانها الأزرق الجينز.. تلف رأسها بمنديل.. تقف تتأملني هنيهة أمام باب الشقة.. ضوء المصباح يزيد وجهها جمالاً وعينيها بريقاً. أمد ذراعي الطويلة الميتة لأستعيدها؛ لكنها تتمايل تخطو متراجعة.. تهمس:

ـــ"غداً.. غداً.."ـــ

و يمضي الغد، وما بعده يفوت.. باب الشقة صامت، والجرس لا يدق.. رائحتها لا تأتي.. لا تصل رنة ضحكتها.. ليس إلا الظلام والعفن يفوح من قدر المكرونة.. بهذه الطريقة أهمدُ لا أعي نهاراً من ليل.. الماء داخل البراد يغلي.. يتحول الشاي لسائل أسود مثل العسل.. يتحول العسل لقرص متفحم داخل براد الشاي.. الدخان يتصاعد من المطبخ.. يتوهج البراد فوق النار.. يملأ الدخان الشقة.. من تحت الباب يخرج.. من النافذة..

بالأمس جلستُ فوق السرير خمس ساعات. ثم خمس ساعات أخرى.. أتفحص ما حواليَّ من الجدران والملاءات بلا طائل.. أستلقي، وأقعد، ولا شئ غير الفراغ..

بالأمس دخلتُ المطبخ.. طاردتُ الصراصير.. ثم تركتها تسعى بين قدمي وعلى الأرفف وتحت الفراش..

هل أنا في شقتي بمرسى مطروح حقاً؛ أم أنني في غرارة الخيش بين جدران الإسفلت لم أزل. ويطول بي المقام هنا..

وقف الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض وحذائه اللامع بباب الزنزانة.. قال:

-"ها أنا ذا أمنحك الحياة من جديد؛ إذا كنت ستحيا.."-

و أحدق في وجهه ملياً وأتساءل إن كان هو ذاك هو ذاته المحامي الذي انتشلني من بين يديّ المحققين الألمان قبل أسابيع أو أشهر، أم ماذا يجري.. لماذا أنا الآن لست في معتقل فرانكفورت.. لماذا انتهى بي المقام إلى معتقل أبي زعبل أو طرة أو ما أدري.. هل هو نفسه الذي سبقني لينتظر عودتي الخائبة من فرانكفورت.. لينتظر ترحيلي من اليمن.. ليستقبلني وأنا مكبل بالسلاسل الحديدة قادماً من السعودية لميناء السويس فالقاهرة، أم ماذا يحدث.. إنني أذكر على ما أذكر أنه ذات الوجه الذي أنقذني من المحققين الألمان، وهو أيضاً ذات الوجه الذي كان يتطلع لسحنتي حين كنت ألقي الخطب المدوية في المؤتمر الإسلامي الذي دعاني إليه الأتراك في مدينة بون.. آه من الأتراك ونسائهم المتنقبات الواقفات ينصتن في خشوع وبكاء سواء في مؤتمرات بون أو مؤتمرات مدينة آخن.. أزعق لاعناً اليهود المحتلين القتلة.. القدس تغتصب يا أيتها المسلمات.. يغتصبها الصهاينة في عز الظهر.. أصرخ أنا.. والآن يدخل صوته ليوقظني بنذير العذاب الذي سألاقيه إن كنت سأحيا..

لم أفهم حينذاك ما كان يعنيه الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض حين قال إذا كنت ستحيا..

حاولت مراراً الوقوف على قدميَّ لأواجهه بين حيطان الزنزانة تلك الملطخة بالزفت.. حاولت أن استجوبه أنا.. أن أعرف من هو.. وهل هو هو أم أنه كان غيره.. لكن بدني بلحمه وعظامه يسقط وحده.. آه.. أقول ها أنا ذا قد انتصرت عليه فليهنأ بسهره وقهوته وسجائره

وانتباهه.. يسألني عن الطبيب الأردني وعن المستر فاكس.. يبـرز لـي محاضر تحقيق من الانتربول مكتوبة باللغة الألمانيـة.. يـردد رقمـي المستهدف في شوارع فرانكفورت وفي القطار الواصل بين سـاربروكين وسارلوي.. نول.. نول.. تري.. يتلو مقاطع من مذكرة الاتهام ومقـاطع من مذكرة الدفاع كأنه يحفظهما عن ظهر قلب.. كأنه هو هو.. أمّـا أنـا فلا أعرف أي شي عن كـل ذلـك.. إنـه يتخيـل ويختـرع قصـص وحكايات..أنا كنت أحاول استكمال دراستي العليا في ألمانيا فمـا شـأني بخزعبلاته عن البولتساي وكرم وعاصم وخلية تفجير الطـائرات ومـا أدري.. المهم أنه التزم الصمت، وقرر، فجأة، أن يغير دفة الأسئلة:

ـــ"كيف دخلت أفغانستان؟"ـــ

ـــ"لم أذهب لأفغانستان.."ـــ

ـــ"كيف دخلت هناك؟"ـــ

ـــ"أنا لم أذهب مطلقا.."ـــ

يصرُّ وهو يواري غضبه من إجاباتي القاطعة:

ـــ"طيب.. أخبرني بالطريقة التي دخلت بها أفغانسـتان، وسـأكتب هذا في ورقة منفصلة.. مجرد معلومة بعيداً عن التحقيق.."ـــ

ـــ"لكن لم أذهب لأفغانستان.."ـــ

ـــ"فلنسلم بأنك لم تكن بأفغانستان.. لكن أخبرنا بالطريقة التي يدخل بها المجاهدون إلى أفغانستان بدون تأشيرة على جوازات سفرهم.."ـــ

ـــ"لا أعرف الطريقة.. فأنا لم أذهب لأفغانستان أصلا.."ـــ

و يمضي عني خائب الرجاء.. يوما بيوم يطرح الأسئلة بعشـرات الطرق المختلفة إلى أن غلبه اليأس..

من باب الزنزانة للشارع.. لمحطة رمسيس.. إلى قطـار مرسـى مطروح حيث يرتج تحت الغبار صافرا؛ حتى ألقت كومة اللحم الميـت بنفسها هنا فوق السرير.. فماذا سيجدون؛ وأي نفع..

ترحل الشمس صباحاً تغيب وقت الظهر والعصر. وتشرق مع المساء.. مع وجه فايزة الصبوح. تملأ كفيها برأسي الثقيل.. وتنفخ ريح الروح.. نسمات الحياة في فمي، وتمضي.

أقول لو أستطيع السباحة في بحر بيرة صخوره الزجاجات الخُضر والرغاوي البيضاء رماله والكلام الخافت المملح بطعم الزيتون مذاقه..

لم تكن شوارع مرسى مطروح كما تركتها؛ قصُرت وضاقت.. ارتفعت على جانبيها العمارات الكبيرة الخاوية. زحف رصيف الكورنيش تجاه الشاطئ، أو أن الشاطئ زحف نحوه.. وترفرف طيور النورس فوق المويجات الرخوة.. أطفال يتعلمون السباحة يتصايحون.. مئذنة مسجد العوام تخترق السماء.. يؤذن صوت خشن مضطرب. أضع كومة اللحم الشوهاء؛ جسدي الثقيل، على حافة البحر.. أجلس، وتتمدد تحت بطني رجْلان ثقيلتان.. يميل فوق عنقي رأس مائج كالبيضة المعطوبة. أدخن سيجارة.. اثنتان؛ أتقيأ.. يختلط الرمل الأبيض بلون البلغم والعصارة الصفراء.. تتدفع بطعمها المر عبر لساني ومن بين أسناني كالعلقم:

–"وااااع.."–

وتتسكب دفعة عصارة ملونة بالدم.. تفور على الرمل، وتنطفئ:

–"ضيَّعتَ سيد؛ وليدي.."–

تهزني المرأة بعينين شاخصتين:

–"وين وليدي؟"–

ياقة قميصي تشدّها.. ترجُّ جمجمتي المشربكة بخيوط العنكبوت:

–"قتلته.. قتلت وليدي. قتلته.."–

و يبتعد الصوت في آخر الطريق أراها تعقد كفيها خلف ظهرها تفتش الأرض..

يتلاشى نحيبها:

–"قتلته.."–

أربض هنا عـــُـقب النهار متخفيا أرى ظلها يخطو خلال الفـــراغ تحت أفق الصحراء على حافة الوادي كأنها أم الحبوني أراها..

رياح الشتاء تعوي فوق الصخور.. الموج ينـــوح أو يـــئن تعبـــاً.. تختفي طيور البحر، وقرص الشمس ينحدر في المغيب..

أتسلل لشارع الإسكندرية أريد البيت.. أصعد للطـــابق الخـــامس.. ترتقي كومة اللحم الدرجات حتى تتهاوى فوق السرير لكـــي تنـــام، ولا تنام..

في اليوم التالي جاء الهواري.. أخذ الكومـــة كلهـــا فـــي صـــدره؛ ضمَّـــني فأنزفني عَرقاً كالزفت.. قرأ من صفحات وجهي نصف كتـــاب فقط؛ ثم دفن رأسه بين كفيه باكياً:

-"بحيرى هناك مازال يراقب منتظرا.."-

حاولت تذكيره بالأيام الخوالي. شهق، وابتسم كأنه يجاريني:

ـــ".. وأين غريب؛ أقصد سيد.. هل ذهبتما للجهاد بأفغانستان حقاً.. سمعت أيضاً بسفركما لليمن وألمانيا.. كيف؟"ـــ

الهواري هو الهواري.. مازال يطير على شاطئ البحر.. يشـــرب البيرة، ويرقص.. وبدا أنه لم يعد معنياً بمن يفوز أو يسقط في انتخابـــات الدائرة.. يغيب يومين أو ثلاثة ثم يطرق البـــاب بزجاجـــات خضـــراء.. قوارير البيرة نرتشفها حتى الصباح، ويمضي.. لا يعـــود إلا بعـــد أيـــام أخر:

-"كانت هناك بعض الأعمال.. لم أربح منها شيئا.."ـــ

يقول مبررا.. يصبُ السائل الفوار.. يمد لي الكأس، فالثانية:

ـــ".. وبأي مدرسة تعمل الآن؟"ـــ

و حين لا يجد إجابة يلقى سؤالاً مغايرا:

ـــ"عملت مدرساً في اليمن.. أليس كذلك. اليمنيـــون فقـــراء؛ فـــأي مكسب.. لكنك لم تتزوج على أية حال.. هذا أفضل في الحقيقـــة.. إلا أن هناك ما لا يُعوض بغير الزواج؛ الولد.. الابن. أن يكون لك طفل يكبـــر

ويركب البحر أمام عينيك.. يضرب بذراعيه الموج، ويكافح نحو البر.. ثم يقلدني وأنا أرقص فوق الرمال.. ذلكم ابني. لكنك لم تتزوج بعد.. هذا أمر غير طيب من بعض الوجوه.. الزواج نصف الدين، وأنت يا شيخ أعلم؛ إشرب.."ـ

تسيل قطرات الندى فوق زجاج الكأس:

ـ"البيرة مفيدة للكلى.. دواء إذن.."ـ

يضيف الهواري. ثم يغير دفة الحديث برمتها، لكنه لا يتوقف عن طرح الأسئلة:

ـ".. وأين الشيخ سيد.. أنت وسيد أصبحتما فجأة شيخين ذلك الوقت. أتذكر مخرجنا الأصلع.. اختفى.. أما حالكما حينها فقد تغير.. أتذكر عندما كنتُ أمرُّ عليكما أمام مسجد الفتح.. أنت وسيد، وأفكر حينها.. يا إلهي كيف أصبحا هكذا بجلبابين أبيضين ولحيتين صغيرتين ووجهين متجهمين.. وأقول السلام عليكما؛ فلا تردان السلام ولا تلتفتان إليَّ.. لماذا؟ أنا أعرف السبب. كان لي صديقات كثيرات.. صديقات من المصطافات العاريات.. أنا أعرف.. رأيتماني مع ثلاث بنات بشارع الإسكندرية.. كان ذلك بينما الغضب يلف شوارع مرسى مطروح أيام غزو بيروت. ومن بعدها رفضتما مخاطبتي أو حتى رد التحية.. ها.. الأولى كانت من حلمية الزيتون.. أما ارتداء الشورت فأمر عادي عند أهل حلمية الزيتون وقت المصيف.. والثانية؛ أختها الصغرى.. بالصف الأول الثانوي تدرس وتلعب كرة القدم مع فريق البنات بالمدرسة.. هكذا هم. أما الثالثة فجارتهم؛ طالبة كلية الحقوق.. تطلق شعرها الأسود الطويل على كتفيها العاريتين. كنَّ صاحباتي.. كل صيف يأتين.. يعشقن بحر مرسى مطروح.. وصخرة ليلى مراد. وفي آخر يوم يجتمعن حولي ويلححن لأمضي معهن لباعة اللب الأبيض والنعناع.. كل البنات اللائي عرفتهن على هذه الشاكلة.. أحتفظ لهن بعشرات الصور والخطابات.. ذكريات، والآن تأتي الواحدة وتصيح توقظ الشاطئ: يا هواري.. تعال

لتتعرف على زوجي.. ومنهن مَن عادت الصيف الماضي بعد سنوات الغياب، وخلفها سرب من الأطفال.. يلعبون مع ولدي؛ وهكذا.. لكنك لم تتزوج على أية حال.. وهذا أمر مؤسف.. أما البيرة فمفيدة للكلى بدون شك؛ اشرب!"ـ

يشرق الصباح فيختفي الهواري مخلفاً الرغاوي البيض في بطني ورأسي.. أهشُّ الصراصير.. أقضم قطع الخبز الجاف.. كومة اللحم فوق السرير ألقيها. أضم ركبتي ومرفقي على صدري.. أتكور كأنني جسد إسفنجي فارغ من العظام.. أغيبُ لينتصف الليل حيث يشرق الهواري بمزيد من القوارير:

ـ"وهل صحيح أن سيد استشهد بأفغانستان؟ كأسك.."ـ

كان الهواري بالنسبة لنا- نحن أعضاء فرقة التمثيل- مجرد ظلٍّ كبير يتأرجح خلف الستارة البيضاء أكثر منه شخص من دم ولحم. يصيح المخرج أين الهواري.. الآن إلى مكانك.. أين مهندس الإضاءة.. سلط نوراً قوياً من الوراء.. اطفِ الأضواء في المقدمة.. مهندس الصوت.. مشهد بحيري زاحفاً على أرض سيناء بعد العبور.. استعد.. ثلاثة.. اثنان.. واحد.. ابدأ. وأزحف أنا على خشبة المسرح صوب المئات من المقاعد الفارغة للقاعة. وبطول الجدار القماشي تكون ذراعا الهواري قد استحالتا لظل كبير ينشر جناحيه استعداداً للطيران.. والآن يجلس هو ذاته هنا بالطابق الخامس أمامي، وقد بدأ الشيب يغزو شعره:

-"مرت عشرون سنة أم أكثر!"ـ

يسأل، ويصب كاسين. أشعلُ سيجارة من سيجارة. أشدُّ نفس الدخان مع جرعة البيرة اللاذعة.. وأؤكد له:

ـ"البيرة، يا هواري، حرام شرعاً و.."ـ

ويقاطعني:

ـ"انتظرْ.. انتظرْ.. من قال لك إنني أسخر، أو إنني شيوعي.. أنا انضممت للحزب، لكن لم أكن شيوعياً.. الشيوعيون لا يناقشون قضايا

البيرة والخمرة.. يطالبون بالحكم لمن يزرعون ويصنعون.. للعمال والفلاحين.. يعني أن تدير أغلبية الشعب الأمور في البلاد، وأشياء من هذا القبيل؛ أما أنا فكنت أطالب بالديمقراطية لا أكثر.. مجرد التعددية الحزبية كما كنا نقرأ عن فرنسا مثلاً.. تعرف أن انتخابات البرلمان جرت عقب غزو بيروت حيث شوارع مرسى مطروح يغطيها الغضب من صمت الحكومات. كنت مندوبا بتوكيل رسمي عن قائمة مرشحي الحزب.. في لجنة مدرسة الشهيد المعناوي.. كنت مندوبا هناك مع أربعة من مندوبي المرشحين على قوائم الأحزاب الأخرى.. فجأة دخل علينا ضابط يرتدي قميصا أبيض وبنطلونا أسود وحذاءً لامعا.. وعلى عينيه نظارة شمس سوداء. سأل.. أين مندوبي المعارضة؟ ومن ثمَّ أخذ التوكيلات.. مزقها، وقال اخرجوا من هنا.. وفي الحال ساقنا الجنود والمخبرون لخارج أسوار اللجنة. زوروا الانتخابات كلها. حتى القاهرة.. كتبت الصحف عن تزويرها.. مثلما حدث خلال الانتخابات التالية. نعم.. منذ ذلك الوقت حتى الآن.. يدخل الضابط ببنطلونه الأسود ونظارته المعتمة.. ويسأل عن مندوبي المعارضة، ويمزق التوكيلات.. يسوقنا الجنود والمخبرون في الحال دائما إلى خارج أسوار اللجان الانتخابية، وهكذا دواليك.."ـ

كان الهواري ينظر لذراعيَّ الأسودين.. لوجهي العجوز.. يرمقني مشدوها، ولا يسأل عمّا حلَّ بي طوال تلك السنوات.. يتملّى كومة اللحم الشوهاء قدامه.. يمد كأس البيرة، ويستعلم عن شئ آخر. كم حاولتُ أنا وسيد في الأيام الخوالي ضمه للأخوة بمسجد الفتح؛ التقطه اليساريون. تقطّعت أنفاسه جريا وراء الانتخابات دون جدوى.. وماذا يظن نفسه اليوم.. مجرد مؤجر مظلات ومراكب نزهة للمصطافين.. وحاصل على دبلوم المدرسة الثانوية الصناعية.. بلا وظيفة ثابتة!

قضيت الأسابيع الثلاثة الأولى أتجول في شوارع مرسى مطروح ساعة الغروب. بعد ذلك لم أستطع. لم يعرفني الأخوة الجدد بمسجد

الفتح.. أما القدامى فإن الأمور لا تسير علـــى حالـــة واحـــدة.. أحيانـــاً يتفحصني أحدهم قليلاً ثم يسير في طريقه لا يلوي على شئ.

أحدق في المرآة.. لخدي الأيمن فالأيسر.. أتحسَّس عنقـــي وشـــعر رأسي ولون أذني.. كيف لم أدقق النظر لسحنتي. كانت لحيتي كبيـــرة.. مستديرة كالمروحة.. واليوم لـــيس إلا وجـــه تمـــلأه الحفـــر والخنـــادق المهجورة والأسلاك الشائكة..

يغيب الهواري يومين أو ثلاثة ثم يعود يشرع متسائلاً:

ـــ".. لماذا يعيش الإنسان بين الجدران بينما هناك، فـــي الخـــارج تحت الشمس، عالم فسيح.. آفاق البحر بلا نهاية. أما أن تستمر الأوضاع هكذا، فلا يمكن أبداً.. ليس له إلا الموت بديلاً.. الجسـد يحتـــاج للمـــاء المالح والموج والرمل الأبيض الساخن. ثمـــة قـــرارات حاســـمة تغيـــر مجرى الحياة تماماً. قد يبدو اتخاذ القرار صعباً.. لكن مجـــرد أن تضـــع قدميك على أول الطريق تتكشف ستائر الظلام خلفك.. ترى الليل الطويل الذي عشت فيه وقد انجلى. تفتح عينيك على النور فـــلا تعـــود بعـــدها للوراء أبداً.. تريد أن تبكي.. ابكِ في الخلاء لروحك فلا يوقفـــك أحـــد.. تبكي للنهاية، وبعدها لن تملأ عينيك الدموع.. ستشرق مثل النهار وتنظر للطريق بعينين صافيتين. يقولون هنا إنـــك أخـــذت ســـيد لأفغانســـتان، وتسببت في موته.. هـــم يقولـــون، وأنـــت بـــين الجـــدران الصـــماء.. الصراصير، والمكرونة العفنة، ولا شيء.. ولا كلمة. مجرد أنك تعـــاقر البيرة الحرام.. وربما تدخن الحشيش بوحدتك هذي. كيف أنك مع ذلـــك لا تسكر.. تحتاج لبحر من البيرة كي تغيب عن الوعي.. وعندها تقـــول إن الديمقراطية كفر والأحزاب فـــُرقة.. أنا- في الحقيقة- أســـخر مـــن حالتك الآن لحد الضحك.."ـــ

و بفمه يتمطق الهواري ويطبع قبلة على خدي.. ثم يضمني لصدره باكياً بكاء سكران متهدج. ومع آذان الفجر يلملم أطرافه خارجا بعـــد أن يكون قد تعثر في المقاعد وانكفأ متخبطاً. وحين يصفق الباب خلفه يكون الصباح قد ضرب سقوف العمارات المجاورة!

.. جسد الهواري طويل.. مفتول العضلات مدبوغ بملح البحر والشمس. شعره الأسود وخطه الشيب. هل تجاوز الأربعين سنة من عمره، أم لم يتجاوزها. عندما تدير البيرة رأسه يختلط عليه الأمر فيتحدث بلهجته الصعيدية:

-"أنا الهواري يا بوووي؛ الهوارة كلهم.."-

ذلك الزمان فيه أشجار الزيتون كانت تلف بيوت مدينة مرسى مطروح.. بيوت واطئة لا تزيد عن طابقين جدرانها ملونة بالأبيض والأزرق كالبحر.. كان ذلك فيما نحن أطفال نحمل زجاجات المياه لمتطوعي المقاومة الشعبية المسلحة المراقبة على الساحل. وفي المساء نرافق المتطوعين الآخرين لموقع الكلية الحربية بمنطقة البوسيت. لبيوتنا نعود محملين بالخبز. وعند الخريف الثاني من النكسة شاهدنا أول دبابة مجنزرة.. جرينا خلفها. هللنا لها ولمن فيها من جنود حتى دخلت المطار الحربي جنوبا. وهناك أخذنا ضابط أسمر لمشاهدة الطائرات حيث أنشأ يهز عصا طويلة أمام صورة ملونة.. قال إن هذا الخط الأخضر هو نهر النيل.. وهنا الدلتا، وعلى طول ساحل بلدنا، مصر، تلك النائمة على الخريطة، توجد قوات مرابطة من الجيش، وثمة فرق للمقاومة الشعبية من المتطوعين المدنيين:

-"نعم .. أتذكر. كنت مع الأولاد؛ لكنني لم أرك.. لا أنت ولا سيد.."-

يلمّحُ الهواري.. يختبرني:

-".. وأين كنتما عندما جاءت غارة إسرائيلية على المطار.. كنت أنا مع أمي بالبيت نتعشى، وفجأة ضربت صفارات الإنذار، و.. نفخنا شعلة المصباح. سمعنا دوي الطائرات من وراء الظلام. أما أنت فأين كنت.. أنت وسيد؟!"-

عاملنا الهواري معاملة خاصة. قال لنا المخرج الأصلع إن والده ذهب مع الأبطال لمواجهة جحافل العدوان الثلاثي، ولم يعد حتى الآن.

نحسب نحن.. ثلاثة عشر عاماً أو يزيد والهواري بدون أب. ننظر إليه.. نستمع لما يقول، ولا نعارضه. يربت المخرج على كتفيه يدفعه لخشبة المسرح:

ــ"هيا.."ــ

و يبدأ ظله الطويل في الرقص والطيران!

13

أتوقف أمام شاطئ البوسيت. ريحٌ وخواء..

الخريف شماليا يهب ببرده وصقيعه..

على حافة مركب مقلوبة عند أعراف الموج البيضاء، أجلس..

طعم الملح بفمي ورائحة اليود أيضا. تنزلق أصابعي على الحفر الغائرة بوجهي وعنقي.. الشاطئ طويل مهجور.. طيور النورس تجاهد بأجنحتها، ثم ترتكز فوق الصخور.. تحلق تطارد الموج.. تنزلق هاوية تجاه الأرض المفروشة بالرمل.. تجري، وتقف. تضغط قدميها لتطير من جديد..

هل استشهد سيد في المأسدة.. في شعاب الوديان بأفغانستان؟ أم أنه عاد للسعودية. يرتدي الثوب الأبيض والغطرة المزركشة الحمراء. يتعطر بالمسك، وينظف فمه بالسواك كخطيب وهابي بمساجد مكة، أو داعية من دعاة الرابطة.. تراه في لاجوس الآن.. مع الأخوة بشتوتجارت، أم أنه تسلل لداخل البلاد حيث أرض النيل المزدحمة.. بالقاهرة.. الجيزة.. مراكز الصعيد.. الأخ سيد في ديروط أو بنها!

تنشر الصحف وجوها كثيرة.. أخوة قبض عليهم يخططون لعمليات جديدة. فإذا كان قد غيَّر اسمه فهل تراه غيَّر صورته. أما أنا فلم أكن هناك. لا أحد يعرف ما حدث بالضبط. في جميع الأمور لا أحد يعلم تماما..

قد تكون هناك أشياء تعتقد أنها صحيحة وفي وقت آخر تظن أنها خطأ.. أحيانا تسخر من هذه ومن تلك. تظل هائما على وجهك.. تضرب الدروب كيفما اتفق. تكتشف أخيرا أنك كنت تبحث عن وسادة تريح عليها رأسك لا غير.. عن رغيف خبز تأكله لا أكثر.. عن طريق آمنة تتجول فيها مساء؛ لكن من يدرك مثل هذه الأمور الصغيرة. كما إنه لم يكن ثمة أحد يعرف ما نبحث عنه بالضبط، ولم يكن سيد على قناعة تامة عندما قرر أن يفجِّر ضريح سيدي يونس. رأيت هزَّة التردد..

هنيهة ارتباك كرعشة الريشة.. في ذلك المساء أنا، وهو على حافة وادي الشولحي، غربي مرسى مطروح.. أنا وهو والضريح؛ ثلاثة وسط الصحراء يحملنا بساط أصفر تقطعه خطوط رمادية لهضاب تتماوج خلف سراب القيظ!

لم تكن الأحوال تسير وقتذاك وفقاً لما كنت أريده.. الآن أستطيع أن أنظر للوراء. أطيل النظر..المساحات الواسعة المترامية كلها بيداء جرداء لا نهاية لها.. وهناك، في البعيد البعيد، تنكفئ فوق الصحراء سماء صافية؛ إلا أنها لا تلتقي بها أبداً:

-"هذا إذن الضريح.."-

قلت جالساً بجواره حذاء منحدر الوادي. كان سيد، وهو طفل، يختفي فجأة شهراً أو يزيد لدى جده؛ فإذا عاد مع بداية الربيع وسرنا على شاطئ البحر كشف لي عن خبايا رحلته:

-"أنظر. تراب سيدي يونس.."-

و يحكي لي عن التجهيزات التي كان يقوم بها جده وجدته استعداداً لزيارتهما السنوية للضريح، حيث يتم شراء بخور وشبّة. وترتق العجوز الخيمة، وتعلف الحولي الذي يصيح جوارها بينما هي تعد الأيام:

-"مااااء.."-

يستنجد الحولي شاعراً بالخطر، فتجيبه غير مبالية باستعطافاته اليائسة:

-"آه، يا سيدي يونس خاطرك.."-

يسكت الحولي هنيهة مفكراً بمستقبله المظلم ملقياً اللوم على أمه النعجة التي اختفت وراء سور الزريبة قبل شهرين، ثم يتنبه فيعاود الصياح مجدداً بطريقة مختلفة كأنه يستجير بسيد الذي يلهو قربه ساهياً..

و تبدأ الرحلة لسيدي يونس عصر يوم خميس. تطقطق عجلات الكارو عبر المدقات الترابية. تهبط منحدراً ترتقي مرتفعاً.. وأمامها يراوح الحمار الأشهب بأذنيه الطويلتين على قرص الشمس البعيد.. فوق الهضبة الرمادية.

في صباح اليوم التالي يفتح سيد عينيه على النهار وقد أشرق من الجهة المعاكسة. تتوافد عربات الكارو والحمير والخيول والجمال من نجوع الصحراء.. تتجمع حول الضريح.. عشرات الأطفال يقذفون الفضاء بالحجارة.. يتصايحون. نساء تجللهن الأرديسة البرقية الملونة يساعدن بعضهن بعضاً لنصب الخيام فيما يشبه نصف دائرة حول الحجرة المهملة القديمة التي يرقد داخلها ضريح سيدي يونس. والرجال يشدون لهن الحبال يوثقون الأوتاد. وآخرون يتعانقون في جانب من ذلك الخضم، كيوم عيد.

و عند الظهيرة افترشوا بقعة جرداء وجلسوا لسماع خطبة الجمعة..

كان سيد وحده يقف بعيداً يشاهد الفراغ الشاسع المحيط بذلك الجمع الصغير من الناس الذين تكوموا تحت سماء لا حدود لها منتظرين تأدية صلاة الظهر ليأخذوا نصيبهم من الحوالى، والجديان، والمرق بعد شهور طويلة لم يتذوقوا فيها طعم الثريد.. ينظر نحوهم من خلف ظهره ماشياً يجتاز الحصى والشوك والنباتات البرية الجافة حتى يشرف على الوادي.. يصيح بصوته الحاد منادياً على نفسه:

ـ"يا سيد.."ـ

فيرد عليه الصدى بعد هنيهة من قعر الوادي:

-"سيد.. يد.."ـ

فيقول:

-"أنا سيد لا أنت.."ـ

فيرد الصدى:

-"أنا سيد لا أنت..أنت.."ـ

يغضب ويرتفع صوته:

-"اخرس"ـ

فيجاوبه الصدى غاضباً:

-"أخرس.. اس.."ـ
-"أقول لك اخرس، وإلا نزلت لك يا بن الكلب:
فيشتمه صدى صوته بلا تردد:
-".. وإلا نزلت لك يا بن الكلب.. الب"ـ
و يشتد عزم سيد متحدياً:
-"سأتركك وحدك وأعود لجدي:
و يصر الصدى أيضا:
-"سأتركك وحدك وأعود لجدي.. ادي..-"
و يلوح سيد حانقا:
-"و جدتي.."ـ
فيرد الصدى بحنق:
-"و جدتي.. اتي.."-
وينهي سيد الجدال بصيحة مخيفة:
-"إخراااس.."ـ
لكن الصدى يرد مصرا:
-"إخراااس.."ـ
يتأمل عمق الوادي قبل أن يعود أدراجه لموقع الضريح..

كانت الشمس قد غربت، والنسوة أشعلن النار أمام خيامهن تصّاعد منها أعمدة الدخان بالعلائق المشوية. عقب صلاة العشاء اهتز الدف.. رؤوس المادحين تمايلت.. عبّق البخور الخيمة. أخذت الجدة حفيدها سيد.. زحفت به حتى أجلسته بين يدي الشيخ. قدمت له صُرة البخور والشبّة وورقة نقد. قرع فوق رأسه بإيقاعات منتظمة يرتجف لها القلب.. قرأ عليه آيات من القرآن، فتكاثف دخان البخور في ظلام الخيمة.. وفي الاستراحة أخرج قلم كوبيا.. كتب على ورقة طويلة كلاما كثيراً غير مفهوم وطواها. دسها بين يدي الجدة:

ـ"و الآن أنظر.. هاهي مع صُرة تراب سيدي يونس؛ لكي تبعد عني الشر والحسد، ولأنجح بالمدرسة.."ـ

و نجحنا. انتقلنا تلك السنة للمرحلة الإعدادية فالصف الأول الثانوي. وبعدها رحل المخرج الأصلع.. اختفى، وتفرقت الفرقة المسرحية، ولم يكن لدينا ما نفعله..

والدي يستشيط غضبا عندما يرى سيد:

ـ"هذا البدوي أفسدك بالمسرح والخراب. البدو لا يحبون التعليم، سيعلمك تدخين السجائر والوساخات.."ـ

و يقطع عني المصروف..

أما والد سيد فكان يغيب عن بيته منذ مطلع الشمس لمغربها.. تستقبلني أمه بترحاب:

-"يا سيد، صاحبك المصري جاء.."ـ

نمضي سويا.. نتجول على شاطئ البحر. كان سيد يدفعني لنذهب لبيتنا؛ فأختلق الأعذار كي يمضي اليوم، ولا يراه والدي معي.. وفي ذلك النهار تنبهت إذ أن سيد لديه ما هو حسن أيضا.. أخذته لأبي:

-"سيد يحفظ القرآن كله. حفظه عند الفقيه.. عند جده، وهو طفل.."-

لكن والدي الذي استقبل البشرى مندهشا بادرني متحديا:

ـ".. وهل ستحفظ القرآن، مثله؟"-

كانت مكتبة بيتنا مهجورة منذ زمن بعيد؛ فأبي مشغول بدكانه. جاء ظهرا فوجد باب المكتبة مفتوحا.. وأنا وسيد نتصفح مجلدات عن الفقه والسنة ومختار الصحاح وصحيح الترمذي. يتطلع نحونا متشككا، ثم يغلق الباب وينصرف. أما والد سيد فكان يظن أننا مازلنا ندخن السجائر منذ واقعة بطن الصخرة.. صخرتنا الملعونة على الشاطئ..

يقترب حين نسلم عليه كل مرة. يتشمم وجهينا وملابسنا. يسألنا أسئلة غريبة. يأمرنا:

-"أدخلا.."-

كنا نقف بالباب؛ إلا أن سيد لم يدخل. عصر أصابعه ببعضها، وقال:

ـ"يا أبي.. عندما تريد أن تنصحنا فقل مثلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للحسن والحسين. قل: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامَّة.."ـ

تراجع سيد خطوة للوراء وقد عقد الخوف لسانه، بينما تجهم والده بغتة، وشعَّت من عينيه مهابة غريبة. نظر إليَّ؛ إلا أن سيد استجمع شتات ما حفظه، وواصل مرتبكا:

ـ"هذا قول الصحابة.. صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. ثم هذا مكتوب.. هناك قرأنا، وعرفنا.. كتب عن الصحابة والسلف الصالح.."ـ

دخل والده مشدوهاً ربما من جرأة ابنه.. ظل سيد, وأنا أمام الباب قليلاً، ثم درنا على عقبينا تجاه بيتنا. سهرنا بمكتبة والدي للفجر.. صليناه، وكانت الليلة الأولى التي يغيب فيها عن بيتهم. سيد يحفظ القرآن حقاً، لكنه لم يكن متفقهاً في أمور الدين؛ أما الآن فقد تفقه..

أحيانا تقرر قطع صلتك بالماضي، لكن هذا غير صحيح..

ما يدفعك لقطع صلتك بالماضي، يكون دائماً شئ من خارجك يرغمك، ويدفعك دفعاً للبعيد، لتسقط.. عند ذلك فقط تجد لسانك يتحرك داخل فمك وحده تقول لنفسك ها أنا ذا قد قررت النزول من قمة الجبل، لأعيش في السفح. فيالك من بائس.. وربما كنتُ وسيد بائسين دون أن نعلم..

كثرت الليالي التي نقضيها خارج بيتنا. والد سيد كان يردد في الأسواق أن:

-".. ذلكم الولد المصري أفسد ابني!"-

أما أبي فكان من جانبه يكيل اللعنات على اليوم الذي سمح فيه للبدوي ابن البدوي مصاحبتي، وهو يشيع حكمة ارتجلها في حينه ارتجالا، وهي أن الرجل البدوي، كيهود خيبر، يظل ماكرا، ولا أمان له حتى لو كان يحفظ القرآن..

عاش سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتيماً.. ولم نجد في كتب السنة والسيرة ما يفيدنا عن وجوب هداية الأبناء لوالديهم. فقط كان النبي إبراهيم عليه السلام ينصح أباه بألا يتبع الشيطان لأن الشيطان كان للرحمن عصيا، فرد عليه أبوه متسائلا مستنكرا قائلاً أراغب أنت عن ألهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك.. فماذا فعل إبراهيم؟ هجر أباه مليا. قال سأدعو لك ربي..

الليالي تمر طويلة حيناً وقصيرة حيناً آخر. في الصيف تعلق الشمس بكبد السماء ولا تتحرك. الرعد والعواصف والأمطار شتاء.

لا يطيق الغرباء الوافدون العيش في مرسى مطروح تحت الظلام والبرد ونباح الكلاب الضالة. أما خلال الصيف، فمن يتحمل لون البحر الأزرق وسكون الصحراء الصفراء.. يتحمل الغريب الحياة أسبوعاً.. أسبوعين؛ أما بعد ذلك فلن يجد لغير الهروب بديلاً..

لا شئ غير الفراغ أمام عينيك، والحصى الأسود تحت قدميك، وظلك يتبعك بلا كلل. حاولت بهذه الطريقة أن أجدّ البحث للنهاية. لم يكن ثمة شئ بالتحديد أريد أنا أو سيد الوصول إليه. كان مجرد السير هكذا، والعرق ينزّ تحت ياقة قميصي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف. كان كل منا قد هجر بيته متخذين من خيمة غوط رباح مستقرا، ومن هناك نتجه للمدرسة الثانوية، ونعود كطالبين مغتربين في بلدتنا:

ـ"يا أيها الطلاب.. إن ما تنشره صحف أمس والأسبوع الماضي عن السلام، ما هو إلا محاولة لقبول الأمر الواقع تجاه العدو. نعم. إن هناك من يردد اليوم أننا كدولة لا نكن أي عداء لليهود.. لكن الصحيح

أننا لا نكن العداء لليهود كأفراد.. لهم دينهم ولنا ديننا.. والذين يحاولون أن يفرقوا بين ذلك الكيان الاستعماري وتوجهات الساسة الأمريكيين هم واهمون.. كيف تعقد سلاماً مع جارك وأنت تعلم أنه يؤمن بأن من حقه استعباد الآخرين وحرقهم وقتلهم. إنهم لا يريدون فلسطين فقط.. سيسعون بالحديد والنار لبناء مملكة عنصرية من الفرات للنيل. إن.."ـ

و فجأة توقف مكبر الصوت:

ـ"الكهرباء انقطعت.."ـ

قال مشرف الإذاعة المدرسية، وحسم الأمر..

استدعاني ناظر المدرسة صباح اليوم التالي، ومن مكتبه لمبنى مباحث أمن الدولة:

ـ".. وفي أي سنة دراسية أنت؟"ـ

سألني الضابط، وهو يخطو حول مكتبه بحذائه اللامع وبنطلونه الأسود وقميصه الأبيض.. ولم أكن أدرك في تلك اللحظة أنه سيقف أمامي أينما ذهبت.. أجاب عن السؤال بنفسه، ثم أردف:

ـ"أنت حرضت طلاب المدرسة الثانوية على مقاطعة الدراسة.."ـ

صمت، ثم أجاب بنفسه أيضاً:

ـ"حرضتهم، وحرضتهم كذلك على الاعتداء على ملك من أملاك الدولة؛ مخزن المبيدات.. هو مخزن تابع لمجلس المدينة، والمجلس حكومة، دولة.."ـ

إنه يتبع طريقته الدائمة التي استخدمها معي لإرهابي وتخويفي.. في كل مرة يصمت دقيقة أو دقيقتين وهو يدور حولي بدخان سيجارته المارلبورو محمراً عينيه مكشراً أنيابه.. يطلع فجأة من تحت الأرض ليذكرني بأننا سنلتقي.. هذا إن كنت سأحيا..

المهم أنه في تلك السنة البعيدة، وبعد يوم من الانتظار، جاء والدي مذعوراً، وحالما استكان في حضرة الضابط الذي أنشأ يعنفه ويهدده ويلقي عليه باللوم وما أشبه من تلك الكلمات:

-"أنت أهملت كثيراً تربية ابنك هذا.. من تنظيم المخرج الأصلح، لتنظيم الجماعة السلفية.. ما هكذا تكون تنشئة الأولاد يا حاج.. هل تعني بهذا أن نربيه لك نحن.. أنا هنا أستطيع شد الآذان شداً موجعاً من جذورها حتى تطقطق.."-

لم يفهم والدي المسكين شيئاً.. لم يتوقف عن ترديد كلمة واحدة:

-"ساذج.. ابني ساذج. ساذج هو.. هو ساذج.. ذلك البدوي، آه.. ساذج ابني!"-

سلمني الضابط له، وحال سبيله يقول إنه إذا لم أتوقف عن نقل الخطب من شرائط الشيخ كشك والمحلاوي، وبثها بين طلاب المدرسة، فإنه، أي والدي، لن يراني مرة أخرى.. كان أبي يمشي بجواري زاماً شفتيه غاضبا، وعلى هذا افترقنا على مبعدة نحو شارعين من مبنى المباحث.. كان سيد يقف على الرصيف المقابل وسط خمسة من الأخوة.. انضم إلينا سبعة آخرون، ونحن نسلك طريقنا لغوط رباح جنوب المدينة. اثنان هداهما الله قريباً، وكانا قبل عامين معنا بالفرقة المسرحية، أما الباقون، فمنهم أخوة طلاب قادمون في إجازة من جامعة الإسكندرية وسائق شاحنة ونجار وثلاثة من الرعاة العاطلين عن العمل بسبب الجدب والجفاف..

في الغوط لا توجد طيور نورس بل طيور أم بريمة الشهباء الفزعة تحتمي بالأغنام السارحة على جانب الطريق في المساء تختفي.. فوقفنا بثيابنا البيضاء النقية صفاً لصلاة المغرب بعدها بدأنا فرز الدفعة الجديدة من كراتين شرائط الكاسيت.. حوالي ألف وخمسمائة شريط تسلمناها أنا وسيد من أخينا في الإسلام الذي يدرس القانون بالفرقة الثالثة بالجامعة:

-"لو وزعناها كلها هذا الأسبوع، ووزعنا مثلها الأسبوع القادم، لأدخلنا صحيح الإسلام كل بيت بالصحراء.. النجوع كلها، والمدن هديناها.."-

بدأ سيد تصنيف شرائط الدروس الدينية، ثم الخطب، وبعدها شرائط القرآن الكريم لمقرئين مصريين، وسعوديين، وكويتيين، وجزائريين.. كانت الدروس والخطب لشيوخ آخرين يتحدثون بلهجات عربية متباينة.. منها الصعيدية، والمصراوية، والسعودية، وحتى الجزائرية أيضاً.. أسمعها، رغم مرور الأعوام وراء الأعوام.. أسمعها وأنا ملقى اليوم أرى نفسي جثة مسجاة في الطابق الخامس لا تقدر على الحراك.. أسمعها تتردد بين جدران الشقة كأنها كانت أمس حين أنصتنا بعد صلاة العشاء خاشعين لدرس كان يدور، والضوء الصغير الأحمر يتوهج ويخبو في جانب جهاز التسجيل نابضاً بكيفية قراءة الفاتحة، وأنه حسب السُنة تُقرأ آية آية.. وبعدئذ، والعبد مستشعراً أنه يخاطب المولى عز وجل، سيجد نفسه، بهذا الكلام، أنه يخاطب الله سبحانه وتعالى، لأن الله يقول قسّمتُ الصلاة بيني وبين عبدي، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله أثنى عليّ عبدي، هذه لله. فإذا قال العبد الرحمن الرحيم، قال الله حمدني عبدي. فإذا قال العبد مالك يوم الدين، قال الله مجدني عبدي. فإذا قال العبد إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله هذه بيني، وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. منك العبادة، ومن الله الإعانة. هي سبع آيات، ثلاث لك، وثلاث لله، وواحدة بينك، وبين الله. الثلاث الأول لربي حمدٌ، وثناءٌ، ومجد. والثانية بينك وبين الله. منك العبادة، ومن الله الإعانة. والثلاث الأخيرة لك. قال الله فإذا قال العبد اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين، قال الله هذه لعبدي، ولعبدي ما سأل..

نسأل الله وإياكم الفضل، واحرص أخي المؤمن على التأمين بعدها.. بعدئذ تذكر، وأنت تقول الحمد لله رب العالمين، أي تحمد الله بكل محامده لأن الألف واللام لاستغراق جميع المحامد.. والعالمين كل ما سوى الله فهو عالم.. فأنت تقول الحمد لله.. أي يا ربي أصرف إليك جميع المحامد، والثناء لك وحدك لا شريك لك، وبأنك أنعمت عليّ بنعمة

ليس بعدها نعمة أن أوقفتني بين يديك، وجعلتني عبداً من عبادك، ما جعلتني عبداً للشيطان، ولا للشهوات، ولا للهوى، ولا للدنيا.. لكن المطارق تضرب أذني تهزني:

-"يا شيخ افتح.. افتح.. الشقة تحترق!"

أحرك يدي فلا تتحرك.. أهز رجلي فلا تطاوعني.. مجرد كيس من اللحم الخالي من العظام مكوم على فراش يتصاعد من حوله الدخان في الطابق الخامس..

14

.. وما النتيجة. أقصد بعد كتابة هذا التقرير.. أعنى كيف ستكون الأوضاع، فربما يلقون القبض عليّ مرة أخرى. فماذا سيجدون؛ وأي نفع..

وجه الهواري يتلألأ تحت ضوء المصباح. وجه عجوز لا يتوقف عن الصمت الطويل والحديث المتصل:

-"هل تعرف لماذا اشتركتُ معكم في تمثيل تلك المسرحية؟"-

سأل، وبعد صمت طويل أجاب:

ـ".. كان والدي يعيش داخل رأسها. يتحرك.. يعمل، ويعود من الشغل ليتناول الغداء في رأسها. لم أكن أفهم منذ البداية أن أمي تطوي هاتيك التفاصيل بين جوانحها.. الثوب الأزرق والعمامة البيضاء والجروانة والحجاري.. القادوم. سراويله التحتية. كل متعلقاته عاشت في البيت معنا. أما أين والدي ذاته، فهذا ما كنت أراه في عيني أمي.. ألحظه هنا أمامي، وأبصره هناك بطول الجبهة.. يقف أمام القناة الطويلة على كتفه قصعة الأسمنت يجري ملوحاً بها يهش طائرات العدو.. كنت أنا خلف الستارة البيضاء أتطلع للسماء فوقي تمطر بالقنابل، وأنتم تنظرون لظلي الطويل. لم أر ذاك الظل أبداً، لكنه كان يشبُّ من صدري متأهباً.. وكانت مسرحية المخرج الأصلع بالنسبة لي تبدأ من منتصف الطريق. أبصر بيده الجروانة نفسها. ينضم مجدداً للطوابير الطويلة داخل معسكر التدريب. ذهب العدوان الثلاثي، وجاءت النكسة، وهو لم يمت. رفاقه جاءوا لبيتنا، وسألوا عنه.. أتذكر كيف كان المخرج الأصلع يروي ما وقع بمركز التدريب.. بحيري في طابور المستجدين، ومن خلفه غريب، وشمس الظهيرة الخانقة فوق الرؤوس. الضباط يضربون بأحزمتهم العسكرية، ولا يأبهون بعضو منظمة الشباب.. صفعه أحدهم حين اقتحم معسكر التدريب وصاح بأنه لا يحق لكم ضرب هؤلاء الفلاحين المساكين. لا تجردوهم من الهيبة اتركوا لهم كرامتهم ليذهبوا

بها للجبهة. لا يحق لكم هذا.. ما تفعلونه يؤكد أن الرئيس لا يتحمل النكسة وحده. بيد أن الأحزمة الجلدية شيعته وهي تفرقع على ظهره تارة وفي الهواء تارة أخرى. تعثر عضو المنظمة وسقط أمام بوابة المعسكر خارجا. فلنشرب الليلة لآخر زجاجة.. أما أنا فلم أكن أحب التمثيل. المخرج الأصلع.. ذلك الملعون. تركنا فجأة!" ــ

و يعود الهواري لصمته المتصل. لم أكن أعلم أنه يذكر أيام قصر الثقافة هنا.. أيام المخرج يصدر التعليمات تحت الأضواء الخافتة:

ــ"أريد، في هذا المشهد، ثيابا عسكرية ممزقة، الآن.."ــ

يقول لمصمم الملابس، ثم يلتفت إلينا أنا وسيد:

ــ".. هنا سيدخل بحيري وخلفه غريب.. يدخلان وقد خارت قواهما. أنظرا كيف تمشي القدمان من التعب.. أنظرا.. هكذا.. أنا الآن كأني سأسقط، لكني رغم هذا أواصل السير وأخطو للأمام.."ــ

يوم الجمعة تبدأ البروفات صباحا. يغلق علينا المخرج باب المسرح، فيتردد صدى صوته من تحت صلعته داخل البهو الواسع بين المقاعد الخاوية. في وقت الراحة عند الظهر يخلط لنا الجبن الأبيض بالطماطم الحمراء.. ويتحدث عما كان يطلق عليه جو المسرحية. ونندهش من كل تلك الأحداث المكدسة في رأسه. من أقدام تمشي فوق رمال.. ثم على الطين صيفا وشتاء.. أي عذاب خاضه الجنديان بحيري وغريب.. يضربان بأرجلهما وسط الآلاف من الجنود الجدد المتعطشين للثأر.. الجري من أنشاص لجبل عتاقة. والاستراحة عبارة عن أوامر بمواصلة المشي بلا توقف لا ليلا ولا نهارا. تدريبات كانت أم كانت عذابا. كل تلك التجهيزات ليوم العبور العظيم.. إلى رفح.. يقول بحيرى، فيعترض غريب، لا.. بل ليافا، والقدس..دُرْ!

وتشد الأذرع المفتولة مجاديف القوارب المطاطية تحت الظلام من نيل حلوان لأنشاص.. ثم مرة أخرى لترعة الإسماعيلية. النيل في طوبة زمهريرٌ.. وتنهمر فوق الجنود مياه المطر. في الوحدة حيث طعم مرارة

الفم وحُرقة ماء الدمع على حدقة العين. هنا، من خلف الضباب، ومن وراء الظلام ترى.. تستكشف ما سيحدث بعد غد وبعد بعد غد. تبكي أم تصارع خضم البحر مفقود الهدى حتى يهدك التعب؛ فتهبط للقاع بلا رجعة.. شخير الجنود ينبعث من ظلمات النوم.. ليلة رقاد من ثلاثين ليلة سهر.. أسابيع، والأحذية تقطع بر مصر طولاً وعرضا.. ليلاً ونهاراً:

ـ"للخاااالف دُرْ.."ـ

و بعد ساعات:

ـ"قف.. اييييـــــــ.. ـــنتباه.."ـ

لحظات لالتقاط الأنفاس، وتدور الدائرة من أولها:

ـ"معتاداااان.. مارش.."ـ

يتردد الصوت المبحوح حتى آخر الصفوف:

ـ"عِد.. اثنين.. ثلاثة، هُب. عد.. اثنين.. ثلاثة، هُب.."ـ

ثم فجأة يصيح مجددا:

ـ"قف.."ـ

و تستدير الدائرة دورة أخرى.. بلا نهاية!

خلال الأيام الأولى التي عدتُ فيها لمرسى مطروح، ذلك المساء كنت أحسبُ أنني سألتقي بالوجوه القديمة.. سأعثر على سيد والأخوة. لكن بدت البلدة للوهلة الأولى أن الذين كانوا هنا قد مضوا، وأوغلوا بعاداً، ولم يكن منهم غير عملاء الأمن المتخفين في الثياب البيضاء والذقون السوداء.

أرحت جسدي الثقيل على حطام واحد من المقاعد القليلة الملقاة بالمحطة..

كانت الساحة خاوية، واثنان يتحدثان في الركن المجاور عن موضوع ما غير مهم لهما؛ لأن الأول كان يحدق ركبتيه بوجه متعب، والآخر يردد كلمات رخوة وهو ينظر لصدره حيناً ويرفع عينيه نحو السماء المعتمة حيناً آخر.. حتى أنه لم يلتفت تجاهي، كأني لم أكن أحد

أبناء المدينة العائدين من الحرب والكرب وسجون الأجانب والعرب والمصريين..

يرقد شارع المحطة تحت غبش المساء.. كان كذلك، وكنت أنا لا أقوى على رفع قدمي اليمنى لعبور الرصيف، فإذا شددتها عنوة، جاء الدور على القدم الأخرى؛ فأي عذاب.. كان النوم فوق السرير حلمي الأخير.. أن أنام أياماً وليالٍ فلا يوقظني نداء الآذان، أو أوامر الحارس، أو دوي المدافع، أو إيقاع خطوات المخبر الألماني يهمس لجهاز اللاسلكي.. نول.. نول.. تراي..

مرسى مطروح يا مرسى مطروح.. سماؤك ملبدة بالغيوم، وشوارعك سدتها جدران الأسمنت.. وأناسك القدامى استُبدلوا بالأغراب.. بمحلات جديدة.. دكاكين للفطير، والفول، والطعمية، والكبدة.. أما على الكورنيش، فالبنايات ارتفعت وطالت مئذنتي مسجد العوام.. لدرجة أن ريح البحر تصفع الجدران الصماء بطول الشارع، وتعود دون أن تدخل المدينة. رغم كل هذا، وقف الهواري فوق الماء يرقص ينزلق اللوح الخشبي تحته مخترقا الموج الأبيض. هنا يهمد البدن المنهك يتخذ الصخور مهداً.. يتهاوى كومة من اللحم الأسود. يدور الرأس؛ فترتفع جبال زرقاء تحت الأفق تنبسط تضرب حواف الشاطئ الصلدة، وتطرطش على وجهي. وساعة بعد ساعة تستحيل الدنيا حواليَّ لخضم أزرق بلا نهاية.. يختلط الرمل الأبيض بلون البلغم والعصارة المرة.. تندفع على لساني ومن بين أسناني كالعلقم:

-"واااع.."-

داخل حجرة الزنزانة الانفرادية السوداء كان الموت يقف بعيدا مثل مجال سماوي بلا أطراف أناديه لا أخشاه، ولا يستجيب. أما اليوم، وأنا أبصر الحد الفاصل بين القبة الزرقاء، والبحر حرا طليقا فأجد وجه الموت يتحاوطني مثل جدران الزفت والقار.. جدران زنزانة انفرادية؛ فقلْ إن الحياة بعد اليوم فناء، ولا جدوى من كل ما يردده الهواري:

ـــ"العمل.. قمْ من جديد، وأشتغل؛ بهذا تستعيد روحك وعزيمتك.. اعمل معي، ليس في تأجير الشماسي لا سمح الله، ولكن هناك السمسرة.. مجرد مجموعة أرقام هواتف.. اتصال هنا، ومكالمة هناك، وإذا نجحنا في بيع قطعة أرض واحدة، ولتكن مساحتها خمسمائة متر مربع، فسنحقق ما يكفي لشراء مخزن كامل من صناديق البيرة، ونقضي الصيف بطوله على شاطئ البحر، نتلهى بتأجير الشمسيات للمصطافين، ونرقص معهم. ونسهر بالفنادق نصاحب المستشارين واللواءات القادمين من العاصمة، ونشرب على وشوشة الموج للصباح.. وبعد ذلك ملعون أبو العالم.. ملعون أبوه من أوله لآخره.."ـــ

كان الحل الوحيد لدى الهواري يتلخص في أن العمل هو الدواء الذي سيرمم الروح المتصدعة. ولم يتوقف عن طرح البدائل:

ـــ"حسناً، إذا كنت لا تريد سمسرة الأراضي، فاعمل بشهادتك مدرساً. وبعد انتهاء وقت العمل نبدأ إجراء الاتصالات.. فقد نعثر على مشترين من القاهرة، وربما نتوسط في بيع قطعة أرض كبيرة على البحر مباشرة.. خمسين فداناً مثلاً.. هناك من حقق الملايين في يوم واحد بسبب السمسرة.. هنا، أنظر هذه الأجندة بها أماكن قطع الأراضي المطروحة للبيع. وإذا انقطع المطر سنة أخرى سيطرح البدو المزيد من أراضيهم في السوق.. لو عثرنا على مشترٍ واحد من القاهرة.. أو مجموعة مستثمرين لإنشاء قرية سياحية.. أو فندق خمس نجوم. هناك مستثمرون وأراضٍ .. وكل ما نحتاج إليه لا يزيد عن ضربة حظ.."ـــ

الهواري اختفى، واختفت معه الرغاوي الفوارة والحكايا المشبعة بملح الزيتون. لا هو جاء للطابق الخامس.. هنا، ولا أنا اجتزت إليه الصخور.. هناك. بقيت الزيارة الوحيدة المستديمة من الخادمة في بيت أبي.. تطرق الباب كل يومين أو ثلاثة. تضع قدر المكرونة، وتنصرف كأنها تخافني.. أكانت تلقي عليَّ السلام.. نعم كانت، وكانت أيضاً لا

تفلح في تحاشي النظر لوجهي المشوه؛ لكنها لم تعلم بأمر فايزة بأي حال من الأحوال. أو أنها علمت والتزمت الصمت..

فايزة قصة أخرى لن يعرفها أحد. طيف يدخل من النافذة.. يخترق فراغ الشوارع والأرصفة دون أن تراه العيون.. شئ كغمازتي الخدين عندما تتبسم لي.. كقميصها الأحمر الشفيف وجلدها الناصع.. الطري!

.. واليوم، وقد اختفت، أقف بالشرفة أتطلع لسطح فندق ريفييرا المواجه. هناك كانت تنشر على حبال رخوة العشرات من ملاءات الأسرَّة. هل كانت تعلم منذ البداية بعودتي.. أجلس طوال الليل والنهار دون حراك معلقاً في الطابق الخامس البارد المطلي باللون الأبيض؛ بلون الكفن.. لكنها صعدت درجات السلم حينذاك. طرقت.. وعلى الباب سألت:

ـ"هل أشرت نحوى.. أنا.."ـ

ثم دخلت، وأضافت:

ـ"أنا من عاملات الريفييرا.. ظننت أنك تريد تنظيف شقتك.. أنت تقيم هنا وحدك، أليس كذلك؟"ـ

وكانت خلال هذا الحوار الخاطف قد دارت بعينيها، وقالت:

ـ"الخبز الناشف ملقى بكل مكان، وهذا يجمع الصراصير.. وكيف تترك أعقاب السجائر تغطي كل بلاطة من بلاط الشقة، وهنا أيضا فوق المناضد.. قد تحرق نفسك، أو يصيبك المرض.."ـ

وضحكتْ، فكيف سرَتْ الضحكة بين عروقي، كأنها فايزة حقاً بشحمها ولحمها؛ لكنها لم تكن. ومع ذلك مسكت طرف الضحكة، وقلت فلتكن إذن هي بروحها، ولتتسلل عبر شراييني لتنبض.. وتذوب في دمي ليتحرك، وتسير معه لتسكن كل نبضة من نبضات قلبي. بعد ذلك بأيام حاولتُ أن أشرح لتلك العاملة كيف كنت أنظر للوحة زيتية على جدار. لوحة مزيفة موقعة بحروف إنجليزية مشربكة لاسم طويل غير مقروء. رسم يصور مشهداً غريباً لكوب زجاجي وملعقة زجاجية فوق طاولة من

الزجاج. وكنت دائماً أتساءل لو سقطت اللوحة، فهل سأسمع صوت تحطم الكوب، والملعقة، والطاولة.. هنا يقشعر بدني، وتنتابني رعشة.. هي نفس الرعشة التي تهز أوصالي، وتدير رأسي، مع ضحكتها التي تذكرني بضحكة فايزة.. شئ له رنة تحطم كومة من الأطباق الزجاجية على أرض الشقة.. ضحكة فيها حياة صاخبة. وهرعت العاملة هاربة فزعة من كلماتي حيث بدت لها مخيفة لأمر ما.. إلا أن طيف الإنسان، مثل جسده يموت في حين؛ ليعود للحياة حيناً آخر.. وهكذا تطير روحي تحلق وراء السحب منتشية في الوحدة والاتساع الفارغ والصمت المطبق. فجأة أحرك القدمين مني فلا تتحركان على الأرض، ولا فوق بلاط الحمام، ولا أعرف كيف أجر بدني لألقي به على السرير مبللاً بالمياه اللزجة منزلقاً بالصابون ألحفه بالأغطية فينكمش كالرضيع من البرد يرتعد مذعوراً يثغي بلا أم ولا أخت، ولا رضعة صناعية تطفئ الجوع في أمعائه ومخه.. كنت وراء الظلام فهل أنوح أم كان السعال والغمغمة والضيق؛ فأزيد من إحكام إغلاق النوافذ المطلة على الفندق لأتجنب العاملات الواقفات فوق السطح ينتظرن طلعتي ليقسن على ما يبدو حد الفزع الذي يمكن أن أسببه لهن؛ ولذلك فإنه.. لا أذكر، غير أن عاملة الفندق، لا أذكر بالضبط..

المهم أن الحرص على الإقامة بمرسى مطروح أطول مدة ممكنة كان الدافع الوحيد وراء تكوين المخرج الأصلع للفرقة المسرحية.. ربما كان يتمنى للسنوات أن تطول حتى يواريه تراب الصحراء هنا لتصعد روحه مشبعة برائحة اليود إلى السماء. استطاب العيش جوار شاطئ البحر.. على ضفة البيداء الواسعة انتظاراً لأمر ما.. ما هو؛ ما يعرف أحدٌ.. وعقب اختفائه روى الهواري قصصاً مبتورة عن حياة الجندية الغابرة لمخرجنا، وقرأتُ شذرات من الكراسات والأوراق التي استحوذ عليها الهواري في الزمان القديم.. فقاقيع تتكور ثم تنطفئ بلا نهايات محددة كرغاوي البيرة تخرج من فمه في سهرتنا تلك مثلها كحياتي

المبعثرة المشتركة التي عشتها قريناً لسيد حيث مرت السنين على شاطئ البحر نسعى، وفي الصحراء.. كل الأيام والليالي خلقت شخصاً ثالثاً بيننا لا تبصره العين يمد ذراعيه ليمسك براحة كل منا يقول إن العقلَ عليك يسلمُ بيده تهز يدك ترتعش شوقا حاراً كرياح الخماسين المحملة بالغبار الأصفر الناعم؛ فيلتصق بعرق الجلد المحموم ترتعص فرائصه من اللهفة بعد طول البعاد الممتد ليالٍ يضرب فيها البرد تكنس الريح بقايا الورق من النفايات الكلاب تنبح في الزوايا المظلمة هنا الظلُّ يتمدد عكس الضوء يستطيل فينكمش مع الخطوات تتعاقب على صوت شرطي ثم دورية فاشتباه.. محضر تحقيق.. تجديد حبس فغرفة مفروشة ببرك البول يسعى فيها البق السمين من امتصاص دم زوار الجدران الأربعة تحت سقف يعشش العنكبوت عليه يحرك سيقانه الطويلة فيتصيد هاموشاً بل قل ذباباً ألقته يد القدر في شباكه المنسوجة بخيوط متقاطعة واهية تراها يا سيد لكنها قوية مثل الهاجس الذي يمر عبر الخاطر حيث تلتفت كأنك ترى طيف الضحكة المتوارية خلف لحيتك ينتابك الذعر ملهوفاً تريد الخروج من الحجز الليلة؛ فتُمسك بتلابيبي:

–"كيف يكون هذا.. كيف؟"–

كان يومك الخانق وليلتك الأولى بين الحيطان المجرحة بالغناوي المبتورة والذكريات المشوشة لغرباء مضوا إلى المجهول قبلنا أربت على ظهرك ليطمئن قلبك..

اقتحم الحارسُ المحبسَ يلطخُ الوجوه ببصاق لزج عفن فماذا أصنعُ الآن يا سيد غير أن أطلق الأنفاس الحارة أستعيدها فتملأ الصدر ليضيق فتتحشرجُ الحنجرة التي تآكلتْ من طول ما مرَّ عليها من دخانٍ أسمع رَجْع صوتك يا سيد صبياً بين هضاب سيدك يونس من بعيد يتناهى أنين مواويل العَلَم لرعاة حفاة أمضوا لياليهم يقيسون محول الوادي البئرُ جفَّ ماؤه يلملمون أطراف أسمالهم المرتقة خلف ثغاء ضأن لا تكبر ولا تلد حملانَ أبيضٌ صوفُها كالحرير تنط بدفء الربيع مبتهجة سارحة في

عشب كان فأطفأه موج السراب الساري تحت مدى العينين الشاخصـــتين من طول انتظار مزنة تعبر لعلها تجرُّ خلفها سحاباتٍ فسحباً داكنة تنـــوء بالماء العذب المتدفق على الصحراء تفيض يغمر السيل الوهاد فالـــدوريُّ يرفُّ والقُبَّر خفراً من رائحة المطر الساقط.. من رائحة الأرض التي لا تشبه رائحة المحبس المظلم جدرانه صماء يا سيد كوّتة انسدت لا تبصر قبة السماء فالنجوم اختفت عمَّ السكون الـــدنيا فأمامـــك اليـــوم خطـــوات الضابط بقميصه الأبيض بنطاله فحذائه أسوَدين تتردد عبر الخواء تبـــدأ فاتحة استجواب بالأقدام تركل إذ تصفع الأكف جسداً يسقطُ مـــن جانـــب الفم يسيلُ الدمُ القاني كلون وردة فتَّحها الربيـــع ببســـتان فـــايزة هفهـــف شعرها يا سيد في الوحدة المقيتة هفهف ذيل حصان أدهم يتبختر خـــلال هدأة الأصيل حيث الشمس تغرب يخلع البرد أرديته لـــ.. يســـلم عليـــك العقل.. رجلٌ ثالثٌ عاش بيننا معجوناً من سنين طوال بل قل اختلاجـــات لا تمسكها اليد لا تراها العين.. يسلم عليك يا سيد.. يسلم موثـــق اليـــدين فالكاحلان ينزف منهما دم تختلط رائحته برائحة الأصفاد الآن الكرباج.. الآن طاولة التحقيق.. الآن نفس الحذاء.. البنطلون.. القميص الأبـــيض.. الضابط ذاته ذاك الذي كان يقف مع زملاء له حول مخرجنـــا الأصـــلع أمام مبنى قصر الثقافة، ومن بعدها توقفت المسرحية:

ـــ"أخذت أنت وسيد، طريقاً طويلةً مرهقـــة لا تنتهـــي.. طريقـــاً لا تشرق عليها الشمس أبداً.."-

قال الهواري، وتجرع مزيداً من البيرة، وأردف:

-"أما أنا فقد استوليت على متعلقات المخرج، ومازلتُ أحتفظ بهـــا حتى الآن.. فربما يعود يوماً ما.. حدث ذلك عقب اختفائه بأشهر.. كنت أجلس وحدي في ذلك الركن بالمكتبة عندما دخل رجل عجـــوز القاعـــة وسأل عن الضابط.. المقدم. وقال اسمه وأخذ يصفه حتى أدركـــتُ أنـــه يبحث عن مُخرجنا الأصلع، وهكذا ذهبتُ للحجرة التي كـــان يســـتأجرها بالعزبة الغربية.. حجرة فقيرة لها سقف مثقوب تـــرى خلالـــه الســـماء،

وسرير حديدي يغطيه الصدأ، وأكداس من الورق، وسروال عسكري، وسترة صفراء قديمة معلقة بمسمار على الجدار. حزمتُ متعلقاته في صرة كبيرة.. ووعدت الرجل بأن أسلمها لمدير قصر الثقافة، لكنني لم أفعل، بل توجهت بها رأسا للبيت.. بعد أسبوع سألني المدير القصير السمين عن الرجل العجوز وحجرة المخرج ومتعلقاته، وبهذا توقفتُ عن قراءة المسرحيات في المكتبة، وتحولت لقراءة عشرات الكراسات المكتوبة بخط يده.. هل تعرف من هو بحيري ومن هو غريب؛ إنهما كلاهما الضابط.. المقدم نفسه. نعم، ما هما إلا المخرج الأصلع ذاته.."–

15

ـ"شروط دخول المؤمن النار.. هذه الشروط أرجو أن تقيد وتذاكر.. يعرضُ الإنسان نفسه عليها.. هل هذه الشروط متوفرة فينا، والعياذ بالله، أم لا؟ إن كانت غير متوفرة فهذا هو النجاح.. متوفرة؛ الإنسان يتخلص قبل فوات الأوان. صلوا على رسول الله.. شروط دخول المؤمن النار. الشرط الأول، واحد، أن تكون له ذنوب تخرجه عن دائرة المتقين. نقول الشروط، وبعدين نتعرض لكل شرط دقائق حتى لا أطيل عليكم. الشرط الثاني، اثنان، أن تكون ذنوبه كبائر. الشرط الثالث، ثلاثة، أن يموت غير تائب من ذنبه. الشرط الرابع، أربعة، أن تغلب سيئاته حسناته. الشرط الخامس، خمسة، ألا يكون من الذين سبقت لهم الحسنى من الله، كأهل بدر وأهل بيعة الرضوان. الشرط السادس، ألا يشفع فيه أحد. الشرط السابع، ألا يغفر الله له.. نيجى للشرط الأول، أن تكون له ذنوب تخرجه عن دائرة المتقين. أنا أتحدى أي ذنب وأي معصية نهانا الإسلام عنها فيها ذرة خير. أتحدى الفلاسفة، والعباقرة، والباحثين، وكل أعداء الله أن توجد معصية واحدة نهانا عنها الإسلام فيها ذرة خير.."ـ

كنا نستمع خاشعين حتى قلبنا الشريط على وجهه الآخر، حيث واصل الشيخ درسه المسجل فيما النور الأحمر من جانب الجهاز ينبض مع كل كلمة وحرف:

".. وأتحدى أن توجد طاعة، ولو قليلة، فيها ذرة شر.. المعاصي اليوم، والذنوب التي تخرج عن دائرة المتقين، والعياذ بالله، النهاردة نشوف الخمرة ماذا صنعت بأصحابها؛ تليف الكبد.. التقيح في الـ.. شفتين، وزوغان العينين.. ترى الواحد كذا، والعياذ بالله مترنحا. وبعدين شارب الخمر يكون إيه.. يموت على غير لا إله إلا الله.."ـ

مثل شرايط الكاسيت هذه دخلت كل نجع.. كل قرية.. كل مربوعة في الصحراء من مدينة الحمّام للسلوم. ندخل المصلاة الصغيرة لأبناء القرية. نصلي معهم العشاء.. وبعدها يبدأ سيد بلهجته البدوية الجادة:

ـ"إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ورضي الله عن آله وصحابته ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه إلى يوم الدين.. أما بعد؛ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا.. أيها الأخوة المسلمون.."ـ

و يدفعني للأمام، فاستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. درس الليلة عن الصلاة.. تطفو على سطح ذهني أحاديث شتى رواها جابر بن عبد الله، وأنس، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، والمسور بن مخرمة.. وغيرهم، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم. عيون القرويين ورعاة الأغنام تحصي حركة شفتي بلا كلل:

-"يا لهذين الولدين في جميع النجوع يطوفان يعلمان الناس أمور دينهم.."ـ

يقول الناس ونحن نوزع شرايط الشيوخ وكتيبات السلف ونلقي الدروس بعد صلوات العشاء.. نخطب على منابر الجمعة. كنت وسيد نسير عبر ذات الطريق لآخر المدى حيث السراب يتماوج على الهضاب الرمادية.. من هناك يصفر القطار الحربي.. ينوح مخترقاً البيداء والوديان حاملاً آلاف الجنود.. وأطنان الخبز والباذنجان. يضعنا الليل في نجع ليحملنا الصباح التالي لنجع جديد، حتى وصلنا لمدينة براني.. وكان سيد يعرف وأنا أعرف أننا الآن ولجنا معقل قبيلة فايزة. وتحاشى كلٌّ منا الإشارة لذلك..

و لا شك أننا بقينا نردد داخل أنفسنا أن قدومنا إلى هنا لا يزيد عن كونه خطوة في طريق الدعوة لكتاب الله وسنة نبيه، ولا شئ آخر مما قد يتبادر إلى ذهن أي منا..

كان المسجد الرئيسي يطل على الطريق الدولية تخترق بنايات المدينة الأسلاك الشائكة هنا في كل مكان. سيارات الجيب العسكرية تنصت أمام المحلات الصغيرة الفقيرة متحفزة؛ ومع ذلك هزّ مكبر الصوت أرجاء تلك البلدة المعزولة عن العالم. انتهى الدرسُ العاشرة ليلاً. تحلق حولنا عدد من رجال براني في مربوعة عمدة الحبُّون الذي تعرّف على سيد ووالده وقبيلته.. عمدة، لكنه صموت.. الجملة الوحيدة التي قالها قبل أن يقدم لنا العشاء:

-".. أ تحسبون أن الناس لا يؤمنون بالله، يا بو الحاج؟!"-

و كان يقصد سيد الذي ردّ عليه بشريط كاسيت فيه خطبة طويلة عن حُرمة زيارة القبور، على الوجه الأول، ودرس عن درجات عذاب القبر، على الوجه الثاني..

لكن الليل لم ينته كما كنا نبتغي..

اقتحم الرجل غريب الأطوار الذي طالما سمعنا عنه المربوعة.. إنه آخر من رأى والد فايزة حياً حين غربل الرصاص جسده. ذلكَ الرجل المعروف باسم الخبير رأسه بيننا وأخذ يلتهم ما تصل إليه يداه من طعام:

-".. أين كنت عليك اللعنة؟"-

تصايح عدد من الموجودين ضاحكين:

-"كُل يا خبير، كل.."-

قال العمدة دافعاً أرغفة الخبز نحوه..

الأمطار لا تسقط على صحراء براني إلا مرة أو مرتين كل خمس سنوات. تنشف الأرض والآبار.. تجف الأفواه ثلاثة أعوام. تهزل الأغنام، وتضمر سنام الإبل حيث لا سبيل للعيش إلا باجتياز هضبة السلوم.. عبور الأسلاك الشائكة لمدينة إمساعد الليبية، ومنها لربوع الجبل الأخضر وسفوحه الناضرة أبداً..

كان الخبير يأخذ رسائل أهالي براني لذويهم الذين يعملون في طبرق وبنغازي.. يعود بعد شهر أو شهرين بالمؤن. أكياس شاي.. أجولة دقيق.. ثياب، أما النقود.. الدينارات الليبية الثمينة فلا جدوى منها هنا.. مجرد أوراق ملونة لا تعترف بها البنوك الرسمية بمرسى مطروح..

ازدادت أهمية الخبير بعد غزو السادات لمدينة إمساعد وقطع العلاقات مع ليبيا. تفرقت العائلات على جانبي الحدود، و.. وقفت خيام الحكومة من براني للسلوم، و.. وين تمشي يطلع لك عسكري يفتش عن شهادة الميلاد، وبطاقة الهوية، وترخيص السير، ثم.. للمحكمة العسكرية دُر، وهناك ستة أشهر مقدما داخل الحبس.. أما السادات والقذافي فلا يعلم إلا الله إلامَ يرميان في نهاية المطاف..

يصغي الخبير للأحاديث الخافتة متوجسا ينتظر شاي ما بعد العشاء، ليعود إلى الصحراء يختفي وراء النباتات البرية أسابيع يلازم الإبل والخراف. يقضي ليلته مع راع شرقي التل، وتشرق عليه الشمس مع راع غربيه.. ومن لا يعرفه سارحا؛ حتى الطيور تعرفه، إن كنت تصدق..

قبل الواقعة الأخيرة كان الخبير شابا قويا يحفظ دروب الصحراء ومواقيتها. يمر بالنجوع من مرسى مطروح حتى السلوم سيرا على قدميه حينا، وراكبا الدواب والسيارات العابرة حينا. طعامه التمر وشرابه مياه الآبار الباردة الصافية. يحمل في خرجه عشرات الرسائل والطلبات.. يصطحب رفيقه الحبوني ابن وادي ماجد.. يلقيان التحية على حارس الحدود، ويكملان مسيرتهما لـ.. إمساعد:

ـ".. وهل كان أحدٌ يعترف بالأسلاك الشائكة والبوابات.. الأرض من هنا لهناك بساط واحد، وليس غير جندي مصري من جانبنا وليبي من جانبهم. وما من أحد يطلب أوراقا أو إثبات شخصية.. وإلا ماذا تظن. واستمر الحال على تلك الوتيرة، إلى أن توقفت الحرب في سيناء.

فماذا يفعلون بعساكرنا هناك.. جاءوا بهم هنا. لم يتوقـف القطـار عـن شحن الآلاف من بقايا المحاربين.. والمجندين الجدد.. الآلاف من أطنان الخبز والباذنجان.. وها هي الخيام وسيارات الجيب تثير تراب الصحراء والشاحنات الماجاروس يأكلها الصدأ جميعاً.. ومع ذلك لا يكف الجنـود عن زرع نقاط المراقبة والأكمنة. قف.. إلى أين تذهب.. أوراقك.. أنـت مصري أم ليبي.. إلى المحكمة العسكرية دُرْ؛ بتهمـة خـرق الحـدود. وبذلك سقط الخبير أثناء عودته من إمساعد محملاً وصـاحبه الحيـوني بأجولة الدقيق والسكر.. لقد فرقع الرصاص، وانساب الدم على الأقـدام المذعورة التي كانت تحاول الهرب عبر رؤوس الألغام.."–

أخذ الخبير يتوجع. دار بناظريه متطلعاً لألواح سـقف المربوعـة. تنفس ملء رئتيه من الهواء المعبق بدخان السـجائر، وقلـت إن دروس الدين الليلة راحت سدى بيد أن الأمور سارت بطريقة غير متوقعة:

–"الجيب تثير التراب.. تهدر، وتدور.. تـدور، وتهـدر.. تهـدر، وتدور دون كلل. العميد يرى كل شئ خلال الظلام. يجيد التصويب على موضع القلب.. هذا إذا لم تمزقنا ألغام الحدود.. سـيارته تثقـب الليـل بضوئها المخيف يفضح الخطوات المرتبكة. التصق بالأرض حتى تمـر. احمل خرجك واتبعني.. ينبغي أن نكون ماكرين. إنها تثيـر التـراب.. وتهدر، وتدور.. تدور، وتهدر دون كلل.."ـــ

يستعيد أحد الأقارب رواية ما وقع للخبير في شبابه:

–"نبح كلب.. صاح جندي، قف.. ودوّت طلقات الرصـاص عبـر الهواء. ركض الخبير والحبوني في أثره. وبماذا يفيد الحرص في هـذه الحالة.."ـــ

أراح عمدة الحبُّون ظهره على مسند مْن قش التبن. تفرسنا الخبيـر بعينيه الواسعتين، وزوَّم قليلاً كالجمل الجـريح صـوته انسـاب متممـاً حكايته بنفسه، وقد بدا لوهلة أنه رجل صحيح العقل دامع العينين قال:

ـ" انفجر اللغم. الحبوني يرقد بساق واحدة جواري بمؤخرة الجيب. الدم يسيل من كتفه.. اخترقته رصاصة.. رصاصة اخترقت كتفه؛ دادادم .. دادادم.. واستبقاني العميد لأنني لم أصب إلا بخدوش لا تذكر.. الشظية هنا، والأخرى مكانها مازال غائرا.. أنظروا.. وقال لي العميد يا خبير اسمع الآن.. ينبغي أن أستريح. ما رأيك يا خبير في صيد الغزلان قال.. وأردف متكلفاً المزاح أنه بعد أن أنتهي من صيد المهربين البدو الكلاب من أمثالك، أي من أمثالنا نحن الحبون والقبائل الأخرى. هكذا قال أيها الماكر فلا تؤاخذني؛ لأنني أملك أن أميتك وأحييك أو أحبسك ما شئت من سنين.. اعتقلني العميد لنفسه، فلا تتعجلوا ما صنعتُ به.. قال أنت تعرف الدروب يا خبير فخذني إليها.. ومشينا مشواراً طويلاً بالجيب الملطخة بدماء الحبوني موغلين نحو الجنوب، والشمس تدور ناحية الغروب، والإطارات العريضة تثير التراب متجاوزة بير النُّص خلف الأرانب البرية المذعورة تقتحم أراضي الغزلان تهدر، وتدور.. تدور، وتهدر.. تهدر، وتدور؛ طاخ.. مرت الرصاصة فوق قرنها يا خبير.. وبدأت حينذاك العاصفة التي كنتُ أنتظرها؛ فأمر قائلاً هيا فلنعد، لكني تجاهلت نداءاته اللحوحة، وأدرك العميد الخدعة عندما جلستُ أغني.. وين الحبوني يا صحرا.. يا صحرا وين الحبوني.."ـ

و ارتفع شجوه تحت سقف المربوعة..

خيم الصمت هنيهة..

تحول الخبير في جلسته نحو سيد كأنه يخصه بالكلام وحده:

ـ"العميد خاف مني. أخرج مسدسه فأمرته أن يقتلني.. الحبوني صاحبي بين الحياة والموت بالمستشفى.. وأبواب الرزق أغلقت.. فبأي شئ تعنيني حياة الرعاة. خاف مني.. أنا آكل التراب أمتص الحصى اتقاء الظمأ، أما هو فقد هدّه الجوع والعطش أنهكه. وعلى تلك الحالة بقينا أياماً تغرب الشمس وتشرق فوقنا. أغني وين الحبوني يا صحرا.. يا صحرا وين الحبوني؛ فينزعج آمرا.. صه.. صه.. اسكت..

خلّصني.. خذ المسدس.. اقتلني يا يهودي. وأقول له يا سيادة العميد، وهل الحبوني أيضا يهودي.. حسنا، وتركته للرمال الصفراء والأرض الجدباء ملقىً، وأنا أرقبه متشفيا. معدته خاوية وخزان الجيب بلا بنزين. غفي هناك ردحا طويلاً من الزمن. صيده من الغزلان والأرانب البرية تحول لعظام عارية. استيقظ، والشمس تنحدر حمراء فوق المرتفعات. تحسس وجهه، فكانت لحية يملأها الغبار.. لحية طويلة صفراء تنتهي عند صرة بطنه العارية. دار حول نفسه فتفتقت البقية الباقية من بزته العسكرية. أصلتها نار الحر حتى تشققت.. تخيلوا العميد عاريا، ها.. ها.. ها.."ـ

أخذ الخبير يضحك مطوحا برأسه فوق كتفيه، ثم زحف على الحصيرة التي نفترشها بمربوعة العمدة. واقترب مني حتى أصبح أنفه تحت أنفي، وشرع يسأل ويرد على أسئلته، ومع ذلك شعرت للحظة أنه ربما كان يسخر مني بطريقة ما:

-"العميد طوحه الجنون.. دار حول نفسه دورة أخرى يملأه الرعب يبحث عن الخلاص زاعقا في الفضاء وحده قائلاً لو صليت لاقتربت من الله، ولو اقتربت من الله لنجوت. ويقيني أن الحوادث مرت فى رأسه دون أن يتبين منها شيئا محددا.. بيته كان بجوار ترعة أو ماسورة صرف صحي مكسورة بمكان ما قصي.. بعيد عن هذه المساحات الواسعة الجرداء الحمراء بلون الدم. الشمس غربت، والصمت مخيف. صاح مستريبا مَنْ يتبعني.. وضرب دفعة رصاص ليخيف وحشة البرية؛ فرد عليه الصدى بصوت الفرقعات ذاتها. أطلق ساقيه للريح.. العميد، تخيلوا العميد عاريا يبتلعه منحدر، ليقذفه تلٌّ لجرفٍ آخر حتى وصل لمشارف وادي ماجد حيث كانت أم الحبوني تربط حمارها جوار خيمتها تعول نائحة وين الحبونى يا صحرا.. يا صحرا وين الحبوني.. وعندما سمعها العميد بادرها بدفعة من مسدسه؛ فجفل الحمار، وسقطت العجوز بين غنماتها.. أمرها مهتاجا أنْ اخبريني عن الطرق والاتجاهات

والأماكن.. من هنا.. اخبريني أين يقع ذلك المنزل المجـاور لترعـة أو ماسورة صرف صحي مكسورة.. ثمة بيتي.. أين هو منْ هنـا. ولـوى عنق الحمار. امتطاه، وولّى صوب الشمال يلاحقه أنين العجـوز ويـن وليدي يا صحرا.. يا صحرا وين وليدي.."–

انتفض الخبير على قدميه واقفاً مسه الجن هَرْوَلَ خارجاً في الظلام اختفى.. وفي عُقب الليل سمعنا غناويه ترددها الـريح مـن المرتفعـات الغربية:

–" يا صحرا ويـــــ.."–

و في نهاية المطاف أقنعنا عمدة الحبُّون تلك الليلة بحرق الصـورة المعلقة على جدار المربوعة.. صورة بالأبيض والأسـود لجمـال عبـد الناصر وهو يلوح بيده عملاً بقول الرسول صـلى الله عليـه وسـلم إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلـب أو صـورة أو تمثـال.. وإن الله لعـن المصورين..

أشياء كثيرة في الهامش كان سيد يضعها ويتناساها.. هو يعلم أنهـا مهمة، وألا بديل عن مواجهتها الآن.. وعوضا عن ذلك يزيحها من متن الكتاب لحاشيته انتظارا للغد.. والغد ذاك كان عند السراب البعيـد الـذي يخيل إليك قريبا.. لهذا مشينا، وأوغلنا بلا نهايـة. بوابـة وادي ماجـد تتكون من براميل ملونة بالأسود والأصفر تسد الشارع:

–"قف؛ أوراقك.."–

يصطف البدو خلف الحواجز. ساعة تمر، وساعتان.. ثـم، وكـأن شيئا لم يكن يصيح أمر الكمين مقبحا مَنْ أمامه من خلق:

–"امشوا.."–

هكذا تسير الأمور دوما. سيد يلتزم الصمت. فيم كان يفكر..

عدنا لغوط رباح مساء. الأخوة جاءوا من الإسكندرية بمزيـد مـن كراتين شرايط الكاسيت..

أسماء جديدة لشيوخ أبرار يخطبون في المسلمين بمكة، وباتنة، والكويت، وبنزرت. كتيبات الدعاة وشروحهم تصبح على الصحراء وتمسي. تلتف مئات السيارات القادمة من النجوع والقرى حول مسجد الفتح وقت صلاة الجمعة.

يحتشد آلاف البدو داخل المسجد.. وفى الباحة الخارجية. كم تلقينا من تبرعات، حتى أصبح مسجدنا- غرفة المبيدات سابقاً- بكل هذا الاتساع. سبعة مكبرات صوت لا تتوقف عن ترديد الحكم والأمثال ظهراً والقصص والحكايات القديمة بعد العشاء من فوق المئذنة تطوف بأسطح العمارات المجاورة تملأ مساكن الحي:

-".. الاختلاط بالرجال الأجانب كأخ الزوج، وزوج الأخت، وابن العم، ونحوهم، والتساهل بالمزاح معهم، ورفع الصوت، وعدم التستر عندهم، حيث تلبس بعض النساء برقعاً، وتجالسهم، وتتجمل أمامهم دون وازع من دين أو رادع من حياء. وقد قال صلى الله عليه وسلم إياكم والدخول على النساء. فقال رجل الأنصار أفرأيت الحموَ يا رسول الله. قال الحمو الموت. متفق عليه. بل إن بعضهن لا تكتفي بذلك، فتجدها تصافحهم، وهذا حرام، سواء كان بحائل كالعباءة أو نحوها، أو بدون حائل. وقد قال صلى الله عليه وسلم إني لا أصافح النساء. رواه الترمذي. وقال صلى الله عليه وسلم: لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له. رواه الطبراني."-

يقدم سيد للدرس ثم يدفعني إلى الأمام لأبدأ شروحاً طويلة لقول السلف.. أما هو، فيجلس خلفي بمقدار خطوة خاشعاً. ومع ذلك اتسعت الدعوة وكثر عدد مؤيديها. ردَّ علينا أهل الضبعة بالحجارة. طردونا من مسجد المدينة بسبب إطالتنا الصلاة. بعد أسبوعين عدتُ لهم وحدي. صليت مع المصلين، ثم ألقيت درساً عن الحكم بشرع الله.. ووجوب الجهاد ضد خونة العهود اليهود المحتلين.. وعلى ذلك أقمنا مسجد الفتح بالضبعة.. ومثله في مدينة الحمّام.. وفيه جاءت وفود الإخوة من

الإسكندرية والبحيرة.. وحتى من وادي النطرون والشوبك وإمبابة جاءوا. رفعتُ أول آذان.. وصلينا جماعة. هنا تقرر تكوين لجنة تختص بجمع التبرعات من أبناء القبائل المؤيدين لنا..

إنشاء صندوق لتحصيل زكاة المال وزكاة العيدين من أرز ودقيق وتمر وزبيب وغيرها..

تطوير مساجد الفتح الخاصة بالدعوة في المدن والقرى، وإمدادها بالمصاحف وكتب الحديث والسيرة وشرايط تسجيل الخطب والدروس الدينية..

إقامة لجنة خاصة بالتحكيم بين الناس في الخلافات التي تنشب بينهم، وذلك لإقامة العدل حسب القضاء الإسلامي..

توزيع الأموال شهريا على الفقراء والمحتاجين وذوي الحاجات..

شراء الأقمشة والطحين والزيت ومنحها للمعوزين في مناسباتهم الخاصة كالأفراح والطهور والولادة..

كان مسجد الفتح بمرسى مطروح هو عاصمة كل تلك المساجد التي نشرناها في القرى والمدن.. أذكر على ما أذكر أنه حتى قرية أغورمي بأقصى الجنوب الغربي لواحة سيوة أسسنا أول مصلى بهاء وكان من سعف النخيل وجريده..

وثقنا الصحراء بمسامير وشددنا أطرافها مسكناها بأيدينا مواصلين الجهاد في هذه المدينة الفاسقة حيث إبان الصيف يفتح كازينو الـ.. چى آر أبوابه للرقص والسُكر لمطلع النهار.. المصطافون وزوجاتهم يدورون عبر الشوارع أنصاف عراة متناسين أنّ أيتها امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية. ولم يكن من أحد يريد أن يهتدي..

العميد الذي ترقى أصبح لواءً يجلس الواحدة ليلا يشرب على المائدة الخاصة حتى الصباح في الـ.. چى آر..

الچيب، التي كان الحبوني يحتضر نازفا في صندوقها، تقف أمام الكازينو بريئة:

كانت صفة قائد المنطقة هي الوظيفة الجديدة لسيادة اللواء.. يصل ثلاثة من الجنود منتصف الليل. قدام بوابة الكازينو يقفون.. إلى أن يصيح أحدهم:

-"إ يـ يـ نتباه.."-

فيجفل المصطافون المارقون المشاة على الأرصفة المجاورة..

فكّر سيد في تنفيذ عملية ضد الـ.. چي آر، مثل عملية ضريح سيدي يونس.. نعرف الطريق للمطبخ.. لصالة الرقص؛ فكم غسلنا الأطباق ومسحنا البلاط هنا، ونعرف حتى مخابئ الويسكي المستورد. لكن بداية الدراسة الجامعية بالإسكندرية والزقازيق فرقتنا عن باقي الأخوة. وعليه توقفت اجتماعات غوط رباح إلى أجل غير مسمى..

الدعوة داخل المدن الجامعية كانت أيسر من الدعوة مع مواطنين من مختلف المشارب..

فى المدينة الجامعية بالزقازيق أنشأتُ والأخوة ركنا صغيرا للصلاة في البداية، ثم طورناه.. حولناه لحجرة كاملة بالطابق الأول خصصناها كمسجد ثم هدمنا السور المواجه لنضم إليها حجرة أخرى. المشاكل هي المشاكل مع الإدارة.. نساق لمباحث أمن الدولة. وفي النهاية نعود سيرتنا الأولى. الزيارات لا تتوقف مع الأخوة سكان المدن الجامعية بالمحافظات المجاورة. نلتقي جميعاً في أيام محددة؛ لنصلي الجمعة بأحد مساجد القاهرة. وفي الليل نلقي الدروس عبر مكبر الصوت، ونختتمها بأناشيد حماسية كخيبر خيبر يا يهود؛ فيتزايد عدد الطلاب والعاطلين وأرباب الحرف في صلاة الجمعة التالية حيث نوزع عليهم أشرطة الكاسيت في دروس ما بعد العشاء. ونداوم على المسجد نفسه إلى أن يخلفنا خلف صالح ممن يهديه الله من أهل الحي المجاور فيخطب، ويلقي الدروس بعدنا، فيما نعاود الكرّة في بيت آخر من بيوت الله بالإسكندرية، أو المنصورة، أو غيرهما حسب الظروف وتقلبات الحال..

القوة في كثرة العدد. التعامل مع زملائنا الطلاب سهل. هم فقراء يدخنون ولا يجدون ثمن لفافة التبغ.. معوزون يريدون معيشة مرتاحة، وليس بوسعهم تدبير ثمن الكتاب أو مقابل المحاضرات..

الدعوة للالتزام تعني أيضاً الدعوة للتقشف..

وإذا كانت الصحف تكذب بكلام فارغ عن السلام والرئيس المؤمن وتلهيهم بأخبار الدوري والكأس.. وإذا التليفزيون لا يقدم لهم غير الرقص الخليع والإعلان عن السلع التي لن يروها حقيقة، فإننا نحن الذين نهديهم لسواء السبيل نذكرهم بتاريخ المسلمين ودولتهم الكبرى المبنية على الإيمان والعدل والتكافل والقوة والكرامة.. نذكرهم بخيانة اليهود لعهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم..

نعلم أن المباحث تترصد خطواتنا؛ لكننا لم ندرك أبدا أنها تسجل كل حركة وكلمة بالصورة والصوت..

هل بيننا عملاء هنا..

نعم يوجد، وماذا يهم..

مَنْ نكتشفه نعزله. لكن الأمور لم نأخذها مأخذ الجد.. لم نشكل جهاز أمن خاص بنا إلا لاحقا. جهاز مثل لعب الأطفال. الذي نشك في أمره نراقبه بعد درس العشاء. هل سيمضي لسكنه، أم أنه سيتجه لمبنى المباحث..

خلال الشهور الأخيرة قضيتُ أياما عدة بالمدينة الجامعية بالإسكندرية لا أدري لماذا لكن ربما لأن عيون السادات كانت مفتوحة على القاهرة ومن يقع في قبضة أمن الدولة لا يخرج إلا بعد سنين خاصة إذا كان من الوافدين إلى العاصمة من الأقاليم فما بالك وأنا من مرسى مطروح التي يأتي عبر أراضيها مراسيل القذافي لتفجير قنابل وما أدري من ترهات ترددها الصحف..

ومع ذلك كنت أتسلل إلى شبرا وإمبابة لمشاركة الأخوة في خطب الجمعة ودروس ما بعد صلاة العشاء.. وكأن حبي للقاهرة كان شديداً

حين تم ترحيلي مباشرة في الأسبوع التالي لمقتل السادات إلى مزرعة طرة فأبي زعبل.. هنا حيث الزنازين عامرة بالأخوة من الجماعة الإسلامية والجهاد نتناقل أخبار الشيخ عمر عبد الرحمن، والشيخ عبود الزمر والأخ أيمن الظواهري.. وانتهينا في ليلة إلى أن الشئ الوحيد الذي يمكن أن يهزم الغرب ومعهم الحكام المسلمين الذين لا يحكمون بما أنزل الله هو أن يكون في العالم جيش إسلامي لا أرض له ولا وطن ولا سرايا ولا كتائب.. يكون حيثما يمكن أن يعمل.. ويعمل حين بحسب معطيات الواقع حوله.. أشرح لسيد هذا.. أقول له إذ نحن في المدينة الجامعية بالإسكندرية إن الأخوة كثر والحمد لله، وأن الطريق إلى أفغانستان سيكون البداية لإسقاط العلمانية الكافرة.. لكن سيد كان يزداد شوقاً للرحيل إلى الجبهة لمحاربة الشيوعيين بأسرع مما كنت أتخيل.. ولا أعرف أين كان وبمن تعرّف خلال شهور اعتقالي في قضية اغتيال السادات.. كل ما أستشعره هو أنه كان يتمنى لو التقى مثلي بأي من الأخوة الذين أحرقوا المنصة وفجروا من فيها..

هل كان سيد يتابع ما ينشر في الصحف من استعداء للرأي العام على الأخوة والتضييق عليهم معنوياً واجتماعياً، من خلال نشرها لمقالات وخطب عن محاسن السادات.. تعدد عناوين عريضة على صفحات الأهرام والأخبار والجمهورية وغيرها كلاما عن طموح محمد أنور السادات منذ كان شاباً للتخلص من الاستعمار البريطاني لمصر.. وما تقول إنه كان يضمر تحدياً للوجود الأجنبي علي تراب بلده، منذ كان يعمل بسلاح الإشارة في الصحراء الغربية، في صحراء مرسى مطروح.. عندنا.. وكيف عانى في سبيل عيشه أقسى ألوان المعاناة، وكيف مارس، بالصبر والجلد، أصعب الأعمال ليحصل على قوت أسرته بعرق طاهر في صقيع الشتاء، وهجير الصيف.. في الطرق المهجورة.. وفي القرى النائية.. مناضلا من أجل مصر.. محاربا من أجل مصر.. يتابع بدأب سري الإعداد لملحمة أكتوبر الخالدة.. يتعرض

لحملات اتهام وتشهير بأنه يخدع في العلن بكلمة الحرب وهو يسعى في الخفاء لاتفاق التسليم والاستسلام

هكذا تقول الصحف وتعـود بالمانشـتات العريضـة والمقـالات والخطب لتزيد في القول إن السادات كان يطوي في صدره كل الهمـوم التي لم تلن من قوة شكيمته.. كان يريد النصـر بأقـل الخسـائر فـي الأرواح.. كان إيمان الرئيس المؤمن فيضا متدفقا عميقا بأن إنسان مصر هو القادر علي بناء مصر السلام.. هكذا كانت تقول وتعيد وتزيد.. فيمـا كانت الاعتقالات واقتحام مساجد الأخوة لا تهدأ.. يخرج فوج ليدخل فوج جديد، ثم يعود الفوج الذي خرج ولا يخرج الفوج الذي دخـل، وهكـذا دواليك..

وجدت سيد أكثر ميلاً للاعتصام بمبنى المدينة الجامعية لا يتحـرك منها إلا للمشي قليلاً في عزبة سعد أو إذا ابتعد لا يبتعد عن نهاية سـور حديقة الحيوانات المجاورة.. أصبح لا يريد البقاء بأي حال، وهو يتحجج بحجج لا علاقة لها بما كان ينتويه.. إذا دعوته للصـلاة بمسـجد القائـد إبراهيم، أو مسجد من مساجد الأخوة في بـاكوس، أو كامـب شـيزار، يرفض متشكيا:

-"النساء العاريات بكل مكان.. والانحلال يملأ الأتوبيس والتـرام.. ولن أحمل مزيداً من الذنوب فوق كتفي.."-

لكنه كان في الحقيقة يقول في نفسه:

-"أفكر في طريقة أسافر بها إلى أفغانستان الآن، وأن تلحـق بـي على مهل، فلم تعد بي حاجة لاستكمال الدراسة خائفا من القبض علـيّ؛ فأي عار لقبيلتي.. إلى الجهاد أشرف وأكرم.."-

مرت شهور وشهور.. عدنا في إجازة لمدينة مرسـى مطـروح.. كانت الأمور تتبدل بتبدل حال البلد.. التشديد على الأخوة في كل مكان.. مسجد الفتح تم تسليمه لسلطة الأزهر.. تدهور حال الأخـوة هنـا لهـذا الحد..هكذا تفعل الاعتقالات والحبس والتعذيب؛ تُبيّن المؤمن القوي مـن المؤمن الضعيف:

ـ".. تسلّم زمام الأمر.. أعده لحظيرة المسلمين.. لقد استولت عليه الحكومة.."ـ

قال سيد غاضبا، ونفذنا الخطة..

حاولنا بداية إقناع الشيخ الرسمي ترك خطبة الجمعة لـي. رفـض بالحسنى؛ فكان التصعيد لا محالة..

في الجمعة التالية وضع أحد الأخوة المصحف بعيداً عـن متنـاول خطيب الأزهر. والمعتاد هنا أن يأخذ الخطيب مصحفاً بيده قبل صـعوده المنبر. ولهذا اضطر للتوكؤ على ذراعيه، ثم الوقوف.. وبعـدها السـير أربع خطوات لالتقاط الكتاب.. وخلال تلك الدقيقة الطويلة دفع بي سـيد للمنبر ومن فوقه بدأ الجدال أمام جمهرة المصلين:

-"انزل.."ـ

نهرني خطيب الأزهر، وكرر محتدما:

-"انزل؛ فأنا مكلف بإلقاء الخطبة.."ـ

زعق.. تململت صفوف الجالسين.. وقف بعضهم من آخر المسجد، وبدأ اللغط؛ فقطعته بصوت جهوري من فوق المنبر:

ـ"أما أنا فمكلف من الله.."ـ

وهكذا انطلقتُ بخطبة الجمعة مباشرة.. كانت قد مضـت أسـابيع على بداية غزو بيروت:

ـ"فيا أيها المسلمون انهضوا.. عودوا لأمجادكم.. أيـن الفتوحـات والجهاد في سبيل الله.. معاهدات.. أية معاهدات مـع اليهـود المحتلـين خونة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.. لقد أخذ الله عز وجل ميثـاق بني إسرائيل، وأرسل إليهم رسلاً كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا، وفريقاً يقتلون.. استحلّوا دمـاء المسـلمين قتلـوا النسـاء، والأطفال نزعوا أكبادهم مثلوا بالجثث.. انتهكوا حرمة جسـد الإنسـان الذي كرّمه الخالق عز وجل.."ـ

مع نهاية الكلمة يبدأ الدعاء عليهم، وعلى مَنْ والاهم من الإنجليز والأمريكان وحكومات دول المسلمين؛ فتهتز جدران المسجد.. تميل شرفات العمارات المجاورة خاشعة..

لم يعُد الشيخ الحكومي بأي جمعة تالية.. انسحب، وازداد عدد المصلين القادمين من القرى والنجوع..

الصحف تنشر صور البلدوزرات الإسرائيلية تجرف أكوام الجثث بشوارع صبرا، وصيدا، وصور، وبيروت..

إذاعات لندن، ومونت كارلو، وصوت أمريكا تتابع زحف الجنود الصهاينة نحو المخيمات الفلسطينية.. تنتهك البلدات اللبنانية. الإذاعات العربية تتبادل الشتائم فيما بينها:

ــ"لماذا لا توقف تلك الدولة ضخ البترول للغرب حليف إسرائيل.."ــ

فترد إذاعة أخرى:

ــ"إن النظام الحاكم هناك خادم للصهيونية والإمبريالية العالمية.. وسيسقط بفعل الغضب الشعبي.. حيث خرجت المظاهرات الحاشدة من الجامعات، و.."ــ

و تحاول إذاعة ثالثة طرح الحلول الوسط:

ــ"نحن مع المصالحة العربية شرط أن يتخلص الشعب الفلاني من نظامه العلاني الحاكم العميل، و.. إلخ.. إلخ."ــ

أسمع صوتي.. صوت الصبي يهز جدران الشقة حتى يكاد يوقظني من رقدتي.. أحاول رفع جفوني فلا أقدر.. أهمدُ لا أعي نهارا من ليل.. بهذه الطريقة يتوهج البراد فوق النار.. يتحول الشاي لسائل أسود مثل العسل.. الدخان يفيض من النوافذ ومن تحت الباب:

-"افتح.. حريقة.. النار تاكلك!"ــ

16

لم يكن الهواري شخصاً سيئاً بأي حال، على الرغم من البيرة، وآرائه الملحدة.. كان كما هو لم تغيره كل تلك السنين منذ كنا سوياً بالفرقة المسرحية، وحتى الآن حيث عدتُ، وسيد لم يعد..

كم دعوناه للصلاة معنا في مسجد الفتح.. الصلاة أولاً، وبعد ذلك كان يمكن أن يصبح شيخا متفقها في الدين. أعرف الذين خلقهم الله على الفطرة الحسنة، والهواري من أولئك الخلق. غير أن سعيه وراء ديمقراطية الانتخابات أفسده.. كنتُ وسيد نتعجب لأمره؛ فما دام يحارب الحكومة لماذا لا ينضم إلينا نحن..

حَادَهُ أولئك الشيوعيون، المقيمون تحت لافتة الحزب المعارض بشارع الإسكندرية، عن الطريق القويمة. لقد انتصرتُ أنا وسيد في حربنا ضد الهواري ورفاقه الخاضعين للقوانين الدنيوية الفاسدة..

المسافة التي تفصل بين مسجد الفتح ومقر الحزب لا تزيد عن مرمى حجر، وكنا نوجه نحوهم ثلاثة مكبرات صوت نبث الدروس الدينية منها، ونؤذن للصلوات فوق رؤوسهم لعلهم يهتدون، وما كانوا ليهتدوا..

في خطبة الجمعة تدوي المكبرات عبر الشارع تهز وكْرَهم المسكون بالشياطين أكشفُ مخططاتهم الدنيئة:

-"أيها المسلمون.. إن الملاحدة يوجدون على مرمى حجر.. يدعون الناس للكفر بالله عز وجل، ويحرضونهم لنكاح بناتهم وزوجات بعضهم البعض.. يزينون للعباد اللواط، والعياذ بالله.."-

و في خطب أخرى أفتح النار على الهواري وصحبه من جديد:

-"الأحزاب كفر.. والحكم بغير كتاب الله وسنة رسوله، كفر.."-

.. ومثل تلك الخطب كانت تقضي على كل ما يبذلونه من جهد لحث الأهالي على تسجيل أسمائهم في الجداول الانتخابية، أو الانضمام لزمرتهم الوضعية الدنيئة. وكنت أندهش، ويندهش معي سيد، إذ نجد الهواري، وهو يمر بنا، يبادرنا بكلمتيه المعتادتين:

-"صباح الخير.."-

أو:

-"مساء الخير.."-

ونرد عليه بتحية الإسلام:

-"و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.."-

كان هذا قبل أن نعقد معه جلسة لهدايته، وعندما لم يهتدِ، قاطعناه بصباحاته ومساءاته، وكرهنا النظر لوجهه الحليق الأملس الخالي من الشعر الذي يشبه وجوه النساء..

.. والليلة يجلس قدامي يصب البيرة الفوارة، ويقول لي:

-"اشرب، فمأساتي التي أحيا نصيب من مآسيكم.."-

هو.. هو، بذراعيه المشرعتين على جانبيه كأنه يستعد للطيران. هناك حيث كان فوق خشبة المسرح خلف الستارة البيضاء في الخلفية، وهناك حيث كان يحث الخطى بطول شوارع مرسى مطروح يوزع بيانات الحزب ومنشوراته، ثم يختفي في مبنى المباحث يومين أو ثلاثة، وهي المدة التي يستغرقها الحزب المركزي بالقاهرة في إجراء الاتصالات بكبار المسئولين للإفراج عنه. كان الحزب لا شك يضفي عليه الجاذبية والأهمية..

يشتم الحكومة على أوراق يوزعها بين الناس نهاراً جهاراً، ومع ذلك لا تزيد مدة اعتقاله عن أيام معدودات، على العكس من ذلك، تنقضي ستة أشهر على الأقل، قبل الإفراج عن أخ من الأخوة بهذه المدينة، أو بمدن الإسكندرية، والمنصورة، والقاهرة..

أحدقُ وجه الهواري لأقرأ ما فيه.. قال:

-"اسمع يا شيخ.. حينذاك، إذا أردت الحقيقة، كان يمكن أن يحدث تحول ديمقراطي كبير في الحياة السياسية بمصر.. كنا في الحزب، ومع الأحزاب الأخرى ندعو الناس لاتخاذ مواقف من القضايا العامة.. أن يتفاعلوا مع ما يحدث حولهم. أن يتعلموا كيف يقولون لا بشكل

جماعي.. بطريقة منظمة، من خلال صناديق الاقتـــراع.. أو بالتظـــاهر السلمي أو الإضراب أو الاحتجاج.. لكن هذه الفرصة مضت، ولن تعود قبل عقود طويلة من الزمن.. كنت أنت وأمثالك من الشيوخ تحثُّون على مقاطعة الانتخابات لأنها كفر.. اسمح لي.. هذا كان، كما تذكر إن كنـــت تذكر، عبر مكبرات الصوت.. في خطب الجمعة، وخلال دروس ما بعد العشاء.. أنت وشيوخك الذين جلبتهم في الآلاف من شرائط الكاسيت بكل اللهجات العربية.. من المغرب للمشرق.. كانوا في كـــل مكـــان تجـــدهم داخل مسجلات الكاسيت في سيارات الأجرة والحافلات والبيوت المبنيـــة بالطوب وبخيام الشَّعر في عمق الصحراء. أنت وشيوخك من جانـــب.. ومن الجانب الآخر جهاز المباحث.. المـــؤتمرات السياســـية ممنوعـــة.. المنشورات ممنوعة.. البيانات ممنوعـــة.. تعليـــق اللافتـــات ممنـــوع.. الأعضاء الجدد يتم القبض عليهم. مرشحون يتم فصلهم مـــن وظـــائفهم. أصدقاء الحزب يتحولون لأعداء لنا عقـــب اســـتدعائهم لمبنـــى جهـــاز المباحث.. هل تذكر كيف جاءت نتيجة الانتخابات تلك السنة.. إنك أنـــت والملتحين الغاضبين أمثالك.. أنت وهم والمباحث شـــاركتم جميعـــا فـــي تغييب وعي الناس وقمعهم وإرهابهم.. سواء في مسجد الفـــتح، أو فـــي مبنى أمن الدولة.. والنتيجة الآن أنه لم تعد هناك أحـــزاب. إن جســـدك المصعوق بالكهرباء وبدنك الأسود الميت من صنع يديك أنت .. اشـــرب يا شيخ، اشرب.."–

هل هذا الذي يقوله الهواري توبيخ، أم استهزاء، أم مداعبة..

قد يفهم هو ما يردده، لأنه يعتقد في ذلك. لكن أنا لم أفهم..

فار الدم برأسي لحظة، ثم انطفأ.. أحاول أن أمسك بحمية الغضب، فلا أجدها. أشد جسدي .. أشد عروق هذه الأوصال الثقيلة.. أملأ رئتـــي بهواء الشقة المعبق برائحة المكرونة العفنة.. أهزّ قلبي بين يـــدي كـــي يصحو، ويضرب حنايا صدري الموجوع، فلا يصحو. أنصتُ للهواري،

ولابد أن وجهي العريض كان منتفخاً انتفاخة فارغة بالبيرة ودخان التبغ. ولا شك أنه ظن أنني أعضُ بنان الندم على ما فات:

-"اشرب يا شيخ، اشرب.. وقل لي بالله عليك قل، وأنا أستحلفك، هل حقاً ذهبت لأفغانستان.. هل ذهبت أنت وسيد للجهاد مع المجاهدين ضد السوفييت.. هل اشتركتما بتلك اللعبة التي رسمتها المخابرات الأمريكية وحركتها الصهيونية.."-

آه يا هواري الكلب.. إنه لا يسأل مثل هذه الأسئلة إلا مع طلوع الفجر.. الزجاجات فرغت، ويظن بهذا أنني قد غبت عن الوعي. يتفحصني بعينيه اللامعتين.. يتفرس وجهي الذي يتدلى مثل كرة من العجين فوق عنقي.. يضم هذا الوجه الرخو حتى يلوكه في صدره ثم ينخرط في بكاء سكران متهدج..

أخبرُ نفسي أقول لها إنني لم أستوعبه أبداً..

كيف أفهم رجلاً كنت أظن أنه لا يعرف من الدنيا غير الرقص، ثم أحسبُ أنه لا يحترف فيها غير توزيع المنشورات، ثم أخمّنُ أنه لا يعرف غير شاطئ البحر.. والليلة، والليالي السابقة، والتالية أجده، هو..هو.. لكنه ليس، في الحقيقة، كذلك.

هو يدرك الخطب التي كنت أصبها على رأسه من مكبر الصوت.. ويفندها لي جملة جملة.. لم أعد أذكر منها شيئاً.. لكن لا شك أنها كانت هي. هو يدرك أنه، كما قلت مراراً وتكراراً عنه، ملحد كافر زنديق.. يدرك هذه التهم، ويفهمها. يسطرها أمامي خطاً خطاً.. لم أعد أذكر تلك الخطب.. لكن لا شك أنها كانت هي. كيف ظل يحمل كل هذا الكم من خطب شيوخ الكاسيت، ويحمل كل ذلك العرَم من خطبي ودروسي. كيف ظل يذكر التفاصيل الصغيرة والكبيرة هذيك السنين. يقول، قلتم كذا، وكذا.. ولا شك أننا كنا قد قلنا ذاك، وذاك:

-"لكن أنت يا شيخ لم يخطر ببالك ما كان يدور برؤوس آلاف المصلين الذين يقفون وراءك، أو الذين يستمعون لخطبك تلك.."-

قال الهواري، وأضاف موضحا:

-"صوتك يا شيخ كان وقتها يحمل نبرة غريبة.. هو صوت خشن فيه بحَّة، وفيه شجن وشكوى.. نبرة بكاء مع قوة وكبرياء. الخليط هذا، في الحقيقة، كان يخلب اللب. يحرك الجدران.. ويهز الأسقف. لهذا السبب وحده كان الناس يلتفون حول منبرك بأي مسجد كنت. أيها المسلمون.. تخرج الصيحة من حنجرتك فيتنبه لك الكافرون قبل المسلمين. ماذا كنت تريد.. إنك لا تعلم؛ فقد كنتَ تتعلثم عقب هذه الصيحة، فتضفي اللعثمة على خطبتك مهابة غريبة.. يصيخ الجميع السمع.. يكتمون الأنفاس انتظارا للجملة التالية.. هكذا كان الناس يجرون وراءك من مسجد لمسجد كي يثبتوا لك أنهم يؤمنون بما أنزل الله، وبما قال الرسول لعلك تضع نهاية لزعيقك الباكي دون جدوى. وفي النهاية تركتهم، ورحلت أنت وسيد، وبعد عودتك.. ماذا فعلت غير الاعتصام داخل هذه الشقة المظلمة الخانقة كأنها قبر.. قبر في الطابق الخامس.. ألم تذهب لأفغانستان.. وسيد كان معك.. استشهد بينما والدته تهيم في الشوارع هنا. هذا ما يقوله الناس الآن.. هل كنت تحارب هناك حقاً، هه.."-

الخلاف بيني وبين الهواري ظل وما يزال حول الوجهة التي يسير فيها كلٌّ منا. هو يمشي الهوينى فوق الخط الحديدي للسياسة انتظارا ليوم يمكن فيه الوصول لعضوية المجلس.. وأنا أفتح خطواتي الواسعة على الخط الحديدي المجاور في الاتجاه المعاكس.. في الاتجاه الصحيح. هل نحن، أنا وهو، نجلس الآن سويا. نعم.. إذن فقد أصابنا الإعياء إذ عدنا للمحطة الأولى التي انطلقنا منها.. عدنا، وها هي أقدامنا قد هدها التعب.. يا للهواري الساعة يضم وجهي بين كفيه الباردتين المبللتين بالعرق. يتحسس عنقي الأحرَش بين راحتيه.. يمسح كتفي، ويطول الصمت..

في ليال كهذه أنظر حوالي فلا أجد أحداً غير جسدي الطويل العريض يدور عارياً تحت السقف المعتم.. بدني الرخو يطوح بذراعيه الميتتين إلى جانبيه يخطو نحو المطبخ.. لدورة المياه.. إلى الشرفة حتى يتهاوى؛ فيسقط مثل كيس الطحين فوق السرير.. ينام جسدي مني وأنام بداخله، وعندما يصحو منتصف الليلة التالية أصحو معه.. أسوي أوصاله، وأحمله؛ ليستقر به المقام فوق المقعد المواجه لمقعد الهواري:

-"فايزة لا تعرف أنك عدت.. أم أنها تعرف؟!"-

يسأل.. أشعلُ السيجارة، ولا أرد عليه مثلما بات لا ينتظر مني جوابا.. وكان هذا هو حوارنا الطويل الذي لا ينتهي..

في ليالٍ كهذه أمد ذراعيَّ للهواري؛ فلا أجد غير مقعده الخشبي المغبر بالتراب وخيوط العنكبوت، وكأنه لم يكن..

17

قد تحتفظ بالسر لسنوات طويلة.. تغلق عليه قلبك وعقلك، ولا تفتح بابه حتى لنفسك..

تحمله بحرّه وناره المستعرة.. تطوف به البلاد الواسعة؛ بلاد الله في إفريقيا وآسيا..

حاول الضابط ببنطاله الأسود وقميصه الأبيض معرفة ما يجرى هناك..

كانت خطواته تلاحقني، خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

شدَّ جسدي العريض القوي فوق طاولته المستطيلة..

دقَّ الخوازيق في رأسي وصدري..

فتّش إلى أن أعياه السهر والتدخين وطنين المصباح تحت سقف غرفة التحقيق، ولمّا أصابه اليأس جمع أدواته دون أن يعيد ربط العظام بأماكنها..

ترك المفاصل في غير مواضعها.. لقد فكك المسامير الصغيرة من جمجمتي الصلبة؛ خلط أوّلي بآخري..

و أفتشُ أنا عن جسدي المبعثر فإذا وصلتُ لموضع القلب لم أجد غير قطعة لحم تشبه أذن المعزى بشعرها القصير وملمسها الخشن..

و مع ذلك أصبحتُ أشتهي الرعب والخوف.. أشتاق إليهما، ولا أجدهما.. أعيش مع الفئران والصراصير وعفن المكرونة والظلال النابضة بالحياة بوجوه تضحك وتبكي..فإذا العميد ترقى أصبح لواءً، فإذا اللواء كان فريقاً، فإنَّ الفريق عُيِّن محافظاً.. أ هو هذا هو الذي يجلس الواحدة ليلاً يشرب على المائدة الخاصة حتى الصباح فيما السيارات والحرس يعدون النجوم في انتظار خروجته المظفرة.. قُل فصدّق أو لا تصدق إن شئت أو لم تشأ قالَ راقصة ذهبتْ لمكتبه إذ ذهبتْ فأغرته إذ أغرتْ إذ لم يكن ثمة مانع.. قال هذه مذكرات لكلاب تعوي تردد البيداء صداها..

تَرقّى ما تَرقّى؛ فهو يومئذ محافظٌ يتبختر داخل بزة حرير يتربع أمام قصعة الأرز الأحمر المطبوخ بالطماطم واللحم البرقي يحكي عن سلام وأحضان فصفّق أعضاءُ الكنيست ثم تبسّموا واستداروا ما استداروا فرفعوا مواسير المدافع والبنادق ودوت صفارات إنذار فإذا الضفة أظلمت وغزة أعتمت وبيروت تعاركت تحت قنابل طائرات أغارت.. يا أيها الناس كيف أقول لكم إنني مشيت هكذا، والعرق ينزُّ تحت ياقة قميصي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف.. كنا نريد الوصول أولا لغدير مياه.. لبئر..

وربما لهذا السبب كنا ندفع بأقدامنا للأمام.. إلى السراب البعيد.. وها أنا أجلس على درب أجرد؛ فأين أنت الآن إنني كنتُ أعلم أنْ لا جبهات هنا ولا طريق إلى هناك غير أسلاك وبنادق حرس وممنوع ممنوع ارجع.. قال سيد ماذا نفعل اليوم إذ إن عزبة سعد بل سموحة كلها لا تستيقظ إلا على الفول والطعمية والعيش الرخيص لتنام على الفول والطعمية والعيش الرخيص.. والمشي إلى العريش لا يقدم ولا يؤخر.. لا جبهات هنا ولا طريق.. أهزُّ الناس من على المنبر يجلس سيد في أول الصف متلفتاً خوف قطع أمن الدولة الميكروفون لكنْ أعلم ما لم يكن سيد يعمله لا يقطع الأمن مكبرات الصوت عن خطبة الجمعة بمسجد في حي شعبي مثل عزبة سعد خشية غضب الناس، فيا أيها الناس كيف أقول لكم إن الجهاد فرض عين على كل مسلم، فجاهدوا ضد أنفسكم لتدع المعاصي وجاهدوا ضد حكامكم ليتركوا المفاسد وجاهدوا ضد أعدائكم حتى يغوروا من بلادكم.. فلا تحسبنَّ الذين آذوا أبناءكم وإخوانكم في سيناء والجولان وبيروت والقدس وأفغانستان يريدون بكم وبأبنائكم وإخوانكم خيراً هم أعداء لكم ولذويكم فأعدوا لهم ما استطعتم..

فكم من محافظٍ يتبختر اليوم في بزة حرير إذ دخلتْ راقصة مكتبه فأغرته إذ أغرتْ إذ لم يكن ثمة مانع.. قُلْ فخرجتْ إذْ خرجتْ بتواقيع وتراخيص، فيا أيها الناس كيف أقول لكم إن جنوداً تحت إمرته على

الجبهة الشرقية كانوا، فإذا هم عاطلون اليوم ينقلهم القطار محملا بأكداس خبزهم وباذنجانهم إلى الصحراء الغربية، فإذا فريقٌ من بعد تبطلهم تتخمه اليوم الدهون والتبغ المستورد والحكايات الفارغة وفريقٌ ينتظرون.. فريق تقلّد وظائف مدنية في محافظة مطروح وفي محافظات أخرى، حتى هنا في الإسكندرية.. يستقبلون سفراء صهاينة يتعهدون بترسيخ ثقافة السلام.. والحفاظ على الوئام.. فأي استسلام هذا، وإذ تصحون اليوم على اقتحامهم بيروت وتصحون الأمس على غزوهم سيناء وتصحون الغد على هدمهم القدس.. وفريق معلق تحت صهد الشمس وتراب الصحراء حتى لم يعد له قطع غيار ولم يعد تجديه الصيانة، فهو اليوم عاطل.. فأنا أزحفُ داخل النفق الأسمنتي المستطيل تحت ماسورة المدخنة مع الجندي غريب بطول سبعة عشر كيلومترا عبر ظلام الليل باتجاه الرصاص والدانات والألغام..

تنهض العظام من رقدتها.. من تحت الأرض ترفع رؤوسها تلف أذرعها وسيقانها الخالية من اللحم حول جسدي تحاصرني؛ لتعتصر ما تبقى من دم كما تعتصر الكماشة عرق الخشب..

كيف لم أصرخ.. كيف لم أجر مع الخبير وسط الأغنام والذئاب والأرانب البرية المذعورة.. كيف لم أترنم بالأغنية الخالدة وين الحبوني يا صحرا.. يا صحرا وين..

الخريطة كلها مربع مثل الكتاب الضخم المفتوح.. الوهاد الصفراء تغلف دفتيه، وفي الوسط خيط أخضر يصب في البحر المتوسط، أما الصفحات فمكدسة بالكلام والكلام والكلام.. بلا نقاط أو فواصل أو أقواس أو جمل اعتراضية. أقرأه مرة، فلابد تعود لقراءته مرات أخر بلا نهاية، وإذا لم تفهم شيئا فما عليك غير الجلوس أمام الزجاجات الخُضر والرغاوي الفوّارة.. وتنصت للهواري إنه كان ببواطن الأمور عليما..

يضع الجروانة فوق كتفه.. يقطع فراغ الشقة مهرولا سكران غير مبالٍ بصوت الطائرات المغيرة.. صوت أصم تعقبه انفجارات.. يتطاير

التراب والزلط والأسمنت المعجون بالعرق.. تهوي قواعد الصواريخ السوفيتية، ليعاود بناءها من جديد، وقد اختفى نصف رفاقه.. لا وقت؛ لابد من بناء الدشم حتى لو جفت رفات الشهداء داخل الصبّات الخرسانية. إن الصواريخ هي الذراع الوحيدة التي ستهش الغارة المفاجئة بعيدا:

-"هش .. هش.." -

رفع الهواري يديه ملوحا كأنه هو أبوه يعدو تحت سماء الغرفة وراء السرب المغير كأنه هو الهواري نفسه بظله المحلق فوق الستارة الخلفية لمسرح قصر الثقافة يعلو بجناحيه لحظة العبور العظيم؛ ليهوي من حالق طاويا عنقه داخل ريشه هناك حيث يزحف بحيري منهك القوى خائرا فوق رمال سيناء يصيح:

-"يا غريييــــ....ـــب"-

يهمد الظل وراء الستارة، ويرقد فيما يشبه الرقدة الأبدية. وكان من المفترض أن تدوي القاعة بالتصفيق، بيد أنه لم يكن هناك أي عرض..

فلأي سبب تتقبض أطراف الهواري، وتتفرج أمامنا نحن الذين افتقدنا مُخرجنا العزيز.. وفي الحقيقة لم يكن هذا السؤال ليرد على خاطري. كان الزملاء يلتفّون حوله في نصف دائرة، هنيهة، ويبدأ الرقص منبعثا من الصمت دون موسيقى، ثم تضبطه إيقاعات الأكف وضحكة فايزة..

ثم هل كان سيد يظن أيضا أنه مازال يمثل دوره.. يمثل شخصية غريب الذي نذر نفسه لدخول غزة منتصرا.. وهل كنت أنا ذلك الجندي الضائع.. بحيري البطل الذي سقط بطوله..

لقد ظن هو، وأنا معه أن كل شئ تمحوه الأيام وصفحات الكتب..

و عشنا شهورا طويلة بل سنوات لم نضع خلالها كلمات الخبير في مواضعها الصحيحة لدرجة أننا لم نلتفت للقطار القادم من الشرق محملا بالجنود العاطلين وأكداس الخبز والباذنجان..

الخبير رجل نصف مجنون ونصف عاقل.. ربما، ومع هـذا كـان يروي في ركن المربوعة حكايات العميد بسيارته الچيب تهدر، وتدور.. تهدر، وتدور دون كلل. كل ما حدث من تغير بعد ترقيته لرتبـة اللـواء هو أن إطارات سيارته الجيب استراحت من صـعود الوديـان وهبـوط التلال.. وجفّ في صندوقها المربع الصغير دم الحبوني. كل شئ ظـل على حاله.. صخب الموسيقى ودوران الراقصـة وانعكاسـات الضـوء الخاطفة على حواف الكؤوس في الـ.. جي آر..

ماذا.. إني أقول إن الأشياء ربما لم تكن قد حدثت كمـا أتـذكرها الآن..

و في هذه اللحظة لا أدرك بالضبط من الذي كان هنا لتوه يسـعى بين المطبخ ودورة المياه.. حتى أن ساعة حضور فايزة أو ساعة غيابها أصبح لا يفصلهما فاصل؛ وكأن الأبواب جميعها مازالت مواربة.. وكأن وضوح المسافات استحال لدخان ملون بالأضـواء الزاهيـة المرتعشـة المخيفة..

أتذكر القصاصات المتهرئة المشوهة التي جاء بها الهواري حـالاً.. استحْضِرُهَا فوق سريري تحت عتمة الليل ووحشة الوحدة.. أقلبها بـين يديّ، وأقول ها هو ما كان يجري.. وأقول هل تعرف أنت، أي أنـا، أن الحاضر الذي كان ماثلاً أمامي على شكل رتبة لواء في كـازينو الـ.. جي آر لم يكن إلا ماضٍ بعيد على شكل رتبة عميد في عقـل الخبيـر.. وأقول هل تعرف أنت، أي أنا، أن تلك الوجوه الممزقة لا وجود لهـا إلا فوق هذه القصاصات هنا على السرير أرتبها وأحدق فيها، ولا أصدق أن الرحى كانت تطحن شقيها في دوى أصم لا غير..

أتصفح أكداس الأوراق الصفراء لمخرجنـا الأصـلع هائمـا بـين جدران الشقة بالطابق الخامس أتتبع سطورها واقفا وجالسا ومستلقيا..

كان المخرج ضابطا برتبته المعهودة؛ مقدم.. وهـي الرتبـة التـي دخل بها حرب أكتوبر ثم حملها في القطار الحربي القادم من القناة ليجـد

مستقره حبيس خيمة ماحلة داخل معسكر بمنطقة وادي ماجد بينه وبين بحر مرسى مطروح، الذي طالما سمع به وشاهده في الأفلام، أقل من عشرة كيلومترات حيث يطلق ناظريه من هناك نحو الشاطئ؛ نحو مكتب اللواء..

لم يكن المقدم يدرك في ذلك الوقت أن مصيره سينتهي به لقصر الثقافة مخرجاً.. ثم يبتلعه ظلام الأيام اللاحقة..

فليفكر ما طاب له التفكير، وليمسح الآفاق حوله ساعة ساعتان.. ثم يزيح البطانية السوداء الخشنة ليلج خيمته تلفحها الشمس وسط البيداء القاحلة طال به المقام لحد السأم.. إنه انتظارٌ متصلٌ لا يعلم مداه إلا الله.. بداخل الخيمة منامة وكوب وحيد يحتسي منه الشاي منذ سنوات وصورتان مغبرتان واحدة لامرأة في مقعد أخضر الحواف.. فستانها أسود، وعلى رأسها منديل أحمر.. رموش عينيها ثقيلة حادة كأنها مبللة بالدموع. والصورة الأخرى لطفل يبتسم.. يشير بيديه محيياً..

استكان القائد برأسه الخالية من الشعر يتأمل الصورتين كما اعتاد أن يفعل مذ جاء لهنا قبل عدة سنوات. ينفث الدخان من تبغ البلمونت أولا، ثم يتنصت؛ فلا يسمع صوتاً لأفراد معسكره.. يمضي الساعات يقرأ مسرحيات توفيق الحكيم ووليم شكسبير وهنريك إبسن.. وفى الليل يتردد في الآفاق المحيطة صوت أم الحبونى نائحاً:

-"يا صحرا وين .. وين يا وليدي.."-

يتصادف هطول الأمطار خلال الظلام..

تطلع شمس الصباح فوق برك المياه الصافية، وقد تغير لون التراب من الأصفر السائب للأحمر المبلل المتماسك. وتهب الرياح الباردة تضرب الخيام تغوص أحذية الجنود في الطين يتطلعون لوجوههم المنعكسة على صفحات الغدران الصغيرة وجوه ضجرة لها أفواه تمتص دخان التبغ بشراهة بلا توقف في جانب المعسكر يكسرون حدة اليأس والقنوط؛ فيدفع بعضهم بعضاً نحو البرك الطينية تتعالى ضحكاتهم وصيحاتهم حيناً ثم تنطفئ..

سائق الشاحنة الروسية ينزح الماء من صندوقها محدثاً ضجيجاً لا يحتمل.. ومن خلف التل تسوق الريح النواح الرتيب:

-"يا صحرا وين وليدي .. وين يا صحرا.."-

مثل تلك الأيام تبعث الحياة في أوصال قائد المعسكر.. يمسح بيديه فوق صلعته، ويدعو لطابور التمام. وبعد دقائق يملي للكاتب أسماء الجنود الذين لم يعودوا من إجازاتهم في المواعيد المحددة بعد. وهكذا تدب الحياة في أوصال الشاحنة أيضاً، فالسائق يعلم أن الخطوة الثانية لهذه الصحوة ستنتهي على شاطئ البحر. لقد حفظ كل تحركات قائده صيفاً وشتاء..

تقف السيارة على حد الرمال البيضاء.. يترجل هو مشعلاً واحدة بلمونت.. يخطو بحذائه الثقيل وزيه المشدود كأنه في حالة تأهب قصوى..

طوال الشهور المتعاقبة لا ينفك يلتقي بالبحر كي يمسح عن روحه الضيق. تحت العواصف والأمطار يقف كأنك إذ تراه من بعيد تراه قائماً بملابسه العسكرية فوق الموج الغاضب الهادر..

و في الربيع يرمقه الصيادون متوجسين منه خيفة.. يفصل المصطافون صيفاً بينه وبين البحر؛ فيعتصم داخل قمرة الشاحنة يدخن تحت الطائرات الورقية الملونة المحلقة فوق سماء الشاطئ..

في حر الشمس وطراوة الظل تتقدم الشاحنة لزاويتها المعهودة بطرف الكورنيش حيث مكتب اللواء الذي أصبح وقتذاك يرأس العشرات من المعسكرات الصغيرة، ومنها معسكر وادي ماجد..

تهب النسمات الباردة المنعشة بين جدران المكتب في شهور القيظ، وفي شهور الزمهرير ينبعث الدفء منها.. عند كل مرة يدخل فيها القائد الأصلع إلى هنا يجد اللواء فوق مقعده الوثير ضاحك الطلعة أحمر الوجه متخماً بالدهون والتبغ المستورد والحكايات الفارغة..

كان برتبته تلك أصغر عمرا وأحدث خدمة في الجيش من المقدم الأصلع.. ولهذا فإن الأخير يشعل سيجارته البلمونت لا يلوي على شئ.. بل يضع ساقا فوق ساق. فماذا سيعنيه بعد كل هذه السنين الطويلة التي تعلّم مُذ بدايتها كيف يلف التبغ بالورق الشفيف وهو يقود الشاحنة العسكرية الثقيلة..

سنين متعاقبة مضت اشتعل فيها وتوهج ثم خمد.. وأخيرا، ها هو يقاوم الإنطفاء وحده وسط صحراء لا تشبه أرض سيناء الواسعة، ولا تشبه بيداء السويس.. إن البساط الأجرد لمرسى مطروح يمتص القوة في صبر وأناة ودونما ضجيج.. تدخلها قويا عفيا، وتلقيك كهلا أصلع..

نزع القائد الكاب يمسح رأسه الملساء. ودائما ما يصاب اللواء بالارتباك عند هذه النقطة، لسبب غير معروف. ويظن القائد الصحراوي الأغبر، أن ذلك يرجع إلى كلماته القصيرة عن الشئون الخاصة بمعسكره في وادي ماجد.. غياب الجنود.. التعيين .. الإجازات.. والمستجدين.. والرديف. قال له في بداية تعارفهما بعد انتقال اللواء بترقيته الجديدة من السلوم لمرسى مطروح:

-"يبدو يا سيادة العميد أنك لم تخدم في أي صحراء من قبل"-

و بعد همهمة مقتضبة من الطرفين، ردّ اللواء مشيرا لفترة عمله على الحدود الليبية. ثم أعقب ذلك بكلمات مهينة، قائلا في سخرية صريحة للمقدم:

-".. ويبدو أن ترقياتك تأتيك متأخرة"-

و لم يشأ المقدم الإشارة لمعرفته بقضية اختطاف الخبير ومقتل الحبوني والتهجم على والدته العجوز؛ حيث التحقيقات لم تكتمل؛ فلا جدوى.. قال لنفسه، وصفّق الباب خلفه متوجها للشاحنة مغمغما بأن:

-"الترقيات هي التي تخطئ وجهتها في بعض الأنحاء.."-

تنزلق عجلات الشاحنة عبر الدرب الجنوبي تهدر عابرة طريق العودة لوادي ماجد محملة بالخبز والباذنجان.. يتحسس القائد ورقة

الغياب الخاصة بالجندي الصعيدي المستجد.. والذي لم يعد منذ حصل على إجازة لمدة عشرة أيام؛ قبل شهرين..

قال السائق:

-"أتعرف يا فندم.. هذه الحياة تخدع الإنسان. لم أعرف ذلك إلا هنا.. هنا حيث أتذكر دروس الثانوية العامة عن النسبي والمطلق.."-

-"كيف تخدع؟!"-

سأله المقدم، وسرح ببصره بعيداً فيما استرسل السائق:

-"أقول الحق.. وأنا أمضي الإجازة بين أهلي أكره الصحراء والوسع الفسيح المخيف مع لون ملابسنا الموحد في طابور الصباح وطابور المساء.. وفي المدينة أظل أعد الساعات والدقائق المتبقية من الإجازة.. فإذا ركبت القطار، وأشرفت عليها.. على هذا الفراغ.."-

و أشار الجندي بيده نحو الآفاق فيما حوله:

-"عندما أتطلع لهذا الفراغ تحتل الصحراء قلبي وعقلي.. أمشي نحو المعسكر أغني بأعلى صوت كأني وحدي في الدنيا.. لا شئ عدا السماء، والأرض. لا مخلوق أراه حتى أصل لرفاقي، وأنام في سريري كأني عدت لبيتي.."-

و بعد لحظة صمت أضاف السائق:

-".. وهكذا أفعل أثناء الإجازة. أدخل البيت.. أفتح التلفاز. أقلب الصحف. أغازل بنات الجيران. أقضي الليل مع أصحابي بالمقهى.. وقبيل النوم ألعن الصحراء أقول لو أظلُّ هنا، ولا أعود إليها أبدا.. بهذه الطريقة في كل مرة، وكأني لا أثبت على رأي!"-

شخر محرك الشاحنة فجأة ثم توقف.. الأعطال شتاء لا أول لها ولا آخر. كان على السائق قطع المسافة راجلاً عائداً لمقر الكتيبة الأم على شاطئ البحر.. لن يرجع إلا بعد ساعة أو اثنتين.. يعني أيضا تدخين المزيد من سجائر البلمونت..

جلس المقدم عابساً داخل الشاحنة؛ فقليلون أولئك الذين ينـالون مـا يتمنون بل ربما لا نلتقي بأي منهم بالمرة طوال العمر القصير قد يكـون هو أخطأ التقدير ربما كان يفكر لا يدري أن نهاية المطاف جعلتـه فـي طياتها المقبلة مُؤلفا مُخرجا لا يعلم أحدٌ عنـه شـيئا باسـتثناء رجـال المباحث، أو ما أشبه..

حاولَ تشغيل الموتور فعوى قليلاً ليهمد دون جدوى غير أنه أشعل سيجارة جديدة متصفحا ما ارتكبه من عناد خلال ربع قرن.. حتـى فـي ساحة النصر خلف الكيلومترات القليلة التي قطعها شرقي قناة السـويس ثمة الأيام التي زيَّنت أكتـاف الضـباط وصـدورهم الرتـبُ الجديـدة والنياشين.. تلك الوثبات المجيدة للأمام فوق أكداس الرمال فرحة قتلهـا داخله يحمل جثتها تجئ زوجته تروح بخطوات منزليـة هادئـة يجلـس بمقعده زاماً شفتيه كأنه مبتور الساقين من مصابي الحرب مشـلول فـي كرسي متحرك يطوح يديه جانبيه منكسرا كمن لم يحقق النصر بعد فقـلْ لطم وجه زوجته. كم مرة صفع الخد العزيز أشاع الرعب فـي أرجـاء البيت طفله أصابه الذعر يعتصم خلف باب الحمام يكتم البكاء..

كان ذلك في القاهرة.. والآن يتطلع فيمـا حولـه خائـب الرجـاء مازالت ورقة غياب الجندي الصعيدي داخل جيبه؛ فلماذا لم يبلغ عنه في حينه. إنه بمثل هذه التصرفات فقد الكثير مما حصـل عليـه الآخـرون يتعجب لذاك الجندي يتجادل بلهجته الصعيدية حـادة المقـاطع موجعـة عمره كم سنة بعد العشرين لم يتلقَ أي تعليم بالمدرسة وصل المعسـكر مستجدا كأنه خبير بالجندية ضَرَبَ بحذائه الثقيـل الأرض حيـا المقـدم قضى يومه الأول يدعك حديد الأسلحة فكّكه لأجزاء صـغيرة بـالزيوت غسلها بالشحوم ملأ أحشاءها حَوْلَهُ التفَّ الرقباء القـدامى تـذكروا أيـام الحرب تحلق من ورائهم الجنود في دائرة كبيرة.. أنهى الشاب الصعيدي عمله هزّ الأرض بخبطة قدمه مختتما مهمته صاح:

-"كل شئ تمام يا أفندم.. كل الشغل خلص؛ فهات ما تأمر.."-

و لم يكن ثمة ما يمكن القيام به غير الانتظار. قرر القائد منحه إجازة مدتها عشرة أيام، إلا أنه لم يعد. يفكر القائد مغتاظاً:

-"هل يظن نفسه في شركة بترول.."-

و يتحسس ورقة الغياب يقول لنفسه إن الجندي الصعيدي سيكون في أول صفوف المعسكر، إذا ما صدرت الأوامر بالعودة للجبهة في سيناء. ومع ذلك تبقى الأوامر هي الأوامر؛ لابد من الارتماء بين صحراء وادي ماجد لما شاء الله!

بَرد موتور الشاحنة، والسائق لم يظهر بعد. أما الشمس فتتوارى خلف السحب الداكنة.. يتصاعد دخان البلمونت فوق رأسه. يسافر إلى الآفاق المحيطة ويَؤوب. فيا للبيداء.. تزقزق طيور الزرزور، والقُبّرات تعشش، وأم بريمة تنفض جناحيها بحثاً عن الرعاة..

في مساء يوم مثل هذاك اليوم وجد عزاءه الوحيد البكاء.. في مساء يوم مثل هذاك اليوم أغارت القوات المتمركزة بالسلوم على مدينة إمساعد؛ إلا أنه لم يبك..

إلى أين الرحيل.. لمن يذهب.. مَنْ غير شاطئ البحر ووجوه جنوده المعتصمين بالصبر.. يوم وراء يوم.. الرحى تطحن شقيها في طنين أصم فارغ. لم يكن هناك مانع أمام تسوية المعاش، وخسارة ما تقدم من عمره وما تأخر..

في مساء يوم كهذاك اليوم جمع أوراقه وكتبه ومذياعه داخل حقيبة كبيرة، ولوّح بذراعه من فوق التل مودعاً، حيث بدا له المعسكر في جانب وخيمة أم الحبوني في الجانب الآخر..

ناولته قِدر اللبن، وشرعتْ تسوي البردعة على ظهر الحمار حيث ركب، وانتظرتْ معه على الطريق المؤدية للمدينة حتى استقر في سيارة نقل، وفي جيبه مفتاح غرفة بالعزبة الغربية.. يترنم بكلمات العجوز:

-"وليدي وين يا صحرا.. يا صحرا وين.."-

18

–"أطلبْ منها التوقف عن الكتابة. لا يصح.. الحياة كلها الآن هنا ولا شئ آخر. كيف تتقدم وأنت تنظر للخلف.. إليها. ربما بعد ذلك ممكن عقب الحرب.. ستعود .. وكل الجنود.. سوف تعود، ونبدأ حياتنا، لكن حيث نحن.. اقطع صلتك بما كان، وأنظرْ بعينيك نهاراً وليلاً نحو الجبهة.. وفقط الجبهة يواجهك رصاص العدو.. وهذا في النهاية من أجلك وأجلها.."ـ

يتشكك بحيري في نوايا صاحبه غريب.. يطرد الأفكار السوداء. ينفض رأسه يقذف الحجر فوق المياه المائجة:

ـ"أطلب منها.."–

يلح غريب.. هنا وفى الطرقات المهجورة:

ـ"أنت غيورٌ.. ليست لك صاحبة تتلقى منها الرسائل. اترك رسائلي لتأتي وحدها. لا تقربها أينما وجدتها.. أتسمع!"ـ

قال بحيري محتدماً يحفر التراب داخل حفرة سوداء عضلات وجهه ترتعص تحت التراب والعرق. كان غريب قد جاء منذ ساعة لا يعلم إلا الله من أين جاء.. أخرج الرسالة من بين ملابسه غاضباً. فجذبها بحيري، وردّ معنفاً:

ـ"أغرب عن وجهي.."ـ

هكذا شيّعه ثم جلس وسط ظلام الحفرة الباردة..

هذا إذن هو الخندق الذي قضى فيه شهوراً ينتظر عودة غريب فلم يعد يتلقط أخباره من جنود الإشارة وفرق الاستطلاع الذين يتصادف العثور عليهم في الناحية.. لم يكن يعلم أن ما بينهما خيط من الدم لا ينقطع يمتد يجرى عبر الوديان والهضاب والتدريبات الشاقة. كان ما بينهما ليال وإشارات لا سلكية فيها الموت والحياة.. فيها الحرب كلها على طول جبهة القناة يتسلل تحت الظلام في المياه يغطس يغيب خلف التلال الرملية الحصينة.. يقول بحيري إنه لابد قد قتل.. ترددها الفرق

والكتائب.. وعندما يصل بطوله الفارع، وشعره الطويل إلى موقع صاحبه بحيري يرتفق بجوار الخندق الكبير الذي يشبه السرداب.. وها هو قد اختفي من ثلاثة أسابيع في مهمة خلف خطوط العدو لا يصدقها عقلٌ اثنان من مجموعة الاستطلاع معه أحدهما من سوهاج، والثاني من طنطا تسللوا جميعاً داخل ملابس الضفادع البشرية اجتازوا قناة السويس اختفوا بأرديتهم المنسوجة من الخيش الأسود ابتلعهم فم نفق مظلم يستخدمه اليهود المرابطون وراء خط بارليف كمنفذ للتخلص من النفايات الكيماوية السامة يلقونها بمياه القناة.. النفق عبارة عن مستطيل طويل طويل من الخرسانة المسلحة في وسطه ماسورة تحمل المخلفات الملتهبة يزيد طولها عن سبعة عشر كيلومتر يحيط بها الهواء الساخن تستند على دعامات خرسانية تبعد كل دعامة عن الأخرى نحو خمسين متراً حيث توجد توصيلات من أسلاك بلْ خراطيم خاصة بتبريد الجدران الأسمنتية.. هنا كان الثلاثة يتمنطقون بالمتفجرات النابضة ملابس الخيش المطلي باللون الأسود لها ملمس أحرش حولها العرق والحر والهواء الفاسد لجحيم صغير تحت جحيم الصهد المنبعث من ماسورة نفايات الوقود والسموم المستعرة. هذا يعني أن أجسادهم قد تنفجر في أي وقت إذا لم يركنوا قليلاً بجوار الدعامات الباردة ثم الزحف عبر الفراغ الصغير المحصور بين أرض النفق والماسورة. لكن الأمور لا تسير دائماً وفقاً لما كان يفكر فيه الثلاثة غريب في المقدمة، وعند قدميه رأس السوهاجي ينضح بالعرق حتى لا يكاد يفتح عينيه، ومن خلفه، أي بنحو ثلاثة أمتار، كان الطنطاوي يجاهد لاهثاً لا يتوقف عن مد يديه يوثق حزام المتفجرات حول خصره.. يبدو أنه فقد نصف وزنه مع بداية الرحلة المخيفة..

حثه غريب. نخسه السوهاجي بقدميه، ولما فقد فيه الرجاء أراح رأسه الثقيل على ذراعه العاري، وفك عنه حزام المتفجرات بأسنانه بعدما خانته أصابعه المرتعشة..

بعد زمن طويل من الزحف ظهر أول خيط للضـوء مـن نهايـة النفق.. من وراء خط بارليف..

أمسك السوهاجي بساقي غريب.. هنا لابد من التوقف، والتفكير من جديد في تفاصيل العملية. هل كان الوقت نهاراً، أم أن الضوء مصـدره كشاف لإحدى كتائب العدو..

المعروف أن النفق ينتهي بمنفذين. الأول مفتـوح علـى صـحراء سيناء حيث تنحرف الماسورة لأعلى، وتختفي مـن هنـاك وراء سـور مرتفع لمجموعة المصانع الحربية المنتجة للكيماويـات يطوقهـا جنـود الاحتلال بالحراسة المشددة..

أما المنفذ الثاني فعبارة عن باب حديدي ضخم توجد خلفه مكاتـب التحكم والقيادة التي تدير خط بارليف، والجانب الشرقي لقنـاة السـويس من ساحل المتوسط حتى لسان البحر الأحمر.

أما الخطة فقد أصبحت تعتمد علـى اثنـين فقـط بعـد استشـهاد الطنطاوي مختنقا.. ولذلك قرر غريب الانتظار بجوار البـاب الحديـدي حتى ينفتح من الداخل.. والطريقة الوحيدة لذلك هي قطع أحد الأسـلاك الموصلة بالغرفة المركزية..

ظل جرس الإنذار يدق لمدة تزيد عن خمس دقائق حـبس كلاهمـا خلالها أنفاسه.. ويبدو أن انقطاع الأسلاك بتلك الطريقة كان أمراً معتاداً؛ لأن الجندي الذي فتح الباب كان يمسك بزرادية وأدوات لحام فـي يـد، وفي اليد الأخرى زجاجة بيرة نصف فارغة. عاجلـه غريـب بطعنـة سونكي فجّرت قلبه.. سد فمه بكفه السمراء القوية، وحبس أنفاسـه فـي منخاريه حتى تهاوت الجثة مخضبة بالدماء سقطت داخل النفق.. جرهـا السوهاجي جانباً، وأعاد توصيلة السلك لمكانها.. وعندما توقـف جـرس الإنذار كان غريب في اللحظة نفسها قد دار دورة قناص بـين المكاتـب المفتوحة على غرفة التحكم..

استغرق فتح الخزانة الحديدية لحظات من التوجس.. فتحها غريب وحده بينما السوهاجي يربض خلف الباب قابضاً علـى السـونكي بيد، وفتيل المتفجرات تحت أصابع اليد الأخرى. وفي الجانب الآخر كانت قائمة بأسماء الخونة مرصوصة حسب الأهمية تحت ضوء كشافٍ يحمله غريب بين أسنانه.. اسم كبار الرتب أولاً.. ثم أسماء أخرى لعدد من الضباط المعروفين، وعدد من المدنيين البدو.. وقائمة أخرى بالمطلوب تصفيتهم لخطورتهم الداهمة عند جيش الاحتلال، وهي قائمة طويلة تضم ضباط، وجنود منهم غريب ذاته بأوصافه الدقيقة.. بالإضافة لأوصاف مواطنين من قبيلة السواركة.. وكانت ثمة أسماء مشطوبة بالقلم الأحمر لقادة وزملاء لهم تم اغتيالهم في مراقدهم أيام الهدنة الأولى..

و كانت الأيام تلف، وتدور..

تم إعدام ثلاث رتب كبيرة على الفور. وإطلاق النار على خمسة من الضباط المتورطين مع العدو، وهي الأسماء التـي أمكـن لغريب حفظها برتبها العسكرية في الجيش المصري، ورتبها الأخرى الممنوحة لها من قوات الاحتلال. أما باقي الأسماء من العملاء فلـم يـتمكن من حفظها لنهاية الطريق عائدا للضـفة الأخـرى حيـث ينتظـره رجال المخابرات العسكرية والمدنية والقادة الكبار على أحر من الجمر خاصة بعد انتظام تسرب المعلومات في الأسابيع الأخيرة..

كانت العمليات التي ينفذها غريب خلف خطوط العدو عبارة عن لحظات فاصلة يتغير بعدها على الفور مجرى الأمور هنا على الجبهة. ولم يكن أحد يملك له أمرا ولا نهيا إلا بالمعروف. وإذا مر أحد الـزوار من المسئولين الكبار القادمين من القاهرة، وتصـادف أن وقعـت عيناه على هيئته المثيرة وشعره الطويل المعقوص علـى ظهـره، فـإن قـادة الجبهة ينبهونه على الفور أن ذلك هو الجندي مجند غريب؛ فـلا يملـك بعد ذلك غير أن ينزل من عليائه خجلان ليسلم على الجندي مجنـد يـداً بيد، وينصرف حالاً مطمئنا..

و كانت الأيام تدور وتلف..

و بدأت الضربات تصيب العدو في كبد الهدف..

أيها الجنود المصريون أنتم قمتم بعمليتي عبور ناجحتين، وكبَّدتمُونا خسائر، وعليها قام سلاح الدفاع لطيران الجيش الإسرائيلي بضربكم، وقتلكم المرة تلو المرة. أنتم هنا تُدفنون في الرمال، ولا تجدون ما تأكلونه أو تشربونه، وقوادكم والخبراء الأجانب ينعمون بالراحة بالمؤخرات..

توقيع: جيش الدفاع الإسرائيلي..

اكتشف بحيري وزملاؤه أن المحتلين أصابهم اليأس بسبب عزيمتهم التي لا تلين.. قرر خفض معنوياتهم، وهي نفس الفعلة التي حاول الألمان الاحتيال بها على خصومهم إبَّان الحرب العالمية الثانية. بدأ الأسبوع الثاني من يونية حارا على غير العادة.. ومع الساعة الثانية عشرة ظهرا حل موعد تنفيذ قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار..

و تلف وتدور الأيام..

عادوا جميعاً لبورسعيد. جنود فرقة الصاعقة يلفهم الصمت والارتباك وسطهم فرد الاستطلاع غريب الذي جن جنونه من العودة للهدنة. من ذا الذي اتخذ القرار أين هو.. يسأل:

-".. وماذا بعد؟"-

فيرد عليه بحيري بهمهمة غامضة ورأسه تتمايل مع رجرجة الشاحنة العسكرية.. وحالما استعرت النار من جديد:

-"و من منا لا يريد الإجازة.. تعود لأهلك.. أعود لـ.. تواعد فتاتك.. بأي شئ تعود.. تكتب لك الرسائل. هنا على مشارف الموت. نرجع للوراء قليلاً نعم. الحرب لم تنته بعد.. ستشتد؛ الإسرائيليون يجهزون المدد. حيَلٌ واستغفال. إلى متى. اللعنة.."-

يقول غريب كأنه يلوم نفسه أو يوبخ بحيري الذي يشمر عن ساعديه دون أن يرد على ترهاته. تلتف الحياة مبللة بالعرق والتراب

حول الحفر العميقة للدشم الجديدة.. العمل نهارا تحت حر الشمس، والعمل ليلاً تحت أضواء السيارات.. هنا تم تحصين المواقع للجولة القادمة من الحرب. وهنا جاءهم نبأ موت الرئيس:

ـ"جمال مات.."ـ

تخرج الكلمات من بين شفتي المخرج الأصلع خافتة وقوية. يشد ذراع سيد يضغط كتفي.. يطول صمته حتى يتملكنا الخوف.. وبعد هنيهة يهتز جسده:

ـ".. مات!"ـ

لا يستفيق المخرج في كل نوبة حتى تتكاثف الدموع في عيوننا.. هو لا شك يرى ذلك يراقبنا من داخلنا وخارجنا.. فى هذه اللحظة يصفق يديه صائحاً:

ـ"إضاءة.. إضاءة.. المشهد مرة أخرى.. ابدأ الموسيقى . توقف.. أين مهندس الصوت.. أين النبأ؛ صوت المذيع. ثم.. ابدأ الموسيقى!"ـ

كان المشهد الذي نجسد فيه وقع خبر موت الرئيس على الجنود المرابطين بطول الجبهة من أصعب مشاهد المسرحية وأكثرها صمتاً. ومع ذلك لم نتمكن من أداء الدور بالشكل المطلوب أبدا:

ـ"هيا.. مرة أخرى.."ـ

يأمر المخرج مجدداً قبل أن ينفذ صبره، ويبدأ في تطويح أكواب الشاي على الأرض والجدران ووجوه مساعديه. أما الضرب بالشلوت فكان يأتي في مراحل لاحقة.. حيث يصاب باليأس التام..

تمضي الليالي..

بعد شهور جاءت دفعة من الأوامر الجديدة..

استعادة موقع الفاسولة وتأمينه. وهو مكان لا أهمية له على طريق دمياط بورسعيد حيث أشرفَ بحيري وفرقته من هناك على الامتداد الشاسع للبحر المتوسط..

الدوريات لا تهدأ..

غريب يظهر أياما ويغيب أسابيعَ متنقلا بين الكتائب والوحدات تراه بشعره الطويل الأسود مثل شبح مخيف يلفظه الظلام ليبتلعه من جديد فجأة.. وعندما يعود يقضي وبحيري نهارا بكامله يساعدان الصيادين حتى العصاري.. تنضج الكابوريا أو يأكلانها نيئة.. يفصصان لحم السمك من الشوك يلتهمانه رخوا مشبعا بماء البحر. في الليل يزأران كأسدين متأهبين. يتبادلان تدريب الزملاء الكاراتيه تحت ضوء القمر يركضان فوق الرمال محملين بمواسير المدافع:

ـ"مَنْ ماتَ مات.. أما أنتم فمازلتم هنا.. أمامكم العدو. كيف نجسد تلك المشاعر. نبدأ المشهد هيا.. الإضاءة.. صوت البحر كأنه نحيب النسوة يتخلله صوت حشرات الليل الطنانة عبر الحقول.. القرى نائمة لكنها في الحقيقة تبكي.. وأولئك الجنود يفتلون عضلاتهم .. يحشون أسلحتهم.. يتراجعون يرتدون يتأهبون للحظة الانفلات لساعة الانطلاق. للعبور العظيم.."ـ

يتوكأ المخرج بمرفقيه على كتفي وكتف سيد. نأكل الجبن المعجون بالطماطم نهار الجمعة.. الأبواب مغلقة، ولا سبيل للهرب غير صعود خشبة المسرح لنعيد ما بدأناه مئات المرات، فأي جديد ترى:

ـ"هيا؛ مرة أخرى.."ـ

كلام معجون بالجبنة الفلاحي البيضاء بالطماطم والخيار كأنها لحم السمك مبللاً بماء البحر مصبوغة بلونه الطحلبي وطعمه المالح..

يتنصت بحيري وزملاؤه للخطب الطويلة للرئيس الجديد..

الضباب يتكاثف تتقاطع الطرق..

ما من أحد يعلم كيف ستسير الأمور..

ما بين القناة وبحيرة المنزلة ثمة عيون الصيادين المغرورقة بالدموع يغزلون شباكهم يسألون عن مواقيت الحرب.. تتوقف التدريبات إحباطا، وتعود من جديد أكثر قوة. بحيري يجدل من السكوت حبالا يربطها بطرف الأفق.. سلواه تأتي عبر الرسائل منها. تبدأ دائما بذات الافتتاحية:

ـــ"متى تعود؟"ـــ

يصل الخطاب لبورسعيد أولا، ومن هناك تتبادله مئات الأيدي حتى يصل لغريب الذي يدسه بين ملابسه لحين زيارة صاحبه بحيري شمالا؛ ليوبخه:

-"أطلب منها أن تتوقف عن الكتابة. لا يصح.. سُخرية!"-

و غيرها من الكلمات التي لا يطيقها بحيري ولا يود سماعها..

ينفذ صبره فيتهمه يصرخ في وجهه. وهكذا حتى جاءت الأوامر الجديدة..

التمركز على الساحل غرب الإسكندرية حيث طوبة بصقيعها مازالت هنا. نصب الجنود الخيام، وحولها زرعوا الطماطم والذرة والفجل والجرجير.. يغوص الجنود في لج البحر البارد عُراة كأنهم الشياطين تغطس رؤوسهم المخيفة تطفو بين الأمواج العاتية..

في النهار يستقبلون المستجدين القادمين من الأرياف والنجوع ..

كاراتيه. سويدي. ضربُ نار. غوْص..

المستجدون بدوا مذعورين يتفحصون بحيري وزملاءه سواعدهم مدبوغة رؤوسهم مصفحة بالخوذات الحديدية خضعوا لأوامرهم القاسية الخالية من الرحمة حتى تعلموا.. أصبحوا أكثر جرأة منهم مَنْ يُغني قاطعاً الصحراء الجنوبية بحثاً عن أرنب بري أو ثعابين هائمة.. منهم مَنْ لم يخلع حذاءه العسكري الثقيل لأسابيع كأنه يستعد لخوض معركة صباح الغد..

كان على بحيري أن يطوف بفرق سلاح المهندسين المجاورة غرب الإسكندرية يتسقط أخبار صاحبه غريب الغائب وراء الأفق يبحث عن رسائله بعث بها منْ مكان بعيد منْ الجبل الأخضر.. لقد عاد إلى ذات التدريبات الشاقة القديمة.. انضم لفرقة استطلاع مستحدثة ليوم الفصل.. تعلم فك أنواع جديدة من الألغام الأرضية. فصل التيار الكهربائي عن الأسلاك الحدودية.. تسلّق الجبال، وسار ليال لأماكن محددة سلفا، ووصل إليها رغم الظلام وعواء الثعالب الجائعة.

تنقل هناك برفقة نحو مائتي مقاتل من المحافظات المصرية والعربية بين السلوم ومرتفعات بنغازي. داروا من الجنوب لواحة الكُفرة.. وعادوا لسيوة.. ثم سلكوا دروب براني الوعرة التي اندحر فيها جنود روميل في السابق أثناء محاولته الأولى دخول مصر. ومنها عبروا صوب السلوم كرّةً جديدة.. ومرة أخرى اخترقوا الصحارى والهضاب الوعرة للغرب الأقصى.. وكان عليهم الإيغال عبر الجبل الأخضر المخيف من الشرق بعد أن كانوا قد مروا عليه من قفار الجنوب الغربي.. يعتمدون في سبيل الحياة على ما تجود به الصحراء الضنينة.. ندى الليل الذي تتشربه ملابسهم الرثة.. يعصرونه بأفواههم الجافة.. يضعون الحصى الأسود تحت ألسنتهم. رتقوا أحذيتهم بفروع شجيرات المثنان اللدنة حتى أشرفوا على البساط الواسع للأراضي السبخة المشبعة برائحة اليود والامتداد الشاسع للبحر.. هنا الحدود الليبية التونسية من حيث انطلقنا منذ شهور مما تعدون.. هنا خرج قرويون توانسة مشدوهين اطلعوا على الطابور الطويل القادم مع الفجر من تحت السهوب الجنوبية المهلكة:

-"أهلا بكم في جربة.."-

استقبلهم زمرةٌ من القادة العسكريين المرابطين بتلك الجزيرة النائية.. غريب منبسط الأسارير..

ها هو في قرارة نفسه يقول إنه طاف البوادي من أقصاها لأقصاها اجتاز الصحراء العربية الكبرى من جبل عوينات للبحر فأي مهمة تافهة تلك التي سيقوم فيها بقطع صحراء سيناء بل قلْ صحراء النقب وصولا للقدس محلقا رأسه..

هنا توا.. بوجهه الأسمر الضامر وخصلات شعره المسدل على جبينه يشاكس الضباط الليبيين والتوانسة.. يضحك من ملابسهم الأنيقة ونياشينهم الملونة:

ـــ"لقد كان مشهدا مثيرا للسخرية ذلك الذي لقيت نفسي فيه عنـــدما وصلت لمطار جربة مهدود الحيل خاوي الوفاض.. وأقول لنفسي ومــاذا بعد.. وأقف مع الواقفين ننتظر وصول القائد. وعندما هبطت الطـــائرة.. نزل منها رجل سمين مثل المرأة الحُبلى.. بطنه منتفخة.. خداه حليقـــان ذابلان. تحت ذقنه ربطة عنق رماديـــة. كـــان كيســاً رخـــوا مشـــدود الأطراف.. ضحكتُ مرة أخرى ثالثة، فبدت علامات الغضب على وجوه الضباط، ولهذا استعجلوا عودتنا للإسكندرية.."ـــ

و كانت رسالته الأخيرة التي لم أقرأها بعد..

و جاءت الأوامر الصارمة المفاجئة..

تحركوا للشرق..

توا..

19

يستطيع الإنسان تلخيص حياته كلها في يوم واحد..

شهادتي الجامعية في جيبي أطوف بها شوارع مرسي مطروح..

اجتاز الأرصفة والــدرجات الأســمنتية والأبــواب. أقــف أمــام المكاتب..

لحيتي تخيف لهذا الحد أم هي تعليمات مباحث أمن الدولة. لم يكــن الاستمرار في إلقاء خطبة الجمعة ودروس بعد العشــاء بمســجد الفــتح ممكنا أمام نظرات والدي الذي أعياه الصبر وطــول الانتظــار ليرانــي أعتمد علي نفسي مدرسا وهو ما لم يحدث..

لفظتني المدينة؛ ومن مطار القاهرة حلّقتُ إلي جدة..

اليوم تبدأ طريق الجهاد الطويلة..

فإذا كان سيد مازال علي قيد الحياة فلابد ألحق به أقف معــه فــي صفوف المجاهدين بجبال أفغانستان أما إذا كان قد استشهد فأهلاً بالشهادة غير آسف علي هذه الكرة الضئيلة المجللة بالسواد إنها علي أية حــال لا تساوي جناح بعوضة. ادخرتُ عشرين ريالاً سعوديا في اليوم الأول لقاء عملي وراء بناءٍ استكمل رفع جدران عمارة تطل علي الشارع الرئيســي بالمدينة أبصر بلا اكتراث وجوه المعتمرين القادمين من الــبلاد البعيــدة العَرَقُ أمْسَحُهُ عن جبيني أرفع الطوب للطابق الثالث من البكــور حتــى صلاة العصر بعدها أواصل الشغل في منزل يقع بضواحي جدة كمدرس خصوصي للغة العربيةِ التلميذُ يتأمل كفيَّ الكبيــرتين الخشــنتين يحفــظ القواعد بفراغ صبر والدُهُ لا ينسى يحمّلني السلامَ للأخوة الذين ســاقوك لنا يا أيها المدرس المصري النابغة لا ينسي أيضا فيدس في جيبي أجرة الشهر أعودُ لمسجد الرحمة أصلي العشاء أدلف داخل حجرتــي منهــك القوي عليل الصدر أتلحف بالظلام لا تنــام عيــوني إلا إذا اعتصــرني الشوق أمضّني دَغْدَغ عظامي مهما استعذتُ بالله من الشــيطان الــرجيم أجد الصور باهتة لا يحدها إطار لا تقفُ لحظة فطرقــةُ العــين تمحــو

وجوها ترسم ملامح لا حصر لها إنّ شعر فايزة يغطي جبينهـا يضـيء مصباحٌ أديم خدها الأيمن تلتمع عيناها في نظرة لوم قصيرة تعود بعـدها لقراءة الحوارات المتشعبة في المسرحية يطلُ المُخرجُ الأصلع غاضـبا ضاحكا يصيحُ هامسا يدور بين الصفوف الطويلة للمقاعد الفارغة كأنـه يتفقد طابور جنوده ثم ينمحي غريبُ يزحفُ في نفـق المدخنـة عائـدا بأسماء الخونة أوصاف المطلوبين للعدو بحيري يحفـر الخنـدق فاتحـا الشقوق السبخة بأرض القناة تتساقط دانات المدافع تمطر عليـه قاذفـات الطائرات يزحف تتعاقب ركبتاه في أثر مرفقيه تائها بصـحراء سـيناء يصرخ:

ــ"يا غريب يــ يــ يــ.. ــب.."ــ

ومن ورائه يرفرف الهواري بذراعيه يتمايل برأسه كأنه يريـد أن يطير.. أصرخ منتفضا من نومي:

—"ياسيــ يــ يــ.. ــاد.."ــ

علي هذه الصور أنام، وأصحو علي آذان الفجر.. أصلي في مسجد الرحمة، وأقرأ ما تيسر من القرآن ثم، مع شروق الشمس، أضع قوالـب الطوب فوق كتفي.. أرتقي بها الدرجات الأسمنتية حتى الطابق الثالـث.. الأجرة تدفعني للصعود والهبوط بلا كلل.. متر الطوب الواحـد بريـال، وإذا أذَّن العصر؛ فلابد أن تكون أجرتي قد وصلت إلي سبعين أو ثمانين ريالا..

و لم أصدق أبدا أنني صعدتُ بكل تلك الحوائط السامقة.. إلي ذلـك الارتفاع الذي يطاول المآذن المجاورة. لكن المشكلة جاءت من حيـث لا أحتسب..

تقيح كتفي الأيسر أولا..

ثم تمزقت أربطة الكتف الأيمن..

كنتُ أمشي علي قدميّ بينما رأسي تتطوح فوق كتفـي المريضـين كأنني مصاب بعرج أو شارب والعياذ بالله مُسْكِر.. فـي سـوق البنـاء

وجدت العلاج عند اثنين من الأخوة الجزائريين الذين يعملون في مقاولات تركيب سيراميك دورات المياه العامة والحمامات الخاصة في المدينة.. إنهما يعملان لتوفير مبالغ لمواصلة السفر لأفغانستان قبل أن تنتهي مدة إقامتهما في هذه البلاد..

سلمتهما مدخراتي.. توليت الإشراف علي العمال في الفترات الصباحية. أمرُّ علي ثلاث عمارات، واطمئن علي سير العمل..

عرّفاني علي بقية الأخوة. كانوا خليطاً من العرب الذين يعتزمون الرحيل سويا للجهاد.. نصلي نحن التسعة سوياً، ونسهر في شقة الجزائريين مرة أسبوعيا علي الأقل نقرأ ما تكتبه صحف عن ملابسات قرار الأمم المتحدة بإدانة غزو الشيوعيين لبلاد الإسلام ومطالبته موسكو بسحب قواتها فورا.. ونتبادل الرأي حول ما انتهت إليه الدورة الطارئة لوزراء خارجية الدول الإسلامية في إسلام آباد وقرارهم وقف عضوية حكومة كابول العميلة في منظمة المؤتمر الإسلامي..

أقطع شوارع جدة.. خلفي ظلال غريبة تعد خطواتي:

ـ"خطوة.. ثنتان.. ثلاث.."ـ

أسلمهُمَا دفتر الملاحظات به حسابات اليوم والمصروفات المطلوبة لعمل الغد، فيندفعان في مشاحنات بسبب نقص الريالات هنا وزيادة النفقات هناك ولا يتوقفان حتى يتدخل صاحبنا السعودي.. وهو رجل طويل اللحية كحيل العينين له نظرة واسعة متعمقة.. يفتخر بنسبه الغابر. تم إبعاده عن إلقاء الدروس والخطب في مساجد جدة، وأعيد لقبيلته التي استقرت قبل خمسمائة سنة حول أقدام جبال نجد.. وكان كلما أطبقت عليه المرتفعات السوداء أدار محرك سيارته التويوتا، وجاء ليطوف بالمدينة يصلي بمساجدها ويسخر من خطبائها الذين يحللون ما تريده الدولة صباح مساء.. وينتهي به الليل في شقة الجزائريين:

ـ"طردتم الفرنسيين، ونحن هنا لم نطرد أحداً بعد.. لكن لي سؤال. من هو عدونا الأول فيما تظنون كأمة إسلامية تؤمن بالله ورسوله؟"ـ

و لم يكن ينتظر الإجابة، بل ينخرط في درس طويل عـن أنساب قبائل الجزيرة العربية وأصولها وامتدادها بالشام وأراضي بين النهـرين وتوغلها في مصر وشمال إفريقيا.. وحالما ائتلفنا مثـل طيـور نازحـة التقت علي فرع شجرة ذات مساء.. تبادلنا أحاديث شتى حول جـوازات سفرنا المختلفة في ألوانها القاتمة وأحجامها غير المتناسبة..

إلا أن السعودي ابن نجد كحيل العينين اختفي فـي صـباح اليـوم التالي فجأة، وظهر بدون التويوتا بعد نحو شهرين غاضباً لا يكلم أحدا.. التزم الشقة بعدما قدَّم لنا حقيبة مكدسة بآلاف الـدولارات.. وضـعناها علي مدخراتنا، وأصبح الرحيل لا يتطلب غير إجـراءات روتينيـة قـد تستغرق عشرة أيام لا غير:

ـ"نحن جماعة تبليغ ودعوة .. هؤلاء هم نحن.. فقط."ـ

قال السعودي.. أعاد لنا الجوازات ومعها فيزا دخول بـنجلاديش.. وتوصية رسمية بأننا جماعة من الشيوخ العرب المتطوعين لتبليغ النـاس التمسك بالفضائل وحسن المعاملة وتفقيه المسلمين بأمور دينهم..

جماعة التبليغ والدعوى تحظى باحترام خـاص فـي دول أخـرى أيضا.. منها باكستان وإندونيسيا والهند.. فـإذا كانـت أرض الجزيـرة العربية قد ضاقت بنا، فقد انفتح الباب أمامنا لنضرب حيث نشـاء فـي طرقات العالم الفسيح. وسنعود يوما؛ حتماً سنعود..

أقلعت الطائرة من مطار جدة ليلاً..

صلينا الفجر علي المقاعد.. رأينا خيوط الشمس تضرب صـفحات السحب قبل أن تهبط بنا مخترقة صفوف المصابيح المضاءة بالكيروسين علي جانبي ممرات مطار دكا.. قابلنا الموظفـون البنغـال بالترحـاب، وحاول بعضهم نطق اسم جماعة التبليغ والدعوة باللغة العربية..

لقد أوشك أحدهم أن يقبل يدي حباً لجماعتنا المزعومـة.. وأخيـرا خرجنا من بوابة المطار دون أن يفتش الأمن حقائبنا..

عبرتُ الطريق، ففوجئت بعدد ضخم من أهالي دكا الحفاة العراة يطلبون الحسنات..

نساء وأطفال وشيوخ متسولون يمدون أذرعهم النحيفة المرتجفة تحت هطول الثلج بنتفه الكبيرة في حجم الكف. مياه الأمطار تجري تحت أحذيتنا القادمة من الصحارى العربية الجافة..

غزونا وسط المدينة بجلابيبنا البيض وربطات الرؤوس الخضراء الخاصة بجماعة التبليغ.. وكانت الأمطار قد توقفت، والمياه قد اختفت في بالوعات التصريف المنتشرة علي حواف الشوارع الضيقة للمدينة..

الناس ينامون فوق الأرصفة وفي الحدائق العامة. لا يستر عوراتهم غير خرق بالية انتظاراً لصدقات العابرين..

في الصباح تشرع الغربان أجنحتها محلقة فوق الأشجار ورؤوس المباني وأعمدة الضوء المصفوفة بطول الشوارع الهامة..

غربان لا أول لها ولا آخر تسبح في الهواء أعلى أسواق حقائب السفر..

تتعب وتخلط ضجيجها بضجيج باعة الأرز والبهارات والعدس..

طحين العدس المعجون بالمقدونس والطماطم المقلي في الزيت..

أقف أمام البائع بحذاء الرصيف آكل من هذه السندوتشات الشعبية الشبيهة بشطائر الطعمية.. أسرح بعينيَّ في خليط الوجوه والأقدام والأزياء الملونة..

أما السيارات فقليلة العدد. وفي ساعة الظهيرة لا تكاد تري منها واحدة.. معظم الماركات من الفيات واللادا.. الدراجات أكثر وسائل المواصلات انتشارا، لدرجة أن الإشارات المرورية في الشوارع الرئيسية مخصصة لتلك الدرجات متعددة الأشكال.. منها العادية بعجلتين، والثانية بثلاث عجلات.. أما النوع الثالث فهي الركشة المكونة من عجلتين خلفيتين يجرها شخص من الأمام..

المظاهرات الحاشدة تنطلق صبيحة كل يوم عبر الطرقات بلا هوادة..

كانت هناك أعداد كبيرة من المواطنين يطوفون بمسجد البيت المكرم المصمم هندسيا مثل الكعبة المشرفة.. ومع علم شيخ المسجد، الذي يتحدث العربية مثلنا، بعدم جواز الطواف علي غير البيت الحرام؛ إلا أنه قال إنه ومن معه من شيوخ المساجد المجاورة يبذلون جهودا حثيثة، لكنها غير مباشرة، في محاربة الخرافات والبدع..

لا أحد يجرؤ علي منع أهل دكا وزوارها من الدوران حول مسجد البيت المكرم المبني علي هيئة مربع، والمحاط بأسوار ومآذن وخيام أصحاب الطرق الدينية المختلفة..

اللغة البنغالية خليط من العربية ولغات آسيوية أخري..

استيقظ مبكرا أتنزه وسط حدائق المدينة راكبا دراجة ذات ثلاث عجلات يقودها بنغالي أسمر فاحم الشعر..

أقطع الشوارع.. خلفي ظلال غريبة تعد خطواتي:

ـ"خطوة.. ثنتان.. ثلاث.."ـ

دور السينما تعلن عن أفلام هندية.. الفقراء يفتشون أكوام القمامة بحثا عن الطعام..

أوقفتُ سائق الدراجة، وترجلت حتى اقتربت من طفل لا يستر عورته غير بشكير ماحل اللون متهرئ.. مطّ عنقه لأعلى، وشبك ساعديه النحيلين فوق بعضيهما..

أوضح السائق بكلمات عربية مهشمة إنه يحاول رسم سيفين بذراعيه وبرأسه يصنع نخلة. كل هذا لكي يعبر عن حاجته لريال سعودي..

للفندق المحاط بأشجار خضراء أعودُ لأجد الأخوة في البهو ينتظرون ما تسفر عنه مفاوضات صاحبنا كحيل العينين..

له اتصالات واسعة..

يجري مكالمة هاتفية.. يخرج، ويرجع إلينا بعد نصف نهار أو نحو ذلك بأخبار جديدة..

السفارة الباكستانية ترفض منحنا التأشيرات اللازمة لمواصلة الرحيل. تقول ارجعوا، واحصلوا عليها من السفارات المماثلة في بلادكم.. وبعد مشوار طويل آخر يدخل علينا مكتئب النفس محبطا؛ فالخلافات علي أشدها بين بنجلاديش وباكستان، والقبائل علي حدود البلدين دخلت في نزاع جديد.. وعليه لا يمكن العبور بالطريق البرية بدون الأختام رسمية..

تمر الأيام.. الأخوة يزدادون نحولاً وكرباً..

مشادات، وغضب لا تطفئه غير مواقيت الصلاة جماعة في المسجد المجاور للفندق. وعند الليل نحسب ما تبقى معنا من تكّات ودولارات:

ـ"الفيزا الواحدة بستمائة دولار.. سنحاول تخفيض المبلغ غداً. ما معنا لا يكفي لشراء حتى ثلاث فيزات.."ـ

السعودي لا يتوقف عن ضرب الأخماس في الأسداس، وإجراء الاتصالات المطولة بأرقام بنغالية يضعها في كتيب هواتف صغير أسود اللون..

بعنا ما معنا من ساعات وأجهزة تسجيل وثياب وتلفيحات..

جميع متعلقاتنا بعناها بآلاف التكات، ومع ذلك لم نجمع من هذه الحصيلة غير ما يزيد قليلا عن الخمسمائة دولار. وعقدنا الآمال علي أننا سنتمكن في نهاية المطاف من تخفيض مقابل الفيزات التسع المطلوبة؛ وهو ما حدث.. سددنا نصف المبلغ، علي أن نسدد الدفعة الثانية بعد حصولنا علي التأشيرات. كان السعودي يثق في نجاح صفقة الشراء. وبدأ يحسب قيمة تذاكر الطيران للعاصمة الباكستانية..

هذا يعني أننا نقترب من أخوتنا في أفغانستان..

و أستلقي أنا في غرفة الفندق آخر الليل منهك القوى عليل الصـــدر أتلحفُ بالظلام لا تنام عيوني إلا إذا اعتصرني الشوق أمضّــني دَغْــدَغ عظامي مهما استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم أجد الصور القديمة تمــرُّ على الأستار السوداء باهتةً لا يحدها إطار لا تمسكها لحظة فطرفةُ العين تمحو وجوهاً ترسمُ ملامحَ لا حصرَ لها تخرجُ فايزة من خلف الكــواليس بثوبها الفلاحي الأخضر تعكسُ الأضواءُ الباهرةُ زينــة وجههــا عيناهــا الواسعتان الدامعتان تسألان في صمت رســمه مخرجنــا ذاك ليترجمــه الجمهور لمعانٍ من حكايات تحمل تفاسير شتى في الخطوة التالية أفــتحُ فمي لا أقول شيئاً راحةُ يدها تضغط جانب وجهي فتلاقيهــا بأصــابعها الطرية علي الجانب الآخر يريدُ سيد أن يعرف طعم العناق كيف يكــون لم يسأل ربما لم يعرف أبدا غير رؤوس الجنود تهتــز داخــل صــندوق الشاحنة بينها يهتز رأس بحيري المشوش:

ــ"أغرب عن وجهي، واترك رسائلي تأتي وحدها.."ــ

هكذا شيّع صاحبه غريب، وجلس داخل الحفرة الباردة. هــذا هــو الخندق الذي قضي فيه شهورا ينتظر عودته، لكنه لم يعد..

المُخرج فص ملح ذاب..

تواظب فايزة علي زيارة المكتبة المهجورة. تقرأ الحوارات الطويلة في المسرحية..

سيد يجادل عمدة الحبون فيما الخبير يحشــو فمــه بــالخبز والأرز يبتلعه ظلام الصحراء ليتردد أنينه آخر الليل مختلطا بصــيحات رعــاة الأغنام وعواء الذئاب وطلقات حرس الحدود:

ــ"بووووم.."ــ

الأحجار تتطاير والتراب..

تتناثر عظام سيدي يونس تحت الأشعة الأخيرة لشمس الغروب..

يحل الصمت..

تتسع دائرة الظلام الحالك داخل الغرفة.. حول الفندق وعلى حدائق دكا وفيما وراء جبال أسيا..

تختفي النجوم..

استعيذُ بالله من الشيطان الرجيم لأنام، ولا أنام..

أتنصتُ فأسمع وقع الخطوات القادمة..

طرقاتٌ علي الأبواب المجاورة، وانتظارٌ.. ثم خطـوة.. ثنتـان.. ثلاث..

نقرات الأصابع بعد منتصف الليل؛ أعرفها..

لقد حاصرت قوات الأمن الفندق عقـب صـلاة العشـاء دون أن ندري.. والآن كل أخ من الأخوة معتقل داخل غرفتـه انتظـارا للجنـة التحقيق المكونة من أربعة أحدهم بنغالي يتحدث اللغة العربية بطلاقـة.. يزين وجهه بلحية خشنة.. عرفنا فيما بعد أنه مسئول في جماعة التبليـغ والدعوة ببنجلاديش.. كان يترجم الأسئلة الطويلة التي حاصـرني بهـا اثنان من المجموعة في لغة بنغالية جافة..

كانا يقذفان الأسئلة بالتنـاوب بعـدما يتبـادلان حـوارا قصـيرا بالإنجليزية مع الشخص الرابع الذي جلس علي حافة السـرير.. وضـع أوراقه فوق الكرسي المجاور.. كان يحدق سـحنتي انتظـارا لسلسـلة الترجمة التي تبدأ وتنتهي من تحت سن قلمه..

يخط، ويضع علامة الاستفهام في نهاية السؤال ثـم يتلـوه علـي البنغاليين كلاهما.. وهذان يترجمانه لصاحبهما الملتحي الذي ينقلـه لـي بعربية رصينة.. ينتظر حتى يأخذ إجابتي ويناولها لهما بالبنغالية حيـث يقلبانها إلى كلمات إنجليزية..

نرقب.. نتسمّعُ لحركة يد المحقق ذي الملامح الأسـبانية واللكنـة الأمريكية..

تخشخش الخطوط على الورق.. تنتهي بنقطة، وتبدأ بسؤال جديد:

ـــ"من أين جئت؟"ـ

-"من السعودية.."ـ

ـ"ولماذا جئت من مصر للسعودية، ثم من السعودية لبنجلاديش؟"-

ـ"أنا من جماعة التبليغ والدعوة.."ـ

-"تحركاتك هنا، وتصرفاتك بشكل عام، وكل شئ يتعلق بك ليست له أي علاقة بما هو معروف عن جماعة التبليغ والدعوة. كيف تفسر ذلك؟"ـ

ـ"أنا قلت لكم إنني من جماعة التبليغ والدعوة. صدقوا أو لا تصدقوا. هذا هو .."ـ

ـ"من تعرف من شيوخ التبليغ والدعوة في القاهرة؟" ـ

ـ"أنا متطوع حديثاً منذ كنت في السعودية فقط. لم يسبق لي التعرف على أحد من هذه الجماعة الخيرية بمصر.. كما أنني لا أعرف.."-

ـ".. لكن متطوعي جماعة التبليغ، يا شيخ، لا يقيمون في الفنادق.. وأنت تقيم هنا منذ دخولك البلاد.. طوال سبعة أيام في هذا الفندق. ومع ذلك تصر على أنك.. يعني من الجماعة إذن؟" ـ

ـ".. معلوم أننا، في التبليغ والدعوة نقيم بالمساجد، لكن الأمر يختلف مع ظروفي الخاصة، حيث أعاني من متاعب بالعمود الفقري، ولا أستطيع النوم علي أرض المسجد.. أضف إلي ذلك أن معي من النقود ما يكفي للإقامة في فندق.."ـ

ـ".. وهل الآخرون الذين جاءوا معك من السعودية يعانون من متاعب في العمود الفقري.. هل كلكم كذلك؟"ـ

ـ"الله أعلم بظروفهم.. كما أنني لا أعرف أي أحدٍ منهم.."ـ

ـ"كيف.. المعلومات تؤكد أنكم جئتم سويا بتذاكر وتأشيرات مسلسلة على طائرة واحدة؟" ـ

ـ"ربما استقلوا نفس الطائرة التي جئت أنا فيها.. أو أنهم يقيمون في نفس الفندق الذي أقيم أنا فيه.. أما هم فلا أعرف منهم أحداً. كما أن

ملامحهم تقول بأنهم ليسوا مصـــريين، إن كنـــتم تقصـــدون الأشـــخاص المقيمين في الغرف المجاورة لغرفتي.. أليس كذلك. إن وجوههم غريبــة بعض الشئ.."ـــ

و هنا توقف المحقق عن إلقاء الأسئلة..

ضغط بالقلم علي شفته السفلى دون أن يحيد ناظريه عن وجهـــي.. ثم قال:

ـــ"فاك لاير.."ـ

بلكنته الأمريكية السريعة..

بعد هنيهة عادت التحقيقات لسيرتها الأولى:

ـــ"متى كانت آخر مرة التقيت فيها بـــ.. كرم؟"ـ

ـ"لا أعرف أحدا بهذا الاسم.."ـ

ـ"لكنك التقيت به هنا، في دكا.. وهو أميركم.."ـ

ـــ"أنا أمير نفسي، وملك نفسي، ورئيس نفسي.. ولـــو ســـمحت لا تخاطبني بصيغة الجمع.. أنا لا أعرف أحدا غيري.."ـ

ـ"و التقيت بعاصم أيضا، في مكمنه هنا.. أين؟"ـ

ـ"لا أعرف هذه الأسماء.."ـ

ـ"أنت مطلوب القبض عليك في مصر لعلاقتك بالتنظيم الذي يديره كرم. لماذا طلبكم لبنجلاديش. أمن أجل التبليغ والدعوة.. فقط!"ـ

ـ"لم يطلبني أحد.. كما أنه غير صحيح أنه مطلوب القبض علـــيّ؛ فأنا خرجت من القاهرة رسمي، وتصريح الخروج مطبوع هنـــا.. فـــي جواز السفر.. ها هو.."ـ

ـ"..ولماذا تعتمدون على أنصار كرم في ترتيب سفركم لباكســـتان إذن؟"ـــ

ـــ"أنا جئت في جولة لدعوة المسلمين لفعل الخير والابتعـــاد عـــن الشر .. جولة في بنجلاديش أولا.. ثم بعدها قد أتوجه إلـــي إندونيســـيا، والهند، وباكستان، وغيرها.."ــ

ـ"يعني باكستان. لماذا؟"ـ
ـ"لأنها من البلاد الإسلامية.."ـ
ـ"وما رأيك في الجهاد الأفغاني؟"ـ
ـ"لا أعرف عنه شيئا.."ـ
ـ"اسمع يا شيخ.. قد نضطر لترحيلك لمصر إذا ثبت أن المعلومات التي أدليت بها غير صحيحة؛ وعليه لن تكون هناك أي تأشيرة للمغادرة إلا بعد التحقق مما قلت.."ـ

و هنا تبادل الاثنان البنغاليان الحديث فيما بينهما بلغتهما غير المفهومة، وشاركهما مسئول جماعة التبليغ والدعوة في بنجلاديش الحوار الغامض.. ثم التف الثلاثة حول الأمريكي، وانغمسوا في همس وجدال خافت.. أوكيه يا شيخ التبليغ والدعوة.. أهلا بك في دكا، وسنرى..

انصرفوا جميعا كما ينصرف الكابوس المرعب..

دلف الأخوة الآخرون إلى غرفتي..

كان المحققون قد حاصروهم بالأسئلة عن أسامه بن لادن، وعن العرب الذين يروجون لفكرة إنشاء جيش متعدد الجنسيات من المسلمين..

و قرر السعودي من فوق لحيته المبللة بالعرق ترك الفندق لسكن منزو في الحي الشعبي جنوب المدينة.. شقة ممتلئة بالأسرّة ننام ونأكل ونصلي داخلها انتظارا لتأشيرات باكستان حيث توجهنا في اليوم التالي للمطار تلاحقنا الظلال الغريبة؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

20

هبطت الطائرة في مطار كراتشي منتصف الليل..

و الوصول لعاصمة باكستان يعني أن الطريق إلي أخوتنا المجاهدين في أفغانستان أصبح تحت أعيننا، ولا يفصلنا عنهم غير مسيرة يوم أو يومين بالحافلات..

نظافة صالات الوصول غيرت نظرتي لبلاد المسلمين في آسيا..

شوارع كراتشي يفيض علي جانبيها النور. تمرق السيارات بجوارنا. أسير وسط الأخوة وراء صاحبنا السعودي العجول الذي يعلم ما لم نكن نعلمه..

توجّهَ بنا لمحطة الباصات، وكأنه يعرف مكانها مسبقا، وكأنه عاد لمدينته بعد طول غياب. ودار بنا في حافلة للنقل الداخلي مزخرفة بالأوراق الملونة التي تتطاير أمام السائق وعلي النوافذ الزجاجية..

و أخيرا استرحنا في فندق متوسط يقع بأطراف المدينة الموفورة بالثراء مقارنة بدكا التي تغصُّ بالدرجات والفقراء.. وعلي الرغم من أن كراتشي كانت تريح نفسي بنعمة الطمأنينة إلا أنها كانت كذلك مبعثا للخوف والرهبة والتوجس..

من هنا، لا يفصلني عن سيد غير بساط من الأرض، وحدود سهلة، ونصف يوم من السفر لإسلام آباد.. آخر المدن الباكستانية التي تسيطر عليها الحكومة. ومن بعدها بيشاور المحكومة بنفوذ القبائل البشتونية حيث نرتقي الجبال صعودا لبلاد الأفغان..

السحب الداكنة تحجب السماء، والهواء البارد يضرب نوافذ الحافلة التي تقطع الطريق بنا مساءً في اتجاه الحدود الدولية إلى أن اعترضت طريقنا جمهرة من الضباط، ومن خلفهم سيارات مصفحة وجنود يشهرون الأسلحة الأوتوماتيكية. فتشونا جميعا نحن والركاب الباكستانيين، وقلبوا أمتعتنا، ونكتوا المقاعد التي كنا نجلس عليها:

-"أنتم عرب؛ فماذا جاء بكم إلي هنا؟!"-

هكذا سأل الضابط في لغة عربية غير سليمة، وقد فتح عينيه عن آخرهما مندهشا، في نفس الوقت الذي حاوطنا فيه زملاؤه من الرتب العسكرية المختلفة..

تدخّل السعودي.. وكنا نراه، ونحن واقفون على جانب الطريق يحاور ويناور شارحا بيديه وبلحيته وبكتفيه محاولا إقناع الكمين بأننا جماعة التبليغ والدعوة المسالمة التي تعمل تحت رقابة السلطات في البلاد الإسلامية، ولا شئ أكثر من حث الناس على طاعة أولي الأمر ونبذ الشهوات والتغلب على ملذات الدنيا الفانية..

وبعد نحو سبع ساعات من التحقيقات المريرة والاتصالات المريبة سُمح لنا بالتقاط أمتعتنا، والعودة لمقاعدنا داخل الحافلة..

أخيرا أصبحنا على مشارف إسلام أباد، وهذا لم يمنع الركاب من إطلاق ما يعرفون من ألفاظ عربية، وكأنهم يحاولون طمأنتنا..

عرفنا منهم أن الإجراءات الأمنية المشددة أمر طبيعي هذه الأيام عقب مصرع رئيس البلاد ضياء الحق. والسبب في ذلك، في رأيهم، هي الـ.. يونيتد ستيتس التي تريد تدمير الأرض الطيبة، وهو الترجمة الحرفية لكلمتي باك وستان في لغتهم..

و أسأل نفسي.. كيف تحمّل سيد كل هذا العناء، وعَبَرَ الحدود، ونقاط التفتيش، وأسئلة المحققين في المطارات، وغرف الفنادق، والأكمنة المفاجئة. محققون من أهل البلاد، ومعهم زمرة من الأمريكان. وكأنك يا سيد تريد أن تثبت أن إيمانك بالله، وقدرتك علي الاستشهاد في سبيله، أقوي من إيماني وقدرتي. وكأنك تريد أن تثبت لي أن الخُطب والدروس التي طالما ألقيتها فوق المنابر، وأمام المصلين لا تعني شيئا مقارنة بـ.. طلب الشهادة..

و يعود النحيب لرأسي:

-"و ليدي وين يا صحرا.. يا صحرا وين الحبوني.."-

تبتلُّ العينان مني محزونا يضيق صدري..

لم يكن خوفا..

لا لم يكن، ولا رهبة من الموت، لا..

الشهادة في سبيل الله لها طريقان في عقلي وفي قلبي. طريق فيه أمٌّ تعقد ذراعيها وراء ظهرها المحني في درب طويل خاوٍ أجرد.. تخطو منكسة الرأس، وقد جفت دموعها لا تسمع منها غير همهمة متصلة:

–"وين الحبوني.. وين.."–

و لا تتوقف..

تقطع شوارع المدن، ولا ترى أحداً.. تضرب بقدميها المتقرحتين فوق الوهاد على الشوك تختفي بجسدها الضامر المتعب داخل وادٍ لتظهر أشد نحولا ترتقي التلال من جديد..

و مع ذلك يتناهى صوت نحيبها يشق الكبد من أقصى الأفق:

–"وليدي وين.."–

الأم وحدها في الدنيا الواسعة المهجورة..

أما الطريق الثاني فيعرج فيه الشهيد نفسه إلى السماء السابعة.. حيث يستقبله الأنبياء، والأبرار، والصالحون. وتدخل به الملائكة إلى الجنة، فتجلله الأنوار، وتستقبله خطب الترحيب، ويكلله الخالدون بتاج من الضوء، ويقولون له ها هو مكانك هنا بيننا نحن الذين أفنينا عمرنا في الحياة الدنيا، لنحمل أمانة الله في الأرض نذكّر الناس ألا يميلوا بالميزان، حتى ضاق بنا البشر العاصون..

إن سيد يدرك أن طلب الشهادة هو عين الإيمان وغاية الحياة.. يدرك ذلك منذ تركنا التمثيل، واعتكفنا في غوط رياح نتتبع أيام غزوات المسلمين.. أيام خروجهم للجهاد في سبيل الله يفتتحون البلاد يقدمون أرواحهم رخيصة لنصرة الدين كما فعل إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد. كلهم فقراء كانوا يقطعون الأرض لقول الحق يستحثون خلق الله على فعل الخير والترفع عن الشهوات ونصرة المظلوم والجهر بالحق أو رفع الحراب في وجوه الغاصبين والسُّراق والخونة..

يدفعني سيد للأمام وحالما قذف بنفسه إلي حيث الجبال السوداء الشاهقة ولهيب النار النازل من عنان السماء تصبه طائرات الاتحاد السوفييتي وقذائف عملائه حكام البلاد..

هو هناك الآن يحشو المدافع المضادة، ويحصد أرواح جنود العدو الكفرة.. ألا إن جند الله هم الغالبون.. أقول لنفسي متطلعا من بين رؤوس الأخوة إلي التلال الرمادية علي مشارف إسلام أباد فأبصر المضايف العربية المبنية عند أقدام الجبال لاستقبال الأخوة المجاهدين القادمين من شتى بلاد العالم. وهنا بدأت الطمأنينة تسري في عظامي..

أنام الليل بطوله لا أصحو إلا مع الضحى، فأجد الإفطار كما لم يكن من قبل. المربى.. الجبن الأبيض.. الفول المعلّب والخبز. أمضي الوقت أجوب شوارع إسلام آباد الفسيحة في فمي طعم مربى التفاح، فالحمد لله..

كان الأخ السعودي هو الذي يحتفظ بمدخراتنا، أو قلْ ما تبقي منها.. ينفق منها علينا بحساب دقيق يتضمن كل دولار وسنت وروبية.. أما هنا، فإن الأخوة المجاهدين تكفلوا بإقامتنا طوال خمسة أيام كاملة في مضايف أشقائنا العرب.. أقول لنفسي متفكرا.. أمسح بطرف لساني ما تبقي من المربى وسط المدينة التي تشبه الغابة.. كانت غابة حقيقية تلفها الأشجار من جوانبها وفي قلبها. تتناثر الفيلات ذات الطابق الواحد خلال الأوراق الخضراء والزهور الملونة والثمر المدور الناضج.. من كل وجهة ترى خيوط الشمس تتكسر خلال فروع المانجو والموز على جانبي الطرقات.. فوق كل هذا وذاك تصدح الطيور مسبحة بالنعمة والثراء. إن إسلام أباد مزركشة بالألوان الزاهية مثلها كمثل النقوش المرسومة علي أردية نساء المدينة. أما الصحف فقد كانت مجللة بالسواد حزنا علي ضياء الحق:

-"خطوة.. ثنتان.. ثلاث.."-

و بدأ حفيف الملابس والهمسات الغريبة تتعقب جلبابي بعدما خرجتُ من باب المكتبة الرئيسية. وأقول فليكن؛ من سيكونون غير عملاء لإحدى الحكومات العربية. عملاء للمخابرات الأمريكية؛ فليكن.. كان كل ما معي لا يزيد عما اشتريته حالاً. أي كتاب أطلس وقاموس إنكليزي عربي ودفتر أبيض الصفحات وثلاثة أقلام.. وبزة باكستانية وطاقية أفغانية..

أمشي.. في أثري الظلال الغريبة.. فمن هم.. أتلفت فيختفون، وتظهر سيقانهم الواسعة يستحثون الخطى ورائي من الجانب الآخر..

أقطعُ الطرقات مخترقا الزحام أمام مسجد الجامعة الإسلامية. هنا دُفن الرئيس، وهنا ألقى زواره بباقات الورود والرياحين حتى غطت باحة المسجد والطرق المجاورة.. هنا يصلي المسلمون القادمون من المدن البعيدة على فقيدهم.. صليتُ الظهر معهم، وقرأتُ، وسط الصفوف المتراصة في صحن المسجد، القرآن انتظارا لصلاة العصر. وأقول كيف مرَّ سيد عبر كل هذه الحدود والبلاد وعملاء المخابرات العربية والأجنبية. لابد أنهم استوقفوه في كل مكان هجموا عليه بالأسئلة الدقيقة. إنهم يعلمون أشياء كثيرة، ويريدون معرفة المزيد المزيد؛ أنتَ اسمك سيد ومصري الجنسية، فما كنيتك.. ولماذا جئت من السعودية لباكستان.. مَنْ يمولك.. مَنْ أرسلك..

أنت اسمك سيد.. نعم، ومن مواليد مرسى مطروح في مصر.. نعم، فهل يا سيد أنت من قبائل أولاد علي، أم من المقيمين بمرسى مطروح..أي هل أنت لست من القبائل؟ وماذا تعرف عن هوية صاد شين.. هل عَبَرْتَ الحدودَ إلى ليبيا بتلك الهوية من قبل؟ هل تعرف جماعة بولرايقة راعي الغنم الأصولي الذي قاد حركة مسلحة ضد الحكومة. هل تعرف أحدا من جماعته؟ من هو مسئول الجماعة عن منطقة إسكندرية، والبحيرة، وكفر الشيخ، ومطروح.. هناك زيارات قام بها أتباع كرم أو عاصم لجماعتكم الصغيرة في غوط رياح. هذا طبعا

صحيح. أليس كذلك. إذن مَنْ سهّلَ لكرم الاختباء بالصحراء حينذاك. وهو عَبَرَ الحدود.. التقى بولرايقة بعدئذ. أليس صحيحاً. المعلومات الدقيقة عن تلك الأيام بما فيها المتفجرات التي وصلت إليك قبيل تفجير الضريح في وادي ماجد. لا يهم؛ لكن كرم كان قد زور أوراق سفره لإيطاليا، وساعده احدهم بالسلوم أو مساعد. ما هو الاسم الجديد لكرم. ثم هل أنت اسمك سيد حقاً أم إنك تنتحل الاسم بأوراق مصطنعة؟ جواز سفرك عليه تأشيرة للسعودية ثم عودة لمصر، وبعدها دخلت المملكة مرة أخري قبل أن تغادر لباكستان إلى هنا. ونفس هذه التحركات، في نفس الأيام مدونة بجواز سفر رفيقك علي ذات الطائرة، فهل مازلت تصر علي الإنكار. هل مازلت تريد أن تقول إنك لا تعرف.. فك يو..

لابد أن المحقق الأمريكي اختتم هو ومعاونوه الباكستانيون سلسلة التحقيقات مع سيد بتلك الشتيمة البذيئة المعهودة..

دخل بنا مندوبو المجاهدين الأفغان مدينة بيشاور العارية من الشجر؛ لا توجد فيها نبتة واحدة..

اخترقت الحافلة شوارعها المنظمة ذات الطابع العسكري..

بيوتها عبارة عن فيلات تفصل بينها مساحات من الأراضي الجرداء.. كانت البنايات لا تزيد عن طابق واحد، وبعيدة عن بعضها البعض، لدرجة أن المدينة تبدو لك واسعة جداً جداً، ولا يعيش فيها غير أبناء القبائل الحدودية المدججين بالسلاح..

الآن لن تعرف إنْ كنت في أفغانستان أم مازلت في باكستان.. حيث تتداخل الحدود والوجوه وحتى الهويات الرسمية التي تحدد انتماءات السكان.. كان لاجئون جوعى ومشردون وجرحى قادمون من الغرب الأفغاني حيث القتال في الوديان والجبال.. هنا في بيشاور كل شئ يختلط بنقيضه.. أسواق الفاكهة التي تغص بثمار تشبه الكمثرى والتفاح والمانجو. ومحال المأكولات بروائحها الفواحة وشوارع تجارة المدافع الرشاشة والقنابل.. وهي التجارة الرئيسية لقبائل بيشاور..

تستطيع فوق كل هذا أن تجد رجُلاً يبيع المانجو في دكانه.. إلى جوار دكان آخر يبيع القنابل اليدوية والديناميت.. ملاصقا لمحل ثالث لبيع سندوتشات اللحم المشوي بالبصل والطماطم والتوابل الحريفة..

وقفت أقرأ اللافتة العربية لمطعم العثمانية.. كان معظم المجاهدين يترددون على هذا المطعم وهم في طريقهم إلى الجبهة.. وصفت لعمال المطعم ملامح سيد لعل يكون أحد منهم قد قدم له الطعام في يوم من الأيام سواء وهو متجها للقتال أو عائدا في إجازة..

ورغم ما في ذلك من خطورة سألتُ عنه كل من لاقيته في بيشاور من أول موظفي الهلال الأحمر القادمين من بلاد إسلامية وعربية ومتمركزين هنا، وحتى مكتب خدمات عربي مثير للريبة يشبه العاملون فيه رجال المخابرات بخصالهم التلصصية؛ فمن أنت من أدخلك قل أنتَ بشتونيّ، وإن كنت فأفغاني أم باكستاني، فارجع الآن ممنوع التحرك هنا.. قل لم تطل استراحتنا؛ فحالما بدأت الرحلة الأخيرة لعبور الحدود؛ إلي أرض الجهاد العظيم إذ حين ودعتُ بيشاور كنت كمن يودع الدنيا ومن فيها..

المندوب الأفغاني يسير في المقدمة كمن به عرج يشير بيده للآفاق المسدودة بالجبال السوداء الشاهقة، قائلاً لنا بين الحين والآخر:

-"قريب يا شيخ، قريب.."-

أتطلع لوجه الأفغاني فيما أمسحُ عينيَّ فوق شعر لحيته الصهباء وجبينه البارز بعزيمة لا تلين.. أتخيلُ أين تكون ابنته، أو أخته، أو زوجته، أو أمه.. وأقول واحدة منهن على الأقل لابد أنها الآن تعقد يديها خلف ظهرها، وتغمغم، وقد نكست رأسها عبر الضفة الأخرى:

-"وين وليدي يا صحرا.. يا صحرا وين الحبوني.."-

وأهمُّ أن أسأله إن كان قد رأى أو سمع عن سيد.. إلا أنني أعود، والتزم الصمت خشية أن يعود بي للدوامة ذاتها التي لقيتها في بيشاور..

لقد جاءت الإجابات محيرة مشتتة..

يحدقني الواحد منهم ملياً ثم يشير إلى مجاهد آخر، ويسأله:

-"هل سمعت عن أخ يُدعى سيد المصري؟"-

فيجيبه هذا بدوره:

-"سيد المصري.. ثمة سالم، أو ربما كان هو سيد الليبي المجاهد مع الأخ عبد الله عزام. إنها هي أوصافه.. نعم، وربما ليست كذلك.."-

و ينصرفان..

أعاود السؤال مجددا في زاوية أخرى من منعطفات المضايف العربية. ولم أكن أعلم، في ذلك الوقت، أنه لا يجوز السؤال عن الآخرين. لا عن أسمائهم، أو بلادهم، أو الجهات المنتسبين إليها..

و كيف كان لي أن أعرف؟

أبحثُ، وأفتش بلا هوادة؛ فتأتي الإجابات مقتضبة مرتبكة:

-"سيد.. لكن هذه الأوصاف تخص سالم.. ذاك الشاب المصري المقاتل. وكأنه قادم من جبهة سيناء.."-

و بعد ثلاثة أيام فوجئت بأنني تحولت لمسئول لا سائل. أجد نفسي أرد بإجابات طويلة مفصلة.. أقول لهم إنه مصري. نعم مصري، ويحرص علي التحدث باللغة العربية الفصحى. وقد توحي لك لكنته العربية بأنه سعودي، أو ليبي. لكنه في الحقيقة مصري.. المشكلة أنه لا يتقن التحدث باللهجة المصراوية. وقد يظن بعضكم وبعض الأخوة هنا أنه عربي يحمل جواز سفر مصري مزيف؛ لكن الحقيقة هي أنه من مرسى مطروح في مصر، وتلك المدينة تسكنها قبائل مثلكم، لكنهم لا يحاربون السوفييت، فلأي سبب سيذهب السوفييت لمرسى مطروح. السوفييت كانوا عندنا أيام الرئيس جمال عبد الناصر. عبد الناصر. ناصر.. ناصر، وتيتو، ونهرو.. كان عبد الناصر صديقا للسوفييت. أنا وسيد شاهدناهم في المدينة يدربون الجنود والضباط.. ويوزعون السجائر على الأطفال.. رأينا ناصر أيضاً عندما زار المدينة.. كان ذلك قبل عبور خط بارليف. كنا صغارا في ذلك الوقت، وأنتم تقولون إن الأخ سيد شارك في طرد الصهاينة من سيناء..

لم يكن الأفغان يجيدون اللغة العربية ولا لهجاتها بالقدر الذي يسمح بإجراء حوارات طويلة.. هذا ما أذكره، لكن لا أعرف الآن على وجه الدقة كيف كنت أتجادل معهم حول سيد، ومن رآه، وكيف كانت وجهته ولهجته.. ولابد أنني، في ذلك الوقت، كنتُ على غير ما أنا عليه الآن..

لقد مرت أيام لا أول لها ولا آخر. وليال طويلة في بلاد المسلمين والكفار والبيْن بيْن..أذكرُ جيداً السّحن المرتابة للمجاهدين المرابطين في بيشاور.. وكانوا خليطا من الفلسطينيين والجزائريين والمصريين والسعوديين.. والأمريكان والأوربيين.. كانوا حقا كذلك، أم أنهم مجرد سوريين، وتوانسة، وليبيين، وأفارقة.. وإنجليز..

ما كان في مقدور أحد أن يُعلم الآخر بمن هو، في الحقيقة، وبمن يكون؛ في حين أندفع أنا لا ألوي على شيء كنتُ..

أقول إن سيد قد يكون في تلك المضيقة، أو بهاتيك الزاوية حيث أبحث عنه، بينما الرؤوس الجديدة المتعبة القادمة من بلاد العرب والعجم الواسعة تستريح قليلا قبلّ عبور الجبال إلى داخل أفغانستان. وكانت هناك وجوه أخري تأتي من هناك منهكة من التدريبات.. وجوه محاربين:

-"إلى أين..؟"-

إنهم الفلسطينيون واللبنانيون الذين تمرسوا على القتال.. على حرب العصابات وحرب المدن.. يسلكون طريق أوبتهم للجبهات المفتوحة على أراضيهم السليبة. يتسللون من شمال فلسطين المحتلة ومن جنوبها لإلقاء الرعب في قلب العدو.. وكأنهم يمهدون الشبر بعد الشبر في طريق التحرير التي يزيد طولها عن عشرات الآلاف من الخطوات الواسعة..

أسواق بيشاور لا تهدأ ليلاً ولا نهارا؛ فبعد صلاة العشاء يتحلق المسلمون للاستماع للدروس الدينية والحربية والسياسية في باحات المساجد.

و بعد منتصف الليل تهدر محركات الشاحنات القادمة من ظلام الصحارى محملة بالصواريخ والمدافع الرشاشة، بالإضافة إلى صناديق الطعام والصناديق الخشبية المكدسة بالذخيرة من مختلف الأحجام والأنواع..

بعد نحو ثلاث ساعات، وقبيل آذان الفجر، تكون شاحنات المجاهدين قد امتلأت عن آخرها، وبدأت تزحف على بطون الوديان وأكتاف الجبال في طريقها لخطوط النار؛ إلى الجبهة..

كان المجاهد عبد الله عزام، الذي يُطلق عليه البعض لقب الدكتور الفلسطيني، يتردد على بيشاور لمتابعة تنفيذ خطته التي تهدف إلى كنس المدينة وتنظيفها من عملاء الموساد والسي آي إيه..

فإذا ما انتهى من مهمته، تراه يغسل يديه من آثار القاذورات، ثم يرتقي الهضاب بالتويوتا الكروزر إلى الجانب الآخر، ليشرف علي تدريبات الأخوة الفلسطينيين واللبنانيين. تدريبات حية علي خطوط النار.. تحت قصف الطيران ودوي المدافع.. لقد كانت تدريباتهم تعني حقاً الخروج من بوابة الموت، لدخول بوابة الجهاد الكبير نحو القدس:

-"اللهم اقبلنا عندك شهداء واحشرنا في زمرة الشهداء.."-

كان صوته يهز أسقف المضايف العربية عندما دخلتُ بيشاور وقت صلاة ظهر الجمعة.. السيارات المدججة بالأسلحة ورجال الحراسة يقفون حول المسجد وباحته.. الآلاف يجلسون في صفوف متراصة كتفاً لصق كتف.. من حناجرهم تنطلق كلمة آميين بعد كل دعاء على الصهاينة والأمريكان والشيوعيين والحكام العرب وغيرهم..

هل سأعثر أخيرا على سيد هنا.. أ هو مع الأخوة الحراس. أم في الصفوف الأمامية داخل المسجد كأحد رجال الدكتور عزام المخلصين للدعوة الطالبين للشهادة في سبيل المولى عز وجل..

صلينا الظهر.. استمعنا خلال الصلاة لصوته الجهوري الخشن يتلو قائلاً وأعدوا لهم ما استطعتم..

كان يردده بشجن وإصرار وبَحّةٍ تهتز لها الصدور. وعندما قال الله أكبر في الركعة الأخيرة تحركتْ الجدران والسقف ارتج من صيحة التكبير الجماعية التي تممت وراءه. وعقب ذلك خيم صمت ما قبل التسليم.. لم يقطعه غير نهنهات لعددٍ من الأخوة المجاهدين..

علامَ يبكون..

على ما ضاع أم على ما هو آتٍ..

فمَنْ كانت إذن تلك التي تسعى داخل رأس كل منهم عاقدةً يديها وراء ظهرها مُنكسةَ الرأس تعبر الدروب الجرداء تناجي أخيها أو زوجها أو ابنها الغائب بلا عنوان ولا مراسيل:

-"يا صحرا وين وليدي.."-

21

غادرنا بيشاور مساء..

ألقيتُ النظرة الأخيرة على الشوارع الطويلة المزدحمة بدكاكين الأطراف الصناعية لمبتوري الأذرع والسيقان الذين يصيلون تباعاً من خلف الحدود..

إنهم هم أنفسهم الذين عبروا من هنا إلى جبهات القتال قبل بضعة شهور..

ارتقت بنا اللاند كروزر الهضاب حيث بدت المضايف العربية مثل الوسائد الصغيرة المتناثرة بلا نظام.. هي نفس المدينة التي عدتُ إليها بعد ذلك مرات ومرات في صحبة الجرحى. وأدركتُ أن الأمور تتغير للأسوأ..

وفقا للنظام القديم كان على كل مجاهد أن يترك جواز سفره في المضايف، ويتسلم بدلاً منه قطعة من النحاس عليها رقم محفور يعلقها حول عنقه. ويقابل كل رقم جواز السفر الخاص بصاحبه..

و أخبرتنا مرافقنا الأفغاني الأعرج إن الشيخ بن لادن أصدر أوامره بأن يحتفظ كل أخ عربي بجوازه.. يعبر به الحدود، وبه أيضاً يستشهد، بعد أن أصبحت بيشاور تمتلئ بعملاء المخابرات:

-"قريب يا شيخ، قريب.."-

يقول دليلنا وهو يتقدمنا مخترقا رؤوس الصخور السوداء مرتقيا قمم الجبال منزلقا في الوهاد عابرا بنا إلي أول معسكر للمجاهدين..

طوال مسيرتنا كانت الريح تهب من يميني تارة ومن يساري تارة أخري..

ريح تمسح الصور القديمة فلا تبقي في رأسي غير وجه سيد، بالكاد..

و أقول إن الصاحب إذا دخل بلداً عرف إن كان صاحبه قد سبقه إليها أم لا. وأدركتُ أنه هنا لم يزل مُذْ كنتُ في بيشاور أشم رائحته بين

جدران المضايف وفي الشوارع الواسعة وداخل أسواق السلاح. والآن ها أنا معه تحت السماء الأفغانية الواسعة جنبا لجنب رغما عن الجبال المحروقة والوديان العميقة المخيفة..

لم يكن يدور بخلده أنني قادر على اقتفاء آثاره.. حسناً. ها أنا ذا قد وصلتُ؛ فأين هو الآن؟

الأحوال في أفغانستان تتبدل، والبلاد أصبحت تتكون من دولتين متداخلتين؛ واحدة موالية لنظام الحكم تقاتل ضد المجاهدين، والثانية تتكون من خليط من الأخوة الأفغان والعرب والباكستانيين والهنود وغيرهم من بلاد المسلمين تحت لواء أحمد شاه مسعود، قائد الجبهة الشمالية. أما قيادة الجبال والمرتفعات فكانت تحت يد الشيخ جميل الرحمن الذي استشهد فيما بعد عند كمين على مشارف مدينة خوست..

من رأس جبل لرأس جبل، ومن ليلٍ لليل يئز الرصاص حول رأسي.. أدوس بقدمي علي الرماد.. أنا أجري طوال شهور التدريبات والقتال.. وسيد يدور حيث أدور.. يهبط معي الوديان يجري ورائي إذ أجري من معسكر لمعسكر.. من قرية لقرية.. نسيخُ السمعَ سويا للنواح المحمول علي جناح الريح..

اسمعْ..

نحيبٌ، أمْ مَاذا..

تمرُّ الأكتاف المثقلة، والرؤوس المنكسة نراها من بعيد تعقد كفيها وراء ظهرها..

كلُّ أمٍّ تتعقب رائحة ابنها تتشممُ عرقه تحت الآفاق..

و الساعة أستفيقُ هُنيهةً..

أتلفتُ أبحث عنه فلا أجده يقول الأخوة المجاهدون إنَّ سيدَ نَعْم كان هنا في المأسدة على رأس معركة السابع بعد العشرين من رمضان هو سيد ذلك المجاهد المصري ذو اللكنة العربية التي تشبه لكنات أهل الصعيد أو أهل العراق جافة بأحرف حادة الحواف تخرج من فيه سريعة

مثلما يتحدثون في بنغازي إلى هنا قبل عام جاء بوجهه الأسمر شعر رأسه الطويل ذقنه المرسلة علي صدره هو فوق كل هذا صموت كتوم لا يتحدث إلي أحدٍ إلا فيما ندر كأنه بلا لسان جاء عرفنا أن له مكانة خاصة حين تم ضمه لأول اجتماع للمجاهدين العرب ذاك الذي أعلنوا فيه عن إقامة المعسكر العربي الكبير بالمأسدة حيث بدأت رؤوس المجاهدين تبرز من سفوح الوديان من قمم الهضاب قوافل لا آخر لها يسحبون معداتهم الثقيلة في مواكب عسكرية مهيبة للمأسدة قُلْ حولوا تلك البقعة من أفغانستان لدولة عربية ضخمة شَعْبُها الآلاف من الأخوة قادتها من الأمراء الشباب الأشداء وقفوا هناك وقفة رَجُلٍ واحد لصد الهجوم الكبير الذي شنته عليهم القوات الحكومية بالتعاون مع الروس فلا أحدٌ هنا ينسى معركة السابع بعد العشرين من رمضان لم تكن آخر المعارك الضخمة المدوية التي وقعت في الآونة الأخيرة لكنها كانت الحرب الأولى التي يثبت فيها العُرْبُ قدرتهم علي الاستمرار بدون مساعدة من القوات العسكرية التابعة لأحمد شاه مسعود أو قوات الشيخ جميل الرحمن فأنت إذن تسأل عن سيد المصري ستجده في القيادة العامة للمجاهدين العرب هنااااك بالمأسدة..

لا أعرف، حتى الآن، لماذا لم يتوجه بنا الدليل الأفغاني إلي معسكر العرب منذ البداية. فلأي سبب صعد بنا لقمة جبل جاجي أولاً. هل حقا من أجل التدريبات الأولية وما يتخللها من لقاءات مع الشيوخ الكبار من أمثال حكمتيار؟ أم أنه كان يعمل لصالح إحدي الجهات الإستخباراتية. أنا، علي الأقل، مازلت أذكر ذلك الرجل غريب الأطوار الذي لا يتحدث غير اللغة الأفغانية يقول:

-"أنا أخوكم؛ مسلم.."-

و لا يزيد فيما هو يُصلِّحُ أعطال الكلاشنكوف والـ... آر بي جيه. وفي الصباح نجده يتجول أمام مخزن الأسلحة انتظاراً لإصلاح أي عطل جديد.. أم أنه كان يتقن اللغة العربية، ويقضي فوق قمة جبل جاجي

الأيام والليالي مع الوافدين الجدد؛ ليعرف من هم، ومن أي البلاد، وإلى أين سيتجهون.. هل أنا رأيت وجهه من قبل في ركن من بيشاور أخذتني قدماي دخلتُ إذ كان ممنوعاً المرورُ ممنوعُ التَّحرُّك السؤالُ ممنوعٌ.. تأتي أسلحة وتخرج قال رشاشات ماركت العوزي الإسرائيلي والبورسعيد المصري كانت الصواريخ المضادة للمدرعات والدبابات تأتي صناديق ذخيرة أشرطة طلقات قال قف؛ من أنت من أدخلك قل أ بشتوني أنت، وإن كنت فأفغاني أم باكستاني فارجع الآن ممنوع التحرك هنا..

و أيُّما كان الأمر، فإن البق والبعوض واللغة الأفغانية التي لا نفهمها أصابتنا بالإعياء والملل. ولم نكن نُقبل علي التدريبات إلا تثاقلاً..

الجزائريان تتزايد حدة المشاحنات بينهما أكثر من السابق. وبدا أن السعودي قد ضاق بهما ذرعاً، فكيف له أن يصبر علي فض منازعاتهما صباحاً ومساءً وفي منتصف النهار. إلا أنه ظلَّ كما هو عليما ببواطن الأمور. يُشرفُ من فوق قمة الجبل على السهوب والوديان البعيدة، ويقرأ هويَّة قوافل اللاندكروزر القادمة من بعيد.. يقول ذاك حكمتيار قادم ليرحب بنا؛ فيكون هو حكمتيار نفسه.. ويخبرنا أن تلك قافلة التموين؛ فتكون هي قافلة التموين. حتى في الأيام التي تسطع فيها الشمس تجده قد ظلل براحة يده فوق عينيه، وسرح مع الموكب الذي يخترق الوهاد القصية، ليبشرنا بأن تلك إمدادات الأسلحة، وإن رجال بن لادن في طريقهم للمأسدة؛ فيكون..

وأقول له:

-"لماذا لا نذهب إلى هناك، ونلتحق بأخوتنا العرب، فاللغة هنا صعبة، ولا أفهم إن كان المدرب الأفغاني يطلب مني أن أجري أو أن أطلق النار فوق هذا الجبل المحروق.. كل ما تعلمته طوال هذه الأيام لا يزيد على أن كلمة درش تعني قف.."-

لم يكن أخونا السعودي يرد بإجابة محددة. إنه لا يلتفت إلى ما قلته. فقط يهزُّ رأسه. وبعد ساعة أو ساعتين، حين نلتقي مصادفة أمام مخزن الأسلحة، يشير من تحت لسانه:

-"الصبر يا أخي، الصبر.."-

كيف لي الوقوف هنا بلا حول ولا طول..

تغربُ الشمس عن يساري، وعن يميني تشرقُ، بينما قوافل المعدات الحربية تثير التراب عبر أقدام الجبل في طريقها لمعسكر الأخوة العرب؛ هنااااك حيث أريد.. هنااااك حيث سأعثر لا محالة على سيد؛ وهو ما حدث..

انتقلنا جميعاً في نهاية المطاف. وأول ما قمت به كان البحث عنه. سألتُ عن أخباره في القيادة العامة للمعسكر:

-"كيف تسأل.. ألا تعرف العهد.. ألم تمر بالمضايف. كيف لم يخبرك الأخوة بهذه البديهيات يا شويْخ. هنا لا أحد يتفقد حالة أحد.. فقط نحن تعاهدنا علي الجهاد. نحن جميعاً عباد الله.. أخوة في الإسلام. هنا لا يبحث عن الهوية أو الاسم الحقيقي غير عملاء المخابرات. فلا تضع نفسك في دائرة الشكوك، حتى لا ينبذك الأخوة. وقد تتعرض لمتاعب، لا قدّرَ الله، علي الجبهة.."-

هكذا نصحني الأمير الشاب ذو اللهجة الشامية وهو من قادة المعسكر..

أما أنا فلا أسائلُ اليوم غير نفسي. وأقول هل كان ثمة أفغاني عجوز يرابط على بوابة المعسكر.. هل كان هو ذاك العجوز ذاته الذي أشار لي بكامل مرفقه للمقبرة الجماعية المحفورة على مرتفع في الجنوب..

هل ذكر لي أحد المجاهدين العرب أن سيد ضلَّ وسط حقل ألغام، وتفتت جسده قِطعَ لحْم صغيرة..

أ كانت الشمس ترسل من حواف السحب أشعتها الحمراء الأخيرة فوق الوهاد المنبسطة حول المأسدة، وأنا أجثو على ركبتيَّ، وأسلّم على قبره.. وأبكي:

-"خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود.."-

و أصحو في صحن المسجد.. مسجد المعسكر؛ فكيف نمتُ هنا، وصحوت أهدئ من روعي متمتما بألا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يُرزقون..

أقفُ بين الصفوف الطويلة المتراصة للمجاهدين العرب. الوجوه جامدة ضامرة، والملابس خليط من البزّات العسكرية الماحلة والثياب الأفغانية القصيرة.. وجوه يغطيها الشعر والغضب.. رؤوسهم معتمرة بالطواقي والعمائم الملونة. يصيح القائد:

-"أيـــ... ــتباه.."-

فيرتفع صف طويل من الأقدام المتجاورة، وتهبط على الأرض؛ لتهزها..

الآلاف من الأقدام المحشورة داخل البيادات السوداء والبنية، والأخرى الحافية، وتلك التي حُشرتْ على عجل داخل الكاوتشات والصنادل..

لم يتخلف أحدٌ عن صيحة جمع المعسكر..

الجميع انتباه على الحالة التي كانوا عليها، ولا استثناء. حتى الذين كانوا يتوضئون أو يصلُّون..

حتى أنا- في أول يوم ليَ هنا- وجدتُ صيحة النداء تدفعني دفعا، كأنها يد سيد، لأضعَ قدميَّ بحذاء الأقدام، وأرصَّ كتفي بين الأكتاف..

وتمضي الأيام..

يوم بيوم، وليلة بليلة في التدريبات الشاقة العملية حينا، وفي الدروس الحربية النظرية حينا آخر..

و كان يوجد بالمعسكر عدد من الخيام المـزودة بـأجهزة التلفـاز والفيديو؛ لعرض مشاهد حية من الجهاد ضد الصـهاينة فـي فلسـطين ولبنان إلى جانب أفلام تسجيلية عـن السـنوات السـابقة للجهـاد فـي أفغانستان. كما توجد خيمة أخرى عليها لافتة؛ مكتبة.. تحوي المئات من الكتب العسكرية والدينية والسياسية. ولم أكن أعرف أن معظم محتويـات المكتبة وشرائط الفيديو قادمة من أوربا الغربية مـع شـحنات السـلاح والطعام والأدوية. وكان فوق كل موكب قادم من الشرق أو من الغـرب رجالٌ ملثمون صامتون اسمهم رجال بن لادن. يقفون بجوار الشـاحنات حتى تفرغ صناديق الذخيرة والمدافع الرشاشة.. وكانـت مـن مختلـف الماركات؛ من طـراز بورسـعيد المصـري، حتـى الـ... عـوزي الإسرائيلي، مرورا بـ... مات الفرنسي، وما أدراك ما مات الفرنسي..

و جاءتنا بعد ذلك بأيام خيول شامخة الرؤوس بـأعراف متصـلبة وذيول معقوفة كأنها علي أهبة الاستعداد لبدء الجهاد معنا ضد الروس..

أتطلعُ فجرَ كل يوم لسماء المأسدة مشتت الفـؤاد لا أثبـت علـى رأي..

هل أبقى أم أعود؛ لكن إلى أين..

بدا لي أن سيد موجود هنـا بشـحمه ولحمـه ووجهـه الرمـادي الصموت..

أتلفتُ فجأة كأني رأيتُ رأسه تمرق من بين مئاتِ الرؤوس...

كأني رأيته قادما نحو البوابة فجرا؛ فرُويدا.. وإلا أرديته الآن بيديَّ خطأ..

و أي مصيبة جديدة تلكم ستكون..

فقد تضطر في نوبة الحراسة الليلية أمام بوابة المعسـكر لإطـلاق النار علي كل من يقترب منك ولا يستجيب لأوامرك؛ لكلمة السر..

كَمْ أهلكتُ بمدفعي الرشاش من كلاب وحمير..

إن ما يتحرك تحت الظلام ولا يمتثل عند صيحة قف، مـا هـو إلا عدو لا ريب فيه..

طرقتْ أذنيَّ خطوات سيد المتسللة من القمم الجبليـة عنـد هـدأة السَّحَر يقتربُ حيث تزداد صورة وجهه وضوحا بجواري يجلـس فـي بطن صخرة من صخور شاطئ مرسي مطروح تلفنا رائحـة السـبرتو تحت دخان السجاير فها هو ذاته يتحسس التراب المبارك الملفوف داخل خرقة بيضاء تتدلي في صدره فهو ذا سيد يتعارك مع المخرج الأصـلع حيناً يتعلثمُ في أداء دور الجندي غريب حينا آخر قبل أن يتأبط ذراعـي ندور على عقبينا بعيداً عن فايزة يعنفني يقول بلهجته البدوية الخشنة:

—"عيب؛ بنت قبيلة. حتى لو كانت والدتها اسكندرانية.."—

حينذاك يتصبَّبُ عرقا ريحُ البحر الباردة تضربُ وجهينا الصغيرين الخاليين من الشعر فانظرْ ثم انظرْ من جديد تراه يجلس ظهر الجمعة في مقدمة الصفوف بصحن مسجد الفتح يدفعني للمنبر الآن يُخفي ابتسـامته خجلاً من ماضينا الطويل الفارغ في ثوبه الأفغاني القصير يجـدُّ السـير بسرواله الواسع تغطي جبينه عمامة خضراء تصُمُّ أذنيه فمـاذا غيـر أنْ أصيخ السمع فهل أسمع بكاءه أصيبَ في جبهة القتال أم ماذا أقولُ فإنـه لابد الآن يجرجر عظام ساقيه المحطمتين وراءه. والدَّمُ ينزفُ يسيل على الخدين والأنف والفم.. اخترقتْ جبينه رصاصة شلّتْ أطرافـه سَـقط.. دادادم.. دادادم..

يميلُ رأسي جانبا رغما عني أتنصت من جديد؛ فيقتـربُ النحيـب كأنه غناء كالهمهمة الممطوطة الموزونة..

فجأة هززتُ ذراعيَّ شددتُ أجزاء السلاح للضرب:

—"قف. كلمة السر.."—

أصدرتُ الأمر باللغة العربية سريعاً مرتين، وردَّدتُه كمـا حفظتـه بالأفغانية، وقد أفقتُ من غفوتي مستدركاً كررتُ الأمرَ نفسه بالإنجليزية؛ لكن الظلَّ اقتربَ أكثر..

ضغطتُ كعبَ الرشاش في كتفي الأيمن. قلبُ الهدف في نقطة التنشين خلال غبش الفجر. انتظرتُ للحظةٍ أستبين ما أمامي..

بَدَتْ للوهلة الأولى كأن أم الحبوني نفهسا قدّامي قد ضلّت طريقها من صحراء مرسى مطروح لجبال أفغانستان جاءت..

توقفتْ.. لمعتْ عيناها في سواد الليل تتفرسني عَبْرَ ماسورة الرشاش دون خوف.. سألتني بلغتها الأوردية فرددتُ عليها بحركة خاطفة؛ غرزتُ فوهة الماسورة في صدرها. فتشتُها من رأسها حتى أخمص قدميها. أدرتُ جسدها النحيل الضامر تحت ذراعي الطويلة القوية حتى ظننْتُ أن ثيابها الأفغانية لا تغطي غير لوح من الخشب البارد:

-"تهيم في البراري. تزوم مثل ناقة أضاعت وليدها. هذه هي أم حفيظ الله المجاهد علي الخطوط الأمامية. هل استشهد.. لم تصلنا أي أخبار من خوست طوال الشهور الماضية. ثمة أخوة محاصرون، ناهيك عن الشهداء.."-

قال أحد المجاهدين القدامى مشفقا على العجوز التي كانت تردد مقاطع من الندب والعويل تكررها بلا انقطاع.. جلستْ تحفر الأرض كمن ينبش القبر.. تهيل التراب فوق رأسها. ومع خيوط الشمس نهضتْ تتجول بين أرجاء المعسكر قبل أن تعقد كفيها وراء ظهرها تحثّ الخطي نحو الجانب الآخر من الأرض بينما الريح تضرب ثيابها تحمل أنينها الباكي للآفاق الجرداء الواسعة:

-"يا صحرا وين.."-

22

ذابت الثلوج فوق قمم الجبال.. الخطوط السوداء ظهرت علي صفحات الهضاب.. سطعت الشمس أكثر حرارة ودفئا..

كان علينا أن نعسكر في جانب الوادي أسابيع أخري. وتحولت رحلاتي اليومية للشجرة ولغدير المياه المتدفقة من الأعالي إلى عادة فارغة بعد أن تم أسر عدد كبير من الأخوة في موقع يحتله الروس علي مسيرة نصف نهار أو يزيد من هنا. وكنا نحن الأقرب والأكثر استعداداً لشن الهجوم عليها؛ لتحرير الأخوة..

هل سيد معهم أم لا.. هذا سؤال لم يعد يتردد غير صداه داخل رأسي وصدري؛ خاصة بعدما جاءنا المدرب الإيطالي، وهو شاب كثيف الشعر عصبي المزاج خبير في حرب العصابات..

أقامَ معنا بالوادي أياما كاملة. وأدركتُ أنه مِنْ الرجال الذين يُعتمد عليهم في عالم المافيا. يرتدي سروال جينز وقميص أزرق مفتوح الصدر. عندما نقول له يا مستر يتلفت متنبها. يعرف القليل من الكلمات العربية، والأفغانية، والإنجليزية، والفرنسية.. حين يغضب يخرج من بين شفتيه الحمراوين سيلٌ من الألفاظ الإيطالية بلكنة تشبه اللكنة الأمريكية في أحرف تتطاير يمينا وشمالاً دون أن يمسكها أحد.. نضحك نحن.. نعطي أنفسنا قسطا من الراحة. قام بتدريبنا على كيفية التكتيك للاغتيالات الفردية.. من أول تحديد الهدف للحظة الإجهاز عليه.. علّمنا الطريقة المثلى لتدمير محطات الكهرباء ومراكز التموين ومعسكرات جنود العدو وتطويق القرى والسيطرة عليها.. عقب صلاة العشاء نتحلق جميعا حول الـ.. مستر الذي قضى السنوات الماضية في مهام تدريبية بأماكن لم تكن لتخطر على بال أحد..

ننظر لوجهه العبوس، ونساعده علي ربط الكلمة العربية بأخرى إنجليزية أو فرنسية لنفهم كيف تسلل عبر الحدود والدروب والمسالك الوعرة ليصل لمربع الحدود السودانية التشادية الليبية المصرية.. حيث

كان يدرب متمردين هناك.. من هم، وفي أي مكان بالضبط؛ لم يشأ إفشاء السر.. كما مكث أسبوعين يدرب مقاتلين من حركة يونيتا بأنجولا، وثوار الكونترا بنيكاراجوا.. أو هكذا قال..

حاولنا هدايته للإسلام، وإقناعه بالبقاء لتدريب المجاهدين في الخطوط الخلفية والجبهات الأخرى.. لكن عند هذا الحد نصحنا بالنوم مبكراً استعداداً لتمرينات اليوم التالي.. والأخير.

فهمنا بطريقة ملتوية أن كشمير وجهته المقبلة.. هو يحتفظ بدفتر مغلف بالجلد يضم جداول مواعيد والتزامات عليه إنجازها في أوقات محددة.. حينذاك فتحَ حقيبته البُنية خارج الخيمة قُدَّامَنا، ونصب منها هوائيا طويلاً.. هاتفَ عدداً من الأشخاص في أماكن مختلفة من العالم بالإيطالية والإنجليزية.. سلَّمَ علينا واحداً واحداً.. شدَّ على أيدينا بقسوة كأنه يبلغنا رسالة ما..

لقد أفادتنا تدريباته إفادة كبيرة، وساعدتنا في تنفيذ الهجوم على خوست التي طوقناها.. وجَّهنا لها الضربة القاضية؛ وكأننا نلهو..

و لم يحدث ذلك في حينه..

فبعدما غادر وادينا بيوم واحد جاءت تعليمات جديدة من معسكر المأسدة تقضي بالقيام بعملية اختبار عملي يتم خلالها الاستيلاء على معسكر للذخيرة يخص الشيوعيين الروس داخل الحدود الأفغانية على مشارف المدينة المحتلة..

تحمَّل كلٌّ منا بكامل عدته الحربية عقب صلاة العشاء..

الخطة تلزمُنا بالسير على الأقدام ليلاً لنشرف على رأس الهدف قبل الفجر. دليلنا في ذلك رجل أفغاني عجوز جاء خصيصاً لهذا الغرض. سار بنا على ظهور التلال وبطون الوديان فتصببنا عرقاً، وجفتْ حلوقنا من العطش، على الرغم من ريح الليل الباردة..

وأخيراً أشرفنا من فوق قمة جبل آخر حيث أصبح معسكر الذخيرة تحتنا مباشرة. نفذنا خطة التمركز. انقسمنا لثلاث مجموعات. الأولى

رأسُ الحربة التي كنتُ على رأسها أقود جماعتي حيث نزلنا زحفا تجـــاه المخزن الرئيسي علي ظهورنا الجرينوف والرشاشات والقنابل اليدوية..

كانت المجموعة الثانية تتمركز برشاشات الدشـــكة الثقيلـــة خلـــف سواتر من الصخور علي صفحة الجبل. ومن الأعلى نصبَتْ المجموعـــة الثالثة مدافع الهاون تترقبُ تكتكة الرصاص..

لاح ضوء الفجر..

أزحفُ أنا متقلا بالأسلحة متفرسا شمال يمين أرى الضوء وقد لاح وجه الأفق من تحت ذراعي أحمرَ داكنا.. أخرجتُ الزرادية فتحتُ ثغرة مخترقين السلك الشائك في لمح البصر..

الحراس أدركونا؛ ففتحوا تجاهنا النيران.. بقسوة ردَدنا عليهم بوابل من الرصاص كنسناهم من أمامنا. وأصيب باقي المعسكر بالذعر عنـــدما صبَّ الأخوة المتمركزون بمنتصف الجبل حمم الدشكة علي رأس العدو. ومن القمة بدأ صفير طلقات الهاون يضرب الهواء فوق عمائمنا قبـــل أن ينسف مركز القيادة ويبعثر جناح الحراسة في دوي أصم ولهيب يصـــل لعنان السماء..

دقائق، وحل الصمت..

أعمدة الدخان من خلف المباني المتهاوية تتصاعد.. الجنود الروس نراهم يفرون من بين الأنقاض..

الذعر بقي مرتسما علي وجوه قتلاهم التسعة المبعثرين في حومـــة الوغى..

سقط منا ثلاثة شهداء عرب أحدهم مغربي.. وبقيـــتُ أنـــا وثلاثـــة آخرين فقط من مجموعة رأس الحربة:

-"الله أكبر.. الله أكبر.."-

صحنا نحن الأربعة نطلقُ الرصـــاص ابتهاجـــا بالنصـــر الســـريع والحمد لله..

أصبح المعسكر بأكمله ملكاً لنا.. أقمنا فيه، ونقلنا إليه كل ما كنا قد تركناه في وادي التدريبات..

جماعات من الأخوة الآخرين لحقوا بنا. وفي أثناء ذلك لم يكن الطيران الروسي يتوقف عن ضربنا؛ إلا أن مدافع الهاون، ورشاشات الدشكة، ومعها إمدادات جديدة، كلها أثبتتْ قدرتها على تثبيت الواقع الجديد..

الموقع، وما فيه من ذخيرة ومعدات وتموين، تحت سيطرتنا ولن نتزحزح عنه قيد أنملة.. تقدمنا لنحتل بعد ليلتين فقط بوسطة يسيطر عليها الروس فوق جبل متاخم لمدينة خوست؛ هدفنا الأخير القادم..

كان عددنا قد ازداد سبعين مجاهداً عربياً.. كان صدى الانتصارات التي نحققها نحن هنا والأخوة في الأطراف الشمالية والشمالية الشرقية في أفغانستان يأتينا من بعيد.. في ذلك اليوم رفعنا أذرعنا مكبرين حين علمنا لأول مرة أن المؤتمر الإسلامي المنعقد في فاس المغربية قرر مساندة المقاومة للحفاظ على إسلامية أفغانستان، بل الاعتراف في المؤتمر التالي بمدينة الرياض بأحقية المجاهدين في تمثيل أفغانستان في منظمة الدول الإسلامية، بدلاً عن الحكومة الأفغانية العميلة التي أدخلت الشيوعيين إلى هنا..

تقع البوسطة تحت الأفق الشرقي. وكنا قد خرجنا إليها على ظهور البغال والحمير نشد خلفنا عجلات المدافع الثقيلة من عيارات مختلفة لا تقل بأي حال عن السبعين ملليمتراً، ومعها صواريخ بي إم ديوازدة، ناهيك عن الدشكة الرهيبة..

سارت البغال حتى نفذ الماء صباح اليوم الثالث..

الشمس تضرب رؤوسنا بالحُمُوّ والصهد.. لم يستطع اثنان من المجاهدين مواصلة السير. ترنحا ثم سقطا؛ ولم نتوقف عن التوغل قدماً مجتازين المنحدرات الوعرة..

شاء الله فوضع أمامنا شلالاً صغيراً نازلاً من قمة الجبل.. سمعنا في البداية خريراً خافتاً؛ فصاح أحد العرب بلهجته الشامية:

–"مَـي.. مَـي؛ مَاااء.."–

جرينا وراءه.. ألقينا بأجسادنا وسط البرك الصغيرة المنتشرة بالوهاد السوداء التي أحرقتها قنابل الطائرات الشتاء الماضي..

شربنا، واغتسلنا.. صلينا جماعة، وملأنا زمزمياتنا..

قضمتْ البغال والحمير ما تيسر لها من بقايا عُشبٍ قبلَ أن نسوقها لترتوي.. تسترخي مطمئنة تحت ظل الأجمات المتناثرة قبل أن تعاود هزّ رؤوسها تحت السماء الصافية مجددا متجاوزة الشجيرات الشائكة والصخور الناتئة والنباتات المحروقة حتى بلغنا عنان السماء فنشرنا أسلحتنا على قمة الجبل. حفرنا الخنادق. بدتْ البوسطة من وراء المنظار تودع النهار فيما العلم الأحمر يرفرفُ وجلاً فوق بيوتها الواطئة..

يقتضي تنفيذ الخطة، كما اعتدنا، الاعتصام حتى السَّحَر..

المدافع حشوناها بالذخائر النابضة، وجَّهنا مواسير الانتقام لقلب القرية وكبدها. مددنا أجسادنا بجوارها؛ فإذا ما انتهينا من صلاة الفجر فتحنا باب الجحيم..

هاكم الدفعة الأولى ثلاثة عشر صاروخا من طراز بي إم ديوازدة.. ومعها في نفس اللحظة خمسة وسبعون قذيفة من مدافع الهاون.. وفوقها طلقات من نيران الدشكة المستعرة..

الأرض ترتجُّ بين أقدامنا، وتحت المدافع تهتزُّ..

تشدُّ الحمير والبغال حبالَ النايلون من أقدامها تريد الفكاك، ولابد أنها تأكدت في ذلك اليوم المدمدم أننا مجانين صعدنا لقمة الأرض ثم شرعنا في ضرب الفراغ بضجيج أصم..

تثبت أرجلنا لحظات نقوم فيها بحشو الأسلحة والمدافع. تختلط أذرعنا وسيقاننا ورؤوسنا في حركة خاطفة؛ ثم يعود كل شيء لنظامه الصارم. نوجِّهُ المواسير لقلب القرية وكبدها مجددا..

هاكم الدفعة الثانية..

هل مرت ساعة أم ساعتان إذ بَدَتْ القرية فجأة من وراء المنظار المكبر أشبه بسحابة هائلة من الدخان الأسود الثقيل.. هناك أشباح أشخاص يجرون يمينا وشمالاً، وقد فقدوا صوابهم..

و بعد قليل سمعنا دوي إنفجارات من بطن القرية حيث ارتفعت ألسنة اللهب في أرجائها..

ما كدنا نبتهج حتى وجدنا الصخور الضخمة تتطاير حولنا.. تصاعدَ الغبار والدخان وراءنا. وفوق رؤوسنا صَفّرَتْ الدانات، وكأنهم يردون علينا تحيتنا بأحسن منها..

توقفنا عن الضرب..

تخندقنا ملتزمين بمدافعنا الصمت حتى طلت علينا الشمس من حالق السماء..

و بدا أنهم لم يتمكنوا من تحديد موقعنا بالضبط حتى منتصف ذلك النهار؛ إذ تدوي طلقات المدافع يقذفونها كيفما اتفق على الوديان المجاورة حيناً، وتهزُّ المكامنَ حولنا حيناً آخر. وعند العصر حصروا توجيه نيرانهم على رأس الجبل حيث كنا، وكان الخطر قد بدأ عندما أخذوا يستخدمون نوعاً من القذائف التي لا تسمع لها صوتا.. الطلقة تعبر الهواء دون صفير، وعلى حين غرة نجدها تدوي غاضبة، وحديد أسلحتنا الثقيلة يتطاير مذعوراً، وأجسادنا تهوي داخل الحفر..

مزقوا البغال والحمير التي كانت تقف في المؤخرة بلا ساتر.. كما دمروا لنا مدفعين. ولم يكن لنا حيلة غير الرد عليهم بكل ما معنا من أسلحة وذخائر؛ حتى لو نفذت كلها قبل مغرب الشمس. فلنصليهم ناراً، ولا مفر. قلنا، وأرسلنا إليهم الدفعة الثالثة من الضرب من أقدام الجبل وصُرّته ورأسه.. يقيني أنهم ظنوا أننا جيش كامل العتاد يطبق على البوسطة رابضاً خلف أكتاف المنحدرات والمرتفعات يتربص بهم، ولا فكاك؛ وإلا لماذا تقهقروا خلف القرية عند الليل، ثم انسحبوا كلية قبل

الصباح مخلفين وراءهم جدران محطمة وجثثا لا حصر لها.. يقيني أنهم لو علموا حينذاك بعددنا الصغير وبغالنا وحميرنا التي نفقت وذخيرتنا التي نفدت توا لقضوا علينا لا محالة..

كانت الطائرات هي التي قامت بتلك المهمة فيما بعد إذ قطعت علينا طريق العودة.. تعقبتنا، ونحن نهبط من الجانب الآخر. وأمطرت السماء حمما فاشتعلت الحجارة نارا، وكل حي حولنا أحرقته.. استجرنا بالشقوق، والأخاديد مكثنا داخلها لمنتصف الليل. هُمْ عادوا، ونحن واصلنا طريقنا نُكبّرُ. أما القرية؛ فلم تعد هناك قرية. قلْ على البوسطة السلام..

بعد أسابيع من تلك الوقائع بدأ الاستعداد الكبير لتحرير مدينة خوست التي يتمركز فيها الكثير من الجنود الروس.. إنهم في كل مكان يسعون كالنمل بين الجبال والوديان.. وليس من السهل أبدا تحرير مدينة تعج بالعسكر المدججين بالمعدات والمناظير التي ترى خلال الظلام..

المهم توكلنا على الله، وساعدتنا الطريق التي مهدها رجال ابن لادن قبل سيطرة الروس علي المدينة. سلكناها خفافا. لم تكن بنا حاجة لأي بغال أو حمير هذه المرة..

ارتقينا الجبل بدبابتين أولا، وأشرفنا بهما علي خوست مساءً. تواصلت الإمدادات من مكامن المجاهدين المجاورة.. كان عددنا يربو على الخمسين بعد المائتين من الرجال العرب العابسين، وانضم إلينا بعض الأفغان الذين اجتازوا فرق التدريب الشاقة؛ من تلك التي قضينا شهورا نتمرس عليها سواء في الوادي أو أثناء المواجهات الحقيقية؛ حتى أنهم كانوا جاهزين مثلنا لخوض حرب عصابات، وحرب مدن، وفك ألغام أرضية، وقذف قنابل يدوية في قلب الهدف:

-"هِتْ ذا كُور هارد.."_

كما كان يصيح المدرب الإيطالي حينذاك بإنجليزية أمريكية..

نعم؛ لقد تحولنا بعد كل تلك الليالي لجبابرة نستعيذُ بالله من الشيطان الرجيم، ونقف في صفوف متراصة للصلاة.. ندعو بالرحمة للأخوة الشهداء الذين سبقونا لجنة الخلد في السماوات متمنين اللحاق بهم..

نقول آمين؛ وكان صوت الجماعة واثقا قويا عازما على الظفر أو الشهادة..

و أي نصر..

لقد دمرنا مراقد العدو..

طاردنا الجنود خلال شوارع المدينة التي وجدناها أصغر مما كنا نظن، وأقل قيمة مما كنا نراه فيها من خلف المنظار المكبر..

بدأت العملية بزحف ستين من رأس الحربة، وأنا في مقدمتهم، منحدرين لأسفل الجبل..

نفس خطة الاستيلاء علي معسكر الذخيرة، والخطة ذاتها التي طردنا بها المحتلين من البوسطة..

تمركز الأخوة الآخرون بالمدافع الخفيفة، والأسلحة الرشاشة في الوسط..

الدبابتان، والمدافع الثقيلة وقفت بأعلى.. تحت السماء مباشرة استعدادا لتوجيه الضربة القاضية. وقبل طلوع النهار طوقنا المدينة، ودخلناها يسبقنا أزيز الرصاص، وصرخات الهلع..

استشهد ثمانية عشر مجاهدا. وأسقطنا منهم خمسين، وأسرنا أربعة عشر جندياً منهم ثلاث مجندات.. نساء؛ واحدة منهن أسرتُها بنفسي..

و لم تكن تلك الشابة الروسية هينة أبدا.. أخذتْ في أول الأمر تطلق النار من نافذة منزل، وأنا أرد عليها من نافذة منزل آخر.. يفصل بيننا شارع ترابي، وحبل غسيل تتدلي منه قطع ملابس عسكرية.. من بينها كانت الطلقات تلعلع، وتئن عند ارتطامها بالجدران المواجهة.. أطلقُ عليها الطلقة؛ فتردُّ بخمسٍ دفعة واحدة؛ وهكذا استنزفتُها حتى آخر رصاصة..

دخلتُ عليها البيت المفروش بالقش والهشيم؛ فلم تستسلم بسهولة. أسقطتُها أرضاً.. قيدتها في الزاوية، وخرجتُ لمحاصرة فلول المصابين..

كان الأخوة يهللون انتصاراً فيما الشمسُ تهبط في الأفق بعيداً، وآخرون ينهرونهم حزناً على عدم العثور على أيٍّ من أسرانا الذين جئنا لتحريرهم. كانت خوست هي العظمة الناشفة التي لم يكن إخضاعها تحت سيطرتنا بالعملية السهلة بأي حال. هكذا كانوا يتجادلون مشعلين النار يترقبون إنْ كان في نية الروس، أو ما تبقى من القوات الحكومية العميلة، الكر علينا بهجوم ليلي مضاد؛ وأدركنا الكشافون الذين تعقبوا آثار الهاربين ذلك اليوم. إنهم أوغلوا نحو الهضاب الجليدية شمالاً، والطيران لن يجرؤ على دخول السماء هنا، وفي صحبتنا المدافع والصواريخ بعيدة المدى والبقية القادمة في الطريق..

فتحنا أحشاء مخزن الطعام.. الآلاف من معلبات السلمون والمربى. وعند الجانب الآخر كانت نوبة الحراسة قد شرعت تنظم دورياتها على ما خلّفه الروس من آلياتٍ ومركبات وصناديق من الذخائر الثقيلة والخفيفة..

فيما انشغل بعض الأخوة المتمرسين في إجراء الإسعافات الأولية لجرحانا ولجرحى العدو.. وكان أحدهم يتحدث اللغة الأفغانية فاستخدمناه في نقل تعليماتنا لزملائه المحبوسين كالفئران في عنبر بوسط المدينة. كان يترجم بعد أن ضمدنا جراحه والدهشة لا تفارق وجهه مُذْ أدرك أننا عَرَبٌ..

و في النهاية، أي عندما أخذنا نتبادل الحكايات مع الأسير الروسي عن موسكو ومكة والقاهرة، قال إن قائد المعسكر كان يظن أن هناك، بين كل مئة أفغاني، ثلاثة أو خمسة من القادمين من بلاد العرب؛ لكن كل هذا العدد لم يكن ليخطر له على بال..

سهرنا للصباح..

لم نستيقظ إلا ظهراً..

صليتُ، وتوجهت إلى الأسيرة الشقراء.. أسيرتي..

23

قمة الانتصار كانت في خوست؛ وكانت النهاية أيضا..

قد تجد نفسك أحيانا على الحافة.. عندها تدرك أن وصولك لجُرْفِ السقوط ليس بداية الخوف؛ بل محصلته.. فالخطوة الأولى، منذ شهور أو سنوات مضت، كانت في غير موضعها..

و حينذاك، بين يدي المساء الرطيب لخوست، لم يكن سيد غير طيفٍ.. ليس إلا خيالٍ يمشي داخل رأسي ينأى على امتداد الأفق ويتباعد..

لم أسأل أحدا عنه..

كانت وجوه المجاهدين معروفة بشعرها النابت بغزارة تحت كل أنف وعلى كل ذقن.. بأخاديدها.. بضمورها المخيف . صوت الرصاص كان يسوقك زاحفاً على الصدر والركبتين للقبر حيث الحقيقة الوحيدة المتبقية..

كم مرة تذكرتُ والدي؛ فجرا واحدا لا يزيد.. قضيته منتبذا المعسكر نائماً في شقٍّ من شقوق التلال الجنوبية..

كيف مرت الليالي عقب ذلك وكم من الأيام تليها.. ولدا كبيرا تتعقبه الدانات يسعى لحتفه.. كأن أمي لم تنجبني، وكأن أختي لم تحببني، وكأن الموت ورائي؛ لكنه لم يكن.. كما لم تكن لي غير أخت واحدة، وأمي لا أمسك قسماتها في رأسي. تركتني وحدي لا أجد لي سبيلاً مُذْ كنت صبيا؛ لله مَشتْ، وسنلحق بها جميعا..

هكذا اعتاد سيد الخلط بين الموت والحياة محاولاً إبعاد الدموع عن عينيَّ، ونحن نركض فوق صخور شاطئ مرسى مطروح في السنوات الغابرة.. يقفز من فوق الحُفر المفغورة الفم.. يعلمُ أنه إذا سقط داخلها، فلا محالة هالك.. يتأهب على بُعد خطوات يقول بلهجته الصحراوية:

–"انعد أمي ما جابتني، وانعد أختي ما حبتني، وانعدك يا موت وراي؛ هُبْ.."–

و ينطلق مثل النورس طائراً عبر الهوة الواسعة العميقة، ليقف في الجانب الآخر ضاحكاً..

كم أغراني دون جدوى بترديد ذلك النشيد الغريب؛ باجتياز الغيْهَب السحيق. في كل مرة يقوم فيها بتلك الحركة الخطرة، أقول إنه سيسقط.. يتحطم رأسه.. تجرفه مياه البحر. أنهره:

-"لا.. "-

لا يلتفت إليّ، ولا يخطئ وثبته..

و في أيام التدريبات هنا حيث الوديان والشّعاب المشقوقة من جبال الهندكوش أجري.. أركض متشبثا بسلاحي الرشاش أشهدُ ألا إلـه إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله.. بعدها يتردد النشيد القديم منفلتاً من طيات عقلي وثنايا مخي.. لا يفارق لساني في ليالي الزحف نحو الأسلاك الشائكة لمعسكرات الروس..

و مع كل ذلك لم يكن سيد ليخطر ببالي تحت أزيز الرصاص..

هل هو على الجبهة..

ها هي منبسطة قدّامي لا يوجد بها غير أعواد متفحمة لنباتاتٍ قتلها البارود، والكرُّ والفرُّ طيلة السنوات الماضية.. كانت خوست مدينة صغيرة ذات موقع استراتيجي للروس، لقربها من العاصمة الأفغانية وحلقة وصل بينها وبين الحدود الشرقية لباكستان حيث يأتي المقاتلون والإمدادات.. كان الجنود الشيوعيون يتجمعون فيها، ومنها ينطلقون لتنفيذ عمليات تطويق المجاهدين، لمساعدة الحكومة الموالية لهم، على فرض سيطرتها بطول حدود أفغانستان مع باكستان؛ ولم يتمكنوا..

أنظرُ لوجوه الأسرى، وأقول إن لكلٍ منهم لابدّ أماً أو أختاً أو زوجة في مكان ما من تلك البلاد البعيدة المجللة بالثلوج والأعلام الحمراء..

كان لأحدهم وجه مثل وجوه الأطفال الأذكياء.. عيناه تلمعان.. خداه ينبضان بالحياة فيما ملابسه العسكرية متسخة لحدٍ مقزز.. أما

ذراعه اليسرى فقد ضمدها له الأخوة البارحة.. سألته إن كان يتحدث العربية فانعقد لسانه؛ إذنْ:

-".. دو يو سبيك إنجلش؟"-

و هنا ابتسم قائلاً بثقة:

-" نو.."-

ثم أخذ يهزُّ رأسه متكلفا الأسف على المحاولة الأخيرة الفاشلة لإيجاد لغة نمد بها حبل الكلام فيما بيننا.. ولم يكن أيا منا يعلم أننا سنلتقي مجددا في موقف آخر عصيب.. ينظر نحوي يموء كقطة تتلوى من الوجع.. حال سبيله يستنجد أنْ دعني أرحل لأمي.. أم الحبوني السيبيرية التي تعقد الآن كفيها خلف ظهرها تستشرف الآفاق الجليدية في انتظار عودة ابنها هذا المحتجز لدينا هنا مذعوراً..

كان هناك الأسير الروسي الآخر الذي يجيد التحدث باللغة الأفغانية.. ترجم لنا أحد الأخوة الأفغان كل اعترافات الروسي وزملاءه ورواياتهم العجيبة إلى العربية.. ونحن مجتمعون غداة الانتصار في ساحة المدينة..

كان الأمير هو ذاته قائدنا إبّان تدريبات الوادي، وقائدنا في احتلال معسكر الذخيرة، وقائدنا عند تدمير الـ... بوسطة، وقائدنا وأميرنا في خوست المحررة توا..

استدعانا الأمير مساء اليوم التالي، وسأل عمّن سبا النساء، أي المجندات الروسيات؛ فقلت له إنني سَبَيْتُ واحدة.. وأشرت بطول ذراعي:

-"تلكم المربوطة في البيت هناك.."-

و كان أحد المجاهدين الليبيين قد سبا الاثنتين الأخريين. وسألنا القائد:

ـ"هل تبتغيان معاملتهن كسبايا أمْ نتفاوض بهن مع الشيوعيين لإطلاق عدد من أسرانا لديهم؟"ـ

قلت بلا تفكير ولا تردد:

ـ"أريد حقي الشرعي::"ـ

و كذلك طلب الليبي..

اشترط أميرنا الرزين، الذي كان يخاطبنا جامد العينين، ألا تزيد ممارسة هذا الحق عن ثلاثة أيام..

و من ثمَّ عاد المترجمان.. الأفغاني الذي يشرح لنا بالعربية والروسي الذي يترجم عن زملائه الأسرى بالأفغانية.. جاء معهما اثنان آخران من الأخوة.. كان من المفترض أنهم شرحوا الموقف للسبايا.. ظهروا من آخر الطريق الترابية وقد اصطحبوهن قادمين نحو مجلسنا الذي يتوسطه الأمير.. كانت صاحبتي تخطر من بعيد مجللة بثيابها الممزقة.. هي أصغرهن وأجملهن وأكثرهن حدة وقسوة وكبرياء.. كم كنت أحب التطلع لعينيها.. تفيض منهما الأنوثة والدلال.. أو كما أذكر الآن فهما تشبهان عينيّ سلمى التركية التي عذبتني حين ذهبت بعد ذلك لألمانيا إذ أركب المترو لأطوف ببيتها قبل أن أعود لمدينة ساربروكين مشغول البال حيران.. أفكر إن كان يجب الزواج منها أم لا.. ومن ستر الله أنني لم أتورط معها حتى غادرت أوربا إلى غير رجعة..

المهم خلينا الآن في خوست المحررة.. قل إن الليبي استقبل أسيرتيه.. تفحصهما ثم زمجرَ فجأة مصراً:

ـ"الاثنتان من حقي؛ وحدي.."ـ

و كأنه يريد مَحْو ما قد يدور برؤوس الأخوة الرابضين في الساحة حولنا.. ساقهما أمامه على عجل، إلا أن المجاهدين لم ينسوا إطلاق الرصاص في الهواء، وقرع كل ما تطاله أيديهم ابتهاجاً بهذا الزفاف الجماعي.. زودونا فوق ذلك بمعلبات اللحم والمربى وبالخبز الطري..

شددتُ أصابعي حول معصمها فنفرتْ..

لويتُ ذراعها وراء ظهرها غاضبا ركلتُها بقدمي فخرت على رأسها، وتناولتُ سلاحي من على ظهري، وقد انتويتُ لها شرا دفاعا عن حقي الشرعي..

هرع المترجمان. أخذ الروسي يشرح لها التعاليم التي يرددها الأفغاني. وهنا صاح الأسير الشاب ذو الوجه الشبيه بوجوه الأطفال الأذكياء غاضبا محتدا.. ولم أعرف السبب إلا بعد ذلك بأيام..

المهم أنّ جدل المترجمَيْن معها انتهى بأنْ نكّستْ رأسها؛ فدفعتها أمامي حتى اقتربنا من البيت الذي أسرتُها فيه..

و هناك وقعتْ الواقعة..

في البداية أطلقتُها فدخلتْه طائعة؛ إلا أنها حاولت الهرب.. ضربتُ ساقيها بقدمي فانكبتْ على وجهها مذعورة. أخرجتُ الخنجر حتى مسّ عنقها.. أفهمتُهَا أن مصيرها الذبح إذا خرجتْ من هذا الباب..

أوثقتُ الرتاج..

تلفتتْ الأسيرة حولها يائسة ثم جلستْ على حصيرة من البوص كانت مفروشة فوق القش بحوش البيت..

جلستُ جوارها، وأخذتُ أربتُ على كتفيها أهدئ من روعها تحت خدها بكلمات عربية لم تفقه منها، بطبيعة الحال، حرفا. قُلْ هذا ما جرى..

الطعام أعددتُهُ بيديّ ناولتُ فمها أول لقمة حتى لامَسَتْ أصابعي شفتيها فاشتعل جسدي نارا احترقُ بلظاها فوجدتُ نفسي ممددا عاريا تحتي الحصيرة المتهرئة صحوتُ على صوت فرقعة الدلو في بئر يتوسط حوش البيت فكان الماءُ تحت ضوء القمر ينـدلق فوق كتفيها يتناثر مثل حبات البللور آخذها كلها مجددا أضمها بشعرها المبلل بهالة النور حول ذراعيها..

ضَحَكَتْ.. ما أطيبها ضحكة؛ خلالها غرفتُ دلواً أخرى من البئر أغرقتْ جسدينا لدرجة أن الماء نفسه لم يعرف إن كان يجري على صدرها أم على صدري، وهكذا، وهكذا.. نصحو، وننام. أحياناً نجد الشمس تُصَلِّي الحوش بحرّها من حالق السماء، وأحياناً نبصر القمرَ يُرسلُ لنا أشعته الهينة المثيرة للشجن؛ وكيف تكلمنا..

مثل طفلين نغمغم. تناغيني؛ فأجاوبها. عاونتها في غسل ملابسي وملابسها.. نشرناها كصبيَّيْن نلهو بين الحبال المعلقة بطول فناء البيت، ونسيناها.. لقد سمّينا هاتيك الأيام الثلاثة الماء والطعام والقبلات بأسماء جديدة لا يعرفها سوانا.. أقول لها إمبو.. بو.. امبو؛ فتملأ الرّكوة ماء معطراً بالورد. وأشير بـ... مَمَّا.. مَمَّا؛ فتمد يدها بالشطائر الشهية، وهكذا انقطعنا عن العالم..

كنا قد نمنا الليلة الأولى حتى أيقظنا برد الفجر حيث أشعلتُ ناراً، ودفنتْ هي رأسها في شعر ذقني.. أخذتُ أمسد خصلاتها الصُفر. وعلى جدران الحوش حولي تتراقص الظلال الشوهاء مع حركة النار. وفي الليلة التالية باتتْ أكثر جرأة.. تشدُّ أذني مرحة منتشية. بيديها أشارت عدة مرات تهز رأسها تطلق من بين شفتيها صفيراً، وبأبات، وفأفآت حتى أدركتُ أن اسمها بولا، وأنها تستطيع العزف على آلة موسيقية ذات أوتار.. رسمتْها كصندوق منبعج مدبب الرأس.. خطّتْ بجواره ما يشبه الكمنجة أيضاً. هل كانت مدرسة موسيقى، أم مجرد مدرسة رسم. لكن الأهم من كل ذلك هو أنني عرفت أن لها أمّاً روسية عجوزاً انحنى ظهرها تجد السير عبر سهوب سيبيريا تناجي الآفاق تعقد كفيها وراءها تنصت ثم تمضي منكسة الرأس. قلت لها على الفور إن تلك هي أم الحبوني ذاتها..

أو ذاك ما أذكره اليوم..

أذكر أيضاً أنها مسحتْ الأرض فيما بيننا.. رسمتْ رجُلاً وامرأة وولداً وبنتاً.. أشرتُ للمرأة بجسدها المقوس كررتُ لها مرات:

-"أم الحبوني.."-

فردّدَتْ الكلمة مشيرة لما خطته على تراب الحوش:

-"أومولـــ.. ـــهابوني. أومو.. لهبوني.. أملهبوني؛ ها.."-

ضحكتْ فما أطيبها ضحكة..

سألتني عن أم الحبوني الخاصة بي.. عن أمـــي، وعنـــدما رفعـــت إصبعي نحو السماء ظنت أن والدتي مقاتلة فـــي ســـلاح الجـــو التـــابع للمجاهدين بمكان ما. وقبل أن أشرح لها أن أمي ماتت، وأنا صـــبي لـــم أزل، أنشأتْ ترسم إشارات في الهواء وعلى الأرض لكي أفهم أخيرا أن الأسير الروسي ذا الوجه الطفولي الذكي هو أخوها.. شقيقها الذي ضـــمّد الأخوة ذراعه اليسرى مساء أمس الأول.. والذي استشاط غضـــبا حـــين اصطحبتُ أخته إلى هنا منفردين..

فجأة سدّتْ الغصة حلقي..

نحو باب البيت انتفضتُ فتحته خارجا متلفتا على امتـــداد الطريـــق الترابية الطويلة تملكتني رعدة الحمى إذ سيد يقف طوال الأيام الماضـــية وراء النافـــذة يتســـمّعُ لعبـــث بـــولا المتصـــل بيننـــا بـــضحكـتـنـــا فـــلـــعـــبـــنـــا فوق الحصيرة الذابلـــة المفروشـــة علـــى القـــش هنـــا بـــخُوسَت المحررة فـــأذكـــرُ ما أذكـــرُ أنني انـــدفعتُ مهـــرولا وســـط المدينة ظِلّـــي يتبعني طويلاً باهتاً عن يميني الشمس عن شمالي صفراء واهنة مريضة أنهكها اللف أصابها الدوار فـــأذكـــرُ ما أذكـــرُ الأخـــوة المجاهدين يفترشون نواصي الشوارع يتجاذبون أطراف الحكايات بفراغ بالٍ تصايحوا مهللين إذ اقتربتُ منهم تـــطوّعَ بعـــض الحـــرس بفرقعـــة طلقاتٍ احتفالاً بخروجي الميمون..

انتزعتُ المترجمَيْـــن، الأفغاني فالروسي من بين القاعدين أخذتهما ورائي للأسير شقيق بولا:

-"سأتزوج أختك؛ تدخل الإسلام وأتزوجها.."-

لم يفقه من قولي شيئا، ولم انتظر إجابته. كان مكفهر الوجـه لأنـه ظنّ أن أخته قد ماتت.. عندما اقتربنا من الحوش تقدمنا مندفعا.. ذراعـه الدامية تتطوح بجانبه.. لحقنا به.. وجدناه قد أخفى رأسه وراء رأسـها.. جسده ينتفض من البكاء. أما هي فتناجيـه بهمهمـة روسـية.. تراجـع المترجم الأفغاني ليملأ الدلو ويناولها لـ.. بولا. وأشار علـى المتـرجم لكي يخبرها بأن عليها أن تغسل وجه أخيها.. وتهدئ من روعه. وحالما نفض شقيقها الغر وجهه المبلل بالدموع والماء.. فرك عينيـه.. جلـس مشدوهاً.. قدمتُ له بعضاً من الطعام.. تردد قليلاً ثم أكل وشـرب فيمـا نحن متحلقون وسط الجدران المرقطة بطلقات البنادق الرشاشة..

قل له أريد الزواج من أختك على كتاب الله وسنة رسوله. وستدخل هي الإسلام.. اسمها الجديد يكون فايزة.. أما هـو فسـنطلق سـراحه.. لأهله يعود أو يدخل الإسلام.. يجاهد معنا. قل له. وبذلك دارت الترجمة من الأفغاني للروسي، ومن هذا الأخير إليها..

هبَّ أخوها واقفا بينما انتفضتْ بولا تصيحُ بمـا يشـبه الـذعر أو الفرح:

–"لا..لا.."–

اعترضتْ بالروسية.. كأني فهمت أنها تقول نعم.. نعم..

مالَ شقيقها بجسده أمامها محاولا الحيلولة بينها وبيني..

توقفتُ في تلك اللحظة عن الكلام؛ لا مزيد..

تركتهم هم الأربعة واقفين ظهورهم للحوائط الشوهاء..

حملتُ سلاحي.. درتُ بعيدا عن البيت ثقيل الرأس ما أدري مـاذا أصنع..

هل كنتُ أبحث عن خطوات سيد لا ريبَ حيث يحبسُ نفسَـهُ مـن وراء النافذة سمعتُ حفيفَ ثوبهِ رائحةُ عرقه شممتُ بـيـتَـسَـمُـلـتَـيـهِ المهيبة همَسَ مستعيذا فـأذكـرُ ما أذكـرُ أنني انفضُ رأسـي أتعقـبُ دوائر الفراغ داخل دوائر أخرى من الفراغ بلا نهاية تراءت لـي الـدنيا

من فوق المرتفعات الشمالية لحدود خوست مكسوة بخيوط الضباب الأبيض يخالطها اصفرار فغيومٌ ثقيلة من الظلام تتحرك تحت سماء المدينة يترددُ صوتُ أخ مؤذنا بميقات المغرب تهاوت أطرافي تكوّمْتُ على جانب منحدر بكيتُ ما بكيتُ ثم بكيتُ أجرُّ خطواتي قل إني زاحفٌ لابدَ الدموعُ تبلل لحيتي أو أنها تساقط على التراب كانت..

ومع ذلك كنت أقول إنها ربما تغير رأيها إذا ما أبعدتُ أخاها الطفل عن طريقها، ولو غربلته بالرصاص. وبهذه العزيمة الطائشة نزلتُ من المرتفعات حتى دفعتُ باب الحوش فأصدر صريرا مخيفا. فتشتُ عنها في الظلام. فقد تكون هنا لم تزل تنتظرني.. لكنها ليست هنا؛ حتى متعلقاتها الرخيصة جمعتها، واختفت في عنبر الأسرى أو ما أشبه..

مددتُ جسدي فوق الحصيرة؛ حصيرتنا المشتركة.. وقلت إنها الآن هناك مع شقيقها، ورفاقها الحُمر في طريق العودة لأمها؛ أمولهبوني..

وضحكتُ..

ويَعلمُ الله أنني نمتُ..

بتلك الرقدة الغريبة هجعتُ جوار فتحة البئر؛ فلا أكاد أبحث عن اسمها حتى يهبط اسم فايزة من مؤخرة رأسي لطرف لساني فكيف جاءت إلا بوشاية من سيد.. وعبثًا أهزُّ ذراعيَّ لأصحو دون جدوى.. حيث لم تكن غير خيوط سوداء تتقارب.. تتشكل منها البسمات والغمزات والضحكات؛ فما أطيبها ضحكة..

و قد يقضي أحدهم العمر بطوله لا يذكر غير بقعة ضوء واحدة كأنها الحياة كلها.. العالم كله بحدوده الشائكة وقمم جباله السابحة بالفضاء. هنا أتقلبُ فوق القش أمدُّ يدي وأنا ملقى على جانبي كأني سألمس نهاية الخيط.. نهاية الطريق.. ها هو، حيث لا شئ غير الظلام والصمت. فهل رحل الشيوعيون بلا رجعة..

كانت الأخبار تتواتر عن الوهن الذي أصاب الجسد السوفييتي الثقيل..

أفتح العينين.. أغلقهما كأني لم أفتحهما ولم أغلقهما..

لا قمر الليلة.. لا ضياء..

ليس إلا غضب من الله بدلاً من الشهادة في سبيله؛ نالها سيد.. استشهد أو ربما الآن يجاهد بطول الجبهات الأخرى غرباً أو شرقاً أو عاد لمصر. مَنْ يعلم..

إن السؤال الذي لم يرد على ذهني يقف أمامي كبيرا توا يفتح فمه ساخرا؛ فماذا يمكن أن يحدث إذا لم أستشهد في أفغانستان. يعني ماذا يجب أن أفعل بعد ذلك. أهلاً وسهلاً. كيف الحال الآن..

مع سيد أستحثُ الخطى بلا توقف حتى وصلتُ للحافة فوجدتُ نفسي وحيدا معزولاً ضعيفاً قزماً مثل رجُل حطـَّمَ الرصاص ذراعيه وساقيه؛ لا..!

استعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وسميت باسمه تعالى..

ملابسي خلعتها.. صببت الماء صباً ينتفضُ بدني خَوفاً وبرداً..

24

شـرب البيرة مع الهواري فيه مخاطرة كبيرة..

هو يسأل، وقد ظنَّ الكحولَ لـحَـسَ ما تبقى من مخي. هو يلـح.. يحزُّ بسكينه على جبيني وفروة رأسي.. يريد الإطـلاع علـى الجملـة والتفاصيل..

في كل سهرة أظلُّ أشدُّ وثاق عقلي في رجل السرير حينـا، وفـي مسند المقعد حيناً آخر إلى أن يمضي بلا إجابة، وأستلقي أنـا منتصـرا. لكن على حين غرة تميدُ أرضُ الشّقة تحتي. لماذا يريد أن يعرف.. هـا، بهذه السهولة!

لقد قتلَ الضابطُ بقميصه الأبيض وبنطلونـه الأسـود.. بسـياطه وفولتاته الصاعقة في انتزاع الإجابة.. فكـكَ عظـام الجسـد وحبـال الأوردة شربكها والشرايين.. فكـك العقـلَ مسـمارا مسـمارا نـزع وصلاته سلكا سلكا؛ بلا طائل. بلا ترقية.. بلا رتبة جديدة..

كان الهواري يضيق من صمتي ومن وحدتي:

-"أفغانستان، ألم تجاهد هناك.. ثم أين سيد؟"-

هذا سؤاله في نهاية السهرة، أما البداية فتأتي من حيـث لا يتوقـع أحدٌ.. مجرد أنه يطرق الباب مساءً.. يـدلفُ لـداخل الشـقة.. يمسـح الجدران بريبة يفتح كيسا أسود محشوا بزجاجات البيرة المثلجة.. أنظـرُ أنا لوجهه أقولُ هاهو قد أصابه الكبَرُ والمكْرُ..

يفتتح الجلسة:

-"أنا قادم من مباحث أمن الدولة رأسا.. يسألون عنـك.. يعرفـون أننا نسهر نشرب البيرة.. كان الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض في مأمورية هنا بمرسى مطروح.. كان معهم وأصابته الدهشة.. سـألني مباشرة إن كنت تشرب حقا، وإن كنت تدخن أيضا.. هم يعرفون.. ربما كانوا يراقبونني طيلة الأسبوعين الماضيين.. منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه على شاطئ البحر.. لابد أنهم تتبعوني بينما أخفي زجاجـات البيـرة أصعدُ لهذه الشقة.. شقتك، هه؟"-

هل يحسب أنه فاجأني.. أم أنها محاولة لاستدراجي!

.. وأشربُ.. الرغاوي بلساني أمسحها أشدُّ نفساً من دخـــان التبـــغ كأني لم أسمع منه شيئاً.. إن السـكوت سـلاح لا يعرفـه إلا القليلـون. الصمت؛ هذا ردي على اعترافاته.. لقد كان بين يدي المباحث إذن:

-"هممم.. احم.. هه؟"ـ

إنه من الشخصيات غريبة الأطوار مثلـي فـي بعـض الصـفات نقيضي في أخرى فالاحتياط واجب حتى لو كنتُ على يقين إنه لن يذهب إليهم بمحض إرادته لو استدعوه فلن يدلي بالمعلومات المطلوبة قـُلْ فلم أتردد أغلقتُ الباب خلفه للأبد..

و الآن، وأنا مستلق بين جدران الطابق الخـامس أرى المخبـرين وراءه بإشارات اللاسلكي يتبعون خطواته.. خطوة.. ثنتـان.. ثـلاث.. وهو يعلّمُ ابْـنـَـةُ الرقصَ على شاطئ البحر، وهو في طريقـه لمنزلـه مساءً..

لا شك أن ملف الهواري قد يتضخم وتزداد صـفحاته المتضـاربة عددا. ولابد أنها تبدأ من أيام بروفات الفرقة المسـرحية حيـث يكـون عنوان هذا الملف هو تنظيم المخرج الأصلع تتصدر صـورته أكـداس أوراق التحريات.. صورة يُـحلـّقُ فيها بذراعيه فوق خشـبة المسـرح من وراء الستارة الخلفية.. تقاسيمه الضبابية تغرقها الأضـواء البـاهرة تبدو على غشاء النسيج الأبيض الشفيف.. ولا يحتاج الملف الثاني ليقـين حيث تتصدره كلمات كبيرة مخيفة عن التنظيم الشيوعي بمرسى مطروح عبر مئات الصفحات تسجل تحركاته.. اتصالاته.. تنقلاته بين المقـاهي والنوادي والمكتبات ومقر الحزب.. وغيرها من تفاصيل التفاصيل بمـا في ذلك معيشته داخل منزله مع والدته العجوز التي تشـبه أم الحبـوني بظهرها المحني ورأسها المنكس..

هل كانت المباحث تحتفظ لها بصـورة هـي الأخـرى بالأسـود والأبيض مثلا.. باهتة تجلس فيها أم الهواري بصحن البيت بـين يـديها

ثياب زوجها الغائب، وقد أصابها البلى حتى لا تعرف ردنها من ذيلهـــا.. سترة الجندي أبي الهواري الذي اختفى في مكـــان مـــا داخـــل القوالـــب الخرسانية يصبها ملتاثاً يتعجل نصب الصواريخ بالسويس..

و أقولُ لا ريب أنهم استدعوه مجدداً كي يتأكدوا أنني لـــم أغيـــر أفكاره.. ولم أضمه للجماعة الإسلامية؛ فلا بأس من شُـــرب البيـــرة.. هذا على الأقل سيصرفهم بعيداً عن رأسي. كما أنه لا يمكن، بأي حـــال، أن يردَ بخاطرهم أن الهواري يريد ضمي، بدوره، لعضوية الحزب..

هم يعلمون قبل أي إنسان آخر في المدينة إجمالي مَنْ تبقّـى مـــن الأعضاء الأساسيين. ولديهم بيانات بعدد خيوط العنكبوت علـــى البـــاب المغلق للمقر.. مقر الحزب الذي كان في البداية يطـــنُّ بالنشـــاط كخليـــة نحل. كل ذلك انتهى للاشئ..

كيف أفتقده وَحْدَهُ كأني لم أعرف في الدنيا غيره.. الهواري الـــذي سهر معي ليالٍ، مذ عدتُ وطوال أسبوعين، داخلاً خارجـــاً بالزجاجـــات الخُـــضر والأسئلة المتشككة.. الآن لا أجده أمامي.. أكاد أبكـــي لفـــراق هذا الشيوعي المارق.. فـــضيحة ما بعدها فضيحة.. أنا أفعل ذلك ولـــم أفعل ذلك.. أي شيطان هداني لهذا..

لكن ماذا يوجد هنا غير الجدران الملساء الباردة المشـــبّعة بـــالنُّور والظلال والصمت.. أضمُّ رأسي بين يديّ.. يتقلبُ جسدي الكبير الثقيـــل فوق السرير.. أقول ها هو قد عاث في عقلي فساداً ثم رحل..

ماذا يكون العقل غير غرفة واسعة ممتلئة بأكياس منها الكبير جوار الصغير الملون الناصع يستند على الكيس المنطفئ الباهت يميـــل فـــوق الأبيض تحته الأسود يتجول الهواري كان داخل ما تبقى من عقلي المائج يفتح الكيس تلو الكيس ليلة وراء ليلة يبحث بلا كللٍ خَبْطَ عشواء يتعثـــر هنا فيهرقُ واحداً ينزلق هناك بآخر يبلل ما حوله فلم يجد أبـــداً مبتغـــاه أكياس بيشاور أخفيتها بين أكياس خوست خلف أكياس ساربروكين تحت بلاط غرفة العقل كانت..

عرفتُ الهواري من جديد في الليلة الأولى التي قضـيناها سـوياً.. أدركتُ ساعتها أنه ازداد كبراً ومكراً.. يراقـب حركـاتي وسـكناتي.. يقول:

-"لا أحد يعود من العمل بالسعودية هكذا.."-

.. وهكذا تلك لها معانٍ ومعان. كان الأجدر به البوح بما يريد؛ مِنْ قبل.. لا أحد يرجع من السعودية محطما معذبا فاقـد الهـدى معتصـما داخل شقة بالطابق الخامس مهددا ولا مال معه ولا بنين:

-"فايزة لم تتزوج حتى الساعة.. لطالما سألتني عنك.. مازالـت لا تصدق وجودك بالمدينة.."-

يبدأ التعثر بين أكياس العقل.. ويواصل:

-"أ تعرف.. أم الحبوني مازالت تهيم تقطع الأرض مابين العزبـة الغربية وخيمتها بوادي ماجد.. تنادي يا صحرا ويـن الحبـوني.. ويـن وليدي يا صحرا.. فايزة حاولتْ علاجها بمركز التأهيل حيث تعمل بـلا جدوى.. وفي الحقيقة كانت مهزلة ما ينفع فيها علاج، والنتيجة الوحيـدة أسفرتْ عن سربٍ من أطفال المركز الأشقياء.. يتبعونها أينمـا سـارت خلال الشوارع يتصايحون في أثرها.. يصفقون منشدين يا صحرا ويـن وين. قلتُ لها؛ لـ... فايزة.. أخبرتها بأنك عدت من الخارج.. لا لم أشر لها بأنك تقيم في الطابق الخامس بمفردك.. فقط قلت لهـا إنـك عـدت فاندهشتْ؛ بل تلعثمتْ.."-

ويبدو أنه، الكلب، أحاطها بكل مـا كـان يـدور بيننـا. عرفـتْ وجاءتْ.. تسللت عبر السلم درجة درجة.. طرقتْ الباب. دخلتْ ضمتني في صدرها كأني زوجها الأيب. بكتْ. للخلف دفعتنـي تتفحصـني ثـم ضمتني مرة أخرى، وهي تجهش بالبكاء:

-".. وأين سيد. أ عدتما من الإعارة سويا؟"-

.. متى يا ربي ألتقي بأشـخاص لا يسـألون.. سـمعتها تهـرف بقصص، وتلح. تركتها حتى جفتِ دموعها.. وهنا بدأتْ تتحسس كومـة

العجين الأسود المتهاوي أمامها.. خليط من اللحم المهروس والعظام المهشمة. هذا ما يريده الهواري..

كان كمن فتح كوّة في ظلام الشقة نورٌ يشرق كل مساء اسمه فايزة تغسلُ قِدرَ المكرونة تطبخ الشاي الأرضيات تمسحها منهكة تجلس بجواري تدعك الجلد الميت جسدي تبعث فيه حياة من روحها تترك خيوط ضوءٍ تمضي في الليلة الأخيرة تضغط جهاز التسجيل يشد الحزام قميصها يتثنى أنين المزمار البدوي مطوحا ذراعيها العاريتين غضباً تتلوى:

-"و كأنك تزوجت من نساء كُثر في غربتك تلك.. ما بك؟"-

تقول بلا اكتراث تلقى جسدها على السرير هدّها التعب تدثرني الغطاء تلفّه حول كتفيّ تحت قدمي كأنه كفن تطفئ النور النوافذ تحكم إغلاقها لا أعرف فيما تبقى من الليل إن كانت قد خرجتْ أم أنها في مكان ما داخل الشقة أعودُ لقراءة ما كتبته فيتبين لي أن هناك أشياء صحيحة ذكرتها كما جرت في الواقع تماماً عكس أخرى لم تحدث مطلقا فهي محض خيال صرفٍ أعكفُ فوق الفراش منكبا على الأوراق أستقطعُ الجُملَ المشوشة فأضعها عن يساري وعن يميني أرصّ الكلمات الواضحة الصحيحة فإنّ أيا منهما لا تصبح له أية قيمة منفردا هكذا يتراءى لي أن أمزقهما معاً أو أخلطهما معا أستلقي على ظهري لا أبصر غير السقف المعتم أمامي فأسأل إنْ كانت الجندية الروسية مجرد طيف لفايزة تكاثف فاستحال لهيكل عظم كساه اللحم لقّتتهُ الملابس العسكرية أنزعها قطعة قطعة فوق قش الحوش يخربش بقدميه سيد أسمعه يتسلل بمهابته المربكة ساخرا من مصيري البائس..

ها هم الأخوة يبحثون مسألة الهجوم على أخوة لنا على الجبهة الشمالية الغربية..

تركتُ ورائي صليل المجنزرات وهدير المدافع متوجها إلى حيث يريد الله..

و لم يكن الأمر سهلاً بأي وجه..

كان القائد الأفغاني الجديد شاباً صغير السن من خريجي المعاهد العليا في باكستان أو الهند على ما أذكر.. أرسل في طلبي وأنا أستعد لتسليم متعلقاتي العسكرية. دخلتُ عليه فعرفت على الفور أنه هو.. فقد كانت له هيئة قائد؛ يتحلق حوله مساعدوه الشبان:

-"اجلس يا شيخ.."-

قال بصوت هادئ. ثم حلّ الصمت بعدها لفترة وجيزة. تمكنتُ خلالها من طرد بعض الهواجس..

هل حقاً من العار أن ترفض رفع السلاح في وجوه إخوانك المسلمين الذين كنت تحارب جوارهم حتى الأمس كتفاً لصق كتف أيا كانت اتجاهاتهم أو جنسياتهم.. وبعدها أردف:

-"أنت كبيرُ المقام يا شيخ.. داعية لك اعتبار، ومن المجاهدين الأبطال كما سمعت عنك من الأخوة هنا.. من أهلنا الأفغان وإخوتنا العرب.. نحن لا نريد أن نخسرك. أنت تعرف الجهاد هنا فيه اتّباع للأوامر والتزام بها. فإذا كنت قد شاركت في تحرير بلادنا من الروس، فلماذا لا تكمل معنا الجهاد.. أنت تعرف أن هناك عملاء وخونة.. عملاء للروس والأمريكان أيضاً.. أمامنا حرب لتحرير البلاد.. تطهيرٌ من الداخل. إن هذه أولى الخطوات نحو الخلافة الإسلامية الجديدة، وإنها لقريبة، ونريدك معنا.."-

ماذا يهمني أنا حيث كنت قد حزمت أمري مسبقاً:

-"أنا لا أنفذ الأوامر الخطأ.."-

قلت له؛ فأجاب مستنكراً:

-"خطأ..!"-

ثم أردف:

-"على العموم نحن فخورون بك.. لكن يجب علينا أن نعيش واقعنا.. الواقع الجديد؛ الآخرون رفعوا علينا السلاح.."-

-"عِشْ أنت.. عيشوا أنتم أيها الأفغان، أما أنا فلا. جهادي يتوقف عند انسحاب الروس، ولا يزيد.."-

كانت كلماتي حادة سريعة أدركتُ أنه لم يفهمها على وجه الدقة، ولذلك سأل مجددا:

-".. فماذا ترى؟"-

-"قررتُ تسليم السلاح والذخيرة وكل ما معي من حوائج، والخروج من أفغانستان.."-

انسابت الدموع من عينيَّ على غير إرادة مني.. ودَّعتُ الأخوة العرب والأفغان في موكب جنائزي..

أقوى صداقة في هذه الدنيا صداقة السجن والحرب!

ارتديتُ زياً بشتونياً، وتوجهت لمدينة بيشاور..

بين المضايف العربية أطوف على غير هدى. أرفع ناظري للجبال الشاهقة السوداء كأني لم أوغل فيها نحو الجهاد، ولم ارتقيها عائداً..

ها أنذا لم ألتق بـ... سيد، ولم يختارني الله شهيدا.. فما العمل؟

ثم لا تقل لي لماذا لم تفكر بالعودة لمصر..

بدا لي، وأنا أتسكع في شوارع إسلام أباد، أن ساعة الجهاد ضد الوجود الهندي بكشمير قد حانت.. كنت أدرك في قرارة نفسي إنني أحاول الهروب مجدداً.. بعيداً بعيداً عن مصر، ولو إلى آخر الأرضين..

ركبتُ القطار الذي عبر الحدود الباكستانية، لأجد نفسي في الهند مع الصباح الباكر. لم يسألني أحد كيف دخلت، ولا ما أريد..

تجولتُ ببلدات فقيرة على حدود البلدين؛ فهل هي مؤخرة العالم هذه حيث الوثنية والجهل والفاقة فراش المعوزين هنا وغطاؤهم.. المسلمون منهم لا يعرفون حقيقة دينهم ولا تعاليمه..

قلت لنفسي يائسا:

-"هذه بلاد تحتاج لسنوات من الجهاد طويلة لا قِبلَ لي بها.."-

و كان آخر ما رأيته على الحدود، وظل عالقا في ذهني حتى الآن، هو رجل هندي يقف عاريا كما ولدتــه أمــه، ويــزعم القرويــون مــن المسلمين والوثنيين أنه عــالم جليــل.. يتمســحون فيــه طلبــا للبركــة والمغفرة..

انطلقتُ من هناك عائدا لباكستان مســتعيذا بــالله مــن الشــيطان الرجيم.. ثم عبرتُ داخل سيارة أجرة متجاوزا محطات الطريق الدوليــة حتى بنجلاديش، ومن مطار دكا ركبتُ الطائرة صوب الــيمن، وكانــت الخطوات المريبة تتلاحق في أثري أينمــا اتجهــت؛ خطــوة.. ثنتــان.. ثلاث..

25

وداعاً يا جبال الهندكوش.. يا جلال آباد.. يا قندهار..

يا برد الليل بالمأسدة..

يا خوست..

وداعاً يا بولا.. يا ليالي الحوش وأيامه..

يا بيشاور..

وداعا للأخوة المجاهدين في أفغانستان.. وداعا للمدفع والرشاش؛ أما اليوم فأقلـّبُ النظر بارتفاع جبال صنعاء وسمائها فماذا أرى..

كان يجب أن أقطع شوارعها ودروبها. أحثُّ الخطى للأمام إذ يجب أن أجمع سنوات القتال، وأحزمها، وأدس الحُزمة تحت بلاط العقل..

هنا لا بدَّ من ارتداء الحمـّادية ولبس الجاكت فوق الثياب كيمني أصيل.. وأن ألتزم الصمت فيما أوقعُ عقدَ العمل معلماً للغة العربية بمدرسة خالد بن الوليد الثانوية.. كان صوت الخطوات يتباعد من ورائي؛ لكني أسمع وقرها بأذني، فألتفتُ أتبين الوجوه الغريبة تتراجع. من هم.. ألمْ يتعبوا من كل هاتيك المسافات، من مرسى مطروح لصنعاء، مروراً بمكة والمدن الآسيوية البعيدة. تـُراهم عملاء لجهةٍ واحدة أم أنهم يتبعون أجهزةُ مختلفة بمصر والسعودية وباكستان والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإسرائيل..

هل هم مجرد ضابط في بنطلون أسود وقميص أبيض وحذاء أسود لامع. أم أنهم ضباط كثيرون آخرون يرتدون الجينز والكوتشي والـ.. تي شيرت وحتى الملابس العربية المتباينة.. من العقال والثوب الأبيض حتى الحلل الرسمية وربطات العنق الملونة.. هل كلهم قد توحدوا في قوة رجل مخابرات واحد يدفعني بلا كل إلى الأمام.. إلى أين.. هل هي روحي المرتجفة من الحبس ومن التعذيب أم ترى سيد يستنجد بي من خلف خطوط العدو .. ثم ما هذا الحبل الطويل.. من يمسك بنهاية الطرف.. أهو معقود كالشكيمة على فكيَّ.. لماذا لا أشعر به حين ألوى عنقي.. حين أجرى.. من هذا الذي يرخي لي العنان، ولا يشد اللجام..

بي شوق للعودة إليك يا مصر..
يا مرسى مطروح..
يا شاطئ الغرام..
فقولوا لي بالله كيف يمكن أن أعيش في صنعاء؛ كيف..

أنباء التحقيقات والمحاكمات التي يتعرض لها الأخوة العائدون من أفغانستان تتوالى خلال الصحف ونشرات الأخبار وحجرة المُعلمين. تم اليوم القبض على مجموعة من العرب الأفغان. ابن لادن يقيم معسكرات للجهاد انطلاقا، هذه المرة، من السودان. نفي عدد آخر من الأمراء بسبب تأييدهم للغزو العراقي للكويت. مسلحون تدربوا في أفغانستان، وعادوا لبلدهم لقلب نظام الحكم.. الولايات المتحدة تعقد اتفاقات للتعاون الأمني مع الدول العربية. خلايا من الأخوة يخططون لسلسلة هجمات ضد المصالح الغربية والإسرائيلية. وزراء الداخلية العرب يقرون برنامجا مشتركا لبحث خطر العائدين من أفغانستان، وهكذا؛ فلا مفر..

أخبئ نفسي في نفسي، وأنتظر..

على قراءة القرآن أعكفُ من بعد صلاة الفجر حتى تطل الشمس من فوق الجبال الشرقية..

تأخذني الطريق إلى المدرسة. أدخل الفصل فأشرح لرؤوس الأولاد اليمنيين ما تيسر من قواعد اللغة والدين.. وفي أوقات الاستراحة أدور هائما كثيف البال ما بين الفناء وحجرة الزملاء المعلمين أحصي الدقائق والساعات والأيام والأسابيع والشهور.. أبصر المدير يتجول من الجانب الآخر فأغض عنه الطرف متحاشيا مجادلاته المريبة.. هو رجل يمني قصير صغير الحجم عصبي المزاج أحسبُ أنه يكره المصريين لأنه تسبب في ترحيل أحدهم للوطن. بيد أنه يزعم أنه يعشقنا نحن أبناء النيل لدرجة أن الأخطاء الصغيرة لا يغفرها لنا.. وقال إنه لا يمكن أن يقر بأن أحدنا يمكن أن يكون مصريا خالصا، وفي ذات الوقت وضيعا يُبطن غير ما يُظهر كالآخرين؛ لا يمكن أبدا..

يستدعيني أحيانا لمكتبه، فنخرج للتمشية بحـذاء السـور الطويـل الملتف حول الفناء.. يُبدي حماساً متكلفا لدخول القوات العراقية الكويت، ثم ينقلب على رأيه.. مهاجما صدام حسين، ثم يعدد محاسـنه القوميـة.. وعبثا يحاول استثارتي أو معرفة ما يدور برأسي.. إنه رجـل لا يهـدأ أتعبني وقطـّعَ أنفاسي، وكأنني مازلت أحمل أسلحتي وذخيرتـي تجـاه خوست:

-".. ولكنك لم تأتِ من مصـر رأسـا لتعمـل لـدينا؛ بمدرسـتنا هذي.."-

جواز سفري لديه. ويعلم منه أنني قادم من بنجلاديش لا مصـر.. وعليه أختام جوازات دكا لا القاهرة. فماذا يريد؟

أجاريه في مراوغته متبسطا صريحا:

-"لا.. في الحقيقة. فقد كنتُ أسير في مناكبها.. الدنيا؛ في بـلاد الله أعلـّمُ الناسَ أمورَ دينهم.. أدعوهم بالحكمة والموعظة الحسـنة.. مـع أخوة من المسلمين المتطوعين. جماعة التبليغ والدعوة تعرفهـا.. نبيـتُ بالمساجد، ونأكل مما يأكلون،، نعلمهم العربية، ونـبلغهم القـرآن وسـنة الرسول صلى الله عليه وسلم.."ـ

ردّ متمما مصليا على النبي بنبرة باردة ثم أردف:

-"تـُراك تلقي خُطب الجمعة بصنعا.."ـ

-"و الله أحيانا يدعوني المصلون.. يعرفون، من أولادهـم، أننـي معلم لغة عربية ودين هُـنا.."-

يستشعر أنني لست أنا في الواقع كما يراني توا واقفا أمام طـابور الصباح أو جالسا بحجرة المُعلمين أو خارجا نحو البيت.. أتلفتُ ورائي؛ فأراه يحملق في هيئتي مشدوها.. أو يشيعني بنظراته حتى أتوارى عنـد المنحنى المتجه لموقف السيارات. وهكذا تعود الخطوات لتضـرب فـي أثري بإصرار وعن قرب؛ خطوة .. ثنتان.. ثلاث..

رسالة رقيقة تمتدح قدراتي في التعليم وصلت المدرسة تطلب الاستعانة بي كمعلم بمدرسة صنعاء الثانوية الأمريكية بعض الوقت. لماذا؟ لم أسأل نفسي هذا السؤال المهم. وقلت لا بد أن المدير اليمني قد أعياه البحث والتحري، ولم يصل في شأني للنتيجة المطلوبة.. لا جدال إذن في أن الشكوك حولي تتزايد. والذين يمشون ورائي لا يتعبون..

مدير المدرسة الأمريكية استقبلني بالترحاب كأنه التقاني بعد طول غياب. ذكر لي، بدون مقدمات كثيرة، الأجر الشهري الذي سأتقاضاه مقابل تدريس عشر ساعات متفرقة أسبوعيا، وهو مبلغ يساوي ما يزيد عن خمسة أضعاف راتبي بمدرسة خالد بن الوليد، وكأنه يريد إغرائي.. المدير هنا فاتح البشرة يتحدث العربية بلكنة أمريكية. وبعد مناقشات طويلة عن مشاكل تعلُّم اللغة العربية للأمريكيين، وسهولة نطق اللغة الإنجليزية لليمنيين، قال:

-"ماتلوب سيرة ذاتية.."-

لم يكن يشبه المحققين الألمان.. الألمان، حين وقعت في أيديهم بعد ذلك لم يتبعوا أسلوب المناورة واللف والدوران مثله:

-"نعم؟"-

سألته؛ حتى فهمت أنه يريد أن أكتب موجزا عن تاريخ حياتي.. لم تعجبه الأسطر التي دونتها على عجل بجانب المكتب.. قرأها عدة مرات.. وضعها جانباً، وأخذ يحفر تحت قدمي ضاحكا:

-"أنا اتكلم بالمصري زيك انتي.. كيدا.. تـُراك تكتب الهكيكا؟ موس تكتب الهكيكة.. انتي تكولي الهكيكا أشان كده فيه كدايا، وفيه بوليس آيز أكبد أليك.. دي كان فى ايجبت.. هنا تكول الهكيكة .. فيه شُجُلْ.. خدي اكتبي سيرة ذاتية تكول كل هاجه؛ كدايا. بوليس أكبد أليك. كولي أنا آوز هُورّية آوز.. آوز ألبر آن فِكْر.. آن موكف.. آن.. كل هاجة.. وبادين تفشتي من كايرو.. تفشتي بييد.. بييد آووي؛ روهتى فيين؟"-

لم أر رجلا لديه إمكانية الاستحواذ على رجُلٍ آخر، وهو يقهقه، ويقوده للتهلكة..

اعتقدتُ حينذاك أنني أجلس أمامه عاريا بدون حتى ملابس داخلية.. قرأتُ في عينيه، من وراء نظارته الطبية، تاريخ حياتي مُنذ كنت صبيا صغيرا في مسرح قصر ثقافة مرسى مطروح حتى تسليم سلاح الجهاد في خوست.. قلت ها هو أحد أصحاب الخطوات التي لاحقتني سنوات وسنوات.. ها هو ذا بشحمه ولحمه يطلب مني في هذه الجلسة الودية أن ألخص له مطارداتنا في المطارات والشوارع والفنادق وميادين القتال.. كان الصمتُ دائماً هو قناعي الواقي من مثل هذه الأسئلة الكيماوية؛ لكن إلى متى.. يده ممدودة بأوراق بيضاء وقلم حبر ذهبي اللون:

-"انتى من دلوكتي اهنو في مدرسة.. هنا.. انتي شيكا بتانا.. ها؛ اكتبي.."-

ماذا يظن.. إنه يتحدث العربية بالكاد.. لن أتساهل معه..

لو كان يعرفني حقا لما تناولني بتلك الطريقة..

أضع الورق على المنضدة..

أنفض رأسي مستحضرا وجوه الذين التقيت بهم في صنعاء..

لا بد أن أحدهم عميل للسفارة الأمريكية.. ها أنا ذا أعود لأجد نفسي تحت دائرة الضوء.. دائرة كبيرة مبهرة وفاضحة.. وماذا عن سيد؟ لا شك أن هذا الرجل يعرف خط سيره:

-"أولا سيرتي الذاتية موجودة بملف العمل بمدرسة خالد بن الوليد. سأحضر لك صورة منها. ثم، وهو الأهم، مَنْ قال لك إن البوليس المصري يريد القبض عليَّ.. لقد خرجتُ من القاهرة.. من المطار بورق رسمي. أنا مواطن لي احترام وحقوق بوطني.. كما أن لدينا بمصر محاكم وقوانين. ماذا تعتقد.. هل زرت مصر من قبل؟"-

و لم يجب.. ولم يطرف له جفن:

-"انتي شيكا متقفة.. اكتبي، اكتبى سيرة؛ آشــان تســتلمي شُــجْلْ وتوبودي فلوس كتيير.."ـــ

تركت الأوراق والقلم على المنضدة دون أن أخط حرفــاً واحــداً.. سرت خمس خطوات حتى وقفت أمامه.. خطوات قليلة أربكتــه.. نــزع نظارته.. رفع رأسه للوراء متأهبا لما سيحدث.. كان هو أيضـــاً يعــرف كيف يستخدم الصمت.. وهكذا ظل كلٌ منا يحدق الآخر حتى نلتُ منــه، حيث فتح فمه أولا:

-" اشربي شاي.. آسير.. اشربي آسير.."-

ضغط زرا؛ فاقتحم المكتب ثلاثة أشخاص في لحظة. اثنــان مــنهم وقفا بالباب، والثالث تفحصني بنظرة خاطفة، وبأخرى تفحــص أرجــاء المكتب قبل أن يسأل بلهجة يمنية واضحة:

-"إنعم.. سيدي.."-

-"هاتي آسير.."-

عاد الهدوء. عدنا مرة أخرى للمناقشات العامة عن الأمية في البلاد العربية، ودور الدول الغنية في تقديم المساعدات وتــوفير الــدعم الفنــي والمالي. أي أنه، كما فهمت، هناك تجارب ناجحــة قــام بهــا الخبــراء الأمريكيين في البرازيل والأرجنتين. وفجأة قطع استرساله ذاك ليذكرني بأنني لم أكتب السيرة الذاتية بعد.. والتي يمكن أن تفتح الطريق أمــامي للالتحاق بأحد برامج التدريب التي تمولها الوكالــة الأمريكيــة للتنميــة الدولية، وأتحول من مجرد معلم منبوذ في وطنه لخبير في التعليم بشهادة دولية تؤهلني للعمل كمستشار تربوي في جامعة الدول العربية أو الأمــم المتحدة أو حتى في الوكالة الأمريكية ذاتها.. انتشــلتُ نفســي قبــل أن أغرقَ في بحر الطحينة.. استخدمت معه نفس الطريقة حتى يطمئن:

-"الكتابة ستستغرق وقتــا.. ســأكتب فــي البيــت ســيرة وافيــة بالمستندات، وأعود صباح غدٍ.. حيث نبدأ العمل، إن شــاء الله.. ألــيس كذلك؟"-

لقد استغرق الأمر أكثر من نصف ساعة أخرى. شربتُ العصير.. وأخذ خلال ذلك يعيد فتل حبال الثقة فيما بيننا.. أتطلــع لعظـــام وجهــه البارزة، ولخديه الأحمرين؛ وكأنه يشبه المحقق الأمريكــي ذي الملامــح الأسبانية الذي استجوبني بأحد فنادق بنجلاديش..

أي ثقة..

تلك الخطوات ما انفكت تلاحقني؛ أفــرُّ لأقصـــى الأرض فأجــدها أمامي..

خرجتُ لا أعرف لي وجهة..

كيفَ استعيد جواز سفري من مدير المدرسة اليمني الغضيب الــذي انتوى على ما بدا لي أنه عازم على الإيقاع بمصري جديد يُظهر غير ما يُبطن هو أنا.. يجب الرحيل مع أول طائرة لأي مكان آخر؛ إلى البعيــد البعيد. توقفتُ قليلا، ثم غيرتُ وجهتي..

انطلقتُ نحو البيت..

لا مفر من استبدال أقفال الشقة مِنْ نفسي أسْخرُ فماذا سيجدون غير حَــلــَّةٍ فوقها مقلاة بجوار برادٍ طرح ثلاثة أكــوابٍ زجاجيــة أحــدها مُحَطَّم الحواف أمشي مُخترقا شوارع صنعاء عاريا أهرول منتبذا المدينة تنطبق جبال صنعاء تعتصرني داخلها أصرخُ يُجاوبني رجــع الصـــدى بوديانها فأين المفر..

لم أطمئن لأي مُعلم من مدرسة خالد بـــن الوليـــد.. حـــوالي مئـــة وثلاثين من مصر والعراق وتونس والجزائر والسودان..

المعلمون المصريون مفككون في نُـــتـــفٍ صغيرة.. كل ثلاثـــة أو أربعة يدبرون المكائد للمجموعات الأخرى. أمـــا المغاربـــة فيخوضـــون صراعا متصلاً لا أعرف لماذا مع السودانيين.. آراء تؤيد صدام حسين، وأخرى تعتبره غازيا مخربا.. ومن فوق كل هؤلاء يقف المدير مهـــددا. جوازات السفر في يد، وسلطاته المخيفة في اليد الثانيـــة.. لقـــد كانـــت وظيفته ومهامه المكلف بها تعطيه الحق لترحيل من يشاء إلـــى المطـــار مباشرة دون الرجوع لأي جهة أخرى.. كأنه رئيس دولة..

يأخذني قلبي المتوجس لسوق السلاح.. أعاين القطع الصغيرة من المسدسات ومواسير الكلاشنكوف تفوح منها رائحة الزيت والشحم والبارود.. هل اشتري واحدة سريعة الطلقات أدسها تحت مرتبة السرير لكي أنام مطمئنا. لا.. إن مثل هذه الأخطاء لا غفران فيها.. سلاح آلي في شقة مصري باليمن؛ فيا لها من تحقيقات وقضايا وملفات جديدة ستفتح الأبواب حتى خوست؛ فيا للتهلكة.. العيون مفتوحة ترصد حركاتي وسكناتي، ولا سبيل أمامي غير الصبر. ماذا يهمني؛ أنا معلم بمدرسة يمنية حكومية، ومن لديه أدلة اتهام ضدي، في هذا الشأن، فليواجهني بها..

واصلتُ إذن العمل، وكأن شيئا لم يكن. تجاهلتُ المدرسة الأمريكية ومديرها الخازوق.. متوقعاً غضب المدير اليمني من مسلكي، وهو ما لم يحدث.. أعتصمُ بحجرة المدرسين أتنصتُ منتظرا الخطوات القادمة.. أسيخُ السمعَ؛ حتى إنني ألتقطُ صوت صرير باب فناء المدرسة، على الرغم من صياح المعلمين المتجادلين حول العراق والولايات المتحدة:

-"مصر باعت نفسها للأمريكان.."-

-"اخرس يا كلب؛ نحن حررناكم من الفرنسيين.."-

-"صدام حامي حمى العروبة في وجه الغرب والصهيونية.."-

-"عبد الناصر مات. ولن يحميها أحد.."-

-"أي صهيونية هذه التي يواجهها صدام. أ في الكويت؟"-

-"القضاء على إسرائيل لن يحدث إلا إذا قضينا على العملاء بيننا.."-

-"أي عملاء؟ أنت.. مَنْ تقصد؟ أي عملاء؟ تتهم مَنْ؟ أنت.. أجب الآن مَنْ تقصد بالعملاء؟ لا.. انتظروا.. أنت.. مَنْ هم العملاء، مَن؟ لا.. أجب الآن. أبي قاتل في سيناء، وجدّي حرر أسيوط من الفرنسيين، ومنْ بعده حاربنا الهاجاناه في حيفا؛ فهل نحن عملاء؟ خذ.."-

كان المدير غير معني بأمر اللكمات والركلات التي يتبادلها المصريون والجزائريون والأردنيون قرب نهاية اليوم الدراسي، ولا يتدخل إلا في الوقت المناسب حيث يجتهد فقط ليصلح بين المتخاصمين من أجل مزيد من المناقشات والمعلومات في الصباح التالي:

-"كيف.. تُراك لا تشارك زملاءك. والله يا أخي مصر فتحت قناة السويس للبوارج الأمريكية.. كيف تُراك تظن؟!"ـ

و لم أجاوبه أبدا جوابا قاطعا:

-"سياسة، ومن يدرك خباياها؛ الله أعلم.."-

السياسة، وفى اليمن؟ أي عذاب!

مرت الأيام سريعة حينا، وبطيئة أحيانا كثيرة.. وسيد في رأسي يسعى بمكان ما يضرب بقدميه الأرض، أم أنه للسماء صعد في جنة الخلد يتنعم مع الشهداء والصدِّيقين..

هو، في ثيابه البشتونية القصيرة، يرقب من فوق قمم تورابورا آخر المنهزمين من عملاء الشمال..

هو، تحت ثيابه الصعيدية الفضفاضة، يعتصم بتلال الصعيد مع المطاريد انتظارا لساعة الانطلاق..

فى بنطلونه الجينز وقميصه الملون يتنقل من بيت لبيت في أحياء ساربروكين المظلمة، أو أزقة نيويورك المرعبة؛ فمَنْ يدري..

لا يرسل خطابا.. لا يرسل إشارة؛ مجرد كلمة يقول فيها إنه هنا أو هناك..

كيف لا يزورني في منامي متشحا بملابسه البيضاء الطاهرة يشع وجهه نورا وجلالا..

هكذا أخذتْ اللهجة اليمنية الخشنة تعيدني رويدا رويدا لصحراء مطروح.. لمسجد الفتح، ووجوه أهالي الضبعة الغاضبين.. لمربوعة عمدة الحبون ببراني.. لنحيب أم الحبوني:

-"يا صحرا وين.. وين يا صحرا.."-

أم الحبوني يا أم الحبوني تسعين في كل أرض أراكِ تعقدين يــديك وراء ظهرك تدورين تصعدين الهضاب في الوديان الســبخة تغوصــين حافية الدمُ يتقاطرُ من قدميك على حواف الصخور تقفين بعينيك تقــرئين الآفاق المنفتحة أمام رأسك المثقلة فوق كتفيك فماذا انكتبَ إذن هــا أنــتِ تنكسين رأسك من جانب المنحدر تطلعين:

-"يا صحرا وين.."-

26

سوق باب اليمن تعيد السكينة لقلبي؛ فماذا يهمني..
أتسكّعُ متطلعا لوجوه باعة الحاجيات القديمة..
ملابس، وقدور، وأجهزة مستعملة..
مسدسات، ورشاشات، وقنابل..
الوقوف بين الخلق أمان..

تجار عملة ودولارات مزيفة وأطعمة رخيصة كأنها مطبوخة بالتراب والعشب عبر أزقة مزدحمة لا يعرفني فيها أحد؛ حتى إذا حل المساء، وتكشّفت الجدران العتيقة فيما حولي اقتحمني الصوت الممطوط من نافذة اللاندكروزر:

-"اركاااب. اركااب يا وهابي.."-

و بهذه الطريقة تأخذ الأيام دورتها بين المحققين اليمنيين والأمريكيين وحتى المصريين..

في أوقات كتلك حدث أنني فوجئت برجُلٍ يرتدي حُلة رمادية يجتاز باب المدرسة، ويغيب داخل مكتب المدير الذي استدعاني لمكتبه، واستقبلني فاتحا ذراعيه مبشرا قائلا يا أستاذ هذا مصري مثلك من سفارتكم. وقدمني له، وانصرف. أخذ موظف السفارة يتفحص أركان مكتب المدير ويرمقني بنظرات أمنية خاطفة حتى انفرجت شفتاه أخيرا، وطلب مني في أدب جم تلبية دعوة مسئول السفارة الذي يريد مقابلتي؛ أنا؟ سألته:

- "و ماذا يحدث إذا ألقيتم القبض عليّ ورحلتموني لمصر.. من يتحمل المسئولية.. والاتهامات هناك؛ أنت!"-

لقد استهزأتُ به حتى أشفقت عليه. هو شاب صغير السن فرحٌ بعمله بصنعاء، ولابد أنه يداوم على كتابة الخطابات لخطيبته في القاهرة، ويهاتفها كل ساعة على نفقة السفارة. قال:

-"لا شئ أكثر من سلامات ازّي الصحة، وحوار عادي عن المجريات؛ تعارف يعني .."-

رددت عليه ردا نهض على أثره مرتبكا قبل أن يندفع إلى الباب خارجا دون جدال..

إذا كان ملحق السفارة شغوف بي فليأت هو إلى هنا نتبادل التحيات والطيبات والحوارات في المدرسة بين المدرسين والإدارة والجدران الواسعة للفناء الكبير.. و:

- "اسمع.. أخبره أننا هنا في صنعاء.. في اليمن، ولسنا في القاهرة.. نحن لسنا في مصر الآن، هه؟!" -

هزّ الرجل رأسه أسفا، وكأنه يتفهم المشكلة، ومضى. يبدو أن السفارة كانت تراجع قوائم بأسماء العشرات من المطلوبين ممن يشتبه في علاقتهم بتفجيرات بالقاهرة والصعيد.. بينما أنا في تلك الأيام أقطع الدروب مخلفا صنعاء ورائي أهربُ من الخطوات التي تلاحقني بلا كلل؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث.. ضاربا الأرض الجرداء منطلقا بملابسي اليمنية المحبوكة على بدني الكبير.. ثوب أبيض وسترة سوداء وحماديسة حمراء. وكأنني سيد نفسه أيام مرسى مطروح حيث ترى قدميه عند الضحى تتعاقبان متجها لغوط رباح.. أنظر للأرض هنا.. إنها تشبهها، بيد أن التراب يبدو داكنا أكثر.. النباتات البرية الجافة تطل من الشقوق العطشى .. أم بريمة تجفل مذعورة تسعى في أثر الرعاة حينا، وترفرف بعيدا بأجنحتها الصغيرة حينا آخر.. أتلفتُ فقد تأتي مواصلة. من النادر أن تجد سيارة تعبر الوهاد القاحلة إلى بلدة عمران على بعد نهار من العاصمة مشيا على الأقدام. ولا بد أن ألقي خُطبة الجمعة هناك اليوم..

ترتفع الشمس في طريقها لكبد السماء، وأقول إنّ أهل البلدة الآن ربما يقفون على التلال يترقبون وصولي، بعد أن نحروا وجهزوا طعام الغداء.. فهيهات..

أنظرُ كيف تثاقلت قدماي في هذه الصحراء الخاوية حيث أرى فلا أرى من ورائي أحداً.. لا يوجد من يحصي حركاتي أو يسجل سكناتي..

أعود ثم أتقلب على الفراش فأعود لأفتح فمي يكاد يجففني العطش فيما أوصالي ممددة فوق السرير بالطابق الخامس تسبح روحي في الظلمات السحيقة..

هل كنت طوال السنين الفائتة أجدُّ السير إلى الأمام بفعل الخوف..

الخوف هو الوقود الذي دفعني للخروج منك يا مرسى مطروح، ليلقي بي في جدة، ومنها لبنجلاديش.. ثم لباكستان فأفغانستان..

هل هو نفسه الوقود الذي ألقى بي على مشارف عاصمة اليمن وتحت صقيع فرانكفورت ومرتفعات ساربروكين..

هنا بالطابق الخامس يهدأ القلب رويدا..

أتنفس ملء الرئتين أشعر بثقل جسدي تتجدد فيه آلام رقدتي على طاولة التعذيب في طرة فأبي زعبل حيث تأديب الحبس الانفرادي تحت الليل يستمر مقيما أمام ناظري أسابيع قُــلْ شهورا بل سنين مضت لم أتحسس مواضع خطوط السياط بجوار دوائر الصعق الكهربائي..

أعلمتم ما علمتم ببقع الحروق.. حروق بنار السجاير.. سجاير يشعلها ضابط ببنطلون أسود وحذاء لامع.. يعوج رأسه.. يعوج اللفافة بين شفتيه.. يميل بعنقه على ياقة القميص الأبيض، في نفس اللحظة التي يضغط بإصبعه على رأس الولاعة.. دائما يشعل سيجارته بحركة واحدة سريعة.. يدس بعدها الولاعة في جيبه.. ينفخ الدخان.. يقترب من بدني المفرود على منضدة وسط حجرة التحقيق:

-"أين كرم؟"-

-"لا أعرف.."-

-"أين عاصم؟"-

-"لا أعرف.."-

-"كيف لا تعرف ومذكرة التحقيق الألمانية ها هي بها اجتماعك بهما مع إرهابيين آخرين في ساربروكين حيث كنت تقيم مع الطبيب الأردني زعيم التنظيم بالخارج. هاهي تذاكر السفر على القطار الدولي من ألمانيا لفرنسا.. لماذا ذهبت لفرنسا.. بمن التقيت.. إن المحققين الألمان لم يسألوك عن ترددك على فرنسا.. لكن نحن لدينا المعلومات.. هذا رقم الغرفة في القطار.. أتذكر حين دخلت عليك الغرفة فتاة ألمانية واستأذنتك في قراءة الكتاب الذي معها، فأضأت لها النور.. هي صورتك، هذه هي الصورة.. صورتك.. ثم ها هي صورك مع عاصم وكرم.. كيف لا تعرف إذن.. هل أصدقك يا ابن الكلب يا كافر قل أين كرم الآن أين يختبئ، وعاصم هربا لأمريكا أنت تعرف فقل الآن أي أسماء يحملانها بأي جنسية يتحركان يعبران المطارات متخفين كيف لا تعلم، وأنت تعلم هيا اعترف الآن اعترف.."-

وكان من المفترض في تلك المرة أن يسأل كالمعتاد عن اسمي الثلاثي واسم شخص غامض مشابه له تحويل بنكي من ألمانيا قيمته مائتان وخمسون ألف دولار.. كما كان من المفترض أن يعرض أمامي صورا يقول إنها التقطت لي وأنا مع عاصم وكرم أو ما يشبهني ويشبه سيد والمخرج الأصلع؛ إلا أنه هذه المرة لم يسأل، فقد بدأ الوهن والتعب من كثرة الأسئلة يحيل الضابط بمرور الدقائق والساعات إلى كائن بائس يسير في طريق مسدود.. لكن في اليوم التالي يظهر في ذات الحجرة، وقد أصبح أكثر حيوية ونشاطا وقدرة على بدء دورة التحقيقات من الصفر. وفي كل مرة ينتهي بي الأمر ملقىً مثل الذبيحة فوق طاولة باردة وسط حجرة طويلة عريضة مقسمة إلى جانبين يفصل بينهما ستارة سوداء من القماش الثقيل.. جانب مخصص لمكتب التحقيق، والجانب الآخر، الله لا يوريك، هو المشرحة بعينها؛ كرابيج وأسلاك كهرباء ومشنقة وحبال أخرى مدلاة من السقف.. وفي الركن حوض كبير.. فوقه ماسورتان واحدة للمياه شديدة البرودة، والثانية للمياه الساخنة

لدرجة الغليان.. ذلكم الحوض حوضي كم قيدوني فيه عارياً داخله تنهمر المياه المثلجة فوق رأسي، وفجأة تنصبُّ بدلاً منها المياه الفائرة، حيث بعدها لا أفيق إلا اليوم التالي أو بعد التالي أو بعد الذي بعده.. لا أعلم.. لقد كان طرف السيجارة المتوهج الداخن المستعر أكثر رحمة من أي شئ آخر.. يمد الضابط يده تحت صُرة بطني، ويسأل للمرة الألف:

– "يعني أنت مُصرٌ على أنك لا تعرف من حوّل المبلغ.. مُصرٌّ؟ ولا تدري أين عاصم، ولا كرم.. طيب انظر لهذه الصورة.. هذا صاحبك.. أ تنكره، وهذا أنت في الصورة هل هذا أيضا غير صحيح.. أين كرم.. أجب الآن.. أين.. أين؟!"–

– "لا أعرف أيا من تلك الأسماء.. لا يوجد أي شئ مما تقول.. لا أعرف كيف.."–

هنا ترتجف البقية الباقية من حياة في بطني وفخذيَّ.. أستشعر حرارة رأس السيجارة.. حرارة يده تقترب، حتى إذا شممتُ رائحة احتراق اللحم، استرحت.. فها هي مهمة هذا اليوم قد انتهت، هذا في حالة إذا ما كان سيكتفي بهذا القدر من العمل. إنني أجهده. أصيبه بالشقاء.. فيا للفشل ويا للعار.. يطلان من عينيه.. إنني أعذبه بلا رحمة!

.. ويطفر السؤال لرأسي مثل الدمعة الكبيرة على حافة العين. لماذا لم يستدعوا سيد من قبل..

طيب إذا عاد مقبوضا عليه من إحدى الدول أو المحافظات هنا فهل سيعذبونه في دوامات التحقيق والاستجوابات، ويلقون به على الطاولة ذاتها..

في تلك الأيام كان يسعى في شوارع مرسى مطروح لا يقترب منه أحدٌ يدفعني للأمام لا يلوي منسجما في جلبابه الأبيض وصدريته السوداء وشنته الحمراء.. هل لأنه ابن قبيلة، وأنا مجرد ابن سكندري.. وافد إلى صحراء مطروح وكأنه لا يعرف أنني من عرب اليمن.. قلت له إن المباحث لا تسألك.. لا يستدعيك الضابط ولا يلاحقك لأن عمدة

القبيلة عميلٌ للأمن، فزعل.. أم أن غضبه جاء بعد أن وجد خطابات فايزة في الكتب.. لم أعرف أبداً.. المهم أنه ركِبَ رأسه، وسافر لأفغانستان مبكراً عما اتفقنا عليه؛ حتى قبل أن يتم دراسته الجامعية بالإسكندرية.. هل أراد أن يبرهن على قوة إيمانه.. هل أراد أن أمضي تلك السنوات في الصحارى والدلتا مجللاً بالعار.. أم أنه أراد أن يرد على سؤالي بإجابة قاطعة هي خبر استشهاده في القتال.. ولم يصل هذا النبأ، ولا أي أنباء أخرى. أنا من جانبي لم أتخلَّ عنه. سعيتُ عبر بلاد الله.. نقبتُ عنه ما بين الأرض والسماوات.. تحت التراب نهاراً، وفوق النجوم ليلاً. طلبتُ الشهادة في سبيل الله لعلي ألتقيه في الآخرة.. أقتفي أثره عند الجبال السوداء الوعرة بلا جدوى؛ فماذا أصنعُ الآن..

أنشد على جبال المأسدة هل ترانا نلتقي أم أنها كانت اللقيا على أرض السراب، ثم راحت وتلاشى ظلها واستحالت ذكريات للعذاب.. هكذا يسألني قلبي .. فانظر ثم أغلق عينيك، وانظر كيف تراني الآن من لدنك، وأنت قاعدٌ أمام الباب تراني، فكيف تراني.. قُـلْ حقاً الساعة أفترشُ سريري بعيداً عن الدنيا، وقد أتممتُ أوبتي معلقاً بالطابق الخامس. أم يا تُرى ستجدني ما زلت هناك في السنوات الماضية حيث لا تنقضي جالساً على قطعة حجر بدرب أجرد يختفي عن يميني في ثياب صنعاء الخشنة، ويوغل عن يساري في الأفق حيث بلدة عمران البعيدة..

و أصحو لأقول إنك يا سيد اجتهدت لتكون مثلي؛ إلا أنك لم تكن.. ليس إلا صياحك في وجه مخرج المسرحية الأصلع تظن أنك أجبرته على قلب لغة الحوار رأساً على عقب. ماذا كان يضير لو كانت كده هي هكذا. لقد طالت مدة البروفات، حتى أن المسرحية ماتت قبل موعد الافتتاح. وفجأة تجدف في حق أبيك.. قُـدّامه. بهذه الطريقة انصرفنا بعيداً عن البيت.. عن بيتك وعن بيتنا للخلاء.. إلى الفضاء الواسع.. لغوط رياح. حتى عندما استقر بنا المقام في المدينة الجامعية، رفضتَ

الخروج معي لمساجد الأخوة في بولكلي وكامب شيزار. اعتكفتَ وحدك معزولاً.. وأقول لك انهض، فلا ترد. لقد انطفأتْ داخلك الرغبة في ركوب الترام. لقد تغيرتْ داخلك العروق والعظام والدم.. هل كنت أنت سيد أخي.. ذلك الذي يجلس بجواري على حافة وادي الشولحي أحاول أن أثنيك عن تفجير مقام سيدي يونس.. أن أجعلَ الطريق التي نسير فيها واحدة.. وبمرور الأيام كان كل منا يزيد بـُعداً عن الآخر.. فكيف تظن أن التنائي، في النهاية، سيؤدي لتلاقينا..

ربما كان الخطأ في أننا كنا نسير مثل جنديين من سلاحين مختلفين.. الجندي غريب هو والجندي بحيري أنا.. لم يكن ثمة شيء بالتحديد نريد أنا أو سيد الوصول إليه منذ البداية. كان مجرد المشي هكذا، والعرق ينزُّ تحت ياقة قميصي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف. كنا نريد الوصول أولاً لغدير مياه.. لبئر.. وربما لهذا السبب كنا ندفع بأقدامنا للأمام.. إلى السراب البعيد.. وها أنا أجلس على درب أجرد؛ فأين أنت الآن..

توقفَ سائق شاحنة قصير القامة مغبر بالتراب والشعر الكثيف:

– "لوين يا مطوع؟"–

و كان يجب أن أبادره بالحديث باللهجة المصرية قبل أن يواصل كلماته اليمنية الغامضة. إن ما تعلمته من تلاميذ المدرسة الثانوية لا يكفي للتجادل مع هذا السائق حول أضرار القات.. يلوك أوراقه المخدرة في جانب فمه، والشاحنة تترنح تحتنا كأنها غائبة عن الوعي:

– "تـُراك ما تشارك بالمظاهرات.."–

قال بلا مبالاة، على ما فهمت.. أئمة المساجد يدعون الناس منذ أيام للقيام باحتجاجات كبيرة وسط صنعاء اليوم بعد ظهر الجمعة. ما شأني أنا.. قلت لنفسي. مددت بصري على طول البيداء الخاوية. في هذه الأرجاء بعيداً عن العَسس يمكن أن أجد الراحة.. أن أفكر في الخطوة التالية؛ وعندما تلقي خطبة بمسجد عمران فلا أحد يسأل. فأنْ

تخرج من صنعاء فأنت قد ملصت من تحت أيدي السلطات جميعها، فيما عدا سطوة القبائل بطبيعة الحال:

-"تــُـــرى عبد الناصر ما ترك زيدي إلا قتله.. محا وجه الإمام.. نحارب نحن العرب نحارب بكل زمان ننام إلى جانــب قتلانـــا، ونحــن مصابين نداوي جرحانا. أنظر.. متى توقف العرب عن القتــال. حتـــى عندكم في مصر. صالحتم اليهود، وأخذ بعضكم يحـــارب بعضــاً. فـــي الشوارع والمقاهي.. ولبنان كمْ سنة عاشت تحت دوي المـــدافع وأزيـــز الرصاص.. مرة كنت في بيروت، وخرجتُ لأشتري خبزا مـــن الفـــرن المجاور، وعندها هجم علينا الدروز.. حاصروا خمسة عشر رجلا داخل المخبز.. أنت شيعي. قال أحدهم. وكان عليَّ أن أنضم إليهم لأنقذ نفســي من الهلاك. تقاسمت معهم معلبات البولوبيف حتى هاجمنا بعد ثلاثة أيـــام موكب عسكري للسنة.. أنت شيوعي. قال أحدهم بعد أن هزمونا.. وكان عليَّ أن أنضم إليهم لأنقذ نفسي من الهلاك هذه المرة أيضـــا. وتقاســمت معهم معلبات البولوبيف نفسها حتـــى اقتحمنـــا حـــارة مظلمـــة مكدســـة بالحواجز والبراميل. لقد كان كمينا، وألقوا القبض عليّ هناك.. عصـــبوا عينيّ، وقال أحدهم أنت ماروني. وهكذا.. إنهم العرب ذاتهم اللذين تفننوا في صناعة السيوف والاتجار فيها. هل سمعت عن حرب بـــين قبيلتـــين تستمر أربعين عاما. واليوم أنظر، ما كاد العراق ينهي حربا مع إيـــران حتى بدأ في حرب جديدة في الكويت.. وهذا أمر لو تدري حسن.. هـــذه حرب نعرفها.. هناك حروب تدور تحت الأرض وفي الأمـــاكن البعيـــدة عن العمران.. إنها حرب الحكومة.. كل حكومة في وطننا تشن حربا لا هوادة فيها.. حرب مع الناس. في مرة كنت أسير فـــي شـــارع الثـــورة بصنعاء؛ وفجأة أوقفتني الدورية.. تعال معنا يا مطوع.. ذهبـــتُ.. مـــاذا حدث بعد ذلك.. لن أخبرك.. عليك أن تتخيل.. ضـــع نفســـك مكـــاني، وخمّن.. قالوا تعالَ نشتهيك شوية.. فماذا تتوقع؛ هه.."-

تترنح الشاحنة منزلقة بين الوهاد والمرتفعات والحصى يتطاير تحت العجلات الكبيرة.. أتطلع لوجهي المشوه في المرآة الجانبية.. وجه عريض تزيده اللحية مهابة ورهبة.. وفوق جبيني تتمايل الحمادية اليمنية الحمراء. أما إذا أبطأت الشاحنة في سيرها فإن التراب يلحق بنا يغطيها، ويقتحم قمرة القيادة.. يسعل السائق.. ينتفض منقبض الصدر:

-"نحن ينقصنا الإيمان.. ما هي قضيتنا بالضبط. وماذا نريد.. قل لي بأي شئ تؤمن.. عبد الناصر أراد أن يضعنا تحت راية واحدة، لكنه تجاهل الإيمان. إذا آمنا كلنا بأمر ما، فأي أمة كبيرة قوية سترى.."-

-"لا إله إلا الله محمد رسول الله.. كل هذه المساجد، ولا ترى الإيمان.."-

قلتُ مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم.. إلا أن السائق أردف موضحاً بنفاد صبر:

-"لا يا مطوع.. أنا أعني لو أن هناك نقابة موحدة لسائقي النقل البري مثلاً.. يعني أن تكون معي بطاقة تثبت أنني عضو بتلك النقابة المفترضة، وبها أتنقل بين صنعاء ومكة ومن مكة لعمّان.. وهكذا دون أن يسألني جندي الحدود عن وين التأشيرة يا مطوع.. ووين جواز السفر.. وأيش مبغاك من دخول بلدنا.. ويللا ادفع رسوم العبور يا مطوع.. يعني يكون هناك عرب معنيون بالنقل البري وبسائقي الشاحنات، وبالـ.."-

-".. وما علاقة ذلك بالإيمان؟"-

سألته وقد خرجت الكلمات من فمي جافة حادة.. قال:

-"لا توجد علاقة!"-

و بهذه الطريقة التزم كل منا الصمت فيما بدا خلال ذلك مغتاظاً. وأردت أن أتحاشى الخوض في أمور لا أعرف المغزى من ورائها.. أضف إلى ذلك أن اللهجة اليمنية بها العديد من الألفاظ التي تعني عكس ما هو شائع في بلاد أخرى.. فعندما صعدتُ لأركب معه فوجئت به

ينهرني قائلاً دلا.. دلا.. أنا ظننت أنه يسبني، إلا أنه في الحقيقة كان يطلب مني إغلاق الباب برفق.. كما كنت أحسب أنه يوافقني الرأي إذ أشرح له المعنى الحقيقي لما يجب أن يكون عليه الإيمان والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.. فقد كان يرد وراء كل جملة قائلاً ماشي.. ماشي.. واكتشفت فيما بعد أن تلك الكلمة تعني لا.. لا..

أخيراً لاحت بيوت بلدة عمران، وحالما استقبلتنا الكلاب بالعراك.. كان الرجال والأطفال داخل المسجد بعدما فقدوا الأمل في وصولي، واستعانوا بخطيب المسجد السابق، المعلم السوري المقيم منذ سنوات في المبنى الملحق بمدرسة البلدة.. يقف كما عهدته فوق المنبر الخشبي المتداعي.. يتحرك يميناً ويساراً مع كل آية أو حديث أو قصة من قصص السلف، فيتحرك معه المنبر ورؤوس المصلين وجدران المسجد:

-".. لقد مكث الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الإسلام بالإقناع والموعظة الحسنة. وتعرض هو وأصحابه الذين آمنوا به إلى صنوف الاضطهاد والعذاب.. تحملوا كل ذلك بصبر جميل.. لكن بعد أن انتقل صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأصبح له من القوة والإمكانات للدفاع عن النفس والرد على العدوان.. لم يدخر جهداً في ذلك.. وبالأخص بعد أن أذِنَ الله تعالى للذين تعرضوا للظلم بأن يقاتلوا، وبأنه على نصرهم لقدير.. إن المسلمين يتعرضون اليوم للظلم مع طلعة كل صبح، والله قادر على نصرتهم لو بادروا بالدفاع عن العرض والأرض والنفس.. أنظروا للمقاومة في لبنان وفلسطين ومن قبلهما السويس وبور سعيد.. ومن قبل كل ذلك الجزائر والعراق.. من طرد الغزاة غير المقاومة برجالها ونسائها، واختارت طريق الاستشهاد في سبيل الله والوطن فانتصرت على العدو، وكان الله على نصرهم لقدير.."-

كان آخر لقاء ليّ مع المعلم السوري قبل نحو شهرين في مسجد العاصمة صنعاء.. أحدق الآن إلى قامته الفارعة وصوته المشحون

بالمرارة واللوعة.. هي النبرات نفسها التي كان يصف بها طرقات وبنايات منطقة ركن الدين التي ولد بها في دمشق.. كان له اثنان من أخوته لم يلتق بهما أبداً.. فلم يكن مسموحاً بالسؤال عنهما فما بالك بزيارتهما في السجن.. إنه حتى هذه اللحظة لا يعرف إن كانا محبوسين حقاً أم أنهما قد لقيا حتفهما في مواجهات جسر الشغور. كان يتحدث كثيراً عن والدته ذات الأصول المصرية المولودة في حمص.. ولم يكن يتطرق لذكر والده الجولاني إلا لماماً.. هذا على الرغم من أن مصير أبيه في الحياة مازال مبهماً هو الآخر.. هل استشهد في واحدة من العمليات الفدائية بالجولان، أم أنه يقاتل حتى الآن مع رجال حزب الله بالجنوب اللبناني.. كان مجرد الاستماع لحكايات المعلم السوري يملأني بالغضب واليأس والرغبة في مواصلة الجري إلى الأمام.. إلى السراب البعيد.. تخرج الكلمات من حلقه ومن بين شفتيه كثغاء الطفل.. هل كان يبكي مفصلاً لي القول تفصيلاً.. هل كان يستعيد نفسه صبيا يقطع الدروب سيراً وراء والدته المنكسة الرأس عاقدة كفيها خلف ظهرها بحثاً عن ولديها وزوجها.. تئن في وجه البنايات.. في الأفق.. تقف فوق الروابي الجنوبية برهة، ثم تواصل رحلتها عبر السهوب المترامية تنادي كأنها أم الحبوني ذاتها..

27

في المساء ألقيتُ درسا بالمسجد إلى جانب المعلم السوري حيث واصلنا بعد ذلك السهرة بمنزل عمدة بلدة عمران..

و كأنني ما زلت في مربوعة عمدة الحبون ببراني..

فما أقرب المسافة بين اليمن وبينك يا مصر. وما أعجبك يا زمن..

كيف أن الأيام والليالي طوال شهور وسنوات لم تمسح وجه عمدة الحبون من رأسي..

كان مدفونا، وها هو يبعث من جديد، وكأنه هو.. هو عمدة بلدة عمران نفسه..

أرفع رأسي لأتملى سحنة أخي المعلم السوري لكي أتأكد أنه ليس سيد..

لقد كان هدير القطار المحمل بالجنود والباذنجان والخبز يهز الأرض هزّا..

أتلفتُ، فقد يدخل الخبير بغتة جائعا، قبل أن ينصرف منشدا بين البراري:

-"وين.. وين.. وين وليدي.."-

إلا أن المكان غير المكان، وما حدث كان هو الأسوأ..

بدأ أهل البلدة حديثهم عن مظاهرات صنعاء الموالية لصدام حسين، وانتهوا بروايات شتى عن حرب مصر ضد اليمن. هل أنا جمال عبد الناصر..

كنت كأنني هو..

هم يقولون لي:

ـ".. وسمعنا أصوات طائرتكم تحوم في السماء، وبمطلع صُبْح اليوم التالي لم تكن أي من بنايات القرية قائمة في مكانها.."ـ

مازال اليمنيون يتذكرون وجوه المصريين الذين دفنوهم في مقابر متفرقة داخل بطون الوديان وعلي منحدرات الجبال.. يصفون لي موقع

كل مقبرة. هذه سمعوا أنها في وادي كذا، وتلك حفرها أسلافهم الزيديون في الجبل الفلاني. كانوا كمن يريد الطواف بي حولها قبرا قبرا.. لم أكن أعرف من قبل أن الأمور كانت سيئة في اليمن إلي هذا الحد:

ـ"أمي كانت لم تتزوج أبي بعد، في ذلك الوقت، ونادى الرجال أنْ الحقوا.. المصريون قادمون فاحفروا الخنادق.. هل هربتْ أمي مع النساء؟ لا.. وقفتْ هناك صبية لم تزل حفرتْ مع الرجال، وحاربتْ، وفقدتْ ذراعها.. ولم تنس ما حدث.. لو ذهبتَ معي إليها ستقول لك والله ما أعرف ماذا أتى بعبد الناصر إلى هنا.. هي تعلق صورته على جدار حجرتها، ومع ذلك لا تحبه.. لا أفهم كيف أصف لك.. قد تكون تحبه.. إنه مثل الابن الطائش بالنسبة لها.. ربما كان هذا هو الصحيح.. لو تزورنا وترى بنفسك.."ـ

السهرة في حجرة عمدة البلدة تمضّني.. تدفعني للبكاء..

تتدلـّي رأسي في الأرض.. أسأل نفسي إن كنت لم أزل في مربوعة عمدة الحبون في براني، حيث دوي القطار المحمّل بالجنود العائدين من الحرب معهم أجولة الباذنجان الأسود المكبب وأجولة الخبز البارد..

هل أرى الآن أم الحبوني تشرف من فوق التل تبكي على رأس المعسكر..

أتلفت فأجد اليمنيين يتزحزحون من مجالسهم يقتربون..

كأنهم يتربصون بي..

أخافهم أم ماذا:

ـ"هم خير أجناد الأرض.."ـ

قال العمدة فاستحوذ علي انتباه السامعين.. وبعد برهة أردف:

ـ"لولا عبد الناصر، الله يرحمه، ما خرج الاستعمار من ديار العرب. وهو كان من الجيش، والجيش هزم عدونا، وتـُراه سيحرر القدس.."ـ

ـــ"و سيحررها.."ـــ

قلت، ورويت لهم السنوات التي قضاها الجنديان بحيري وغريب يتأهبان بطول ضفة قناة السويس، حتى كان يوم العبور العظيم:

ـــ".. ومن قبل الحرب بثلاث سنوات لم يكن أي منهما قد التقى صاحبه فرقتهما التدريبات والاستعدادات القائمة على قدم وساق.. قد يكون الواحد منا متجها إلى طريق الموت، وفي تلك الحالة فإنه قد يذكر أمه أو أخوته.. لكن فيما كان يفكر بحيري.. وفيما كان يفكر غريب.. كان بحيري في الإسكندرية لم يزل، كما قلت لكم. وغريب عاد من تدريبات الحدود الليبية التونسية.. اتخذ له موقعا في مواجهة العدو علي الجبهة في مكان لا يعلمه إلا الله. وفي الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، تحرك القطار من الإسكندرية تجاه الشرق.. هل هم ذاهبون للقاهرة أم بورسعيد.. كان الجندي بحيري يطل برأسه من نافذة القطار، ويتجادل مع الباعة الواقفين علي رصيف محطة طوخ.. كل جندي يريد أن يؤمّن إفطاره. فماذا يهم الصائم في رمضان غير ساعة الإفطار.. لم يكن يدرك حتى تلك اللحظة أنه في طريق الحرب من جديد. أذّن المغرب في محطة المعصرة القريبة من حلوان. وبعد الإفطار بدأ الجنود يتساءلون.. إلي أين. لقد أخذتْ أجواء الحرب تحلق فوق رؤوسهم. وهنا جلس بحيري في مقعده، وسأل نفسه، أين أنت يا غريب الآن.. كان كل ما يريده هو أن يعرف لماذا تخاصم معه.. لماذا؟ كان يغلق عينيه ليراه خلال الظلام.. يضمه في صدره يصالحه، ثم فلتكن الحرب.. فليكن الموت حيثما يكون.. تخيلوا.. في القطار ليلاً حيث البرد.. الجنود يمتصون عيدان القصب التي جمعوها من الحقول المجاورة.. يفتحون أفواههم عن آخرها يقضمون العيدان الناشفة، كأنهم الوحوش.. يزأرون يتبادلون الحكايا، والضحكات.. فلم يكن أي منهم على خصام مع زميله؛ فماذا يعنيهم إذن.. أما بحيري فقد كان منزويا وحده بين المقاعد.."ـــ

توقفتُ عند هذا الحد. كان العمدة يتململ يطوف بعينيه على ضيوفه المتحلقين، وأقربائه المشدوهين حولنا. كل منهم يريد أن يأمرني أنْ اكملْ؛ فرويتُ بعد ذلك بقية ما كنت أذكره من مسرحية مخرجنا الأصلع، وأنا أزيح بيدي صورة فايزة جانبا.. ولم أشر أبدا لخطيبة بحيري التي تنتظره في قرية مجللة بالضباب على الأطراف الشمالية للدلتا، كما لم أشر إلى غيرة غريب من تلك العلاقة التي لم تكن قد وصلت، في الحقيقة، لحد الخطوبة الرسمية. استعذتُ بالله، وواصلتُ:

ـ".. مساء اليوم التالي، أي قبيل الحرب بأربعة أيام، وقف بحيري بمحاذاة الرصيف الذي أقيم على عجل قرب الزعفرانة جنوبي سيناء المحتلة آنذاك. مسح العرق عن جبينه بعد أن أفرغ مع زملائه حمولة العربات.. وفي البكور مرَّ بهم قائد المجموعة صامتاً مشدود القامة مرفوع الرأس.. سمعه بحيري يزأر آمراً أنْ شدوا حيلكم، وما أشبه ذلك ثم انصرف. وتوافدت مواكب الجنود الذين تم استدعاؤهم من مواقع التدريبات. كان كل شيء يسير بسرعة مخيفة.. الخرائط تنفتح على اتساعها، وتدور فوقها مؤشرات الضباط، وتطوى لتنفتح بعدها خرائط أخرى أكبر حجماً، وأكثر دقة ووضوحاً.. فيها بدت المسالك والدروب الممتدة بطول سيناء وعرضها. هنا يتمركز العدو.. من هنا تصل إمداداته. في نفس الوقت الذي يهدر فيه صوت محركات الشاحنات والمدرعات العسكرية.. ضباط سلاح المهندسين أخذوا طريقهم لتحصينات أخرى في الشمال.. جنود المشاة والاستطلاع يصطفون أمام قائد لا ينام.. ضامر البدن مثل عود الخيزران. له صوت مثل الناي شجي.. مهيب.. يثير في النفس البكاء.. الضحك.. الإقدام.. الطرب.. الخشوع.. الخوف. كيف كان كل ذلك يموج في صدر بحيري.. هكذا كانت الأحوال.. وأنتم هنا في بلدة عمران لم تدخلوا حروبا مثل تلك.. جندي كالجندي بحيري، كيف أصف لكم ما كان يعتمل في نفسه آنذاك. هل يدرك أن صاحبه غريب لابد يقف في مكان ما، الآن علي الجبهة،

في انتظار لحظة المباغتة.. أو أنه قد يكون عبر بالفعل كعادتــه، وأنــه هناك الآن خلف خطوط العدو أو أمامها ووسطها أيضاً.. إن غريب فــي نظر بحيري كان دائما هو الجندي القادر علي إخافة العدو؛ يخرج له من تحت الأرض.. يهبط عليه من السماء مثل الشبح لا يــراه أحــد.. مثــل المارد الذي لا يقهره أهل الأرض خاصة إذا كانوا من اليهود المحتلــين. كان الجندي بحيري يسمع صوت صاحبه غريب.. يشم رائحته.. يتطلــع فيما حوله، ويشد قدميه داخل حذائه العسكري الثقيل، فيصبح خفيفا مثــل غزال يقف على صحراء الزعفرانة. تراه.. تــرى الجنــدي بحيــري.. تبصره يندفع نحو مدفعه.. يــدير اســطوانته دورة كاملــة.. يــتفحص الماسورة وخزينة الطلقات. يصيح في رفاقه، إلى الأمام دُر.."ــ

لم يكن من الصواب التوقف عند هذا الحد.. لقــد فتحــتُ بابــا لا أعرف كيف أغلقه. ها هو الليل يمر، والشاي يبرد، ولساني يجــف مــن كثرة الكلام. كان كلٌ منهم يريد أن يستحثني قائلاً اكمل؛ فأكملتُ:

ــ".. هكذا تبدلت الأحوال، وأنتم هنا في بلدة عمران لــم تــدخلوا حربا كتلك.. جندي مثل بحيري كيف أصف لكم ما كان يعتصــر نفســه آنذاك ويمضها. هو شيءٌ مثل الجرح الذي إذا قارب أن يندمل، انفتح من جديد.. شيءٌ من كسر العظم الذي إذا قارب أن ينجبر، انكسر.. قلت لكم توا عن تدريبات بحيري والجنود الآخرين بمن فيهم غريب.. تــدريبات بطول مصر وعرضها.. ثم عمليات لا تتوقف علي طول الجبهة.. وبعــد كل ذلك انسحاب. اتفاقية وقف إطلاق النار.. وفــاة عبــد الناصــر. إن العودة من الجبهة حينذاك كان حدثا لا يوصف، كأن تكتب كتابــك علــى امرأة في عرس كبير، ثم لا تدخل بها. فلا بحيري عبر القنــاة، ولا هــو قادر على العودة لقريته.. لأهله.. لكل من كان ينتظره على أحــر مــن الجمر. كان هو يحسب أن مهمة طرد اليهود من سيناء لن تستغرق غير أيام، وحينذاك بدت الأمور أكثر غموضا.. حتى الآفاق كانت تبدو أشــد سواداً عما مضى. وها هو عبد الناصر يموت.. يختفــي غريــب وراء

الفضاءات الرحيبة للصحارى والبحار والضباب وخيام البدو.. ولا يعود. وكأن كل شيء قد انتهى.. وعلي حين غرة تصدر الأوامـــر.. تتحـــرك القطارات.. ها هنا بحيري يجبر عظامه مجدداً في الزعفرانة حيث يرى أضواء المنارة تتلألأ فوق الميناء.. الليـــل، والصـــناديق تنفـــتح.. تمتـــد الأيدي متلهفة تجمع العتاد.. أخذ حصته من الطلقات الحارقـــة الخارقـــة والقنابل الهجومية والدفاعية.. حقيبة طبيـــة صـــغيرة.. قنـــاع واق مـــن الغازات الكيماوية.. ألغام.. علبة تعيين.. يعني طعام يكفيه يوماً كـــاملاً.. ومعها زمزميتين من المياه.. في تلك الليلة جلس كل جندي فـــي جانـــب ليسجل حصة الاستشهاد علي ذويه. اسمها حصة العزاء؛ فإذا لم يعد هو لأهله، فسيعود لهم على الأقل مبلغ من المال يتعيشون به الأيام المقبلـــة.. فمن يعلم. هكذا بات ليلته يفكر حتى إذا جاء وقت السحور أكل لقيمـــات، وشرب جرعة ماء، ونام. في اليوم التالي كانوا يتـــأهبون منـــذ مطلـــع الشمس.. إنه يوم الحرب.. في الساعة الواحدة ظهراً سلَّم عليهم القائد يداً بيد.. واحداً واحداً.. تحرك الجنود مســـرعين إلـــي المينـــاء.. جهـــزوا القوارب، وانطلقوا بها داخل خليج السويس.. تدور حولهم أسماك القرش المفترسة، ولا يأبهون.. إن هذا هو الطريق لسيناء.. للنور الـــذي يجلـــل جبالها المقدسة.."ـــ

ـــ".. وهل التقى بغريب، صاحبه؟"ـــ

سأل العمدة؛ فهزّ الحاضرون رؤوسهم، كأنهم كـــانوا يريـــدون أن يسألوا السؤال نفسه. فماذا أقول لهم.. كان كل منهم يريد جواباً؛ فأجبتُ:

ـــ".. الجندي غريب كان في مهمة أخرى.. وإلا كيف تغلبنا نحـــن المصريين علي تحصينات اليهود. لم تكن المشكلة الكبيرة أمـــام القـــوات في الساتر الترابي الحصين.. أنتم لابد سمعتم عن خط بـــارليف.. إنـــه ساتر ترابي ضخم.. حصين. ولم يكن هو المشـــكلة الوحيـــدة.. هنـــاك مواسير الوقود.. مواسير متصلة بخزانـــات وقـــود فـــي عمـــق الأرض يحرسها العدو ليل نهار.. وهي مجهزة بحيث يندفع منهـــا الوقـــود إلـــي

المواسير التي تنفتح بدورها لتغطي مياه قناة السويس ببساط مـن سـائل كالبنزين الخفيف شديد الاشتعال. وقود طيار كالغاز يحيل الماء نارا، لـو تعلمون.. اليهود؛ هكذا كانوا قد خططوا.. نيران تسـتعر فـوق الميـاه، وتصل بها إلي درجة الغليان.. هكذا كانوا قد خططوا.. وضعوا خزانات ممتلئة بالوقود، ليحولوا قناة السويس إلي قناة من نار.. مـن جهـنم، إذا فكرنا نحن المصريين في عبورها. لكن انظروا ما صنعه غريـب ليلـة الحرب. هو وزملاؤه خرجوا حسب الخطة.. انطلقوا تحت المياه محملين بالأسمنت بالقار بالخيش بالطوب.. هكذا.. قافلة تسبح تحت مياه القنـاة.. وسدوا الفتحات.. أحكموا غلق المواسير مـن منافـذها علـي الضـفة الأخرى.. لقد كانوا يعملون يلفهم الظلام وأمواه القناة تحت الأرض التي يسيطر عليها العدو دون أن يشعر بهم.. ألم أقل لكم إن غريب كان مثـل شبح.. كالمارد الذي لا يقهره أهل الأرض.. خاصة إذا كانوا من اليهـود المحتلين. ومن الجهة الأخرى كان صاحبه، الجندي بحيري، يتقـدم مـع فرقته يسمع صوت صاحبه غريب.. يشم رائحته.. يتلفت فيمـا حولـه، ويشد قدميه داخل حذائه العسكري الثقيل، فيصبح خفيفا مثـل غـزال.. يندفع إلي الأمام.. يقبل رمال سيناء.. ينهض قافزا بخطوات واسعة إلـى الشرق.. يطارد جنود المحتلين فردا فردا.. الله أكبر.. الله أكبر.. ينـدفع شاهرا سلاحه الرشاش تاركا خلفه المدفع المعطوب مع زملائـه الـذين استشهدوا توا والذين استشهدوا أمس. وفي الأيام التالية أصـبح بحيـري أكثر ضراوة.. فقد بدأ الطيران الإسرائيلي يزداد كثافة تحت غرب قنـاة السويس وشرقها.. كان بحيري قد ضل طرق فرقته يلتحـق فـي اليـوم الواحد بأكثر من مجموعة.. يندفع يمينا ليجد زمرة من رجال المدفعيـة، فيطلق معهم طلقات الهاون.. يقذف الطائرات المغيرة بلا رحمـة.. ثـم يقتفى أثر إحدى الفرق المتقدمة، وهكذا.. وبعد نحو أسـبوعين أو يزيـد قليلا من بدء الحرب صدرت الأوامر بوقف إطلاق النار.. صـرخ لا.. حمل ما استطاع من الرصاص والقنابل، وأوغل في سيناء يرتقي الـتلال

الرملية، ومن فوقها يصب نيرانه على اليهود المذعورين في مواقعهم المهدمة.. لم يدرك حينذاك أن الأمور أخذت تختل.. وأن عظامه تتحطم تحت زيّه الحربي عظمة عظمة من الساقين للفخذين. نفدت الذخيرة.. نفد الماء؛ واستبان اليهود يسعون خلفه.. صاح، ياغريـــــب. ولا يعلم إلا الله أين كان صاحبه في تلك الأيام الأخيرة المضطربة من أكتوبر العظيم.."ــ

أثقل النعاس رأس العمدة.. تثاءب ضيوفه وذويه تسللوا لمضاجعهم، ونحن نتجاذب أطراف الحكايات في تلك البلدة المعزولة جنوبي العاصمة صنعاء. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وأشار المعلم السوري أن نرحل..

لم استجب لدعوة العمدة بالمبيت هنا.. كان الظلام حالكا. ورياح الصحراء تهب من قمم الجبال الغربية باردة.. منعشة ومخيفة أيضا. هل كان المعلم السوري هو ذلك الذي يخطو بجواري الآن مخترقين حُجُب السواد المتراكمة فوق بلدة عمران.. هو يهمهم بآيات من الذكر الحكيم، أم تراه كان ينوح.. يئن من ألم ما.. جرح لم يندمل مثلا.. أو جرح انفتح قبل أن يشفى.. هل كان هو ذاك، أم تراه كان سيد يخطو بجواري مخترقين حُجُب السواد المتراكمة فوق براني.. ويبدو لي لوهلة أن الزمن لم يتحرك مذ كنت أستمع للخبير في مربوعة عمدة الحبون، وكأن الأيام لم تمر ولم تعقبها الليالي..

قُـل إنني الآن فوق فراشي بالطابق الخامس أصنف الأوراق أكتبها.. أنقحها من محض الخيال فانظر كيف تكون..

أستشعرُ الخوفَ يتسلل في بدني. ليس خشية العبد لا سمح الله.. لكن الخوف على عقلي من أن تختلط فيه الأحداث والساعات، إن لم تكن قد تشربكت في بعضها البعض.. أمسك جمجمتي بين يديَّ، وأستشيره:

ــ"لو توجد مواصلات الآن، لذهبتُ لصنعاء توا.."ــ

-"ماذا.. تـُـراك تمزح.. أي مواصلات؟ أنت لا تعـرف الـبلاد هنا، يا شيخ.."ـ

الكلاب تعوي.. أصوات متقطعة لمدافع رشاشة تتناهي من مكـان بعيد.. برقتْ كشافات سيارة من فوق تلة ثم انطفـأت. يحـث السـوري الخطي وكتفي تحتك بكتفه غير مطمئن. حفيف ثوب وراءنـا.. وراءنـا خطوات تتعقب طريقنا في إلحاح؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

نمت جواره علي سريره الوحيد.. نمنا ثلاث أو أربـع سـاعات.. أيقظني فجرا. صلينا تحت سقف حجرته الملحقة بمخزن تابع للمدرسة.. صلينا.. سلمنا.. جلسنا نتجاذب أطراف الحديث.. أخيرا هـدر محـرك السيارة.. طرقَ سائقها على نافذة الغرفة منبها لساعة الرحيل:

ـ"يا شيخ نبيل.. جهِّزْ نفسك!"ـ

.. وكان هو ذاته أحد الساهرين معنا في ضيافة العمدة.. يضع يديه الدقيقتين فوق مقود السيارة متوغلاً تاركا وراءه سحب العجـاج وأيـدي الرعاة ملوحين من أطراف الطريق.. كان رأسي يموج بصور شتى لـم يزل، كأني أحمل فوق كتفي قدرا يغلي بطعام لا يريد أن ينضـج أبـدا.. ربما لأني قضيت ليالٍ بطولها دون أن يغمض لـي جفـن.. تمـدد الأخ السوري علي السرير بجواري، وقبل أن يغرق في النوم أخـذ يسـتعيد أيامه القديمة.. أيام عبور الحدود من سورية للبنان؛ وكأنه الحبوني نفسه يجتاز السلك الشائك بين السلوم وإمساعد.. نامَ إذن..

أراحَ رأسه فوق الوسادة، فبدت صفحة وجهه الأبيض باهتة خـلال الظلام.. هنيهة، ويستحيل لوجه أسمر يغطيـه شـعر رأسـه الأسـود الكثيف.. كأنه غريب ذاته قد عاد لتوه من الجبهة لينام ملء جفنيه هنـا.. فما الفارق، جبهة على قناة السويس، وأخرى على مشارف بيروت.. فما الفارق إن كان غريب مصري من منطقة فايد شرقي الدلتا، وهـذا الأخ سوري من منطقة ركن الدين الدمشقية.. كان كلاهما يمضي تحت جـنح الليل.. إلي خلف خطوط العدو:

ـ".. كان معي خمسة من حلب وحماة وحمص.. قلنا فلنواجه اليهود، ولم يكن معنا سلاح.. قلنا قد نجد سلاحا في مكان ما، وبهذه الطريقة تسللنا إلي الضواحي الجنوبية لبيروت.."ـ

.. كان السوري ومن معه من الأخوة قد فشلوا طيلة أسبوع كامل في الحصول علي أي قطعة سلاح.. معهم سكاكين، نعم.. معهم عصي، نعم.. لكن ماذا يفيد كل هذا أمام أرتال الدبابات، والمصفحات الإسرائيلية التي تعبر الطرق متوغلة نحو الشمال.. تحميها الطائرات من السماء والمدافع من الأرض. هكذا يقضون يومهم تحت بقايا أجمة معتصمين بتلة محروقة بالنابلم.. وفي الليل يعودون بالأخبار إلي النساء والأطفال الذين اتخذوا من بطن الوادي القريب ملجأ.. أما الرجال فلا يعلم إلا الله إن كانوا قد قضوا نحبهم، استشهدوا.. أو أنهم سيعودون يوما ما..

كان وجه المعلم السوري مرعبا وهو يلوي شفتيه فوق الوسادة قرب وجهي.. كأنه يتحدث لسقف الحجرة حديث رجل يحتضر:

ـ".. كنا نقضي النهار تحت تلك الأجمة المحروقة فنرى الشاحنات العسكرية الإسرائيلية تنطلق صوب بيروت.. أتعرف حديث النبي صلى الله عليه وسلم.. الذي.. أنظر.. لقد شاهدتُ في ذلك اليوم اليهود، وكأنهم أكَلَة يتداعون على قصعتهم.. وكانت تلك القصعة بيروت. أنت تقول إن الجندي غريب كان مثل شبح أو كالمارد الذي لا يقهره أهل الأرض؛ خاصة إذا كانوا من اليهود المحتلين.. نعم.. لقد حاولنا نحن ذلك. فماذا يفعل خمسة طلاب مجردين من السلاح.. لم يتلقوا أي تدريبات في تلك الأيام.. لقد حاولنا؛ تسللنا أولاً من الجهة الشرقية.. قلنا فلندخل من مستديرة شاتيلا.. هل تصدق أن الدبابات الإسرائيلية كانت تقف كأنها في انتظارنا. ثم حاولنا مرة أخرى المرور خلال مسالك تقع بين مستشفي عكا وشارع بير حسن.. هناك وجدنا أيضاً المدافع تترقبنا.. المهم أن بيروت كانت مثل القصعة تماما.. كان اليهود جائعين.. لم يكن لنا من سبيل غير الانتظار فوق تلك الأجمة. نجلس.. فوقنا ما تبقى من

أوراقها تهفهف برخاوة تحت نسمات سبتمبر.. كان الهواء يصل من هناك معبقاً بالبارود بالدم.. كان فريق ممن تمكنوا من الهرب يلهثون نحونا.. تجاوزوا الشجرة دون أن يلحظونا منحدرين إلى الوادي خلفنا.. تعالت صرخاتهم عندما التقوا النساء والأطفال المعتصمين هناك.. أخذوهم في طريقهم.. واصلوا جميعهم الفرار.. لم ندر حيث وجدنا أنفسنا نجري معهم.. كانت هناك قرابة عشرين امرأة، وثلاثة من الرجال كبار السن، ونحو سبعة أطفال.. تقطعت أنفاسهم.. تقطعت أنفاسنا.. سقطنا مرة واحدة. ماذا حدث.. سألنهم. يقتلون كل حي هناك حتى المستشفى أشعلوا فيها النار.. يقتلون كل حي. صرخنا مذعورين، مَنْ.. من يقتلهم. القتلة.. أجابوا، وحينذاك حوّمت الطائرات الإسرائيلية فوقنا، فجرينا عائدين مع جمع المسنين المذعور إلى الوادي حيث الأجمة المتآكلة بلا تفكير كنا، وكانوا.."—

28

كان المعلم السوري المتواري في بلدة عمران اليمنية يقتات على ذكريات صباه في ركن الدين وشوارع دمشق، يبحث، مثلما كنا في مرسى مطروح، عن طريق للوصول إلى جبهة حرب ضد أعداء الدين الجاثمين على عكا ويافا والقدس والجولان.. كان يعلم مثلنا أن لا جبهات هنا ولا طريق إلى هناك غير أسلاك وبنادق حرس وممنوع ممنوع ارجع.. كان يستشعر، مثلما كنا نستشعر، أن يدا تدفعه إلى الأمام، وخطوات تسير خلفه تتبعه أينما حل منذ قدم للحج بمكة.. منذ قرر عدم العودة إلى دمشق.. منذ عبر إذ عبر لليمنين، فاستقر به المقام في اليمن الشمالي المعادي لليمن الجنوبي.. هنا وقف في طابور طويل لفتية شماليين وفارين من الجنوب ملتحين جميعهم في ثياب وجبابي وحمّاديات مائلة على رؤوسهم فالتحق هناك بشبيبة الشيخ الزنداني لمحاربة الشيوعيين في أفغانستان.. وبعد أن عاد من جبهة القتال لم يكن ممكناً بأي حال السفر إلى الديار.. إلى ركن الدين.. إلى أمه التي تشبه أم الحبوني.. عزل نفسه في تلك البلدة؛ بلدة عمران حيث لا يعرفه أحد ولا صلة له باليمنيين العائدين مثله من الجبهة السوفييتية.. قال فخذ اليوم حذرك إن اليمن مرصودة بأعين عربية وأعجمية تراك ولا تراها حتى لو كنت من قبيلة المراقشة حتى لو أنت كنت ممّن واجهوا الموت وحدقوا في سحنته المخيفة المرعبة تحت قذف قنابل طائرات الروس تحرق جبل خوست فإذا المراقشة ينفضون عن عمائمهم غبار القصف والدخان يتحلقون مساء حول الشيخ الفضلي فإذا أغار المجاهدون بغارتهم الأخيرة شدوا الرحال عائدين للجهاد ضد شيوعيي اليمن ورعايا الدول الأعجمية الكافرة من أمريكان وصهاينة، فابعد واهجر هذي المجاميع من خليط يمنيين ومصريين وليبيين وسعوديين لا موطن لك اليوم إلا بلدة عمران فيها تلقي دروس الجمعة وتطعم من رزق الله وتبيت بعيداً عن عيون وفوهات بنادق وتحقيقات وغرف حبس.. فهل

استشهد اليوم الأخ المجاهد أبو المحضار أم إن الذي استشهد كـــان الأخ المجاهد أبو رأسين.. فمزق جواز سفرك؛ احرقه.. فإن سألك سائل اليوم فقل إنك من جماعة الشيخ عبد الله الأحمر خطيبا ومعلما لا تملـــك غيـــر قول الكلام وقول الكلام كما نزل في كتاب الله وورد في سنة نبيه.

أيقظني السائق وسط صنعاء..

ترجّـلتُ منهك القوي للبيت..

استلقيتُ على السرير لكي أنام، ولا أنام..

أسدلتُ الستائرَ الأنوار أطفأتُـها في البطـاطين تـدثرتُ جسـدي أعصرُهُ بالفراش وحدي أحاولُ أن أنامَ فلا أنام أمامي أرى الأخ السوري يجري بين الجثث مخترقاً شارع جمّال فشارع جلــُـول يـدفعُ بمنكبيـه النساءَ النائحات الباحثاتِ عن أبنائهن ينقبنَ أكوامَ الجثث داخــل الملعـب البلدي من مستديرة الكولا لطريق كميل شمعون يلهثُ متقطــع الأنفـاس متعثرا في الأذرع خلفــهُ الأرجُلُ قـُـدامـه الرؤوسُ مبعثـرةُ مــع الأحشاء الآدمية إنَّ عربات الإسـعاف تسـتديرُ مولولـة وراء المدينـة الرياضية قادمة من المخيمات تجتازُ طريقها للمستشفيات فـي بيـروت الغربية فالشرقية لتعوذ مولولة مجددا عبْرَ التلال الرملية تختفـي هنـاك حيث المخيمات فما منْ أحدٍ يدري هل أفرغت حمولة الجرحى أمْ عادت بهم لمستشفي غزة المهدمة عند القطاع الجنـوبي لشـاتيلا تجـد دمـاء الأطباء قد جفـّـتْ في التراب تحت العيون الشاخصة للممرضات قـد تمَّ قتلهم مبكرا فأجداثهم كومة كبيرة من الأردية البيضاء الملطخة ألقاهـا البلدوزر جانبا..

أتقلبُ فوق السرير.. أقول إن هذا اليوم الذي دخـل فيـه المعلـم السوري بيروت صبياً، يفوق جميع الشهور التي قضيتها فـي خوسـت وفي سهول المأسدة. فأين كنتُ أنا وسيد أيام غزو بيروت.. أخطبُ أنـا على منابر مساجد الفتح وسيد يجلسُ راضيا مطمئنـا بمقدمـة صـفوف المصلين.. هذه الجمعة في مرسي مطروح، والجمعة التاليـة بالضـبعة،

والتي بعدها في ضاحية بولكلي، وبعد ذلك بالمدينة الجامعية بالزقازيق؛ ثم في السجن..

هذا ما كان.. حيث حادثة المنصة مازالت طازجة. وإذا أُفرجَ عني أسبوعا أو أسبوعين، فهذا يعني أن الباب سينخلع من مصراعيه بالقوة فجرا، وأجدني بصندوق الترحيلات، مرة إلي طُرة.. وأخرى لأبي زعبل.. فمن كان يجرؤ على إلقاء القبض على سيد. يعتصم بأهله في مرسي مطروح.. أعتصم أنا بجدران غرفة الحبس الانفرادي.. أما السوري فلم يكن يعرف حينذاك أين فقد فردة حذائه.. طالبٌ غرٌ جاءَ ليجاهد ضد اليهود.. فانتهى أمره بالجري وسط أكوام الجثث.. وفي الليل ينتهي في قعر ملجأ مظلم يئنُّ حوله الثكلى والجرحى.. يثغو في أذنيه اليتامى.. من فوقهم يتناهى صوت طلقات الرصاص، وانفجارات الهاون، وأزيز الطائرات. إنه الليل.. تتحرك تحته فرق المقاومة من جانب، وجماعة العملاء من الجانب الآخر. إنه وقت تصفية الحسابات:

ـ"أنظرْ إنْ كان الباب مغلقا. لا بد أنْ نتأكد منْ أنَّ البابَ موثق القفل.."ـ

يقول السوري ممددا جواري.. أري جانب وجهه خلال الظلام كأنه يتطلع إلى بيروت فوقنا.. يتحدثُ لسقفِ حجرتِهِ حديثَ رَجُلٍ يحتضر:

ـ".. في الصباح بدأ سكان الملجأ البحث عن ذويهم.. فتحنا الباب.. صعدنا للأرض.. استقبلتنا أسرابُ الذباب الأزرق الكبير بطنينه المقزز. الكلاب أصابها السعار من كثرة ما أكلته من اللحم البشري المُلقى بلا حساب في الشوارع.. في باحات المدارس في المساجد والمستشفيات.. يجري سكان الملجأ.. أهربُ معهم، إلي أين.. لم يكن هذا السؤال ليخطر ببالي.. صفٌ من البيوت عند المدخل الجنوبي للمخيم.. صفٌ من البيوت الصغيرة كانت قد انهارت فوق أصحابها منذ أيام.. اقتلعتها قذائف الطائرات من أساسها.. هناك خليط من الأوصال المتشابكة.. تبدو منها

رؤوس كبيرة وأخرى صغيرة مزينة بشرائط الضفائر الملونــة.. خــدود أطفال.. بنات وأولاد.. هناك فتشنا بين جثث لخمس نساء تحتضـــن كــل منهن وليدها.. واحدة مستلقية على ظهرها مقطوعة الحلمتـين بجوارهــا ابنٌ صغيرٌ في سروال أزرق وتي شيرت أبيض مغطى بالدم والتــراب.. وأخرى هنا مقطوعة بلا رأس تحتضن جسد ابنتها.. كانت البنت بــدون رأس أيضا.. رأس البنت ملقاة في جانب بدون عنق.. يبدو أن الســونكي قد اجتزه من تحت الذقن مباشرة. كان شعرها معقوصاً.. فمها مزمومــا في غضب.. كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما.. أحيانا نعثر علــى بعض الأحياء.. كانت هناك امرأة شابة تضم صغيرها بــذراعها منكبــة على وجهها.. طفلها يدكُّ رأسه تحت إبطها.. هي تتشبث بالأرض كأنهــا ستنهض الآن.. وقفتُ أحدقها لحظة ثم اندفعتُ أهزهــا.. قلبتهــا علــى ظهرها.. وجهها ووجه وليدها مهشمان تماما.. حتــى عظــام الفكــين.. الخدين.. الأسنان.. عظمة الأنف.. كل ذلك.. أنظر كيف.. كان كل حي يصل جنوبي المخيم يصرخ من الهول.. أنت تقول إن بحيري.. حالتــه يعني مثل كسر العظم الذي إذا قارب أن ينجبر انكسر من جديد.. انظــر كيف كانت الأحوال.. من أول المقر المهدم لمكاتب منظمة التحرير، إلى داخل أنقاض منازل اللاجئين، مرورا بمبنى جامعة بيــروت الغربيــة.. أنظر كيف كانت الأحوال؛ فترى أكوام جثث مختلطة بحافظــات نقــود فارغة بهويات القتلى الملطخة بالدماء مختلطة بالأعيرة النارية الفارغــة بالأوراق الملونة التي كانت تغلــف شــرائح الشــيكولاته.. شــيكولاته، وأعيرة فارغة عليها كتابات عبرية.. كلها مصنوعة في إســرائيل. كــان آخر ما شاهدتــُـــهُ في بيروت امرأة مكومة داخل مطبخ منزلها. امــرأة كانت حامل. بطنها مشقوقة.. الجنين ناقص النمو مشوها بالطعنات ملقى تحت حوض غسل الأطباق؛ فانظر كيف كانت الأحوال.."ـ

وحدي تحت ليل صنعاء أحاول أن أنام، ولا أنام..

أتدثر بالأغطية. جسدي على السرير ينتفض. أرى أمامي وجه الأخ السوري ينطفئ فوق الوسادة بجواري تحت سقف الغرفة..

لن أعود إلي هناك ثانية.. ثم أردُّ بلا؛ لابد أن أذهب. إلى أين. لمرسى مطروح.. آه. أرمي الغطاء عن رأسي. أكتب رسالة لوالدي؛ فلم يعد هناك ما أخافه، أو هذا ما أظنه الآن..

أذّن الظهر في مسجد الحي.. هزّ جدران الشقة، فنهضتُ خائر القوى. تناولتُ لقيماتٍ من معجون الجبنة بالطماطم قبل أن تتتابع الطرقات الشديدة على الباب:

ـ"افتح.."ـ

دخل ثلاثة ضباط يمنيين مشهرين سلاحهم في وجهي وفي وجه باب المطبخ والحمام المجاور لغرفة النوم.. ومن ورائهم سدت زُمْرَة من الجنود المسلحين منافذ الشقة جميعها:

ـ"أين كنت نهار أمس، وليلة البارحة؟"ـ

ـ"في بلدة عمران.." ـ

-"نعم.. ما هي علاقتك بالسوري المقيم هناك؟"ـ

ـ"كان زميلاً في المدرسة التي أعمل بها؛ خالد بن الوليد الثانوية هنا، قبل أن تنقله الإدارة لتلك البلدة.."ـ

ـ"هل تعرف مكان عاصم؛ عاصم الجرجاوي؟"ـ

و قدم لي المحقق صورة قديمة بالأبيض والأسود. كانت تحمل وجه سيد.. صورته تلك التي التقطها له مصور الاستديو في شارع الإسكندرية بمرسى مطروح قبل نحو خمس سنوات.. لقد استخرج بها بطاقته الشخصية.. وها هي الصورة عليها مسحة من مهابة، بعد أن تداولتها أيدي المخبرين والمحققين.. شاب ملتح لم يتجاوز الثلاثين من العمر له ملامح رجل غاضب يحدق بعينيه الواسعتين، ويضغط شفتيه متحفزا. هو سيد ذاته بشحمه ولحمه وياقة ثوبه.. ثوبه القديم:

ـ"لا؛ لا أعرفه.. "ـ

ـــ"و مكان كرم.. هل تعرف أين هو كرم السُني؟"ـــ

و دفعَ لي بصورة أخري ملونة فيها وجه مخرجنا الأصلع، وقد أطلق لحيته، وبدا لي أكثر صفاءً أكثر وضوحا مما كان عليه أيام بروفات الفرقة المسرحية، بيد أنه كان حزيناً مجهداً وطاعنا في السن:

ـــ"لا؛ لا أعرف أياً منهما.."ـــ

ـــ"يعني أنت تريد أن تؤكد لنا الآن أنك لا تعرف عاصم، ولا كرم.. أنظر جيداً؛ لابد أنك التقيت أحدهما في مكان ما بمصر.. في باكستان مثلاً أو بيشاور أو أفغانستان.."ـــ

ـــ"أنا لا أعرفهما، ولم أذهب لبيشاور أو أفغانستان من قبل.."ـــ

ـــ"حسناً. تعالَ يا مطوع، وستعرف.."ـــ

بعد أيام من الاعتقال وجدتُ عند عودتي للمدرسة رسولاً جديداً يستدعيني للسفارة.. ثم، بعد ذلك، أرسل مدير المدرسة الأمريكية خطاباً يستحثني لتوقيع عقدَ العمل لديه. أما في الطرقات، فكانت المظاهرات لا تتوقف:

ـــ"يا صدام سير سير.. يوم اللقيا في عَسير.."ـــ

.. ومع نهاية الشهر كانت المرتبات قد انخفضت إلى النصف، والملاحقات ازدادت أضعافاً مضاعفة:

ـــ"هل تعرف كرم. أين يكمن عاصم.. هل التقيت بأي منهما في اليمن؟ منذ متى تعرف المعلم السوري وكيف؟ كم مرة زرت بلدة عمران، ولماذا؟ هل سافرت لأفغانستان قبلاً؟"ـــ

.. فإذا مررتُ في الطرقات نحو المسجد أو تجاه البيت استوقفني اليمنيون المسلحون بالإهانات، وقلة القيمة:

ـــ"تـُرَى المصريين دخلوا صنعا بلا غُسْل.."ـــ

و ينهره صاحبه:

ـــ"إسكاا.. إسكاا..."ـــ

ما شأني أنا في أن تعبر حاملات الطائرات الأمريكية قناة السويس أو لا تعبرها..

كانت عينا اليمني المسلح تلمعان خلال الظلام. وأمامهما يبرق السونكي، فيما إصبعه على الزناد:

ـ"سأضرب المصري هذا.."ـ

يقول مهددا، ويواصل شتائمه:

ـ"تُرى المصريين أصدقاء للأمريكان واليهود.."ـ

الأجور تنخفض للحضيض، والمظاهرات تزداد عنفا..

تعليمات من السفارات لرعاياها. ممنوع الخروج بعد المساء. كان المسلحون هم الخطر الكبير. أما الحكومة فماذا ستفعل إنْ تدخلت غير التحقيق وتسويد الورق..

لقد تكفّلتْ هذهُ الحيل بما لم يقدر عليه رجال التحقيق المصريون والأمريكيون واليمنيون.. رعدة تهزُّ بدني إذا حل المساء.. أدفن جسدي بالفراش.. أعصره، فينتفض متفصداً عرقاً. هذا ما عدت به من بلدة عمران.. وهذا ما جنيته من صراعات العرب المؤيدين والرافضين لصدام حسين وقواته المتمركزة على مشارف الخليج..

جمعتُ مدخراتي في ثمن تذكرة.. متعلقاتي حَزَمْتُهَا داخل حقيبة سفر صغيرة. إلى المطار؛ إلى شوارع مكة..

كيف يكون عاصم هو سيد، وكرم هو المخرج الأصلع. لقد خَرَبَ المحققون رأسي بالتُرّهَات، أو ربما كانوا جادين بطريقة ما..

بين مقاعد الطائرة أتلفتُ..

رعدة تهز بدني..

أُدفن جسدي في المقعد.. يتهاوى مني على جانب الحائط بجوار الرصيف قُرب الحرم.. رواد التكايا يُلقُونَ بفضلات الطعام، وفي الليل أجمعها. عدد التكايا يزداد مع اقتراب موعد الحج، وتزداد أكوام الفضلات. الجلابيب تمر، وتمر السراويل:

ـ"أيش هذا؟!"ـ

حلّــقــت الطائرةُ فوق المزن، وفي النهاية هبطت فــي مطــار لاجوس..

كانت السيارات الدبلوماسية تنتظرني، فما أطيب أن تكون أوراقــك مذيلة بخاتم شعار رابطة العالم الإسلامي..

هنا، حيث إفريقيا.. أبعد نقطة عن جبال جاجي ميدان؛ لكن المشكلة في التقارير والتحقيقات.. في جمع المعلومات الذي لا يتوقف..

كان الضابط ببنطاله الأسود وقميصه الأبيض يمد يده. يعيــد لـــي جواز السفر، وتذاكر استكمال الرحلة من مطار القاهرة للاجوس، وهـــو يقول لي إنه يعرف، وإننا سنلتقي مرة أخري:

ـ"يعني لم تسافر أبدا إلى أفغانستان. طيب؛ طريــق الســلامة يــا شيخ.."ـ

سنلتقي مرة أخرى.. يعني متى؟ أتساءلُ، وأنا مستلق فوق سريري الوثير في الطابق الثالث من مبنى السفارة السعودية. وفي الصباح أبــدأ الاستعداد لندوات الظهر. ولا أضطر للتغيب خارج السفارة معظم النهار إلا في أيام الجُمع.. أو في أوقات الــرحلات بأفنيــة المــدارس أو بــين أشجار الغابات المفتوحة ووحوشها..

سنلتقي مرة أخري.. كيف يكون؟ أتساءل، وأنا في طريق العــودة لمقر الرابطة بمكة. لقد ترددتْ كلمات الضابط في رأســي. دوّتْ فجــأة حينما سلمني موظف الرابطة ورقة تفيد بعدم التجديد لي. أي لــم أعــد داعية رسميا بأي حال..

لم يناقشني أحد في الفقه أو الجهاد أو الشــيوعية أو الأمريكــان أو اليهود؛ هكذا فقط مجرد ورقة مثيرة للدهشة..

هناك خطر في شمالي البلاد اسمه صدام حسين.. هذا من جانب.. وهناك بلاد كان اسمها الاتحاد السوفييتي، معقلُ الشيوعية.. انتهتْ.. هذا من الجانب الآخر؛ فلأي شئ تستمر الدعوة، وما الجدوى من أية قضــية

أخرى إذا كان رجال الرابطة يبحثون معالجة الواقع الجديد؛ الأمريكان.. إنهم يتوافدون بالطائرات والسفن، لدرجة أنك في بعض المناطق قد يُخيل إليك أنك في صحراء نيفادا، لا بيداء العرب..

كانت حافلات المعتمرين وسياراتهم تحمل لوحات سورية ومصرية وليبية وغيرها..

وجوه لرجال وسيدات.. سحنات سمراء داكنة وسمراء فاتحة.. عيون تحدق تحت الرموش الطويلة في الفراغ الشاسع لجزيرة العرب القاحلة!

هاهم اليوم في مواكب مزدحمة يتوافدون على قبر النبي صلي الله عليه وسلم..

أرقبهم يتدافعون بعضهم أثر بعض. أرفعُ رأسي للأفق هناااك؛ حيث لابد أن حاملات الطائرات.. البوارج والغواصات مازالت رابضة تسد الشمس عن الخليج العربي، بينما الغارات تتواصل على بغداد.. إنْ لم تكن الليلة، فلا ريب في الليلة التالية..

هل جرَّب أحدكم العيش في بلد مهزوم وسط أناس يمشون دون أن يعرفوا لهم وجهة؛ إذنْ إلى أين المفر..

عَبْرَ شوارع جدة أترجلُ.. أمشي في شوارع مكة بلا هدف. فأي معلوماتٍ وصلتْ للرابطة كي تنبذني وحيدا هكذا. ربما كانوا يريدون تخفيض النفقات. أسألُ الأخوة المصريين الذين أعرفهم بالسعودية. هل عادَ أحدٌ من مهمة الدعوة في بلاد إفريقيا أو أسيا مثلي؟ لا.. كلٌّ يعمل حيث تقرر له. فلماذا أنا؟ هل كان عاصم الجرجاوي هو سيد.. وكرم السُّني هو مخرجنا الأصلع. حتى لو تم القبض عليهما، فأي شئ يعرفانه عني.. عن الجهاد على الجبهة الأفغانية. لكن كيف تبدّل المخرج لذلك الحد. لا شكَّ أنه مرَّ بطرة.. أو استقرَّ بأبي زعبل. لا بد أنه حاول العودة لقصر ثقافة مرسى مطروح، فلم يجد من فريق التمثيل فردا، حتى إذا رآه مدير القصرْ القصير السمين اعتذر له في أدبه المصطنع ذاك

عن تجميد ميزانية المسرح.. عن ضياع مفاتيح باب قاعة البروفات.. أحسَن. لقد استراحَ المخرج إذنْ.. وضع قدميه أخيرا على الطريق القويم. لكن كيف تبصره الآن؛ جهاد أمْ إخوان أمْ سلفي أمْ تكفير وهجرة..

إنَّ رجلاً يفقد ابنه وزوجته ورتبته ونياشينه.. إنَّ رجلاً يفقد نصَّهُ المسرحي وأبطال العرض.. إنَّ رجلاً يكتشف أنَّ حربه الكبرى ألقت به للشارع وحيدا عاريا باردا.. إنَّ رجلاً على تلك الشاكلة لا يمكن أن يكون إلا بعينيه الدامعتين منتحبا خاشعا جالسا في صفوف المصلين يتمتم بما يحفظه من الدعاء.. باللهم إني ظلمتُ نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم. وحينئذ قد يبكي لأنه أضاع صورتين مغبرتين، واحدة لامرأة تجلس بمقعد أخضر الحواف فستانها أسود على رأسها منديل أحمر، والثانية لطفل يبتسم مشيرا بيده محييا. فجأة يجلجل صوت خطيب الجمعة من فوق المنبر.أ كان هو نفسه مخرجنا الأصلع بلحيته واقفا يخطب في الناس:

—"إن الحمدَ لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وسلم، ورضي الله عن آله وصحابته ومن اهتدى بهديه وسلك طريقه إلى يوم الدين؛ أما بعد.."ـ

كان المعتمرون يتوافدون على المطارات والموانئ..

تمرق بهم سياراتهم الخاصة والأجرة..

فلتجرِّب العيش ببلد مهزوم..

و قُـلْ أين المفر..

أقفُ على مفارق الطرق في جدة.. في مكة محاولا التواري داخل المواكب المزدحمة..

قرار الرابطة لم يأتِ من فراغ، وها هي الأقدام تتعقبني وقد ازدادت عدداً؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

سألت الأخ المصري الذي يتحدث عن الإسكندرية كأنها شقيقته:

ـ"ماذا يريدون مني؟ تحقيقات بلا نهاية.. أريد أن أحيا بسلام معلماً في أي مدرسة؛ لكن لا يمكن أن أعود لمصر.. التحقيقات هناك أسوأ.."ـ

لقد انتشلني هذا الأخ السكندري من الموت.. من وسط تكايا الحجاج.. أرشدني للعمل داعية من دعاة الرابطة.. ها أنا الساعة أعود خائب الرجاء أجلس إلى المائدة نفسها وقت الغداء.. زوجته في الداخل تعد الشاي.. هو مُنْكَبٌّ يلتهمُ أوراكَ الدجاج المشوي من بين أطباق المخلل المثيرة.. يرفع عينيه من تحت حاجبيه الكثيفين كأنه يعرف كل شيء.. كل شيء، ومع ذلك يسأل:

ـ".. ولماذا تظن أن هناك من يتتبعك؟"ـ

ـ"أظن؟ إنها الحقيقة؛ الحقيقة بعينها.."ـ

دفعَ ما تبقى من الدجاج المحروق جانباً.. قال:

ـ"سوف تكون هناك ملاحقات واسعة لكل من كان في أفغانستان. هل أنت كنت هناك؛ مع مجموعة كرم وعاصم؟"ـ

.. وعلي الفور أجبته:

ـ"لا.. "ـ

و يقيني أنه رأى ظلالا من الكذب على شفتيّ. لقد كان يعرف كل شيء.. كل شيء:

ـ"العمليات في مصر كانت شديدة.. أربعة تفجيرات خلال ثلاثة شهور.. تُراك ما قرأت الأهرام. ثمة تقرير نُشِرَ الأسبوع الماضي عن خسائر السياحة؛ مليارات. وفي هذا الشهر وحده أطلقوا النار علي ثلاثة ضباط كبار بالصعيد.. قتلوا واحداً. تُراك ما قرأت الأهرام. ثمة اتصالات بين الدول العربية.. ربما سيتم الاتفاق على تحديد

نوعية التهم التي تنتظر العائدين.. الاشتراك في جيش دولة أجنبيـــة، أو شئ من هذا القبيل.. قد يـُـعـــقـَــد مؤتمر لــوزراء الداخليــة فـــي تونس قريباً لأغراض مشابهة.. هل قرأت عن الأفغان العرب العائـــدين في جريدة الأهرام.. ألقوا القبض على خمسة تسللوا من الســـودان لليبيـــا عن طريق درب العوينات.. مصريون؛ لكن مصر لم تتســـلمهم بعـــد.. ومن هنا، من السعودية، تم ترحيل مصريين آخرين ثبت عـــودتهم مـــن أفغانستان للمملكة.. غزو الكويت قـَـلـَـبَ الدنيا رأسا على عقـــب.. ستجد الخطوات وراءك أينما ذهبت إذا كنت ممن جاهدوا مع المجاهدين هناك، وأنت تقول إنك لم تدخل أفغانستان أبدا.."ـــ

قلتُ موثقا كلامه:

ـــ"أبدا.. أبدا.."ـــ

ـــ"حسناً. فلماذا تظن أن الخطوات تلاحقك أنت بالذات؟"ـــ

29

-"لا تبكِ؛ فأنا أيضا سأموت، وأذهب لوالدتك في الجنة حيث شجرة النبق الكبيرة.."-

طمأنتني أم سيد ضمتني مع ابنها داخل حضنها الدافئ الآمن.. الشمس في ذلك اليوم تطل واهنة ترسل ضوءها الخافت من جانب السماء. وعلى الرغم من الزحام وضجيج السيارات بوسط مدينة مرسى مطروح، كان هدير موج البحر يدوي في أذنيَّ.. أمشي جوار سيد حتى.. إذا اقتربنا من محل والدي انحرفنا في اتجاه آخر خوفا من أن يراني فيوبخني على صحبتي لهذا الولد البدوي الماكر كما يحب أبي أن يزمجر غاضبا.. كان سيد صبيا مشاغبا لم أتمكن من فهم مراده حيث كنا صبيين لم نزل.. إذا غضب تتدفع الكلمات الخشنة من فمه لا أفهمها إلا اجتهادا.. يجلسني أمامه في حوش منزلهم، ليطوي بأصابعه الأسلاك المعدنية؛ فتخرج من بين يديه فخا لصيد الطيور:

-"عليك أن تشده هكذا.. تضع الدودة، الطُعْم، هنا.. تشبك صفحته العلوية للخلف، ثم تغطيه بالتراب؛ تجعل الدودة فقط هي الظاهرة وحدها.."-

سيد يعرف كيف يلقي الأوامر.. يعطيني دروس الصيد.. تحديد أماكن الطيور وما تفضله من أنواع الطعم وأنواعه من دودة أبو دفيس الذي يشبه الجعرانة المسخوطة الطرية، إلى الجواعير الصفراء المتلولبة.. ننطلق مبكرين لمنزل فايزة.. نوقظ والدتها من النوم، فتغلق في وجهينا الباب.. دائما ترفض حتى السماح لها باللعب معنا.

السحب البيضاء تمسح وجه السماء مزينة بخيوط الشروق تنسدل على الأرض فوقنا تزقزق الطيور فرحة بطلوع اليوم الجديد فكنا لها بالمرصاد ننصب ناطورا نواري جواره الفخ بالتراب ثم نبدأ مرحلة جديدة متعبة يتصبب سيد عرقا وراءه أجري كأننا في معركة نزحف نستحث طائرا مسكينا قد صدقنا أخيرا يفرد جناحيه قافزا من كومة

حجارة لأخرى مستجيباً لندائنا اللحوح رَكَـــزَ على الناطور فماذا يجـد أمامه غير وليمة تتلوى فينتفضُ فرحاً يريدُ شُـكْـــرَنا قبــل أن يضـم جناحيه هابطاً بمواجهة الدودة في اللحظـــة التــي يمــد فيهــا منقــاره البـُـنـيــي الحاد ليشدَّ الطعم ينطبق على رأسه الفخُ المعدني المرعــب نرى التراب يتطاير بينما يتخبط هو بجناحيه مذعوراً غير قــادر علـى الفكاك..

من الصبح للعصر نطارد كل طير ألقتــه المقــادير فــي مزرعــة الزيتون المشرفة على العزبة الغربية، ولم يكــن لهــا أي مهــرب.. إذا اتجهتْ جنوباً أفزعها ضجيج المطار.. وإذا رفرفت نحو الشمال وجــدت أزقة العزبة الغربية وأولادها الشياطين وكلابهم النابحة الجائعــة.. مــاذا للطيور إذنْ غير أن ترفرف من زيتونة لزيتونة.. من نــاطور لآخــر.. ولا تكتشف طريق الهرب إلا بعد يومين أو ثلاثة من دخولها المزرعة.. هكذا كانت تجد ملاذها في المدى القاحل الأجرد حيث تطلــق لأجنحتهــا العنان تحلق فوق وهادِ وادي ماجد المجدية، وتحت سماء سيدي يــونس خلف المنحدرات السوداء غربي المدينة..

أهْــلُ سيد، منْ جهة الأب أناسٌ أشداء يعيش معظمهم في مواضع متفرقة من الصحراء. تجد له أولادَ عمٍّ مــن أطــراف البحيــرة حتــى السلوم.. لم أفهم لماذا كان والده يحتقرني.. أو هكذا كنت أظن منذ البداية حين ينادي ابنه غاضباً:

-" يا سيد.. الوليد المصري يريدك.."-

و فوجئت به إذ يمد يده الكبيرة ليربت على كتفي.. كان ذلك بعــد وفاة أمي.. يبدو أنني كنت منكسراً حينها أو مثيراً للشفقة بشكل ما.. ولد صغير في الصف الخامس الابتدائي.. ابن خياط وأمه ماتت، ولا ينتمــي لأية قبيلة.. كان والد سيد يردد بلا شك قائلاً يا للعار! ومن أجلي نهــرت أم سيد زوجها في مساء يوم حزين.. في الصيف، وشوارع وسط المدينة مزدحمة بالمصطافين العائدين من الشواطئ القريبة مبللين بمــاء البحــر

مبرقشين بالرمل كانوا، وكان أذان المغـرب يخـتلط بزقزقـة طيـور الزرزور داخل جذوع أشجار الأثل الممتدة لما فوق البيت؛ بيتنا السـاكن سكون القبر.. خفتُ إذ أجلس بغرفتي وحدي أقرأ.. فجأة وجدتُ الظـلامَ يزحفُ من النوافذ والأبواب.. ارتعشتُ.. ارتعدتْ أطرافي.. على الفـور اخترقتُ شارع الإسكندرية متوجها رأسا لمنزل سيد.. أعرف أنه لم يعـد بعد من رحلته الصيفية التي يقضيها عند جده وجدته. طرقت الباب فـإذا انفتح صاح رب البيت مشمئزا من صورتي الباكية:

-"هذا الوليد المصري، يريد سيد.."-

هنا نهرتْ المرأة زوجها.. خرجتْ.. أخذتني بين ذراعيها. كانـت تدافع عني:

-" هذا وليدي. وليدي أنا. تعال.."-

لم أكن جائعا. وضعتْ أمامي قِدرا كبيرا من الأرز الأحمر وقطعـة لحم تستحثني أنْ كُل.. هذا غداؤك.. سيد خذه جده لسيدي يونس زورةْ.. يا سيدي يونس خاطرك. كُل.. بكرة يجي تلعب معه.. خوك هو.."-

مرت السنوات فيما بعد، وحتى الآن أرى وجه تلك المرأة يختفـي وراء دخان أبيض، لدرجـة أننـي لا اسـتبينه إلا كوجـه أمـي أو أم الحبوني.. ملامح ملتاعة من الفراق واللوعة. ثم عندما اختنقـتُ داخـل السرداب الأسود في غرفة الحبس الانفـرادي بـأبي زعبـل اختلطـتْ وجوههن قُـدّامي يمشين عبر البراري على قرع دف الفقيه يندبن:

-"وين وين وين وليدي.. وين وين وين وليدي.."-

أمدُّ الآن يديَّ لرأسي أمسكه باليد اليسرى من الأمام باليـد اليمنـى من الخلف أهزُّهُ فوق كتفيَّ لعل عروقه تتحرك ليَـسْـري الـدَّمُ فـي معجون النخاع فيبثُّ فيه الحياة الآن عند هزيع الليل ممددا جسـدي بـلا حراك على السرير هنا في الطابق الخامس حيث الدنيا كلها تطنُّ خاويـة إلا من الظلام بل الزمهرير يملأ فمي الترابُ يسدُّ أنفي بعينيَّ لا أبْصِـرْ الحَجَرَ الصَّخري يضغطُ ثقيلاً قلبي فـأرى وجههـا الممتقـع بشـفتيها المزمومتين سألتْ:

-"سيد رائحته سجائر؛ من أين؟"-

اقتربتُ حتى شمّت دخان التبغ في ثيابي وشعر رأسي.. لم أرد عليها، فجاوبتْ هي روحها بالصمت..

لا تظهرُ الشمسُ من وراء السحب إلا لِماماً.. الريح تصفر طيلة النهار والليل.. برك المطر تغطي الشوارع.. يدق جرس انتهاء اليوم الدراسي، فنلتقي نحن الثلاثة أمام البوابة. سيد أجده هناك أولاً. أقف جواره حتى نرى خطواتها الصغيرة المتعاقبة تتقدم نحونا. هي فايزة.. حيث نقطعُ الطريق إلى العزبة الغربية سوياً. نخوضُ في المياه لنضع قطع الطوب.. قالب بعد قالب. نصنعُ جسراً لفايزة. تبتل أقدامنا إلا هي.. إذا تهاونتُ أنا زعقَ سيد يستحثني لأنقل الحجارة، وإذا نسي سيد صحتُ به. أنبهه لمهمتنا المقدسة إلى أن نسلم فايزة لباب بيتها ثم نعود لنصفي حساباتنا مخترقين الأزقة الضيقة:

-"أنت تحدثها بلهجتك المصراوية، وهي لا تفهمك.."-

يقول سيد ليبدأ العراك؛ فأرد عليه معنفاً:

-"بل هي لا تفهم لهجتك البدوية.. كما أنني لا أفهم ألفاظك إلا بالكاد.. تكلمْ مثلي ومثلها.. أحسن لك!"-

و يستشيط غضباً:

-"اسمع.. وماذا يعني إذا كانت أمها من الإسكندرية.. إنها لن تكون مصراوية بأي حال.. هي ابنة القبيلة غَصْباً عنك وعن أهل أمها وعن إسكندرية كلها.."-

صنعتْ فايزة لغتها الخاصة دون أن تدري. في الربيع تنفتح أذناها على كلمات جدتها أم الحبوني في وادي ماجد.. وفي الخريف، مع بداية الدراسة، تتشرّبُ كلمات أمها.. تنصت لمعلمي المدرسة.. هكذا كبرت، وكبرت معها الحروف الكثيرة الممتزجة.. حتى إنك تحسبها قادمة من الشام رأساً.. هي فايزة ببداوتها الخشنة ومدنيتها الرقيقة؛ فعندما صحبناها للمستشفى كان بكاؤها غريباً يمزق القلب.. ودموعها تتلألأ

وتنطفئ في شارع الإسكندرية، فإذا انطلق موكب السيارات إلى الصحراء محملاً بالرجال الغاضبين اختفت معه، وتركتنا نقف على بوابة المدرسة صباحاً نسأل قريناتها. لا.. لم تأتِ اليوم أيضاً.. نطرق باب بيتها؛ لا أحد.. قُلْ كانت المرة الأولى التي نذهب فيها للمدرسة ونعود من دون صاحبتنا.. نخترق أزقة العزبة.. نجلس على عتبة بيتها.. يقول سيد:

-"أزعق مرة أخرى.. فلنوقظهم إن كانوا نائمين.."-

-"لا.. ربما يعالجون والدها عند أخوالها في الإسكندرية حيث المستشفيات الكبيرة.."-

مات الحبوني فلم ينفع فيه علاج.. فكيف تسعف رجلاً اخترقت جمجمته طلقة رصاص.. أسلم روحه لبارئها تحت الحراسة المشددة بمستشفى مطروح العام، وترك فايزة لتكون يتيمة مثلي.. مع ذلك ظل اسمه يتردد في المدرسة طوال السنوات اللاحقة.. حتى عندما انتقلنا للمدرسة الإعدادية حين وقفنا جميعاً في اليوم الأول من الدراسة داخل الفناء ومعلم التربية الرياضية ينادي عبر مكبر الصوت على الأسماء.. كل مجموعة في حجرة دراسية محددة:

-" فايزة الحبوني سعيد؛ سنة أولى ثالث.."-

تردَّدَ اسمُها بعد غياب الإجازة الصيفية. بدت أكثر طولاً.. عقصت شعرها بشريط أحمر.. فوق كتفيها حقيبة سوداء.. تقدمتْ في مريلتها الكُحلي نحو حجرتها الدراسية الجديدة.. كم تمنيت أن يقع اسمي في أولى ثالث.. أو حتى في أولى رابع.. أو على الأقل يكون في إحدى حجرات الطابق الثاني الذي توجد فيه فايزة:

-"هل هي فايزة تلك.. تغيَّرَتْ.."-

سألَ سيد متعجباً بعد أن نسيتُ أنه يقف جانبي.. تبدلت الأمور تماماً بعد ذلك، فمع بداية العام الدراسي الثالث أصبحت والدتها تنتظرها عند بوابة المدرسة الإعدادية. وبهذا التدخل لم نعد نتمكن من مرافقتها

لبيتها، كما اعتدنا في السابق، إلا مرة أو مرتين في الشهر.. ذلك عندما تتغيب أمها لسبب ما.. وأحيانا تقطع طريقنا فجأة ونحن الثلاثة نتقاسم حبات النّبق التي جمعناها توا من شجرتنا العزيزة.. يخرج علينا صوتها الملهوف:

-"يا فايزة تأخرتُ عليك يا ابنتي؛ هيا.."-

زوجة الحبوني تزداد نحولاً.. وجهها تغزوه التجاعيد.. طرحتها يأكلها البلى.. ثيابها هي أسمالها السوداء لا تغيرها.. نجدها تجلس على باب المدرسة الشمس تصليها.. في الأيام التي تتأخر فيها ابنتها بسبب الحصص الإضافية نجلس أنا وسيد معها .. لم تكن بها رغبة للحديث معنا أبدا.. ترد علينا بكلمات مقتضبة بصوتها المبحوح الحزين.. أو تشيح بوجهها جانباً.. تمسح عينيها المبللتين بكُم ثوبها.. تعبتْ أرملة الحبوني هذه.. حماتها، تلك العجوز، لا تريد التخلي عن خيمتها في وادي ماجد.. أهلها السكندريون نسوها.. لم يعد يقترب من بيتها أحد منهم . أمضّتها الوحدة.. أنهكها تبادل الأيام المشمسة والليالي الباردة فوق الأسقف الواطئة للعزبة الغربية..

يريد سيد دائما الذهاب لشاطئ البحر بدلاً من العودة للبيت.. بيد أنه، في هذا اليوم البارد ذي السماء العارية من السحب، أخذ يراهن إن كان في مقدور أي منا أن يشد دخان التبغ إلى داخل رئتيه أطول فترة ممكنة قبل أن ينفثه من فمه ومنخاريه. هذه المراهنة الغريبة تستحوذ على رأسه.. فما شأننا بدخان السجائر. غير أنه منذ التقينا صباحا على طريق المدرسة ما انفكّ يسرد وقائع السهرة التي قضاها في زاوية من مربوعة بيتهم مراقبا منصتاً لحكاياتٍ يرويها ضيوف والده عن الجدب المتنامي بالصحراء بسبب قلة المطر هذا العام. وكان موظف الجمعية الزراعية أكثر الحضور إثارة لانتباه سيد.. فهو الوحيد الذي يرتدي بنطلوناً وجاكت خضراوين فوق قميص جديد.. يجلس مزهوا بربطة عنقه العريضة يشرح لوالد سيد ولضيوفه البدو بثيابهم وسراويلهم

المتهرئة الحِجَج التي تبيِّن عدم تعارض الدين مع قروض بنك التسليف التابع للجمعية.. بينما دخان السيجارة يغطي وجهه الممتلئ بالدهون. يمتص من لفافة التبغ. يبتلع دفعة الدخان كلها بصدره فيرتفع من جانب، وتبرق عيناه من الجانب الآخر قبل أن ينفخ سُحبَ أنفاسه على الرؤوس المطرقة.. وهكذا كان سيد يقلد موظف الجمعية المُرابي في سكناته وحركاته.. يمثل بلهجةٍ واثقةٍ لا حياء فيها مثله:

–"يعني إذا توجّه الواحد منكم للجمعية فإن الفائدة على القرض لن تزيد على عشرة بالمئة. لكن هذا لا يمكن. فمَنْ يعرفك هناك.. مَنْ يعرفك ليضمنك، ويقول لهم اصرفوا له. وهذا الشخص الذي يضمنك لابد أن يكون معروفاً لديهم مِنْ وجهة نظرهم هناك.. فما المصلحة من وراء صرف قرض لبدوي من براني. أما إذا كانت ثمة مصلحة فلا مانع، وهُمْ هناك يعتبرون الذي يحصل على القرض يفك أزمته، وهذا صحيح بلا شك، ويحقق أرباحاً في نهاية المطاف.. ولهذا فإن الضامن هنا مثل الوسيط. يذهبُ مع المقترض لبنك الجمعية؛ وعندما يتم صرف الشيك لا بد أن يحصل على حصته نظير خدمته الجليلة؛ ألف من الخمسة آلاف.. وبالنسبة للمقترض فإن الأربعة آلاف مبلغ كبير.. يبتاعُ علفاً لأغنامه. يشتري فنطاسين من المياه العذبة.. يدبر أحواله. ثم يبدأ في السداد بعد ستة أشهر. كل شهر مائتي جنيه، وفوق كل قسط عشرون جنيهاً فقط؛ فوائد.."–

ويشد سيد عند بداية كل جملة نَفَساً وهمياً من بين إصبعيه. ينفخ صدره. بعينيه يبرق كالمجنون قبل أن يزفر في وجهي ضاحكاً. ومع نهاية اليوم الدراسي توقف هو أمام دكان مجاور للمدرسة، وبعد دقائق عاد مرتبكاً يخبئ سيجارتين حقيقيتين بدرج حقيبته.. قال هيا هيا أسرع. واتجهنا كالعادة للبحر.. إلى الريح تضرب وجهينا مُلاطَفَةً أو توبيخاً؛ بينما الموج يدوي من بعيد متعاركاً مع بعضه البعض مطرطشاً أعرافه البيْض على الصخور الداكنة،

وفوقها طيور النورس ترفرف محلقة بطول الشريط الأبيض للساحل تطوفُ أعلى الأمواه الزرقاء.. وكان كلّ منا يتلفتُ فيما حوله خشية أن يظهر والدي أو والده على حين غرة مِنَ البحر.. من الصخور.. من السماء.. هكذا لم يكن من عابر سبيل غير سيارة عسكرية هدرت قبل قليل بحذاء الرصيف، واجتازته متحدية ناثرة الرمال حولها حتى مدت بوزها للماء حيث توقفتْ.. كنتُ وسيد في بطن صخرة بالجانب الشرقي من الشاطئ نؤمّن المنطقة، ونراقب التحركات. انفتح الباب، وترجّل منها ضابط نحيف حالما أشعل هو الآخر سيجارة فيما شدّ قامته رافعاً كابه العسكري فبدت لنا رأسه مثل ثمرة البطاطس الكبيرة قبل أن يأمر السائق بالعودة.. وكانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها المخرج الأصلع بيد أننا لم نكن نعلم أنه هو نفسه الذي أمضى معنا الشهور بمسرح قصر الثقافة خلال السنوات اللاحقة.. أنا عرفت عقب العودة من الخارج أما سيد فقد سافر دون أن يدرك أنه هو.. هو الذي رأيناه هناك ونحن صبيين لم نزل.. وربما يكون قد أدرك ذلك بطريقة ما في مكان ما من السعودية أو أفغانستان أو ألمانيا أو حتى الولايات المتحدة.. وقد يكونان الآن أخوين يجاهدان في سبيل الله يجوبان الأرض.. والآن حيث تحوّل جسدي لجثةٍ هامدة قد يكونان عاكفين يدبران أمراً ما ستتناقله وكالات الأنباء بعد قليل. ربما؛ فمن يعلم..

كنا في تلك السنوات البعيدة نعتني بفايزة أكثر من أي شيء آخر. وكان الربيع، ومن بعده الصيف، قد مرّا ثقيلين يعتصرنا الشوق ننتظر الدخول كتلميذين للمدرسة الثانوية ومبناها الشهير بالطلاب الصيّع الذين يضربون المدرسين أمام الناظر ومفتش المنطقة. تلاميذ من المغضوب عليهم يتم فصلهم، وإعادة قيدهم، وفصلهم، وإعادة قيدهم عشرات المرات في السنة الدراسية الواحدة.. إلا أن ذلك لم يكن في الحقيقة مبتغانا. كان كل منا يريد رؤية فايزة، وكيف صارت بعد طول الغياب، ولم يبح أي منا للآخر بما يعتمل في نفس صاحبه. تظاهرنا بأننا نطير

إلى المدرسة لا إليها هي.. وفي الساعة الأولى وقفنا أمام البوابة ننتظرها. جاءت؛ أي معها زميلاتها فقط بدون أمها.. وكان سيد يتطلع مشدوها لمحياها، ولا يتكلم إلا متلعثما، وقد أصابه ما يشبه الدوار.. لم يصدق أن التي تقف قبالتنا ها لحين، وتميل برأسها تتبسمُ خَجْلى هي ذاتها البنت التي اعتدنا فيما مضى دعوتها لتصيد طيور البوركيزة والعضيض معنا بين فروع الزيتون..

لكن كيف عرف سيد أن المخرج الأصلع قد سجَّل اسمها بكشف الطلاب الملتحقين بفريق التمثيل حيث قَرَنَ اسمه باسمي.. لا حُبا في التشخيص على خشبة المسرح مثلي، ولكن ليكون جوارها.. وعيتُ لمرماه جلوسا حول طاولة القراءة نستمعُ للمخرج أيام البروفات الأولية.. يتخذ سيد مقعداً في مواجهتي. أعني أمام فايزة التي تحرص على الجلوس جواري. كتفها يلامس كتفي؛ بسبب الحوارات العاطفية العديدة التي تجمعنا كبطلين للمسرحية.. وكان هو يحاول جاهداً ابتداع كل حديث يدور حولها. يتساءل، ونحن نقطع الشارع عائدين ليلاً إن كانت ثمة علاقة قرابة تربطها بالمخرج؛ وإلا لماذا اختارها دون غيرها لتُمَثِل دور البطلة.. ويشير إلى كيف يهتم بها.. يلقنها.. يصلح أخطاءها أكثر مما يفعل مع أي ممثل آخر في الفرقة.. والطريقة التي ينتحيان بها جانبا، ويستغرقان في حديث هامس لا يعرف أحد عما يدور.. هل المخرج قريبها من جهة أمها من أهل إسكندرية.. وإلا ماذا.. يسألني سيد؛ ومَنْ كان يمكنه أن يصدق حينذاك أن الرجل الأصلع المتأنق الحازم يسكن حجرة منقوبة السقف في العزبة الغربية. يستأجرها من عائلة الحبوني.. ولم يدرك ذلك من فريق التمثيل الذي تفرقت به السبل غير الهواري، وبالمصادفة عندما وقعت متعلقات المخرج في يديه؛ الصرة الكبيرة المحشوة بالرسائل والأوراق والصور التي لم تصل جميعها لصاحبها حتى الآن.. فقد كان الهواري يحوم حول قصر الثقافة حين تسلَّم تلك الأمانة، ويقيني أنني كنت ساعتها أحث الخطى للأمام

بالسعودية أو باكستان.. وربما كان سيد في مكان ما بأفغانستان وقتهـــا.. بينما المخرج لا شك في طرة أو أبي زعبل كان..

و على أية حال فلمْ أعلم بعلاقة مخرجنا ذاك بأهل الحبوني إلا بعد أن كانت الشمس قد نشّفتْ كل لون أخضر في جذعي، وقلبي سقط ثمرة ذابلة ناقصة النمو، وكسَّرتْ الريح أوصالي، وكنستني العاصفة لتلقي بي في الطابق الخامس مثل هشيم الخشب المحروق؛ لدرجـــة أن الهـــواري كان يفتش أسرار المخرج، ويفتحها أمامي متعجبا من قلة اكتراثي.. وفي الحقيقة كنتُ أقرأ ما تيسر منها حين تقع تحت يدي ثم ألقيها جانبا حتـــى أعثر عليها فوق السرير أو على طاولة المطبخ أو عنـــد رفّ الحمَّـــام.. أتطلع لبعض الأسطر، وأتساءل إن كان هو نفسه الذي أصبح عاصـــم أو كرم أو بكري.. إن كان هو نفسه الذي شاهدتُ صـــوره فـــي جلســـات التحقيق باليمن ومصر وألمانيا.. لا أذكر؛ فأنت تراني الآن شجرة ميتـــة إن كنت ترى..

أما في ذلك الحين فأوراقي الخُضر نضيرة كانت عصـــارة الحيـــاة تسري بعروقي تستقبلني فايزة بفناء المدرســـة فرحـــة تحتضـــن كتبهـــا ابتسامة خجلى تسبقها الخصلات السوداء تهفهف على جبينها الضـــاوي نسمات الربيع تعبق ما حولنا برائحة الزهور البرية تقول لي ألا أجلـــس مع العيال الصيَّع اليوم ضبطوا ثلاثة منهم يدخنون في البوفيه تم فصـــلهم من المدرسة لا شك أنهم كانوا متهورين فبعد أن انتهي كـــلّ منـــا مـــن تدخين سيجارته نصحَـــنـــا سيد بالعودة للفصل لم يسمعه الطلاب بـــدأوا إشعال المزيد من لفافات التبغ يخترق الناظر الحـــوش مراوحـــا عصـــاه الطويلة نحو دورات المياه من حذاء البوفيه انطلقتُ خلفي سيد هـــاربين فاشتبه بنا آمرا نادى أنت يا ولد أنت تعال هنا قـــبـــلْ تظاهرنا بأننـــا لـــم نسمعه حيث أفلتنا بذلك تكلـــَّـــمَ سيد مقلدا ناظر المدرسة جالســـين فـــي بطن الصخرة نرتشف السبرتو جرعاتٍ لاذعة بعيدا عن الـــدنيا نـــدخن

حولنا جدران شوهاء تتضح بالملح بلون الصدأ البني الداكن فوقنا قبة السماء الزرقاء الصافية..

الخطأ الوحيد الذي وقعنا فيه كان في استضافة سيد لأحد أقاربه من الطلاب الذين يدرسون بالجامعة في الإسكندرية.. من أولئك الذين كنا نتفاخر بالسهر معهم عند عودتهم من الإجازة الصيفية..هم يمرحون بأرجاء البلدة، وفي الليل يعكفون على شرب الخمر الحقيقية داخل إحدى الشقق المهجورة بطرف المدينة.. وننتظر حتى يسكر منهم مَنْ يسكر؛ فيشتم الحكومة وحرس الجامعة ملوحا بزجاجة نصف فارغة في وجوهنا منشداً أنّ كل الدروب امتلأت بالشرطة السرية..

إنهم أبناء مدينتنا الأيبين، وقد جاءوا يحملون على رؤوسهم عوالم لم نرها أو نسمع عنها من قبل.. يتمطقون بطعم البراندي والبيرة والزبيب، ومِنْ بين أفواههم تخرج كلمات مخيفة عن الرؤساء والملوك والأمراء.. عن أمريكا والاتحاد السوفييتي ومصير القدس المحتلة.. يتغنون بأشعار باللغة الفصيحة واللهجة العامية المصرية والمغاربية والشامية مقلدين الشيخ إمام وعبد الوهاب الدُّوكالي ونصري شمس الدين.. يضيفون فوق ذلك قدرا من الأبيات المخجلة لشعراء ماتوا بالسجون أو بالجنون؛ بيد أنهم كانوا يستمعون لبعضهم البعض في جدية ووقار.. ويعلم الله ماذا يحدث بعد ذلك.. لا ريب أنهم يتعاركون أو ما أشبه.. فقد كان لزاما عليَّ أنا وسيد أن نغادر مبكرا إلى البيت. ويحاولون استبقاءنا.. ربما كانوا يريدون لنا نحن الصبيين الملتحقين حديثا بالصف الأول الثانوي مشاهدة ما تمرسوا عليه من موبقات الإسكندرية.. لقد ظنّ سيد أن الجامعة وحدها هي التي علمتهم الشرب والبذاءات.. يسخرون من الطريقة التي ندخن بها، فإن سَعلَ سيد تتعالى ضحكاتهم وتعليقاتهم على وجهه المنقبض وعينيه الزائغتين.. مع ذلك كان كل منهم حريص على إعادتنا لبيتينا سالمين. إذا تصادف وشربَ كلانا من خمرهم القوي الفواح يتحول الربع الأول من السهرة لصخبٍ

يميل هو منهنها وأنا جواره متهتها وهم يحتفلون بنـــا.. وحـــين تتجـــاوز الساعة الثانية عشرة ليلاً ينهض قريب سيد، ويغسل رأسينا بالماء البارد، ويحشو فم كل منا بأوراق النعناع الجافة.. نقضمها، ونظل نلوكهـــا بـــين أسناننا عائدين عبر الشوارع المظلمة، وكأننا ما احتســـينا الكحـــول ولا تذوقناه..

و لسبب ما لم يسافر قريب سيد مع زملائه للإسكندرية بداية العـــام الدراسي، ولا بعد ذلك. كان وحده كالغزال الشارد نراه عند عودتنا مـــن المدرسة يهيم على غير هدى. وفي اليوم الذي هربنا فيه مـــن المدرســـة عثرنا عليه جالساً فوق صخرة مواجهاً البحر:

-" إلى أين؟"-

سأل، وقد بدت عليه علامات الدهشة، ثم أضاف بمكر:

-".. المدرسة أغلقت مبكرا اليوم، هه؟"-

و دعوناه ليرى كهفنا الخاص. أخرج سيد زجاجة السبرتو الأبيض من شق الصخرة، فصاح:

-" ما هذا؟"-

-"سبرتو.. اشرب!"-

قال له سيد واثقاً، وتناول من شق آخر علبـــة ســـجائر، وشـــريط حبوب:

-"و عندنا برشام أيضا؛ ابتليدون للرأس.."-

-" اشربا حتى أعود لكما بزجاجة خمر حقيقية؛ بمـــا لـــم يـــره أي منكما من قبل.."-

أما الذي عاد فكان والدي ووالد سيد.. رأيناهما قادمين مـــن بعيـــد يتعثران بحواف الصخور الناتئة غاضبين.. يلوح كل منهما فـــي وجـــه الآخر صائحين كأنهما يتعاركان مع الريح الشمالية الباردة..

30

التحاقي بفريق التمثيل مكنني من رؤية فايزة في النصف الثاني من كل نهار. وحوّلَ كل يوم جُمْعة فيه بروفة ليوم عيد.. قبل أن أنام أحـــدق الظلام أستعيد حركاتها وسكناتها.. ابتسمَ تحت الغطاء يغمرنـــي الفـــرح حتى أكاد أبكي.. لو أن الشـــمس تطلـــع الآن فـــأهرع لفنـــاء المدرســـة أنتظرها.. لو أن آذان العصر يرتفع توا من المسجد الكبيـــر المجـــاور؛ لعدوتُ لمسرح قصر الثقافة أجلس جوارها أتطلع لخـــديها وضـــفائرها.. بنهاية كل نهار أعود، وقد رتبتُ صورا لوجهها في رأسي.. لضحكتها.. لأصابعها المبسوطة فوق طاولة البروفـــات.. للحـــن صـــوتها الهـــامس المستغيث بي.. بـــ... بحيري الغائب على جبهة القتال. أســـتعيدها كلهـــا حتى يغيبني النوم.. أسترجع فستانها.. اســـتدارة الياقـــة الملونـــة حـــول جيدها..

كان مابيننا طيفٌ يقصرُ أو يطولُ كلما دنت المسافات أو بعـــدتْ.. طيفٌ زاه معبّق بالعطر الفواح يملأ روحي كلما اقتربتُ مـــن حضـــرتها في الصحو أو المنام.. خيوط من النور تلك التي تمتد تمرُّ عبر الشوارع والبنايات؛ فقلّب ناظريك إذن بليل المدينة ريثمـــا تـــراه يـــزين الفضـــاء واصلا ما بين بيتي وبيتها.. هكذا كان كلّ منا يعرفُ ملتزما الصـــمت.. أرجعُ لأقول إنها لا تعرف شيئا عن معاناتي.. غير صحيح.. خذ علـــى هذا المنوال نهارا بعد نهار.. تمضي الليالي أتخبط وحدي في حيـــرة لا أهتدي.. تشتعلُ النار توا يتصاعد دخانها من تحت ثيابي.. لماذا يا فايزة عندما مررتِ بي لم تلق التحية.. كنتُ أقفُ أمام بوابـــة قصـــر الثقافـــة أنتظرك مساء فتأخرتِ.. هل أصابك مكروه لا قدّر الله.. كمـــا أن ســـيد كان قد اختفى في ذلك اليوم بعد أن ترك بيته عصرا.. هل كان عنـــدكم يهرفُ مع والدتك وأنت تعدين لهما الشاي بثيابك المنزلية المكشوفة مـــن الظهر يغمرك الطرب لزيارته المفاجئة.. مفاجئة أم باتفاق بينكما؛ فـــأي ثقة..

أحترقُ واقفاً ألوذ بسياج بوابة قصر الثقافة أستنجد مترقباً وصولها من الشارع الطويل المتشح بغبار المساء فانظر أضواءه الشاحبة المثيرة للشجن بطلعتها المباغتة تكشّفت أرجاء البنايات المطلة على جانبي الرصيف حينما انعطفتْ من أمام مبنى الجمعية الاستهلاكية في طريقها إلى هنا.. كانت وحدها؛ فبردتْ نفسي واطمأنتْ.. هنيهة، وخفق فؤادي خائفاً حيران.. مضتْ جواري بَلْ عبرتْ لباب المسرح رأساً دون أن تلقي التحية أو تتبسم لي كعادتها في مثل تلك الأمسيات التي تسبق البروفات؛ فلماذا؟ وأقول إن سيد إذن سيظهر حتماً من الشارع نفسه قادماً في أثرها.. فهل كان حقاً معها.. وخلال المساء ذاته استشاط مُخرجنا الأصلع غضباً لسوء حفظي دور الجندي بحيري.. وعقب البروفة مشينا نوصلها حتى باب بيتها يلفنا الصمت والريبة.. وقفلنا راجعين مخترقين العزبة الغربية نتعثر بالحفر والأرصفة المهشمة.. تعوي الكلاب وراءنا فماذا جرى. ماذا..

كنت أريد أن أسأله إن كان هو وهي.. يصل الصوت إلى حلقي فيتيبس كأنه حصوة تسد حنجرتي.. يغريني بالعودة لارتشاف السبرتو ونفخ دخان السجائر.. بالعودة لبطن الصخرة التي هجرناها منذ التحاقنا بفريق التمثيل.. أفكر ملتاعاً بأن هذا البدوي الماكر يعرف سبب انكساري وحزني. إنه يستخف بي وبوجعي.. أخشى أن أنفجر باكياً تحت قدميه.. أو أمسك بخناقه وسط شارع الإسكندرية.. لم تكن فايزة رفيقة بي أبداً.. ففي اليوم التالي أجدها تنتظرني بأسارير منبسطة.. بكعب حذائها العالي تدعك التراب مرتبكة. تقول إنّ الجو بارد.. إن ملابسي الخفيفة ستمرضني.. تهمس في أذني بأن البنات يثرثرن عن علاقتنا.. وتسأل مضطربة إنْ كان سيد قد لاحظ شيئاً.. وتؤكد لي أننا سنلتقي اليوم بالمسرح مبكراً عن موعد البروفة كي نسترجع ما حفظناه من دور بحيري؛ أنا.. ودور خطيبته؛ هي.. فلأي غرض تعذبني.. لماذا حين تراني ترخي جناحيها مغردة ثم تطير بعيداً وقد جفلتْ عني..

كان الربيع والخريف يحلان على مرسى مطروح في وقت واحد.. تتفتح الزهور الصفراء الزاهية لأشجار الأكاسيا صباحاً، وقبل المساء تجف.. تضرب الريح الأوراق الميتة على الطرقات تبعثرها.. أمشي ويمشي سيد جانبي تتآكل أحذيتنا من الإسفلت وملح البحر.. لا نستريح في بلدتنا الخاوية الساكنة إلا إذا عدنا لمقاعدنا حول طاولة البروفات؛ حيث فايزة مغرمة بجارها الجندي الغائب على جبهة القتال..أنا.. ولا تملك له غير كتابة رسائل الحب والغضب والوعد بالانتظار المديد لي أنا.. سيد كان متحمساً للعب دور غريب في مشهد الرسائل بالذات، ففيها يبذل قصارى جهده لكي تخرج الكلمات من صدره مغلفة بالنصح والغيرة وبـ.. قسوة الرجال كما يقول المخرج.. وهذا ما قام به سيد وزيادة:

-"أطلب منها التوقف عن الكتابة.."-

من المفترض أن الجمهور يدرك هنا حالة غريب وزملائه الجنود.. ففي الوقت الذي يريدون فيه الاندفاع إلى الأمام والقفز من فوق القناة والتوغل من سيناء لتل أبيب بوثبة واحدة، يجدون الأوامر قد صدرت في اتجاه مغاير بما يعني أن ساعة الحسم سوف تتأخر شهورا أخرى وربما سنوات.. وعلى ذلك كان يجب على سيد قول تلك الجملة، وقد شحنها بكل ما يعتمل في نفسه، أي في نفس الجندي غريب، من مرارة.. يقولها كأنه ينصح أخيه الصغير بحيري.. وبعد فترة قصيرة من السكوت يضيف بلهجة لوم واضحة:

-"لا يصح.."-

ثم يرفع غريب رأسه مستدركا.. مُذكرا بحيري بأنَّ:

-"الحياة كلها الآن هنا.."-

ثم يفرد ذراعيه يخطو متقدماً نحو الجمهور يمسح الفراغ بيديه قائلاً:

-"و لا شئ آخر.."-

و حسب نص المسرحية فإنه لزاماً على غريب أن يتملكه هاجس مخيف في تلك اللحظة نتيجة لإصرار بحيري على الانشغال بكل ما يرد إليه من خطابات الغرام.. بينما صاحبه يريده أن يمزقها، وأن يتنبه للعدو المقيم على الضفة الأخرى:

–"كيف تمشي للأمام وأنت تنظر للخلف؛ إليها.. ربما بعد ذلك.. بعد الحرب ستعود، وكل الجنود.."–

و قبيل نهاية هذا المشهد يتوجب على غريب أن يخفّض من نبرة صوته.. أن يرقّ ويحنو مضيفاً:

–"سوف نعود.. نبدأ الحياة.. لكن هنا اقطع صلتك بها.. اكتب لها أن تتوقف، وانظر بعينيك نهارا وليلاً للضفة الأخرى من أجلك ومن أجلها، والله.."–

.. وتمضي الليالي، ويختفي المخرج دون أن ينسى سيد شخصية غريب. ظلّ يحتفظ بشعره الأسود الملولو فوق عينيه. وفي الأيام اللاحقة بدا أنه يتعمد ارتداء الملابس الكاكي والأحذية السوداء طويلة الرقبة.. كما أنه لم يكن له طريقا محددة.. مجرد التسكع على شاطئ البحر يتسلق المرتقيات يختفي في الشقوق الشوهاء ليطل برأسه من جديد كأنه يتربص بالعدو.. أما بطن الصخرة المحشو بزجاجات السبرتو ولفافات التبغ والحبوب فكان يقفز فوقها دون أن يتوقف، وكأنه ما دخلها قبلاً ولم يداوم فيها على الرشفات والأنفاس والبلُـوع..

عقب الانتهاء من امتحانات الصف الثاني الثانوي رحلتْ فايزة لجدتها بوادي ماجد مع أمها على ما يبدو. كان باب البيت مغلقاً، وباختفائها تيقنا أن المخرج لن يعود. وعلى هذا كانت المرة الأخيرة التي نلج فيها مبنى قصر الثقافة بداية ذلك الصيف حيث المدير قصير القامة بمفرده يؤرجح بطنه المدورة كالبطيخة الملفوفة في قميص حرير أخضر. وعندما رآنا لم يلتفت إلينا؛ فلم نعد نثير اهتمامه، لكن سيد انفجر صائحاً:

-"أنت. انتظر. ماذا تفعل هنا.."-

ما كنت أدرك أن صاحبي يزمجر لمدير قصر الثقافة إلا حينما أردف راغيا زابدا:

-"أنت يا ابن الجاموسة. يا مرتع البلهارسيا أسألك.. ماذا تفعل هنا؟"-

صوته الغاضب يهز السور المرتفع المبطن بالرخام. توقف المدير متلفتاً فيما حواليه ممتقع الوجه مشدوهاً.. وغمغم بكلمات مبهمة متظاهراً بعدم فهم ما يجري.. سار مسرعا يتوارى بباب مكتبه. ودفعتُ سيد بيدي خارجا إلى أن ابتعدنا خلف الشارع المقابل. كان كل من يتردد على قصر الثقافة ينتهي به الأمر لكراهية ذلك الرجل البطيخة الذي أدى لتشريد كل من أحب الرسم أو التمثيل أو الرقص أو الشعر أو الغناء. ولم يجرؤ أحد على النيل منه كما فعل سيد اليوم.. وفي تلك الأيام كان مرسم الفنون التشكيلية قد انغلق. كما لم يتبق أحد من أعضاء فريق الفنون الشعبية للاستعراضات الراقصة غير الهواري الذي انضم لفرقة التمثيل قبل أن تلقى مصيرها.. وتتبخر كأنها لم تسهر الليالي في البروفات والتدريب وأكل الجبن المعجون بالطماطم أيام الجُمَع على نفقة المخرج.. هذه هي الذكريات، وتلك هي الريح الساخنة المقبضة تسفي تراب الصحراء على الأسطح تضرب الأعمدة العارية فيما فايزة قد جفلتْ مجددا فأغضبُ أيما غضب.. يحاول سيد حشو الحطب في صدري المستعر متظاهرا بالزعل لأنه سمع أن فايزة قد تمت خطبتها لأحد أبناء عمومتها الحبون على مشارف وادي ماجد.. كان يتوقع مني الدهشة لا ريب.. عند البحر قال محدثاً نفسه.. كيف تتقدم إلى الأمام وأنت تنظر للخلف.. ثم استدرك زاعماً أنها ليست خطبة بالضبط.. إنما الحبون يريدونها تعيش مع جدتها، والعجوز ترفض الانتقال للمدينة.. وهكذا ارتحلت مع والدتها لوادي ماجد دون أن تنتظر نتيجة الامتحان.. فهل ترى أنها قد لا تعود للمدرسة بعد الآن..

تتنازعني الظنون. ستعود لترخي جناحيها مغـردة.. لا.. أنفضُ جمجمتي محاولاً طردها من مخي وقلبي.. أهز صـدري بيـدي كـأني أغربله.. أريد، يا ربي، أن أنتزع صـورتها الملطخـة بالوحـل.. أرى أسنانها الكريهة خلف ابتسامتها اللعوب.. أشد خصلات شعرها المضفرة بالأوساخ.. أمزعُ فستانها المدنس أمزقه أكشفُ جسدها المتقيح بـالأورام والصديد والعفن..

ندور أنا وسيد على غير هدى.. أمام محل والدي اتخـذنا مقعـدين نطل بهما على شارع الإسكندرية المقفر كعادته قبيل نهاية الربيع.. ظـلّ أبي يتطلع إلينا بين الفينة والأخرى فرحا مرة بوجودنا وأخـرى مرتابـا من صاحبي البدوي الماكر الذي سيفسدني كما يردد دائما.. ويبـدو، والله أعلم، أنه أراد أن يجرب الاعتماد علينا فطلب منا حراسة الدكان ريثمـا يصلي العصر حاضرا بمسجد الجامع الكبير المجاور:

-"نذهب معك للصلاة.."-

قال سيد فجأة كأنه أراد الاستحواذ على اهتمام والدي الذي اهتـزت المفاتيح في يده محدثة رنينا، وأدار رأسه ليرمق سيد بنظرة افتخار، ثـم حدقني، وحال سبيله يقول ها هو الولد البدوي يحفظ القـرآن ويواظـب على صلاة الجماعة..

و توجهنا نحن الثلاثة للمسجد الذي كنا قد دخلناه أنا وسيد صغيرين في المرحلة الابتدائية أو الشهور الأولى مـن المرحلـة الإعداديـة.. أي حينما خطب فيه جمال عبد الناصر. وها هي أقدامنا الحافية تمشي علـى البساط تحت القبة العالية التي تتدلى منها الثريا والفوانيس الكهربائيـة.. ولم يكن هناك غير عدد قليل من المصلين:

-"لكننا لم نتوضأ.."-

همسَ سيد في أذني منبها؛ فماذا نفعل.. صوت الإمام يتجاوب بـين الجدران الواسعة آمرا بمحاذاة الصفوف وسدّ الفُرج بين الواقفين كـي لا يدخل الشيطان من بينها.. ولم يكن ثمة مهرب.. لا بد من الصـلاة مـع

المصلين.. نردد.. نتمتم استغفر الله.. استغفر الله.. من هذه الجريمـــة.. خائفين كنا من افتضاح أمرنا.. من أن يتوقف الإمام أثناء الصلاة قـــائلا إن الولدين الدعيين بالصف الأخير يصليان بلا وضوء؛ فليخرجـــا مـــن بيت الله توا.. وبقينا واقفيْن كالعاريَيْن وسط النـــاس.. كانـــت الهـــواجس تشير إلى أن أبي على علم بما فعلنا.. فقد كانت أرجلنا متسخة.. وجهانـــا لا شك كانا مغبرين.. في الأيام الثلاثة التالية لم نعرف إجابة محددة عـــن عقاب دخول المسلم المسجد بلا وضوء.. لم نجرؤ على المرور من أمام الجامع الكبير. وإذا تصادف وذهبنا لدكانه نحرص على الانصراف قبـــل أن يفاجئنا الآذان..

هل نسأل معلم التربية الدينية الذي ترقـّـــى ولحق بنا في المدرسة الثانوية بصفاته تلك حيث لا يطيق التواجد في حجرة الدراســـة.. يكتـــب اسم السورة القرآنية المقررة. ثم يكتب تحتها بخط كبيـــر جـــدا كلمـــة: حفْظ.. ولم نكن قد حفظنا السورة الســـابقة؛ بيـــد أنـــه لا يبـــالي. وأوان الاختبارات الشهرية يطرح علينا ثلاثة أو أربعة أسئلة وينصرف؛ فنهرع للكتب نفتحها جهارا ننقل منها الأجوبـــة التـــي يريـــدها؛ بقيـــة الآيـــات وشروحها وحديثين من أحاديث الرسول صلى الله عليه وســـلم المنقولـــة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وتفاصيل غـــزوة أحـــد.. هكـــذا ننجـــز امتحاننا بكل سهولة ويُـــسْـــر كأننا شيوخ الأزهر أو أكثر قلـــيلا.. مـــا علينا في النهاية غير أن يتطوع أحد الطلاب المتحمســـين لطيبـــة قلـــب المعلم فيجمع أوراق الإجابة مرتبة أبجديا ويذهب بها إليـــه فـــي مكتـــب الناظر أو البوفيه أو حجرة المعلمين أو حيثما يكون..

كان سيد، الذي حفظ القرآن صغيرا عند فقيه القبيلة، لا يدري مـــن التشهد في ختام الصلاة غير يا أيها النبي السلامُ عليكم.. كما أنه لم يكـــن قادرا حينذاك على التفريق بين عدد ركعات صلاة العصـــر والمغـــرب؛ مثلي..

و المشكلة هي أن والدي أخذ يعاود السؤال بين الحين والآخر عما إذا كنا قد لحقنا بصلاة الظهر جماعة أم أننا صليناها فرادى. وعليه أغرقتنا الحيرة والخوف والتربص.. لا نعرف لنا مَخرجاً، حتى عثرنا في مكتبة بيتنا على خُطب ودروس لشيخ اسمه كِشْك.. انساب صوته الجهوري نابضاً في جهاز التسجيل يصف ساعة خروج الروح من الجسد.. ظلمة القبر وخنقته على العاصين الذين يدخلون المساجد بلا وضوء مستهترين مثلي أنا وسيد غير آبهين للحظة فراق الدنيا ويوم حساب الاخرة حيث يستقبلنا الثعبان الأقرع فيخسف بنا إلى جهنم الحمراء.. غير أن الله رحيم؛ فالقبر يوسّعه حول التائبين الذين يطلبون مغفرته فيغفر لهم.. إن الله نفسه يفرح إذا ما قرر العبد التوبة، ويقول ها هو ذا عبدي طلب مغفرتي؛ فيغفر له..

اعتكفنا في مكتبة والدي أياماً وليالٍ.. وجدنا فيها العديد من القصص والحكايات عن الكفار الذين أراد لهم الله الدخول في دينه، وأراد لهم أن يهتدوا بعد ما تخبطوا في ظلام الضلال والفسق.. قطع سيد شوطاً في حفظ الأحاديث النبوية الشريفة وفروض الصلاة ونوافلها.. أما أنا فكنتُ في المؤخرة.. حفظتُ قصار السور.. أحاول جاهداً الآن الانتهاء من سورة البقرة.. ما أدركناه ووعيناه خلال ذلك الأسبوع أصبح خلال الشهور اللاحقة نقطة في بحر مما درسناه في الصيف ببيتنا.. ترانا نخرج تحت جنح الظلام نستبق آذان الفجر للجامع الكبير.. نجلس في الصف الأمامي مع المصلين كبار السن.. وهم مندهشون من هذين الصبيين اللذين يتركان فراش النوم ابتغاء مرضاة الله.. يستثيروننا بالأسئلة.. كان من اليسير أن نشير إليهم بأننا نعلم ما لا يعلمون.. على هذا توجب علينا أن نحمل معنا كتاباً أو كتابين لإثبات صحة ما نفصّله لهم من القول.. تمتد الجلسات من بعد صلاة الفجر لمطلع الشمس.. نتلو عليهم ما يحبون سماعه عن المسلم إذا ما مات، تمَّ تكفينه على خشبته الحدباء؛ نادى منادٍ بأعلى صوته إلى ربك يومئذ

المساق. إن الروح هنا ترفرف على نعش الميت تنادي يـا أهلـي.. يـا أبنائي لا تغرنكم الدنيا.. فقـد جمعـتُ المـالَ مـن الحـرام والحـلال وتركتـُـه لكم تستمتعون به وأسأل عنه وحدي يوم القيامة..

و يوما بعد يوم أصبح المصلون يتحلقون حولنـا نحـن الطـالبين الصغيرين يدفعوننا للاستزادة من ذكر أمر الموت.. وقراءة الفصل الذي يدور عن الملائكة وهم يُدخلون روح بني آدم في سدر مخضوض وطلح منضود وظل ممدود وماء مسـكوب وفاكهـة كثيـرة لا مقطوعـة ولا ممنوعة.. ثم تنزل الملائكة لدار الميت، والميت مازال يُغسَّل، والمُغسِـلُ يقلـّـبُهُ.. ميتٌ بلا يد تبطشُ.. بلا رجل تمشي.. العينان غارتا.. الفـم أغلق.. الأعضاء البارزة انكمشتْ.. الجسم تخشـّـبَ.. هل كان ابن آدم يرضى أن يخلع ثيابه أحد.. اليوم يغسله المغسل بعد أنْ يخلع ثيابه واحداً واحدا، ويلقيه على خشبة الغسل عريانا..

تهب رياح الخماسين من الجنوب حارة محملة بالغبار والخـوف.. تكنس الشوارع.. ندفع بأقدامنا صوب الجامع الكبير ظهرا.. وبعد صـلاة العصر تمتد خطوط التراب الأصفر بطول الأرصفة المقفرة.. من خلـف زجاج المقهى نرى المعلمين الوافدين يدخنون الشيشة، ويلعبون الطاولة، وفوقهم تصبُّ السماعات المكبرة للصوت غضب الله. وإلا ما معنـى أن تقول أم كلثوم خذني في حنانك خذني.. كيف يطربون لهذا الفُـحْـش الصريح، والعياذ بالله..

.. ومع بداية الصيف عاد طلاب المدينة في إجازتهم مـن جامعـة الإسكندرية: صحيح أننا في أول الأمر لم نرَ منهم غير قريب سيد، وقـد تبدل عن الأول.. في ثوب أبيض ولحية صـغيرة وسـواك لا يفـارق يمينه.. جلب معه تفاسير العلامة سليمان بن عمر العجيلـي، والعـارف بالله الشيخ أحمد الصاوي.. وكتيبات لأخوة من بولكلي والمحلة وإمبابـة وفتاوى لشيوخ آخرين من مكة وتلمسان وبنزرت..

تمتد منطقة غوط رباح على بعد نحو كيلـومترين جنـوب شـرق مدينة مرسى مطروح.. لا يوجد بها غير خيام لقبائـل فقيـرة، وبعـض البيوت المبنية بالحجارة الرخيصة والطين.. هي صحراء قاحلة، إلا أنها في الربيع تتحول لمرتع للرعاة حيث تكتسي بـالكلأ الأخضـر وشـوك المُرير بأزهاره الحمراء والأقحوان بوجهه الأصفر.. كانت المرة الأولى التي نذهب فيها إلى هناك مع قريب سيد منتصف فصل الصيف.. وهـو الموسم الذي تزداد فيه سراويل بنات المصطافين قِصرا وضيقا.. وهـو أيضا الوقت الذي يزدحم فيه الشباب على كازينو الـ.. جي أر.. فثمـة البيرة والخمرة والراقصة العارية القادمة من الإسكندرية:

–"إنه الكفر بعينه؛ فإذا صليت في الجامع الكبير وخرجـت فمـاذا ستجد أمامك.. العين تقع على واحدة تتلوى عارية فوق دراجـة.. هـذا يثيرك ويزيد ذنوبك، والعياذ بالله.. كما أنه يُبطل صلاتك من الأصل.."–

هكذا قال قريب سيد وهو يصـطحبنا تـاركين المدينـة بصـخبها متوجهين لغوط رباح. وكانت شمس الصيف قد أحرقت لـون الأرض .. ولم نجد في طريقنا غير بعض الرعاة والأغنام وطيور أم بريمة.. وبعـد ذلك فضاء رحيب وسماء صافية واسعة، وآفاق لا نهائية. كـان الأخـوة من طلاب المدينة العائدين من الجامعة يتحلقون في ثيـابهم وعمـائمهم جالسين في دائرة كبيرة أمام خيمة من الخيش. إذا احتدم النقـاش، فـإن الواحد منهم يصب جام غضبه على الحكومة وحرس الجامعة ملوحا في وجوه إخوانه بقبضته:

–"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لـم يستطع فبقلبه، وهذا أضعف الإيمان.. فهـل نحـن الآن لا نملـك غيـر أضعف الإيمان، والعياذ بالله.. هه؟ إن إيماننا أيها الأخـوة قـوي فيمـا المنكر يملأ البيوت والدكاكين والطرقات.. حتى نجوع الصحراء وصلها الفسق؛ فماذا ترون.."–

31

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها الضابط ببنطلونه الأسود وحذائه الأسود اللامع وقميصه الأبيض النظيف.. جاء جالساً في مقدمة السيارة الملاكي التابعة للأمن.. بدأ مهمته حينذاك مستهزئاً عاقداً العزم على هدم حجرة المبيدات الحشرية التي حولتُها مع الأخوة لمسجد أطلقنا عليه اسم الفتح وسط مرسى مطروح. نزل من السيارة، وتلفَّتَ مطمئنا وسط جنوده المدججين بالسلاح. لم يخطر بباله أن طالب ثانوي وزملاءه يمكنهم الصمود.. كان سيد مع سبعة من الأخوة على ما أذكر يعتصمون داخل المسجد.. ومن وقتها أدركتُ أن التصميم يغلبُ القوة:

-"إذا أردت هدم المسجد، فاهدمه فوق رؤوسنا.."-

قلت متحديا. وعلى ذلك فتح باب الملاطفة متراجعا:

-"أنا أنفذ القانون.. القانون يقضي بهدم حجرة المبيدات الحشرية.. الدولة قررت ذلك، والحجرة حجرتها، والأرض أرضها، وأنا أنفذ القانون لا غير. دعونا نعمل، والجئوا للمحاكم.."-

و عاود التهكم مع الجملة الأخيرة.. كان المارة يتوقفون خلفي في مواجهة الضابط وجنوده ومعداته.. صحتُ فيه متشجعاً:

-"نحن معنا حكم من المحكمة يقول إن هذا المبنى مسجد؛ وسنصلي داخله الآن.."-

-".. وأين هو الحكم. أين هو؟"-

سأل لاويا عنقه الأحمر على ياقة قميصه، وقد بدت الدهشة على وجهه، فعاجلته بالرد:

-"حكمٌ من الله. وسنرفع الأذان الآن لنعلنه على الملأ.."-

ضجَّ الجمهور وراء ظهري بالتسبيح والضحك والسخرية من الضابط الذي أمر جنوده بالانسحاب.. ارتفع صوت سيد مؤذنا للصلاة، وحالما فرش الأخوة الحُصر والملاءات فغطت الباحة الكبيرة أمام

مسجدنا الوليد.. خلع عددٌ من العابرين أحذيتهم.. انضموا إلينا في صفوف منتظمة تركع لله تسجد له خاشعة.. أما الآخرون الذين انصرفوا فقد بلَّغُوا خبرنا لأطراف المدينة وللمدن المجاورة وللقرى وللنجوع البعيدة بما فيها مربوعة عمدة القطعان ببراني..

كانت فايزة لا تعرف ما يجري في أول يوم من الدراسة. وقفت مع طابور البنات، بينما ألقي خطبة من ميكرفون الإذاعة المدرسية أحثُّ الطلاب على الاستعانة بالصلاة عند مراجعة دروسهم، وأدفع الطالبات نحو ارتداء الحجاب.. وفي وقت الفسحة أراها تقف في مكانها المعتاد تنتظرني بلا جدوى.. هي ترى شعر ذقني يزداد كثافة وطولاً. لم تفهم أبداً ما أعنيه بأنها بالنسبة لي ولسيد مجرد امرأة أجنبية. ويوم اعترضتْ طريقي على بوابة المدرسة أذكر أنني عنَّفْتُهَا.. أنني أيضاً تلعثمتُ متحاشياً النظر لعينيها.. أنني رويت لها في عجالة ما أحفظ من الايات الكريمة والأحاديث الشريفة وأقوال الصحابة.. أذكر أن آخر ما خرج من بين شفتي المرتعشتين كان قولاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بألا تخلو بامرأة ولو كنت تُحفِّظها القرآن الكريم..

جاءت أول رسالة منها بعد أسابيع طويلة من الصمت؛ قُلْ شهرا أو شهرين.. المهم أنني تسللتُ من وراء ظهر سيد للقائها أمام فندق ريم.. ليس أمامه بالضبط، بل هناك على الجانب الآخر من الكورنيش حيث الصخور والبحر المائج.. ولا أحد غيرنا. قطعتُ الطريق أتلفتُ مرتابا.. خطواتي تتعاقب تحت ثوبي الأبيض القصير. وجدتها تستتر داخل وَهْدَةٍ غائرة ترى من خلالها الشارع دون أن يلاحظها مَنْ يتصادف عبوره الكورنيش في ذلك الوقت من الخريف.. سمعتُ صوتها أولاً:

–"تعال. أنا هنا.."–

كانت كما هي؛ سافرة.. شعرها المكشوف يغطي نصف جبينها الأبيض الناعم الطري البارد المبلل بالعرق.. عرق الخوف بلا شك؛

فرياح نوفمبر تهب من الشمال الملبد بـالغيوم. انتهـى اللقـاء كطرفـة العين.. طرفة عين ظلت تنغلق وتنفتح في قلبي وفـي رأسـي للأبـد.. ومعها ظل السؤال بلا إجابة.. قلتُ:

-"أ كانت هناك خلوة معه.. ستتزوجينه في النجـع؛ ابـن عمـك ذاك؟!"-

أذكر أنها قفزت باكية مرة واحدة. لم تقل إن كانت هناك خطبـة أو لم تكن. تحاشت حتى الإشارة لغيبتها الطويلة في الصيف. بنت وأمها بلا رَجُـل.. بلا محْرم.. لا تعـرف إن كانتـا فـي وادي ماجـد أم فـي الإسكندرية.. كنتُ أريد الحقيقة.. ضغطتُ على أسناني.. لا ريب أننـي هرفتُ بكلام كثير.. فقد هـبَّت فايزة بغتة واقفة فـوق أعلـى صـخرة متحدية.. كأنها أرادت أن تكشف للجميع جرأتهـا علـى الخـروج دون محرم إلى الكورنيش شتاءً مثل أي ساقطة لا أهل لها ولا قبيلة..

مسحتْ دموعها بأصابعها، وقد بدت أظافرها الطويلة مطلية باللون الأحمر الفاتح. قضيتُ الليل بطوله أنتظر طلوع الشمس. فلو هـداها الله بالصلاة وارتداء الحجاب.. لو أصبحتْ أختا لنا ملتزمة بتعـاليم دينهـا، لجمعت من ورائها الطالبات الفاسقات، وأدخلـتهن حظيـرة الأيمـان.. أمضيتُ رقدتي أرى السيقان العاريـة تكتسـي بالجلابيـب السـوداء.. والرؤوس الحاسرة تتجلل بما يرضي الله ورسـوله، بيـد أن هـذا لـم يحدث..

أجلس وحدي تحت الظلام أقرأ الرسالة في بقعة من الضـوء ثـم أمزقها لأكتب واحدة جديدة. أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثـم أسـمي باسمه قبل أن أخط لك يا فايزة هذه الرسالة الصادرة عن قلب يحب لـك الخير يرجو لك النجاة يأمل أن تحيين حياة نقية أبيّة.. هذه الرسـالة يـا فايزة تنبض بخفقة قلب أجهده التعب مما تلاقينه من عذاب وعناء.. أنتِ اليتيمة؛ بلا أب.. الوحيدة مع أم مريضة بلا حول ولا قوة.. مـع جـدة عجوز لا تفرق بين ما مضى وما هو مقبل.. عجوز تبحث عن ولـدها.

تفتش عن والدك.. تصرخ بعرض الصحراء؛ وأنتِ وحدك، ومن حولك الذئاب..

أمزق كل هذا..

أتوضأ.. أصلي ركعتين قبل أن أنام..

حين يدخل سيد لحجرتي صباحا، يقلّب عينيه في القصاصات المتناثرة محاولاً فهم ما يدور.. يدفعني من الخلف براحة يده تضغط بين كتفي إلى الأمام. وعقب صيحات مدرس التربية الرياضية بالانتباه يفتتح سيد فقرات الإذاعة. ويهز مكبر الصوت جدران المدرسة:

–"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.. إذاعة مدرسة مطروح الثانوية العسكرية تحييكم بتحية الإسلام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد.. فخير بداية هي ما أنزله الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.. مع آيات من الذكر الحكيم للطالب.."–

.. وكان يحرص على انتقاء الأخبار وقراءتها بنفسه:

–"أيها الأخوة.. الآن مع نشرة أخبار إذاعة مدرسة مطروح الثانوية العسكرية.."–

إن نشرات الأخبار التي يعيد سيد صياغتها من الصحف والإذاعات الأجنبية هي المشكلة الرئيسية بالنسبة لإدارة المدرسة. دائما يصيح الناظر غاضبا متسائلاً عن علاقتنا، ونحن في هذه المدينة البعيدة عن العالم، بمطالبة الجماعة الإسلامية في مدينة صفاقص التونسية للحكومة بغلق المقاهي خلال شهر رمضان. وعن مغزى التحليل الإذاعي حول تداعيات زيارة السادات لإسرائيل. وعن سر اهتمامنا بإذاعة أنباء القتال الدائر بين أنصار الشاه، وآية الله خميني، والمذابح الإسرائيلية في الأرض المحتلة ..

كنت في البداية أقرأ الخطبة الدينية من ورقة أعكف على كتابتها وتنقيحها ليلاً. ثم مع مرور الأيام اعتدت الإمساك بـ.. المايك بيد،

وأهز اليد الأخرى في الوجوه المصفوفة أمامي؛ وجوه الطلبة والطالبات، وقد حل عليها الصمت والخشوع:

–".. إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره.. نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.."–

كان صوتي، ولا شك، يطرق قلب فايزة طَرقا:

–".. إن اتّباع موضة اللبس ووضع العطور والمساحيق ضعفٌ وقلة إيمان، والعياذ بالله.. إنه تقليد أعمى لأهل الكفر الغربيين والملاحدة الشيوعيين.. إنه فقدان للهوية.. وبُعْدٌ عن الدين. أنظروا ماذا يصل لمدينتنا من موبقات العالم.. الزبالة تدخل الصحراء هنا، وترى اليوم الفتاة تشتري المجلات المصورة من بائع الصحف في شارع الإسكندرية. وقد تكون هذه الفتاة أختا لنا.. طالبة معنا بالمدرسة.. ولكنها، ويا للعار، لا تعرف من أمر دينها شيئا.. تنساق وراء لبس الأزياء السافرة التي تحث على العري مقلدة ما تراه من ملابس المترفين الذين غضب الله عليهم.. تتسابق لتتخلى عن الحجاب الشرعي وعما يستر المرأة سترا كاملا.. إن الكثير من النساء المسلمات بتنا يقعن في محاذير شرعية عديدة.. يقلدن الكافرات فيما يلبسن من الملابس الفاضحة الضيقة الشفافة.. إنهن كاسيات عاريات.. مميلات مائلات.. رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة.. لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها أبدا.."–

هل كانت يده حقا تلك التي تضغط بين كتفيَّ بلا كلل تدفعني.. أقول إنه لم يكن ثمة شئ بالتحديد نريد الوصول إليه.. كان مجرد السير.. هكذا، والعرق ينزُّ من تحت ياقة قميصي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف.. كنا نريد أولا الوصول لغدير مياه.. لبئر.. وربما لهذا السبب كنا نضربُ بأقدامنا إلى الأمام.. للسراب البعيد.. كنا نريد أن نعرف كيف أصبحتْ فايزة بعد إجازة الصيف الطويلة.. إن كانت قد قدمت أوراقها للالتحاق بالجامعة مثلنا؛ فأي جامعة

يا ترى.. أ في الإسكندرية حيث سيد.. أم في الزقازيق حيث أنا.. ولم يبح أي منا للآخر بذلك.. أبصر السؤال في عينيه وفي خطواته المتعثرة.. في جنوحه عبر دروب العزبة الغربية متذرعاً بزيارة لأخ لا وجود له.. أنا أدرك، وهو يعلم أنني لا أصدقه، وأنني أتبعه متغاضياً من جانبي متعمداً الصمت للوصول إلى بيتها.. كان القفل مازال كما هو معلقاً على الباب قد أطفأه الصدأ.. أذكر أن تلك كانت المرة الأخيرة التي نرى فيها باب بيتها مترافقين.. وحدث ذات ليلة أثناء عودتي من جامعة الزقازيق للمدينة الجامعية بالإسكندرية أنْ تركت حقائبي مفتوحة داخل حجرة سيد.. هذا أمر طبيعي.. فلطالما تركتها بين يديه يفتش فيها ليأخذ ما يشاء من الكتب والخطب المسجلة على شرائط الكاسيت.. لكن تصادف أن وقعت يده علي رسائل فايزة التي نسيتها منذ أسابيع في مختار الصّحاح.. هل قرأها.. الله أعلم.. لكن حين عدتُ من دروس ما بعد صلاة العشاء ببولكلي سأل في لهجة باردة متهكماً كأنه الجندي غريب نفسه:

-" كيف يحدث هذا.. معك أنت؛ كيف؟!"-

مدّ لي الرسائل الثلاث تفوح منها بقايا العطر مازال.. صفق الباب.. خرج ليتركني وحدي طيلة الليل.. لم أجده عند صلاة الفجر مع الجماعة بمسجد المدينة الجامعية..

كان من المقرر أن نسافر سوياً، ومعنا ثلاثة من الأخوة الدعاة القادمين من القاهرة، لنلقي حلقات من الدروس في مدن الحمّام والعلمين ومرسى مطروح وبراني والسلوم..

و لا يمكن الانتظار أكثر من ذلك..

حزمتُ الحقائب والكراتين. وفي محطة الحافلات أقف أتلفت لعله يبرز من جدار أي شارع أو رصيف دون جدوى.. إذا توقفت تاكسي بجوار المحطة أقول ها هو قادم.. إذا مرّقَ شخصٌ في ثوب أبيض قصير وعمامة مسدلة فوق شعر رأسه من هنا أو من هناك، أميلُ معه، وأتعقب خطواته، حتى إذا استدار لم يكن هو.. وفي الحافلة ظل مقعده

خاويا. وكان الأخوة القاهريون في بداية الرحلة يأملون أن يلحق بنـا أو يكون قد سبقنا لمسجد الفتح بالعلمين. يتمنى أحدهم راجياً:

-"ربما ينتظرنا بمسجد الفتح بالضبعة.."-

و تبين لي أن الأخوة الثلاثة الذين يزورون مدن محافظة مطـروح للمرة الأولى قد سمعوا عن سيد أكثر مما سمعوا عني.. أو ربمـا كـان أهل العاصمة يضعونه في مرتبة خاصة بسبب انتمائه للقبائل المتنـاثرة من الصحراء الغربية لحدود الجيزة والفيوم:

-"يعني هو من أولاد علي. ما شاء الله. ما شاء الله.."-

فأمدُّ عنقي لأعلى.. أشدّ كتفيّ.. أنفخ صـدري مقاومـا شـعورا بالضآلة عميقا..

فيما بعد قلت إن الأحوال لا محالة تحسنت.. وقد يكون غضب سيد انطفأ.. أو إنه على الأقل لن يعتصم بحجرتـه فـي المدينـة الجامعيـة المشرفة على حي عزبة سعد بـــ.. سموحة. وأطرقُ بابه. أعلـم أنـه بالداخل بيد أنه لا يجاوبني.. هل يحبسُ أنفاسه جريحاً يكتم الأنين..

أدق الباب بقبضتي أركله كـي أحطمـه.. يخـرج الطـلاب مـن حجراتهم مذعورين؛ ماذا هناك:

-"سيد لا يريد أن يفتح.."-

-"سيد.. تقصد الشيخ سيد.. ليس هنا. ترك حجرته.. سلّم مفتاحهـا لإدارة المدينة.. كما أنه لم يعد يظهر في الكلية.."-

-"و هل يعلم أحدكم أين ذهب؟"-

أحمل الورقة عليها العنوان صاعدا مـن طـابق لطـابق أرتقـي الدرجات المتعددة ساندا يدي على الجدران الناضحة بالملح بـل الجيـر المتآكل:

-"ترك الشقة من يومين.."-

-"يعني لو تعلمون أين كانت وجهته؟"-

-"مشى. جاءه ثلاثة من الشيوخ؛ الأخوة.. جماعتكم، واصـطحبوه معهم. كان ينتظرهم.. فقد حزم عقب صلاة المغـرب حقائبـه، وظـل

ينتظرهم جالسا مكانك هنا بهذه الصالة.. ثم ذهبوا جميعا. الله أعلم إلـــى أين.."—

.. وللمرة الثالثة أعودُ لمرسى مطروح خلال هــذين الشــهرين.. أقضي النهار والليل في مسجد الفتح.. من صلاة الفجر لما بعد العشـــاء.. لعلـــه يدخل فجأة من الباب.. أبحث عنه من فوق المنبر أحصي رؤوس المصلين رأسا رأسا.. فقد يكون جالسا هناك في أخر الصـــفوف يســتمع لخطبة الجمعة مستهزئا من ريائي وكذبي.. أقول ويكاد الدمع يطفر مــن عينيَّ بأنه لا يحق لمسلم هجران أخاه فوق ثلاث ليال؛ لكن مــن يســمع ومن يعي..

ينصرف المصلون إلى أطراف المدينة.. إلـــى قـــراهم ونجـــوعهم البعيدة. تهدر محركات سياراتهم محملة بالجلابيـــب والعمـــائم.. تخلـــو الشوارع المحيطة بجامع الفتح كُليَّة.. يجمعُ الأخوة الحُصر والســجاجيد، ويكومونها بزاوية المسجد مخلفين وراءهم الصمت، ولحظـــة المواجهـــة اليومية المحتومة حيث أجد والدته مكومة فوق قطعة حجر بجوار البـــاب كأنها جدار متهاو.. إنها تنتظرني.. تدبُّ فيها الحيـــاة إذ ترانـــي تمســـك بتلابيبي، فأدرك إلى أي مدى ازداد جسدها نحولا.. جلـــد جـــاف علـــى عظام مفككة.. العروق الخضراء برزت من عنقها ويديها.. إنهـــا تلهـــث بعدما استنزفها البكاء:

—".. وين سيد، وليدي وين؟"—

كانت تعرف أننا لا نفترق أبدا لا في السراء ولا الضراء.. حتـــى إن الاعتقالات كانت من نصيبي أنا أغيـــب بســـجون القـــاهرة شـــهرا.. شهرين.. ستة؛ لكن كانت مرسى مطروح كلها تعلم أنني معتقـــل.. وأن فلان زارني وعلان كلـــمـــنـــي.. أما سيد فـــاختفى فجـــأة.. أيـــام.. أسابيع بلا رجاء، وها هو ذا البرد الأخير من الشتاء مضـــى، وهـــالحين يزحف العبق الأول لشذا الربيع، وقد أدركت هي أننا قد افترقنا:

-"قل لي هل أنت حقا أرسلته للأفغــان. هــل ضــيعته؛ ضــيعت وليدي.."-

كيف عرف أهالي هذه المدينة الصحراوية النائية عن العالم أن سيد يجاهد في سبيل الله ضد الشيوعيين. وأتراجع متسائلاً غير مصدق سفره هكذا وحيداً.. ألم يكن بمقدوره الانتظار، ولو ثلاثة أشهر. لكن ماذا تعني شهادة البكالوريوس أو الليسانس للمسلم إذا هو خرج لنيل شهادة الحــق؛ الشهادة الكبرى. وأن تضع الدنيا وراء ظهرك، وتسلك الطريق كما أمــر الله في كتابه الكريم، وكما جاء في سنة نبيه صلى الله عليه وســلم فهــذا ليس يسيرا أبداً.. أبداً. إن المؤمن في آخر الزمان؛ زماننــا الآن يكــون كالقابض على جمرة النار.. ولهذا السبب اعتصــم سـيد فــي حجرتــه بالمدينة الجامعية رافضا الخروج لمجرد الصلاة في مسجد القائد إبراهيم حتى لا تصيبه الفتنة.. فواجب المسلم هو الأمر بالمعروف والنهي عــن المنكر.. وكان هو حينذاك قد أدرك أن أذرع المنكر تسعى.. تنشر الكفر والفسق والفجور من باب المدينة الجامعية لأطراف الأرض..

.. قضيت الليل كله منسيا بالمقعد الخلفي لسيارة الأجرة تمرق مــن جانبيْ الأضواء الكاشفة المتناثرة على الطريــق الزراعــي. يجــب أن أكون صباح الغد مع الأخوة في الزقازيق..

الامتحان على الأبواب، ولا أعرف حتى الآن ما المواد المقررة في التيرم الأخير لي من السنة الدراسية النهائية بهــذه الجامعــة المحاطــة برائحة روث الجاموس ونهيق الحمير ونعير بائعات الجبن الفلاحي..

.. الضباب الكثيف يحجب أشعة شمس البكور، والركاب يغطــون في النوم، ورائحة السيارة من الداخل لا تطاق..

توجهت لباب الجامعة رأساً لأجد الحرس في انتظاري:

-"اركب.."-

قال الضابط بينطلونه الأسود وحذائه اللامع وقميصه الأبيض بينمــا الأيدي الثقيلة تلقي بي في صندوق شاحنة الترحيلات..

32

أبو كبير.. الشرقية، ٢٥ يولية..

والدي الكريم..

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته أما بعد..

لا تشغل بالك بي كثيرا.. أنا رجل وقادر على التحمل في سبيل الله.. أنت تعلم أن العودة لمرسى مطروح لا جدوى منها. صادروا مسدسك. لا تبالي. ثم إن زياراتك المتكررة ستكون بلا طائل دائما؛ فأنا خرجتُ توا من سجن الزقازيق، ومن غير المستبعد ترحيلي للقاهرة مجددا. فكيف ستعثر عليّ حينذاك..

أترك أمر الأوراق.. من المستحيل أن يسمحوا ليّ بالعمل كمعلم أو موظف. أنا أقيم مع بعض الأخوة هنا.. أرجوك؛ لا فائدة.. ثمة أخ فاضل بشؤون العاملين في التربية والتعليم سيسلمك الملف. أنا اتفقت معه على ذلك. نعم.؛ رفضوا الطلب للمرة الثالثة..

احتفظ لي بشهادة الليسانس. سأحتاجها قريبا للعمل في الخارج، وقد أجد الفرصة في السعودية بإذن الله..

أرجوك رجاءً أخيرا ألا تشغل بالك ولا تحزن ولا تهن.. وإذا سألوك عن سيد فقل لهم إنني أبحث عنه.. قل إنك لا تعلم مكاني أنا أيضا؛ إنني اختفيت بلا عنوان. أستحلفك ألا تتأثر بشكايات أمه أو أهله.. إذا ضيّقوا عليك، وألحوا في الأسئلة والزعيق فأغلق الباب في وجوههم.. أو اصنع ما ترى، واعلم أنني، والله، لا أدري لسيد موضعا حتى الآن..

إمبابة، القاهرة.. الأول من يناير..

والدي العزيز..

انقضت الشهور الثلاثة.. الزمن يمر.. أنا الآن إفراج..

المكسب الوحيد لي هداية تاجر المخدرات المحبوس في الجنائي لصحيح الدين. هو محبوس لسبع سنوات قادمة. تبحث إدارة السجن نقله لعنابر السياسيين..

حنيش، مطروح، ٥ مارس..

كيف لم تصلك أي رسالة. كيف تستمر في البحث عني. إنهم في السجون لا يخبرونك قطّ عن وجود أي معتقلين. حتى لو حصلت على إذن زيارة سيقولون لك خرجَ؛ بينما أنا في الداخل أو في أي سجن آخر..

أنا الآن على بعد خمسين كيلومترا من البيت. وتحت المراقبة كما تعلم؛ لكنها مشددة..

أرسل لي الآتي:

شهادة التخرج..

شهادة الإبعاد من أداء الخدمة العسكرية..

شهادة الميلاد؛ الأصلية..

أربع صور شخصية من تلك الموجودة داخل ظرف أبيض صغير على الرف الثاني من الجانب الأيمن في خزانة الملابس بحجرتي..

لا ترسل لي نقودا.. معي ما يكفي. كل ما أخشاه تجديد أمر الاعتقال قبلما أتمكن من استخراج جواز السفر. أدعُ لي.. إن شاء الله استخرجه بأسرع وقت..

استقبال طره مرة أخرى، القاهرة.. السابع من يناير..

السجن أفضل كثيرا من الحياة الطليقة الحُرة.. هنا نحن مثل الأشقاء.. إذا تحرك المفتاح في قُفل العنبر منتصف الليل فإننا نقفز من نومتنا جميعا، وكأننا قلب واحد ينبض مستشعرا ساعة الخوف. أنْ ينفتح الباب في هذا الوقت يعني أنهم سيجرُّون أحدنا للتحقيق. أو أنهم قرروا تدفئتنا بالضرب. أو أنّ هناك وافدا جديدا للعنبر. وقد كان.. ألقوا برجُل ضامر البدن حليق الذقن مهندسا.. بيد أنه ملطخ بالدم ووجهه تشوه

بالكدمات الزرقاء والسوداء.. أخذ يتطلع إلينا خلال الظلام.. وظهر لـه أن لحية أحد الأخوة كانت كثيفة وطويلة جدا فأصابه الذعر، وزحف للوراء متسائلا إن كنا بمعتقلنا هذا من أيام عبد الناصر. ثم أردف رافعا ذراعيه بالدعاء قائلا الله يخرب بيتك يا فتحي.. وبعدها أخذ يتفقدنا مستفسرا حتى اطمأن إلينا، وأنشأ يشرح لنا تفاصيل القضية التي اعتقل بسببها. وكان لا يعرف من أمور دينه تلك الليلة غير الصلاة في مسجد الحي يوم الجمعة. وأمضى شهرا يستمع لما نتداوله من القرآن والسنة حتى أصبح يأخذ دوره في إلقاء الدروس على الأخوة المعتقلين من طلاب الثانوي والجامعة. وكان الله قد سخّر له فتحي المخبر في مباحث مدينة نصر، لينضم إلينا ويصبح من المهتدين.. فتحي جاره، وعندما جرتهما زوجتيهما للعراك توعّد المخبرُ المهندسَ المسكين، وهو يدفع إصبع التهديد بوجهه مزمجرا بأنه سيرسله لما وراء الشمس. لكن كيف حدث ذلك. أولا تظاهر المخبر بأنه نسي خصومته.. وبعدما شرب معه الشاي في شقته فيما الزوجتان تتجاذبان أطراف العتاب، قال له لو تأتي معي مشوارا صغيرا يا باش مهندس.. خمس دقائق فقط. وهكذا امتدت الدقائق لشهور طويلة..

أبو زعبل السياسي، القاهرة.. الثالث عشر من يناير..

والدي الغالي بردٌ؛ البرد في الليل أشد..

أما بعد

لقد مزقتُ جميع الأوراق التي كتبتـُها لك.

أنا أكتبُ، وأنا أخاطبك بأنْ سأرسلُ إليك هذه الوريقات بطريقة ما؛ والآن مزقتـُها إربا..

معهد أمناء الشرطة، القاهرة، ٧ يونية..

وقف الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض في باب الغرفة. ظلّ ساكنا يتملاني دون أن ينبس بشفة. هو فتح الباب بنفسه.. وأرى نفسي الآن قد تراجعتُ فانكمشتُ بالزاوية كالأرنب المذعور. أحدق في

الضوء.. ضوء باهر، وكأن الباب تحول لصفحة بيضاء تعكس نورا. وبعد دقائق تبينت الظل الباهت الواقف بالباب.. دقائق أخرى، واتضح لي أنه هو؛ فـَــقـُــلْ عليه اللعنة مَنْ أدراه أنني هنا..

و الشهادة لله أثلجتْ طلعتـُــهُ صدري.. أزاحتْ من على كاهلي طبقات من الوحشة والغربة والهم المرير.. إذن فهذا واحد أعرفه يخرج من فم الظلام فجأة محاطاً بهالة من الشعاع الأبيض.. يداه في جيبيه.. رأسه مرفوعة فوق عنقه النابضة بالحياة والحرارة.. ياقة قميصه تنحدر مفتوحة على صدره كاشفة شعيرات نافرة من جلده الأحمر.. حزام بنطلونه يلف بطنه المشدودة كصقر يخفي ساقيه داخل سرواله المكوي بعناية، ويدسُّ مخلبيه داخل حذائه الأسود اللامع..

الشهادة لله أنني أعجبتُ به.. وأرى نفسي الآن مرتديا جوال الخيش أتزحزح متراجعا أطمر لحم بدني في الجدار جسدي ألقمُه للحجارة الصلدة المبرقشة بالزفت الطري أدك الرأس والعنق والصدر بين الفخذين.. هل كنتُ أئنُّ أم أردِّدُ ما أحفظ من القرآن.. أذكر جيدا أن وقفته طالت.. أن جلدي.. عظامي تكورت جميعها حول صُرتي كالجنين؛ هكذا..

صاح بغتة؛ وعليه انغرزتْ الركلاتُ على ظهري وفي مؤخرتي.. أسمعُ الخبطَ الثقيل هوى على رأسي ضربات عصا أو ما أشبه؛ المهم أنني لم أفق إلا جالسا فوق طبلية من الخشب تدور على اسطوانة أوتوماتيكيا؛ وأنا أدور معها:

-"أين كرم؟"-

-"لا أعرف.."-

-"و أين عاصم.. هو كان مع كرم في إسكندرية.. بعد ذلك أين ذهبا.."-

-"لا أعرف.."-

سبحان الله إذ أبصرُ الجالسَ الثابتَ أنا لا هُم.. إذ أبصرُ أن جدران الغرفة والضابط المتأنق بمقعده وكل مَنْ معه من زبانية وآلات وأسلاك وعصى.. كلهم سوياً هم الذين يدورون حولي وليس أنا الذي يدور حولهم..

يضغط الضابط علي زرٌ تحت يده فيُسْرِعُ من درجة اللف.. أقول إنهم سيسقطون جميعا من الإعياء حالاً.. بيد أنه كان كما عهدته دائما رجلاً عنيداً يضغط ليخفض دوران الاسطوانة في نفس اللحظة التي يمد فيها يده ليمسك بمقبض العصا الكهربائية فيراوحها في الهواء بمهارة ثم ينزل بها يمس بفولتاتها جسدي العاري حيث أرى الجدران تنتفض، ووجهه يرتجف مضعوقا قبل أن أغيب.. أغيب ولا أصحو إلا بعد أيام داخل غرفة الحبس الانفرادي..

ترحيلات الخليفة، القاهرة، ٩ أكتوبر..

الأيدي تتشبثُ.. تلتوي الأصابعُ على القضبان الحديدية لنوافذ العنابر العلوية المطلة على الشارع.. نحن خلف الجدران نحاول أن نرى؛ نحن رجال بجلابيب وشبان في بناطيل جينز. أنا ومن فوقي وتحتي وجوهٌ صفراء لها عيون واسعة حمراء من حولي الأظافر الطويلة السوداء تشدُّ القضبان تتلهفُ جاهدة أن تبصر.. أن تسمع الأصوات المختلطة القادمة من الخارج؛ أي من الشارع المرمي في قعر الأرض بعيداً.. يا حبيبي يا خويااا.. سجاير، وإيه.. إيييه...؟! محمد كويس.. كويس، وبيقولك أوعى.. مراتي طلقتها.. أيوه طلقتها.. قلت لك طلقتهاااا.. عيال.. عيال مييين.. ملعون أبووووو.. جبنة، وعيش.. اسمع.. يا شاويش.. يا باشا.. يا حبيبي يا خويااااا.. بأقولك في ستين داهية.. عيش، وجبنة.. أيوه.. طلقتها.. بيقولك.. بيقولك أوعى..

خليط من البائسين بثيابهم المتسخة وروائحهم النتنة.. أتطلع لدنيا الله الذي كرَّم الإنسان فيهينه أخوه يجبره على التبول في ملابسه بجوار برازه الكريه ينام.. أفكر في أن لكل واحد منهم هجرته التي لا بد هاجر

إليها قبل أن يلقوا القبض عليه.. يجرجرونه كعب داير على عموم أقسام الجمهورية.. فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه..

مديرية الأمن، مرسى مطروح.. ٢٦ فبراير..

والدي الغالي..

أنا بجوار البيت أستكملُ إجراءات الإفراج.. سيخلون سبيلي ليلاً، وفي صباح الغد سأستخرج جواز السفر كما وعدتك، وأمشي هم لا يمانعون.. فأستريح وأريح.. كانت الرحلة خانقة داخل زنزانة سيارة النصر الكبيرة من القاهرة فجراً - بلا طعام ولا شراب - لآذان المغرب هنا تواً.. لو في إمكانك تأتي الحين.. إنني ألمحُ سقفَ بيتنا إذ أنظر عبر كوة الطابق الثاني من مبنى المديرية؛ فلا تتأخر.. ملحوظة: أعطِ حامله، المخبر حسنين، خمسة جنيهات..

عمارات المغتربين، جدة.. ١٥ مارس..

والدي..

قد لا أبعث رسائل لفترة حتى أستقر على عنوان جديد.. أنا في خير أمشي على نهج كتاب الله وسُنة نبيه صلى الله عليه وسلم.. معي أخوة عرب مثلي هم أكثر من أشقاء يساعد بعضنا بعضاً.. لن أبقى هنا كثيراً.. باب الرحيل مفتوح.. يبدو أن الكل يريدنا أن نذهب بعيداً.. نرتبُ للسفر إلى خارج السعودية قريباً..

لقد مزقت جميع الأوراق التي كتبتُها.. أنا أكتب فيما أخاطبك.. أقول سأرسل لك هذه الوريقات بطريقة ما؛ والحين مزقتها.. ألقيت بها مع الريح..

حي العراق؛ الكويت سابقاً، صنعاء، ٣ أغسطس..

والدي الغالي..

ليس صحيحا أنني ذهبت لأفغانستان. التحقتُ بجماعة التبليغ والدعوة.. نعم. سأشرح لك الحقيقة حين أعود.. لن أبقى طويلاً باليمن.. الأحوال تسير على ما يرام؛ ولا تشغلن البال بأسئلة والدة سيد.. دعها تقف خارج الدكان حتى تتصرف وحدها.. لا تتعارك معها.. لا تؤلب على نفسك المشاكل مع أبناء عمومته، واجعل كلامك مع والده فقط.. قل لأبيه أنك لا تعلم عني أو عنه شيئاً.. كلمه بطريقة غير محددة حتى يصدقك.. على سبيل المثال جاوبه بلا مبالاة بأن الأخبار تصلك بطريق غير مباشر بأننا نعمل في مكان ما بالخليج في السعودية أو ما أدري. بهذه اللهجة سيظن أنك تعرف أننا بخير، وأنك كتوم تخشى علينا الحسد أو ما أدري. وأننا في مأمن من الغارات الأمريكية والصواريخ العراقية، فهو لا بد يستمع لإذاعة لندن كعادة البدو.. قل له ذلك متماسكا بنبرات واثقة؛ فتتخلص من زوجته ومن زياراته الثقيلة أسبوعين أو ثلاثة.. ثم هل أنا لم أجتهد بحثاً عن سيد.. يا أبي طفت وراءه البلدان والحدود حتى أكاد ألمس طرف ثوبه.. سأعثر عليه قريبا إن لم يكن غدا فبعد غدٍ لا محالة..

فندق السلام، جدة، ١٩ نوفمبر..

يا أبي استحلفك بالله ألا ترضخ له.. لا توافق على حضور المجلس العرفي.. والد سيد داهية، وإذا جرّك لعواقل القبائل فسيطلب منك الالتزام أمامهم بأشياء تبدو لك حينها صغيرة، وهي كبيرة لو كنت تعلم مكرهم.. ماذا يعني تعهدك بأن ابنهم في عنقك غير التسليم لهم بأخذ الثأر منك أو مني أو من أخي إذا لم يظهر سيد.. هل وصلتك الخطابات الأخيرة؛ وإلا أين اختفت.. أنا لا أوافقك على موضوع هدم البيت.. دع البنك فهو ربا.. بيتنا بالحلال قائمٌ أبرك من عمارة تدر دخلاً من الحرام، والعياذ بالله..

والسلام..

فندق الحرمين، جدة، ٣ سبتمبر..

لقد عدت إلى جدة للمرة الثالثة، وأقول لك إنه ليس صحيحا أنني تعرضت للتعذيب لا في لاجوس ولا في ترانزيت مطار القاهرة.. من أخبرك إنني احتُجِزتُ.. يقيني أنه الضابط إياه.. هو يريد تعذيبك.. هكذا يبتغي المزيد من المعلومات؛ فيستثيرك بالأكاذيب.. شائعات لا تسمع لها مثل تلك التي وصلتك عن سفري لأفغانستان؛ فلا تصدق.. أما لماذا لم أكتب إليك طوال المدة الماضية فهذا لأنني تجولت هنا وهناك في بلاد الله بآسيا مع جماعة خيرية نعلّم المسلمين أمور دينهم كداعية بأوراق رسمية.. توجهتُ بعد ذلك لنيجيريا أيضاً.. كتبتُ مقالات في الصحف.. لكن كيف لم تصلك أية رسائل.. لقد بعثتُ لك الكثير، ومع ذلك أقول إن الحقيقة سأفصّلها لك حين نلتقي.. حججتُ عنك هذا العام كما وعدتك.. لا توجد أي أنباء عن سيد؛ وسأعثر عليه فصبرا، ولا تقطع على نفسك العهود.. لا تطلب مني الرجوع لمصر.. إن الأمور تختلف تماما عما تظن.. هل أنا أريد العودة؟ نعم، والآن.. لكن لن أقدِم على ذلك حتى تستقر الأحوال.. من أجلك، ولصالح أخي على الأقل.. أنت تعلم ماذا أعني.. كان الضابط ذاته متحمسا منذ البداية لكي أترك مطروح وأسافر إلى أقصى الأرض، واليوم لن يسمح لي بالعودة بسهولة.. لن أعود لدائرة التحقيقات والاتهامات.. لا تشغل البال وسأعود يوما ما.. لكن ما معنى هدمك البيت وبناء عمارة مكانه.. هل تقيمون بفندق الآن.. هل لهذا السبب لم تصلك الرسائل.. ثم مَنْ سيتولى تأجير الشقق.. أنت أم البنك.. لا شك أن هناك أقساطا وفوائد عالية بينما المصطافون لا يقيمون بالمدينة إلا شهور الحر الثلاثة لا غير.. لا تقل لي إن البنك سيحصل مستحقاته في الصيف فقط..

و السلام عليكم..

مكة المكرمة، السابع بعد العشرين من يناير..

الأخ المصري الذي يتحدث عن الإسكندرية كأنها شقيقته لا يثق بي أبدا.. يظن أن ثمة بوابات مغلقة لم أفتحها له. وكان أثناء ساعات ما بعد

العشاء، حيث اعتدنا السهر بغرفة الضيافة التي أنام فيها بمنزله، يفاجئني بسؤال عن الأخوة المجاهدين بأفغانستان.. عن رأيي في الوجود الأمريكي بالسعودية.. عن أسامة بن لادن.. عن علاقتي بـ.. عاصم، وكرم:

-"و كيف لي أن أعرف. لكن ما رأيك أنت. أقصد المعيشة هنا. لو وجدتُ عملاً، ولو تمكنت من جمع ثمن تذكرة، لسافرتُ على الفور لأوربا.."-

هكذا أجاوبه مبتعدا بالحديث إلى آفاق جديدة؛ فينساق ورائي محاولا أن يستشف إن كانت لي علاقة بأحد من الأخوة في الخارج، فأقول له لا أعرف أحدا بالتحديد، ولكن كما أسمع يوجد المركز الإسلامي في ألمانيا.. يغص بالمسلمين العرب والأكراد والأتراك.. قد أجد من يساعدني على البداية من جديد؛ أعمل وأحيا..

قال لي إذا ما فكرت جديا في السفر فإنه سيساعدني، وييسر السُبُل بما فيها الإقامة والعمل في ساربروكين.. قال لي ذلك ذات يوم وكنا جالسين حول طاولة الطعام.. هالحين بعد أن انسدت الطرق أمامي أخذتُ أدفعه دفعا لكي يفتح الباب.. بابه هو؛ فلماذا..

.. لماذا يسدّدُ لي ثمن تذكرة السفر؟

كل الأجوبة ظلت معلقة.. لم أعي الحقيقة إلا مُتشَهما داخل قاعة محكمة فرانكفورت.. محكمة أو معتقل أو ما أدري مبنى تحيطه الأسوار الأسمنتية، وفيه الأسلاك الشائكة والحراسة المشددة والمعاملة الحسنة..

المهم أنني منذ أفقتُ بين تكايا الحجيج على وجه الأخ الذي يعشق إسكندرية، وأنا أتشكك فيما إن كانت لديه معلومات عن فترة الجهاد؛ جهادي في جاجيمدان ومعسكرات المأسدة أم لا.. يجرني للماضي سويعات، ويأخذني لما هو قادم بضع سويعات أخر:

-".. هناك أخوة لنا سيوفرون لك العمل في تدريس اللغة العربية والدين الإسلامي.. سأهاتفهم مساء اليوم إن أردت أحدثهم عنك. إذا عرفوا عن نشاطك في لاجوس، وكونك داعية، لن نقول سابق، في رابطة العالم الإسلامي؛ هه.. فقط أترك الأمر لي، وستستقر لك الأحوال هناك كما لم تتخيل من قبل، وستعيد لي ما أقرضك من مال الآن. هذا عمل؛ هه.. ولا شئ أخر!"-

كنت أعرف أن الأمر برمته مريب لا يجب الاستبسلام له.. هذا في ذات الوقت الذي أدرك فيه أن الاستمرار في صنعاء أو مكة أو غيرهما من البلاد العربية لن ينتهي بي على خير. لقد تزايد صوت الخطوات التي تتعقبني.. أصبحت خبطة الحذاء على الأرض تضربُ خلفي مباشرة؛ فيرنُّ إيقاعها على الرصيف.. أي في أذني..

.. وفي نهاية المطاف أقول ماذا سيضيرني لو ذهبتُ لألمانيا، وهناك لابد أن أقطع صلتي بهذا الأخ المصري الذي يحب الحديث عن إسكندرية. أرسل له نقوده من هناك، وأنساه. أبحث عن عمل بنفسي حتى لو بعتُ المناديل الورقية على أرصفة ساربروكين وفرانكفورت. ألتحق بالدراسات العليا في إحدى الجامعات الكبيرة.. أقطعُ صلتي بما ورائي إلى أن يشاء الله.. بالعرب بصراعاتهم المفتعلة التي لا تنتهي مثلها كمثل صراعات القبائل الأفغانية؛ فبعد أن أخرجنا الشيوعيين من بلادهم دخلتْ القبائل في حروب ليسفك بعضهم دماء بغض.. كأنهم لم يجاهدوا يوماً كتفا لكتف ضد عدو واحد.. أتعجبُ حيث الخلافات والمنازعات المسلحة لن تنتهي هناك، كما أنها تتصاعد هنا أيضاً.. الطائرات الأمريكية تخرج من مطارات البلدان العربية المسلمة لتقتل الناس العرب المسلمين في البصرة وبغداد والموصل بعد أن أخرجت قوات صدام من الكويت .. وحسب خطبة للشيخ أسامة بن لادن أكد فيها، ونحن على جبهة القتال في خوست، أن العرب والمسلمين لن يستريحوا أبداً إلا بعد القضاء على الإمبراطورية الكافرة.. واليوم أفكر..

تُرى هل كان الأخ أسامة يقصد الروس الشيوعيين فقط أم أنه كان يعلم أن الأمريكان في السنوات المقبلة لن يحرمونا فقط من الحصول على السلاح بل سيضربوننا به إذا لزم الأمر!

أقلبُ البصر فأقول ها هو ذا العقد قد انفرط.. ها هو ذا الجيش الإسلامي البلاأرض الذي حاولنا تكوينه في أفغانستان قد دخل مع الجماعات المتناحرة في حربٍ أهلية فارغة؛ فأي خطأ..

أقلبُ البصر مرات فأرى الشيخ أسامة يجتاز الوديان والجبال غريباً مجرداً من جنسيته محروماً من أهله وقبيلته.. أغمضُ عينيَّ.. أقولُ آهٍ لو أضع قدمي فيك يا ألمانيا.. لمسحتُ من رأسي العرب وبلادهم المخيفة.. أتحسّسُ الآلاف الثلاثة من الريالات؛ فتهتزُّ جنبات صدري بالشك والريبة.. إنَّ الأخ السكندري رجل صموت.. هيئته بلا جدال طيبة.. شفته السفلى محددة بزاويتين فيهما ابتسامة مكبوتة واثقة وساخرة كمن يحترف الكذب.. لحيته السوداء نافرة على جانبي وجهه تحجب أذنيه تماماً.. هكذا أجده إذا ما جلستُ أمامه؛ فليتني لم أجلس..

33

أريد العود إليك الآن يا مرسي مطروح.. يا إسكندرية.. يا شوارع القاهرة والزقازيق.. يا زنازين طرة.. لو أغمض عينيَّ هنا داخل هذا السجن الألماني الفاخر، لأفتحهما على وجه الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض بمصر؛ وهو ما حدث في نهاية المطاف كما ترى.. فهل أنا أحب التعذيب وسماع الخطوات تتردد وراء ظهري؛ خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

لا أدري.. لكنني أدركُ اليوم حقيقة الخطأ منذ البداية حيث روحي ما استراحت تقول لي لا تنساق وراء كلمات ذلك الأخ المصري الذي يتحدثُ عن إسكندرية كأنها شقيقته.. لا تعطه صورة من جواز سفرك؛ فالله وحده يعلم لمن سيرسلها في ساربروكين تلك. أولاً هو رجل يعرف الكثير الكثير.. وقف داخل كابينة الهاتف، ونحن على أطراف مكة لم نزل، وبعد أن تجادل باللغة الفرنسية انقلب للإنجليزية التي فهمت من بعض كلماتها أن الطرف الأخر ينصحه بعدم سفري لألمانيا عبر مطارات السعودية.. يستوضحه الأخ المصري:

-" مِنْ صنعا، ولماذا لا يسافر من جدة؟ حسناً؛ صنعا صنعا.. وهو كذلك. متى.. هه؟ طيب. نعم.."-

قال لي إن عاصم المطلوب القبض عليه في مصر يعيش مع الأخ كرم ببلدة على الحدود الفرنسية الألمانية، وإن الأخوة هناك سيتكفلون بمساعدتي ثم لن أتعب بعدها إطلاقاً..

و ما علاقتي بكرم وعاصم.. وكيف لن أتعب أبداً؟

أسأله فيتبسم، ولا يرد.. في اليوم الذي عقدت فيه العزم على الرحيل إلى خارج الوطن العربي كله بشكل نهائي، أخذني لمرآب كبير مجاور لمسكنه، ومنه استقل شيروكي سوداء مكيفة الهواء مزودة بأجهزة تلبي جميع الحاجات.. حتى كوب الشاي تجد الوسيلة التي تعده بها داخل القمرة الشبيهة بالمكتب الوثير.. كانت المرة الأولى التي أدرك فيها أن

لديه سيارة خاصة.. والمرة المئة التي يهتف داخلي وحيٌ بأنْ أهرب منه ما وسعني الهرب.. لكن هيهات.. أقول لروحي لو تركتُ نفسي يضربني شارع ليتلقفني شارع آخر في المدن السعودية هذي، فلا ريب مصيري سينتهي بالترحيل مقيداً بالسلاسل إلى القاهرة، وما أدراك ما الترحيل مقيداً إلى القاهرة..

اندفعتْ الشيروكي مساء في شارع مرصوف حديثاً موغل في البيداء يمتد حتى الإحساء علي مبعدة تزيد عن تسعمائة كيلومتر؛ إلا أنه توقف تحت جنح الليل بعد مسيرة تقارب الساعة.. كان كمن ينفذ مهمة محددة فيما الوحي لا يني يضرب قلبي يقول لي أنْ فِرَّ من هنا عبر الصحراء كي أغيبَ في آخر الدنيا حتى أدخل الأفق البعيد أتوارى خلف الظلام..

كان قد أطفأ المحرك، وصفق الباب وراءه، وتوجه إلى جانب الطريق حيث لوحة كبيرة تبينتُ عنوة أنها كابينة هاتف. أنظرْ.. إنه لم يتحدث مباشرة؛ بلْ أخذ يشد الأسلاك من مكامنها، ويفككها من أطرافها ثم يشربكها بأطراف أخرى متصلة بجهاز صغير أخرجه من جيبه. هنيهة، وارتفع صوته متسائلا:

-"و لماذا لا يسافر من جدة.. حسنا؛ صنعا.."-

كان أنا هو من يعنيه. وأحبس الدمع في عينيَّ.. كيف أنا الآن كالمعتقل في هذه الزنزانة المكيفة المتحركة.. كيف أنا الآن انزلقتُ إلى محبس هذا الأخ المريب؟!

هل عاصم وكرم هما سيد والمخرج الأصلع أو العكس.. هل هما.. هما.. طيب إذا وجدتُ رجلين غريبين ينتظراني في فرانكفورت ماذا أقول لهما.. ماذا أفعل في ألمانيا وحدي مع أشخاص لا أدري إن كانوا أخوة حقا أم مجرد عملاء للأجهزة الأمنية في مصر أو الجزائر أو ليبيا أو غيرها..

أطمئنُ نفسي.. أؤكد لها أنني فور أن أضع قدمي فيك يـا ألمانيـا سأنحرف انحرافا.. سألتحق بالجامعة للحصول على درجة الدكتوراة في السياسة الدولية أو ما أشبه ذلك.. أعملُ وأدرسُ وأعيش حرا بعيداً عـن العالم جميعه.. أشتغل ولو بائع مناديل على الأرصفة.. أغسل الأطبـاق في المطاعم عائداً لنقطة الصفر كأني مازلتُ أنظّـفُ كؤوس كـازينو الـ.. جي. آر بمرسى مطروح؛ آه.. لو أجد نفسي الآن جوار سيد نسير الهوينى على الكورنيش، والبحر يطرطش حولنا لاطماً خدود الصـخور الباردة الزلقة المشبعة بالطحالب والملح والرمل؛ اه.. وأحبس الدمع فـي عينيّ.. كيف أنا الآن محبوس في هذه البلاد الممتدة مـن المحـيط إلـى المحيط. كيف أنا الآن صغيرُ الحجم مثل عقلة الإصـبع وحـدي علـى أطراف صحراء الربع الخالي القاحلة المخيفة الممتلئة بالصمت والفـراغ والألوان الصفراء المثيرة للغثيـان فلـيس غيـر أن أقطـع الخطـوات قُـدُما.. إلى ألمانيا أحدقُ بحثاً عن الحفرة التي سأسقط فيها لا محالة.. أمشي، ويدٌ تدفعني إلى الأمام.. فهل هي يد سيد تضغط ظهري لأواصل السعي الحثيث إليه حيث يعيش في فيلا تطل على جبـال الـثلج قـرب الحدود الفرنسية؛ فأقطعُ الخُطى لا ألوي..

رَجُـلٌ بالمقعد الخلفي يتطلع نحوي ثم عندما ألتفـت إليـه يخفـي وجهه بين أوراق الجريدة. هبطتْ الطائرة، ونزل في أثـري.. خطـوة بخطوة حتى مبنى السفارة الألمانية بصنعاء؛ فالحمـد لله إذ لـم يـدخل ورائي. والشكر لله إذ وجدتُ الفيزا تنتظرني علـى الكمبيـوتر. مـلأت الفراغات الموجودة أمام الكلمات الألمانية على عجلٍ باللغـة الإنجليزيـة التي أعرفها، وطلبتْ السكرتيرة العودة بعد الساعة الواحدة ظهـراً؛ بيـد أنني لم أخرج من المبنى.. جلستُ بقاعة مكيفة أنتظر مع المنتظرين فيما الوحي ما انفكّ ينفضُ فؤادي كل حين منبها لاقتـراب سـاعة السـقوط. فمتى تكون، وأين.. ولم يكن من سبيل سوى ربط حزام الأمـان حـول بطني متشبثاً بالمقعد المتاح فأطيرُ مع الريح..

قبل تسلمتُ جواز السفر مختوما بالتأشيرة.. قطعتُ تذكرة ذهاب وعودة، تحسبا للطوارئ، على خطوط اللوفتهانزا.. التشديد الأمني في مطار صنعاء جعل أوصالي ترتعد.. أخشى أن يستوقفني اليمني القصير الأسمر فيمسك بتلابيبي منتصرا آمرا أنْ تعال.. مطلوب تسليمك للسلطات المصرية؛ فأنت الآن متلبس.. لن يفيدك الإنكار.. أنت تعرف مكان عاصم وكرم. وهكذا يتردد صوته الحاد في أذنيَّ وسط جلبة المسافرين.. ضباط في كل مكان. القصف الأمريكي والبريطاني المتواصل على العراق يستوجب التدقيق في أوراق المغادرين والقادمين.. أضف إليها الخلافات المتشعبة هنا وهناك؛ كلها تؤدي للتشكك في سحنة أي عربي حزين تسوقه الظروف للسفر بالطيران..

من المفترض أن أجري اتصالا فور خروجي من مطار فرانكفورت.. الأرقام والأسماء في جيبي.. كل شيء في جيبي حتى النقود، ومع ذلك أخافُ..

الساعات التي شعرت فيها بالطمأنينة كانت من أعلى السُّحب؛ فكأنها جبال من القطن تتعرج ثم تنبسط تحتي بينما خدي ملتصق بالملمس البارد لإطار النافذة الجانبية.. ومنه أبصرُ طرف الجناح الأيمن للطائرة منزلقا في الفراغ؛ فما أطيب راحة البال.. وحدي دون أن يكون ثمة أحدٌ في المقعد المجاور أو في المقعد الخلفي.. كانت المضيفة فقط بأنفها الألماني الذي يشبه أنوف الرجال ترمقني بابتسامة متكلفة في الرواح والمجيء؛ فيلكن..

ركبت الأتوبيس من المهبط إلى صالة الوصول، وهناك اجتزت الطريق لأكتشف أنني أصبحتُ خارجا مباشرة في الشارع دون أن أختم جواز السفر بشعار دخول البلاد. يا للمصيبة. عدتُ مهرولا، فأرشدني أحد العابرين لصفٍ من النوافذ.. قال لي الرجل، وكأنه يعرفني مسبقا.. مرحبا بك في ألمانيا. لا حاجة للأختام أو ما أشبه؛ تفضل..

المسافة من فرانكفورت إلى ساربروكين تزيد على المسافة من الإسكندرية لمرسى مطروح بنحو خمسين كيلومترا، إلا أن القطار السريع اخترق الريح والجبال المتجمدة وغابات الشجر المائلة على سفوح الوديان.. حالما بلغ محطته الأخيرة.. أي قبلَ أن أستجمع ملامح واضحة لصاحب الصوت الذي كنت قد اتصلت به.. لم يكن صوت سيد ولا نبرات مخرجنا الأصلع.. كما أنه، عندما سألته عمّا إذا كان اسمه عاصم أو يعرف كرم، ضحك وقال عندما تصل ستعرف..

يبدو أنني سمعت رنين حنجرته في مكان ما. أتتبعه يتردد من الهاتف مرحبا بي بأنه أولا، وقبل كل شئ حمدا لله علي سلامتك إذ هبطتْ بك الطائرة في فرانكفورت سالما.. ثانيا أركب علي الفور القطار الذي سيتحرك بعد عشرين دقيقة.. وفي محطة ساربروكين ستجدني انتظرك. فقط قل لي الآن ماذا ترتدي من ملابس؛ ما لونها؟

وقفتُ على الرصيف يرتطم بي العابرون الصُّفر طوال القامة، وفجأة صاح رجل ملتح قصير كالأحدب في العقد الثالث من العمر.. تقدم نحوي فاتحا ذراعيه مهللا بلكنة أردنية:

-"إنك لم تتغير.. ما تغيرت. كما أنت؛ لا.."-

تراجع خطوة، وأضاف بغتة:

-"ازددت وزنا، وامتلأتَ قليلا.. هه؟!"-

لم أجاوبه خيفة وارتيابا.. بل تراءت أمامي الحفرة التي سأقع فيها لا محالة. وظللت أفكر، وأنا جالس جواره داخل سيارته، عن مغزى سؤاله، وعما إذا كان الأخ المصري قد نقل له تفاصيلي التي يعلمها عني بطريقة ما بما فيها تلك التي أظن أنني أخفيها تحت بلاط عقلي. هل كانت لديه كل المعلومات.. وحتى لو كان الأمر كذلك إذن ما شأن الأخ الأردني برشاقتي أو زيادة وزني.. المهم قُل إنّ المرسيدس نقلتنا للفيلا؛ مسكنه.. جلسنا حول مائدة الغداء يحاول كل منا أن يضفي جوًا من المرح والثقة.. أي ثقة! أقول، وأضربُ بالشوكة في طبق اللحم المشوي الشهي..

و خاب ظني. فـ..عاصم، وكرم لا وجود لهما:

–".. كانا هنا العام الماضي، واشتريتُ هذه الفيلا منهمـا قبـل أن يغادرا.."–

–" إلى أين؟"–

سألته؛ فنفر قليلا.. ثم هدأ، وبسـط أساريره، مراوغـا بلهجتـه الطرية:

–"شو خي؟ هاي لحم بقري مذبوح على الطريقة الإسـلامية. مـو خنزير يعني؛ كـُـل. صحتين.."–

–"يعجبني، والحمد لله. لكن لا أريد أن أثقل عليك. فقط لو توضـح لي الأمور.. أنا كنت أظن عاصم أو كرم سوف.. أعنـي أننـي كنـت أحسب أنك، لا تؤاخذني، أحدهما. فالعنوان. يعني في السعودية لم يـذكر لي أنني سألتقيك.. أقصد قد أثقل عليك. لم أدر أنهما سافرا فإلى أين لـو كنت تعلم إن كانا هنا بألمانيا أو.."–

المهنة التي يُعرف بها الأخ الأردنـي هـي الطـب.. لـه ثـلاث عيادات.. واحدة ملحقة بهذه الفيلا المحاطة بالأشجار، والتي تقـيم بهـا أسرته المكونة من زوجة ألمانية وولدين يافعين. وأخرى في شقة بمدينـة فرانكفورت، وعيادة ثالثة في برلين على مسافة ألف كيلومتر. وهـذا لا يبشر بالخير.. كما أنه لا يثير الريبة فقط؛ بل يدعو لأن يفر الواحد مـن أمامه فرار السليم من الأجرب. وتطرق المطارق على يافوخي أنْ أفـق فيما لم يعد أمامي غير المشي قـُـدُما لا ألوي..

أسبوع كامل أفنيتُ أيامه متجولا داخل شوارع ساربروكين؛ مدينـة صغيرة هادئة يتزلج فيها الناس بلا همّ على الجليد، ويتسـابق الصـبية بالدراجات مرَحا، وتتريض العجائز الشقراوات على العشـب الأخضـر مثل طيور بوحمرا الشائخة..

كان الحُكمُ على الطبيب الأردني منذ البداية أمرا صعبا. أقيسُهُ فـلا أجد له عندي ثوبا مناسبا. أقول إنه صادق سليم الطوية أخٌ مـن الأخـوة

الذين لا بد جاهدوا في جبال المأسدة حتى احدودب، وألقتْ به المقادير لبلاد الكفر هذه؛ فاجتهدَ، وأشتغل، وتزوجَ حيث تمكّن من حملّ الجنسية الألمانية ليُطلّقَ العُرْبَ وديارَهم غير آسفٍ على أيامهم السوداء مثلما أريدُ أنا الآن بدءَ حياةٍ جديدةٍ بالعمل والدراسة، وسيعقبها الزواج بإذن الله ثم التجنس لأكون مواطنا من أهالي ساربروكين أتزلجُ على الجليد مع المتزلجين.. طيب إذا لم أجد زوجة مسلمة هنا فلتكن مسيحية أو وثنية ليهديها الله على يديَّ فتنجو من عذاب الآخرة؛ فأي ثواب.. لكن لماذا كان الطبيبُ لا يريح قلبي بتاتاً.. ما أكاد أرسم الآمال وألونها حتى يداور بكلامه ويناور فيثير فيَّ القلق النائمَ في رأسي وصدري رغم أنه ألحقني بوظيفة محترمة في مدرسة مكونة من ثلاثة طوابق لونها أحمر يديرها رجل ألماني ذي أصولٍ شامية يَدْرسُ بها التلاميذ العرب من المسلمين والمسيحيين حتى نهاية مرحلة التعليم الأساسي..

أقمتُ في حجرة مجهزة تابعة للمدرسة شعرتُ فيها بالراحة.. زالَ الهمُّ بيد أن رخاء الحال لم يستمر طويلاً.. كان كل شئ قد تم إعداده سلفاً.. أنا فقط مَنْ ظلَّ لا يدرك ما يدور حتى سقطتُ بين جدران السجن المحصن بالأسوار الحديدية، وسيارات البولتساي المصفحة..

المهم أن الاتفاق مع مدير المدرسة كان واضحاً.. أقوم بتدريس اللغة العربية والدين الإسلامي مقابل ثلاثين مارك في الساعة الواحدة.. بحسبة بسيطة فإن عملي عشر ساعات في الأسبوع سيعود عليَّ بأكثر من ألف مارك شهرياً؛ فانظر ماذا جرى حينذاك في يوم طويل شاق لا أنساه.. أنا معلم، فما شأني بنقل الكتب من غرفة لغرفة.. الغريب أن المدير كان يلح يطلب مني حمْلَ مزيدٍ من المراجع والمجلدات والأضابير لنقلها إلى الطابق الأخير.. بعدما أنهكني الصعود والهبوط قال لا.. فلنعيدها لمكانها.. المكتبة في الطابق الأول أفضل..

ماذا أملك غير الانصياع لأوامره.. أكبح جماح الغضب للحفاظ على إقامتي المجانية في الحجرة الملحقة بالمدرسة.. كما أن اليوم

إجازة.. لا يوجد غيري مع هذا المدير الماكر داخل المبنى الطويل العريض.. فلأصبرنَّ عليه كما صبر الأنبياء والصديقين، فما بالك وأنا في ألمانيا حيث لا أحدٌ يعرفُ أحداً.. المهم.. ما أن انتهيتُ من الشيل والحط حتى جاءت المفاجأة الثانية:

-"أنظر يا شيخ.. فلتستغل بقية اليوم في تنظيف الحجرات الدراسية بالطابق الثالث.. لقد مررت هناك، وحالتها مزرية."-

- "اسمعْ.."-

نهرته.. وبعد أن تنفستُ ومسحت العرق عن جبيني شددتُ أذنه وهمست فيها:

- "أنت لا تعرفني.. أحب مُوْجز الكلام.. أنا معلم؛ أعلِّمُ التلاميذ لا أكثر.. لا نقل كتب.. لا تنظيف فصول.. أعطني مستحقاتي، ودعني أغادر لحال سبيلي بالحسنى.."-

تظاهر بالدهشة أولا ثم ادَّعى أن التعاون من مبادئ الإسلام.. هنا استشاط غضبي.. مسكتُ بخناقة.. دفعته فالتصقَ بالجدار:

-"عن أي إسلام تتحدث.. عن لحم الخنزير المدنس الذي تأكله.. عن الخمور المحرمة التي تشربها.. عن زوجتك العاهرة.. عن هويتك الأجنبية التي حصلت عليها بالزنى؟ ماذا تريد مني.. أنت تدفع بي، يا رجل، نحو الكفر دفعا.. كيف تطلب مني الوقوف أمام كاميرا الفيديو لأمارس الفجور مع مومس ألمانية لمجرد الحصول على الجنسية.. ملعون أبو جنسيات دول العالم كلها.. أنت تدفعني، يا خنزير، للكفر رأسا؛ فعن أي إسلام تتكلم أخبرني توا.. أنت لا تعرفني.. أود الاختصار عند هذا الحد.. هات مستحقاتي؛ الآن هاتها.."-

خرجت من المدرسة مطرودا شرَّ طردة على أيدي البولتساي الألماني الذين يشبهون المخبرين الأجلاف عندنا.. دفعوني خارج السور بعدما انتزعتُ خمسين ماركا من المدير القذر.. خمسون فقط يا ابن الكلب.. طيب. وحين شكوت للطبيب الأردني تظاهر بالدهشة رافعا

حاجبيه الكثيفين متبرما بوجهه المغطى بالشعر كوجه القــرد.. وأجــرى عدة اتصالات بمدير المدرسة دون جدوى.. يعدُ ويخلفُ الوعــدَ كأنهمــا يتفقان بتلك المماطلة على توجيه خطواتي لطريق محــددة لا أعلمهــا.. يتعلــّـلُ بمشغولياته الكثيرة غير أبه لحاجتي لبقيةِ مســتحقاتي.. لعمــلٍ جديدٍ وسكن بديل.. هكذا دواليك حتى قضيتُ على آخر مارك.. ضربتُ يدي في جيبي فلم أجد غير أوراق ذابلة عليها عناوين وأرقــام هواتــف لأشخاص لم ألتقيهم بعد.. كيف ظلت تتنقل معي من جيب لجيــب ومــن شارع لشارع منذ كتبها الأخ السكندري بمكة إلى الآن حيث أدورُ علــى غير هدى أرتعشُ من البرد في ساربروكين الممتلئــة بالعجــائز اللائــي يشبهن طيور بو حمرا الشائخة.. كانت الواحدة منهن تمــر بجــواري.. أي بجوار الجسد الملقى على جانب الرصيف.. تمر العجوز منهن مثقلة بأكياس الخبز والفاكهة والنبيذ.. تستدير برأسها تتفحصنني بعينيها وهــي تسير قــُــدُما ثم تنتفض مزمجرة بلغتها المحلية قبل أن تفرّ مذعورة..

34

ألمانيا تعجُّ بالجواسيس والمرتزقة؛ فلا تأمن لأحدٍ هُنا خاصة من العرب والأتراك والأكراد.. إنك لا تكاد تفرق بين المجاهدين المخلصين لوجه الله تعالى وأولئك المندسين بينهم من عملاء الحكومات والأجهزة.. دنيا داوية!

الطبيب الأردني رجلٌ لم أر له مثيلاً لا يهدأ يجوب البلاد من أقصاها لأقصاها في برلين يمكث يومين فيعرف حيث هو هناك لم يزل ما يدور في مساجد ساربروكين يعلم بما يجري في الجمعيات الإسلامية بفرانكفورت.. يحيطُ في التو بمن ذا الذي ألقى خطبة الجمعة في مركز العاصمة.. يكفيه سماع الاسم عبر الهاتف من على بعد مئات الكيلومترات؛ لتجد تحت يده ملفاً وافياً.. دقيقة واحدة، وآه.. نعم.. إنه جزائري لم يكن يحب الظهور بالأماكن العامة عند وصوله لألمانيا مارس الماضي.. كان يحارب قبلها بأفغانستان.. جُرح وعُولج شهر كذا من عام كذا في المستشفى العلاني بمدينة بيشاور الحدودية.. كان من المفترض ترحيله بقرار من السلطات الباكستانية لبلاده؛ لكنه هرب إلى السودان وخرج في قافلة من سيارات اللاندكروزر- تلك القصة الشهيرة- المحملة بالأسلحة خلال مدقات العوينات الواصلة لواحة الكُفرة، وانتهى سجيناً في بنغازي ثم أرسل لطرابلس.. وكان ثمة اعتقاد بأنه قد تم تسليمه للأمن الجزائري.. وإذ ظهر أخيراً بالمركز الإسلامي هنا؛ أصبح من المؤكد أنه عنصر نشط يعمل لصالح المخابرات الفلانية..

لم يكن الفرق كبيراً بين الطبيب الأردني والأخ المصري ابن إسكندرية المقيم بمكة.. الاثنان يداومان على متابعة جريدة الأهرام يوماً بيوم، ويحرص كلاهما على طرح الأسئلة الموحية التي لا تحمل أي مضامين محددة؛ فلا تعرف إن كان يريد بك خيراً أم سيسوقك للهلاك.. ومثلما كان المصري يسأل متلصصاً وهو يتصفح أرشيفاً من مقالات

الأهرام عن من يسميهم أخوة من المجاهدين وراء تفجيرات بالسعودية، فيما يمضغ الطعام، أجد الأردني المزعوم أمامي يقلب هو الآخر في مقالات نشرت سابقاً بالأهرام أيضاً عن الجهة التي يمكن أن تكون وراء قتل سياح وأقباط بمصر، وما ترمي إليه كل منها، وما إذا كانت منظمة موجودة في منطقة القرن الأفريقي أو الشرق الأوسط لها علاقة بالأفغان العرب الذين وفدوا على السودان، أم إنها عملية اجتهاد من الأخوة.. وما الرأي في ضرب السياحة كوسيلة مجدية لإسقاط الحائط الذي يستند عليه نظام الحكم؛ الاقتصاد.. لكن كل منهما كان مثل الآخر أيضاً حين يسأل ذات السؤال عن ما إذا كانت الأحداث الأخيرة ستؤدي إلى مزيد من الملاحقات للمجاهدين العائدين من الجبهة السوفييتية، وما إذا كان ذلك سيؤثر على العرب المقيمين في بيشاور والسودان وما إن كان أسامة بن لادن سيغادر الخرطوم أيضاً، وإلى أي وجهة يا ترى.. ويحاولان إذ يحاولان الإيقاع بي لأقول كلمة تشير إلى أنني كنت في يوم من الأيام في أفغانستان، لكن هيهات..

أنا الآن ملقى مثل كومة قمامة جوار عامود ضوء جنوب ساربروكين.. أسمع المارة يغمغمون بلغة ألمانية حيناً، وحيناً آخر بالفرنسية المائعة.. تمرُّ البناطيل الصوفية، وسراويل الجينز، والفساتين الملونة تمر:

-"كاسكو.. سيه؟!"-

وتضطرب خطواتهم.. هل كانوا يخافون هيئتي أم يتقززون مني أم ماذا؟

على تلك الحالة كنتُ أقلّبُ النظر في السماء تملأني الظنون عمّن يكون الطبيب الأردني.. هو ماكرٌ حصيفٌ.. تستشعر إذ تلتقيه أو تتحدث إليه أنه طيب مكشوف السريرة.. لكنه مع الأيام يبدو محيراً كأنه كرة مشربكة من الخيط لا تدري أولها من آخرها.. هو أيضاً يجرك لعالمه البلاأفق.. البلاطرق.. البلادليل أو هكذا يتراءى لك.. فكيف تحكّم عليه

أو تضعه في إطار محدد دون أن تتسلل إلى الداخل؛ فهل أنا تجرأتُ بأنْ مددتُ يدي أفتحُ حقيبته.. كان الملخص أمام عينيَّ مكتوباً باللغة الإنجليزية بحروف سوداء صغيرة مصفوفة على ورق أزرق بأسماء المستشيخين العرب في مدن مختلفة معظمها ألمانية وفرنسية.. بحثتُ عن اسمي واسم سيد أو عاصم أو كرم لاهثاً.. أعدتها لموضعها قبل أن يكتشف أمري، وقبل أن أصلَ إلى نهاية القوائم المصفوفة في حوالي مئة صفحة.. ماذا أقول؛ فأنا على أية حال أدركُ منذ كنت آخر مرة في مكة أنَّ حفرة عميقة تنتظرني في آخر الطريق، وهاوية بلا قرار تقتربُ إذ تتعاقبُ الأيام على هذه الشاكلة.. هكذا إذن ليست على جبال خوست، ولا معسكر المأسدة؛ بل هنا عند برميل قمامة على رصيف ببلاد الغُرُبِ أو الغُرُبِ.. لكن مَنْ هم أولئك الذين يقتفون أثري؛ ماذا يريدون بالضبط.. أتلفتُ، ولا أبصرُ أحداً غير المرسيدس السوداء تنحرف من المنحنى وتدور.. إنه هو نفسه الطبيب الذي يضع يده على مكاني الصحيح.. على مكمني المتواري بين صناديق المهملات في غياهب الأزقة السوداء على آخر ملاجئ ساربروكين:

-"هيا.. هيا يا شيخ. لماذا تختبئ.. ملابسك اتسخت.. عفواً!"-

وبدأ يدق مساميره في خشب جسدي الهش من الحر والبرد.. المسمار يخترقني من جانب لينفذ من الجانب الآخر؛ وهذا مبتغاه.. أن يستذلني.. أن يحلَّ لي جميع مشاكلي دفعة واحدة حتى شعرت حقيقة أن نوراً قد أضاء فجأة فرأيت نفسي واقفاً في ثياب بيضاء مطرزة بأوراق الشجر الخضراء والفاكهة الناضجة تتدلى منها.. أمشي خيلاء على أرض الأجانب كأنني صاحب البيت فيها.. فجأة حدث ذلك؛ وفي اللحظة التي كان يجب أن أقولَ فيها لا، قلتُ نعم.. وبدلاً من صيحة الرفض التام التي دوَّتْ في قلبي وفي رأسي، خرجتْ هتافات التهليل من فمي بالموافقة:

-"ستعلّم أولادي العربية.. سأعطيك خمسمائة مارك في الشهر. زوجتي سَبَّبتْ لك عملاً دون أن تدري.. تريد تعليم الأولاد لغة شرقية؛ فقلتُ لها عندي شرقأوسطي صميم.. أقصد عربي.. الآن هيا.. توجد شقة صغيرة تطل على أهدأ ساحة بالمدينة.. هاك المقدم؛ مائتا مارك كاملة.. ها.. ما رأيك؛ وكلما تحدث الأولاد العربية سريعا ستزيد أجرتك.. ها.. بدلاً من المدير الكلب ومدرسته الفاشلة.."-

أقضي المساء في تعليم الولدين.. أمضي النهار متنقلا بين متنزهات المدينة ومكتباتها. وفي الإجازة التي تمتد لخمسة أيام من الشهر أسافر وحدي أحيانا وبرفقته أحياناً أخرى لفرانكفورت أو برلين حيث حلقات الدروس الدينية وصلاة الجماعة في باحة المركز الإسلامي.. أجلس جواره في الطائرة أو القطار أو سيارته الخاصة فيضرب يده فوق يدي لزوم التنبيه:

-"احذر كي لا يتم ترحيلك لمصر، وما أدراك ما مصر؛ فتندمْ.."-

يا لهذا الرجل.. كلما حاولتُ الاطمئنان إليه يعود ليثير في نفسي المخاوف والشكوك.. كنتُ وقتها قد بدأتُ أهدأ.. نعم! أخذ قلبي يخفق بانتظام.. كما أنّ جلدَ وَجْهي توَرّدَ قليلاً من الطعام الساخن والمشروبات المثلجة والأوراق المنضدة تمهيداً للدراسات العليا.. لكن لا أفهم ماذا يقصد بـ... ما أدراك ما مصر أو ماذا يعني بـ... يتم ترحيلك..

تعود المطارق لتضرب رأسي في صداع مقيم إذ يتعمد قراءة ما تنشره الأهرام عن قضية تفجير الحافلة السياحية أمام المتحف المصري؛ ولا أعلق كأنني لم أسمع ولم أقرأ.. عند المساء اصطحبني لتناول العشاء لدى صديق له ألماني يدعى الـ... مستر فاكس:

-"أنت.. وأنت تتردد على المساجد وحلقات المسلمين؛ منْ تعرف من الشيوخ؟"-

سَألَ فاكس.. وقبل أن يترجم الطبيب ما قاله، سرتْ قشعريرة في عروقي وعظامي.. طرحَ بطريقة متعجرفة سُؤالَ رجلٍ يعرف أنه

سيلقى إجابة لا محالة؛ فكمْ كان مخططنا حيث لكـــمَ بقبضـــته المنضـــدة عدة مرات في نهاية الأمر، وبدا الغضبُ على وجه الأردني الذي أخـــذ يشرح لصاحبه معتذرا بكلمات ألمانية تخرج من فتحتي أنفه بصـــعوبة.. ثم لحق بي خارجا.. أمسكَ بمقود المرسيدس البينز هذه المرة مندفعا بها ساخطاً لم يلتفت نحوي.. وأسال نفسي إن كان قد تعمـــد تـــرك الحقيبـــة نصف مفتوحة في تلك الليلة لأطّلع على الأوراق المخيفـــة؛ لأرتـــدع.. لأستسلم.. هل كانت هي المقدمة للقاء الـــ.. مستر فاكس أم ماذا؟

انسابت السيارة بين صفين طويلين من الأشـــجار الســـامقة عبـــر الطريق المنحدرة فيما هو يتشبث بعجلة القيادة صامتا.. توقفَ فوق حافة جبلية مجللة بالجليد:

-"ماذا دهاك؟"-

قال، فرددتُ عليه مستنكرا:

-"ماذا دهاني!"-

وعاجلني نافذ الصبر بكلمات حادة:

-"نعم ماذا تريد أنت؟"-

وسكت فجأة.. لاذ بالصمت مثبتا عينيه على الأضواء المرتعشـــة فوق الجرف الجنوبي.. بدت لي سحنته المرعبة فيما يُـــفـــصّـــلُ أسباب تفكك الدول العربية وتفرّق الأمة الإسلامية؛ فما خطـــب هـــذا الرجـــل.. ظهر لي أنني ارتكبتُ خطأ كبيرا.. أكبر مما كنت أظن. وكان لابد مـــن أن أفهم منذ الان:

-"ماذا؟ ما معنى.. ماذا يعني بأسماء الشيوخ؟ مـــاذا يريـــد.. ذاك الـــ..فاكس؟"-

-"اسمع يا صاحبي.."-

أنشأ متنفسا الصعداء قبل أن يواصـــل بلهجتـــه الشـــامية الـــودودة الأخّاذة:

-"حذرتك من قبل.. ألا تذكر.. نبهتك إلى أن هذه البلاد مزدحمة بالجواسيس والعملاء.. هناك الكثير من الأخوة العرب الناشطين في المساجد؛ جزائريون ومصريون.. أولئك الذين يخطبون ويلقون الدروس الدينية.. كلهم موجودون على أرض.. أرض ماذا؟"-

فأجبته:

-"ألمانيا.."-

-"تكرم عينك، ومَنْ المسئول عن حمايتهم؛ رعايا في دولة ماذا؟"-

-"ألمانيا.."-

-"تكرم خي.. هذا ما كان يعنيه الـ.. مستر فاكس.. البولتساي يعثر علي بعض العرب والمسلمين مقتولين في شققهم أو مضروبين بالرصاص على الأرصفة المهجورة.. إذا كان فاكس قد طلب منك معلومات عن تحركات أخوة بعينهم؛ فهذا للحفاظ على حياتهم وإنقاذهم من أعدائهم.."-

انتهيتُ بالكاد من تعليم ولديه بعض الأسماء العربية للاستخدام اليومي مثل كلمة طعام أو مدرسة أو أستاذ.. عاود الطبيب اصطحابي في جولته الخلوية على الجبل الجليدي جنوبا.. من هناك، ونحن في قمرة المرسيدس، أخرجَ حُزمة من العملات قائلاً إنها ألفا مارك مساعدة منه لي؛ فرفضتُ متعللاً بأن ما أتقاضاه منه كراتب مقابل تعليم الولدين يكفيني ويزيد والحمد لله، دافعا في الوقت نفسه ذراعه إلى صدره برفق.. هنا تلاقت عيوننا.. رأيت في حدقتيه المدورتين، خلال تلك اللحظة القصيرة، رجلاً مغبرا مسربلا بمزق الملابس العسكرية الأفغانية يحمل على كتفه الآر بي جيه وفي يديه المدفع الرشاش.. ذاك الرجل كان أنا ومن خلفي جبال تورا بورا السوداء الشاهقة.. نفضتُ رأسي طاردا الهواجس والمخاوف بينما هو ما انفك يسترسل في تعديد محاسني وإمكاناتي وقدراتي الفائقة.. بعد مسافة من الهدوء سأل إنْ كنتُ أجيدُ قيادة السيارات، وكان يعلم الإجابة لأنه اقترح عليَّ استخدام الفولكس

فاجن الملقاة بالمرآب الخلفي بمسكنه أتنقل بها إلى حيث أريد كيفما أشاء؛ فرفضتُ متعللاً بعدم وجود رخصة قيادة معي.. ومن جانبه حرص الطبيبُ بحصافته على اختتام أمسيتنا ختاما وديا كأننا أخوين شقيقين التقيا بعد طول غياب.. إلى شقتي صعدتُ متفقين على البدء في إجراءات استخراج الرخصة من الغد.. وبتعاقب الأيام لاحظتُ قلة اكتراثه بمستوى تقدم ولديه في دروس اللغة العربية.. كان يسدد لي مستحقاتي أولا بأول.. كما أصبحنا نداوم على اللف والدوران حول الغابات الخضراء والتلال البيضاء.. يتناول عرَضا مناقشاتٍ عن الأسر العربية الحاكمة والمالكة عند زيارتها لألمانيا.. يُضحكني ملءَ القلب بنكاتٍ عن الأمير الذي أعطى النادل ألف مارك ليشتري له علبة سجائر ثمنها لا يزيد عن خمسة ماركات، ومنح الأميرُ باقي المبلغ كبقشيش للنادل الذي أسرع بدوره إلى مدير الفندق يشرح له الواقعة العجيبة.. إلى اخر تلك القصة المعروفة في الأوساط الألمانية مع العشرات من الحواديت المسلية المشابهة عن أولاد رؤساء وبنات ملوك يقضون الليل في المواخير والنهار في سحب الأموال من حساباتهم بالمصارف.. الخ.. الخ!

ترانا في الأسبوع الواحد مرتين أو ثلاث كأننا رجلين يدبران أمرا جد خطير.. من أعلى قمة الجبل المشرف على الحدود الفرنسية أنظرُ؛ فأقول لنفسي ها أنا ذا سأسقط إنْ لم يكن اليوم فغداً.. لم أنسحب مبكرا كما كان يجب.. نسهر في شقة المستر فاكس لا ألوي حيث أمسى ذلكم الألماني الغضيب ينتظرني أمام باب بيته مهللاً مُظهرا مشاعره الفياضة المعبرة عن شدة شوقه لطلعتي البهية مرحبا بكلمات كالبليخات والنخنخات.. ومن لدنه يجرني أخي الطبيب الأردني في أثره حيث تكررتْ زياراتنا لأشخاص آخرين كثيرين.. التقينا كذلك مع أخوة من تلمسان ومن سوهاج ومن الرياض والمنامة.. بعض اللقاءات كانت تتم داخل شقة معزولة في عمارة تبدو مهجورة وسط الضواحي الغنية

لساربروكين.. لم أطمئن للخليط المريب من الخلق.. لم أشأ مبادرة أي منهم بالسؤال عن سيد أو كرم أو عاصم أو المخرج الأصلع أو غيرهم من الأسماء الكثيرة التي دونتها لمجاهدين عرب يمكن أن يكونوا قد ارتحلوا من أفغانستان مباشرة إلى هنا.. كان الطبيب في الأيام الأخيرة يحاول بطرق مختلفة معرفة مستوى علاقتي بالأخوة من الجماعة الإسلامية في مصر:

-"لا.."-

أجبته بلا تردد.. لم أكن أتوقع أن أهزمه بصمتي وانتظاري؛ فها أنا الآن قد دفعته للدخول في الموضوع بلا مواربة في نهاية المطاف؛ فما شأنه بالجهاد، ولأي غرض تصله قصاصات الأهرام بأخبار خناقات الصعيد المسلحة.. وإلى متى أظل واقفا جواره أحدق في الأفق الممتد جنوبي ساربروكين عبر الأراضي الفرنسية المجللة بالضباب.. كانت الهوة السحيقة تشدني لأهوي في حلقها المظلم.. إن خطوة واحدة للأمام تعني النهاية ليس إلا..

و بعد برهة عاود السؤال:

-".. ألا تتصل بأي منهم؟"-

صوته الرخو ينساب في أذنيّ؛ فيسد مسام عقلي وقلبي.. يتحدث بطريقته تلك الودية الساحرة كأخ.. كصديق.. كسند وحيد في بلاد العجم.. لم أستوعب مما قاله غير الجملة الأخيرة التي أبدى فيها بلا مقدمات استعداده لوضع نصف مليون مارك باسمي في البنك:

-"أنا، كما تعلم، رجلٌ ثري، والمال، كما تعلم، مال الله.. خذه.. ساعد من تشاء من المجاهدين هناك.."-

بعد هنيهة من الوجل والترقب انفرجتْ أساريره:

-"نعم؛ أرسله لمن تريد في مصر.."-

في هاتيك اللحظة أذكرُ أن الكلمات خرجتْ من فمي وحدها بلا تفكير مجيبا إياه بأنني لا أعرف أحدا لا من الجهاد ولا من الجماعة

الإسلامية ولا من أيٍّ من الفِرق الأخرى.. قلتُ له فلوسك معــك ســاعد بها مَنْ ترى بطريقتك.. أما أنا فقد جئتُ لألمانيا لأعمل وأدْرس، ولــيس لي شأن لا بمصر، ولا بمن فيها.. مفهوم؟

نعم تلك الواقعة تجرأت فيها على الطبيب كما لم أفعل مــن قبــل.. بيد أنه أخذ في طريق العودة يشرح أسباب تــدهور الأمــة الإســلامية والعربية مجددا.. كانت له وجهة نظر يرددها دوما في اللقــاءات التــي تجمعنا بالأخوة العرب بما معناه أنّ الدولة العربية الموحــدة تبــدأ مــن مصر، وأن إقامة الدولة الإسلامية الكبرى تبدأ من تركيا..

على كل حال هرولتُ ذلك النهار لشقتي في لمح البصــر جمعــتُ متعلقاتي جسدي ألقيته في أقرب عربة قطار مخلفا ساربروكين ورائــي من مدينة لمدينة لا.. بَــلْ من قطار لقطار بلا هدف أموجُ بين جنبــات ألمانيا أتقيئُ فأنهض ملتاثا ألوذ بالجموع العارية تسعى فــي المتنزهــات المجاورة لمحطات المترو تتناقص الماركات في جيبي تتعقبني الخطوات من رصيفٍ لرصيف بأنني الهدف نول نول تراي إسمي الجديــد صــفر صفر ثلاثة يتردد كالمرْدَاس يضرب أذنيَّ رجالٌ ألمحهم حواليَّ يســلمون تحركاتي فتطير عبر أجهزة اللاسلكي عند كل منعطف فلآخــذ حقيبتــي قــُلــْــتُ من دولاب الأمانات بمحطة قطارات فرانكفورت فــي درج صغير له مفتاح خاص أحمله في جيبي كنت قد أغلقتُ عليها لقاء مــارك واحد يوميا خرجتُ من البوابة الكبيرة لاهثا عطشان أتلفتُ وجــلا بــلا مهرب حاصرتني نحو سبعة من سيارات البولتساي أو ما أدري إنْ كان معها اثنتان مرسيدس أو أخرى تشبه الشاحنة بصندوق حديــدي يتقــاطع عليه اللون الأبيض بالأخضر دون نوافذ الأيــدي دفعتنــي داخلــه فهــو زنزانة متحركة أما الثابتة فكانت فاخرة ذكرتني للوهلة الأولى بإقــامتي في الطابق الثالث من السفارة السعودية بلاجوس لكن هذه على أية حــال زنزانة يدفعني كرم الضيافة الألماني بها للبكاء حقا لا هزلا كــأني إلــى بيت أبي عدتُ بعدَ لأيٍ أفكــّــرُ جالسا أخيرا بين جدران غرفة واســعة

جداً وسط قلعة مسيجة بالأسلاك المكهربة تقع على ما خمّنتُ جنوب فرانكفورت..

ألقيت جسدي المنهك على السرير الوثير.. ضبطتُ التكييف بالريموت كنترول.. فتحتُ التلفاز الملون، وكان هناك هاتف في جانب الغرفة.. قلت لا.. لن أستخدمه، ولا أعرف لماذا.. ربما أردتُ المزيد من العُزلة عن العالم.. كل ما تمنيته هو أن أنام، ونمتُ..

عاريا تحت طرطشة الماء وقفتُ في الحمام الملحق بالزنزانة.. جففت بدني بمنشفة بيضاء جديدة. الظهر صليته، وطمأنتُ حالي على مآلي بأنه لا يوجد في الحقيقة أي داع للذعر فلم أرتكب جرما، ولو كانت هناك تهم فليواجهوني بها؛ فأنا منها براء ولا شك.. الخوف الوحيد كان من الترحيل لمصر؛ فهل أطلب اللجوء السياسي حينئذ..

ظلّت تمرُّ الساعات بين الحيطان المزينة بتصاوير لغابات الصنوبر دون أن يسألني أحدٌ عن أي شئ.. زارني الحارس بطاولة فضية عليها وجبة الغداء؛ شريحتا لحم.. طبق أرز.. سُلطانية بها ما يشبه الفاصوليا المطبوخة بمعجون الطماطم أو ما أظن. وبعد برهة جاء مرة أخرى ليقدم لي في أدب جم سلة محملة بالفاكهة. وعاد ليلا بالعشاء؛ مربى وجبن وخبز.. فماذا يهم. أكلتُ حتى سددتُ جوع الأيام الماضية. استلقيتُ مبكراً عقب صلاة العشاء لأشبع نوما استعداداً لليوم التالي؛ فمن يعلم أين سأكون أو ما سيحدث. وعلى صوت قرقعةٍ ووقع أقدام تتردد بطول الممر استيقظتُ. غمغم الحارس بتحية الصباح.. ناولني الإفطار، ومضى. فتحتُ التلفاز.. كان المذيع يقرأ نشرة أخبار على ما يبدو حتى وعيتُ كلماته تُردّدُ بعض الأسماء العربية بصعوبة من قبيل موهاميد، وآبدوس سلامو هسَن، وغيرهما إذ ظهرَ على الشاشة عرضٌ لصور عددٍ من الأخوة الجزائريين والمصريين والسعوديين والأفغان؛ فتعرفتُ فوراً على ستة منهم.. من أولئك الذين التقاني بهم الطبيب الأردني.. كان كل وجه يقفز إلى الشاشة يقفز معه شريطُ معلوماتٍ شتى

فيما صوت المذيع المتلاحق يشرح قصة ما.. ماذا كـان يفصّـلُ.. إنـه يستعرض تقريراً إخبارياً هاماً خطيراً.. انحشرتْ اللقمة في زوري حين أعقب كل ذلك لقطة حية من منظور بعيد لميدان واسـع.. فـي وسـط المشهد عدد من سيارات البولتساي واثنتان مرسـيدس وواحـدة تشـبه الشاحنة بصندوق حديدي يتقاطع عليه اللـون الأبـيض بالأخضـر دون نوافذ.. هرع رجال البولتساي ليطوقوا رجلاً يحمـل حقيبـة.. شخصـا ملتحياً عريض الوجه بسروال جينز وقميص كاروهات وسويتر زيتـي؛ إنه أنا بينما صوت المذيع يلاحق بعضه بعضاً يرغي ويزبد متشفياً..

35

استدعوني صباحاً من الزنزانة أمشي طليقا بلا قيود خلف حارس أحمر ضخم. وقبيل تلك اللحظة لم يتيسر لي معرفة ما إن كان التقرير الإخباري يُذاع من محطة عامة أم من بثٍّ داخلي خاص بالقلعة وبمن فيها منْ مسئولين ومعتقلين.. يقيني أنني لم ألحظ أي ذكر للطبيب الأردني في هذه القصة التليفزيونية الغامضة.. لم أترك الوقت يمر بلا جدوى ذلك الصباح.. بحثتُ على عجلٍ في أرقام الهواتف التي لا بد ذبلتْ في جيبي.. وجدت رقما لأخ كنت قد تعرفت عليه.. ارتحتُ لسيمائه الطيبة في المركز الإسلامي منذ شهرين أو ثلاثة.. صَدَقَ الهاجسُ الذي ألمَّ بي حينها بأنني سأحتاجه لا محالة إن لم يكن غدا فبعد غدٍ.. لكن لا أدري ماذا يريدون مني بالضبط.. هل الموضوع أخطر مما أتصور.. هل سأخرج من هذه القلعة أم سأقضي فيها السنوات أم سيدفعون بي إلى زنزانة أضيق من تلك التي حُشرت بين جدرانها العاكسة في ترانزيت مطار القاهرة.. هل هو مجرد سوء فهم أم ترى الموضوع قد يصل لقضية أمن دولة عليا طوارئ كما نقول في مصر أو اليمن أو غيرهما من بلاد الوطن الصحراوي الكبير؛ من حيث جئتُ..

المهم أدخلني الحارس قاعة واسعة كأنها مرآب سيارات غير أنها نظيفة معطرة.. جدرانها مزينة بالورق الملون والستائر المسدلة.. بها عدة طاولات مستطيلة.. الإضاءة خافتة في الأرجاء فيما عدا المكاتب التي تشع على كل منها إضاءة قوية خاصة.. أشار الحارس فجلستُ على المقعد أمام منضدة في مواجهة المحققين الثلاثة.. كان اثنان من المترجمين أحدهما عن يساري والاخر إلى يميني يتقنان اللغة العربية بلهجتيها المصرية والشامية.. في الجانب الآخر اتخذ رجلٌ له سحنة إفريقية مقعدا، وقيل إنه متفقه في أمور الدين الإسلامي.. جاءت البداية سريعا مع دورة الأسئلة بالألمانية التي تأتيني في ثوبها العربي؛ فأناولهم الإجابة بالعربية ليُلْبِسُوها رداءها الألماني قبل أن يعطوها للمحققين:

-"من أي البلاد أنت؟"-
-"من مصر.."-
-"نعم. معلوم.. أنت من أي البلاد؛ أعني المدن في مصر؟"-
-"من مرسى مطروح.."-
-"و لماذا جئت لألمانيا؟"-
-"لاستكمال الدراسة؛ لتحضير رسالة دكتوراة.."-
-"و من أدخلك ألمانيا؟"-
-"راسلتُ إحدى المدارس الخاصة بتعليم اللغة الألمانية فمنحتني الفيزا.. لكن ماذا يحدث بالضبط؟ هل أنا متهم أم.. ثم أين أنا.. هذا سجن أم معتقل.. بولتساي أم مخابرات.."-
-"الآن مجرد حوار؛ نريد التحاور معك.."-
-"لن أتكلم إلا في حضور محام.."-
طلبتُ رافضا الإجابة عن أي سؤال آخر إلى أن قال رئيس المحققين كبير العينين معقوف الأنف الجالس في وجهي مباشرة:
-"حسنا.. لك هذا؛ فهل لديك محام أم نحضر لك واحدا على نفقة الدولة.."-
-"أريد فقط استخدام الهاتف لو تسمحون.. أيمكنني؛ الهاتف لو سمحتم.."-

تم فضُّ الجلسة، وتأجيلها لما بعد المساء.. من غرفة الزنزانة أجريت اتصالا فاتصالا اخر.. وكل مرة أحصل على رقم جديد لمحام غير موجود حتى ألقيتُ الهاتف جانبا، وفوضتُ أمري إلى الله.. مرَّ الظهر، ومرَّ العصر؛ فليصنعوا ما يشاءون إني عليه توكلتُ وهو خير الناصرين.. فليأتوا بمحاميهم أو لا.. ليستكملوا تلفيق قضيتهم وليكن ما يكون.. وأرى أنني أسقط من قمة جبالك الجليدية يا ألمانيا للهاوية السحيقة..

صلّتْ مفاتيح الزنزانة صليلا حينذاك ليغمغم الحارس، وأفهم منه بالكاد أن شخصا قادم لزيارتي الآن؛ فوافقتُ على المقابلة.. دخلَ رجلٌ أعرفه جيدا.. رأيته؛ فقلتُ إنني في الحلم أنا أم في غيبوبة.. كان هو نفسه ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض وحذائه اللامع وسيجارته التي طالما عذبني بنارها المستَعرة:

-"ماذا تريد؟ تلاحقني في كل مكان.. لا يحق لك، ولن تتسلمني من هنا.. سأطلب اللجوء السياسي.. هه؛ من هنا.."-

-"اصمتْ.."-

أمرني؛ فامتثلتُ صاغرا أدعكُ رأسي، ولحيتي أشدها بأصابعي لأصحو حتى ظننتُ أنني تحت تأثير الصعقات الكهربائية بلاظوغلي.. وبعدما أشعل سيجارة قال:

-"أنت تهرف، وعليك استحضار جماع عقلك توا.. هل جننتَ أم فقدتَ رشدك من أول ليلة في هذا المحبس المرفه.. إنك تستطيع الحصول على شمبانيا أيضا إذا أردت.. استرح، وأنصت لما سنتفق عليه فقط.."-

جلس على المقعد المجاور للسرير. اقتربتُ منه لألمسه؛ لأتيقن إن كان هو.. هو ذاته؛ فمسح على رأسي، وهزَّه منبها.ثم أجابني همسا:

-"أنت في حاجة لمحام؛ فما بالك اسكتْ. أولا أنا مصري، وكفى.. كويس!"-

شدّ نفسا من السيجارة، وقال:

-".. ثانيا، لا تتوهم أنك رأيتني قبلاً. وبعد الانتهاء من الورطة هذه لن نلتقي كما تشاء. ماشي يا عم الشيخ؟!"-

حاولتُ مقاطعته؛ فصدني ليواصل تعليماته:

-".. ثالثا، الورطة.. مازلنا في البداية. موقفك أفضل كثيرا من السذج الآخرين الذين ضبطوهم بالمتفجرات متلبسين على اللوفتهانزا المتجهة لنيويورك، وعلى الإيجبتاير قبل إقلاعها لواشنطن.. وأحسن

كذلك من أصحابك الذين جمعوهم كالفئران من المطارات والشقق.. كل أولئك لا رجاء فيهم؛ انتهوا.."—

انتفضتُ محتجا بأنهم ليسوا أصحابي ولا أعرفهم، فلم يلتفت لي.. مجرد أنه عدل جلسته نافخا الدخان على سحنتي المضطربة؛ وواصل:

—".. رابعا، بالنسبة لك.. في كل الأحوال إذا لم تستطع الإجابة أثناء تحقيقات الليلة، فمن حقك التزام الصمت كي لا تدين نفسك.. تدعني أرد عليهم، وإياك الكذب.. لا تراوغ الألمان أبدا.. قل بصراحة كل شئ، وكأنك تعترف لصديق.. جميع التفاصيل عن علاقتك بذلك الطبيب المزعوم، نعم.."—

أدقق في وجه المحامي مليا، وأحسب أنني وقعتُ في شَرَكٍ نصبته سلطات الأمن المصرية بمعاونة البولتساي الألماني. ولم يعد في يديّ غير الامتثال والانتظار. أحدق هيئته المرة تلو المرة؛ فقد كان يرتدي بزة رمادية كاملة بالكارافات الأبيض والقميص الأزرق الداكن.. كما أنه لا يدخن. شعر لحيتي ألفّهُ بأصابعي فأنزعه من جذوره ساهيا لأعي إن كنتُ في الصحو أنا أم أنني في المنام لم أزل على سرير بيتنا في مرسى مطروح أنتظر سيد ليطرق الباب نمضي لصيد الطيور عند جنينة الزيتون بالعزبة الغربية؛ فخلعتُ ثيابي تحت الدش اغتسلتُ فلم أجد غير الحارس يأمر بالاستعداد للعودة لقاعة الاستجواب، وفيها لمحتُ المحامي المصري مُجدّدا أمام طاولة مكدسة بالأوراق يتجادل مع أحد المسئولين بالمعتقل. وكان يبعد عن مقعدي نحو خطوتين أو كذا؛ فالحمد لله على كل شئ.. الحمد لله، وباسمه سمّيْتُ حيث بدأتْ دورة التفتيش عن الأجوبة.. رويدا رويدا تيقن لي أن المحققين الألمان جادون لدرجة أنهم قد لا يفهمون الأمور العادية البسيطة كالصعايدة عندنا، ومرت الساعات:

—"إذن أنت تقر بأنك أقمت في ساربروكين من يناير لمارس؟"—

—"نعم.."—

.. والأسئلة تترى وتتواتر بلا كلل ولا ملل حتى رفع المحقق الكبير الذي يتوسط زميليه الآخرين صورة الطبيب. وقام أحد مساعديه من مكانه، وجاء بها ليعرضها أمام عينيّ.. كانت صورة حديثة ملونة:

-"نعم أعرفه.."-

-"ما صلتك به؟"-

-"كان يحاول مساعدتي للحصول على عمل، و.."-

و هنا قاطعني المحقق.. أعاد السؤال بلهجة صارمة.. ارتبك المترجمون فيما يلاحقون ما يقوله لينقلوا ليَ المغزى من ذلك، وهو أنني يجب أن أعطي الإجابة المباشرة للسؤال. أشار المحامي من جانبه مذكرا بما اتفقنا عليه؛ فأخذتني الحمية في ردي:

-"أولا أنا تعرفت على الطبيب الأردني فور دخولي ألمانيا.. قابلته في ساربروكين، وأبدى استعداده لمعاونتي في إيجاد شُغل.. ثم طلب تعليم ولديه اللغة العربية. ودامت العلاقة بيننا على هذا الأساس. أقمتُ بفيلته نعم بداية الأمر، وحينها أقرضني مبلغا ليستقطعه من أجرتي لاحقا، وبه استأجر لي مسكنا قـُربَ بيته. وكان ولداه يتقدمان في الدروس لكنهما لم ينتظما، ولم يبدِ هو أي ملاحظة على تغيبهما المتكرر عن الدروس. ومع ذلك داوم على زيارتي واصطحابي هنا وهناك.. حيث أسعى لاقتناص فرصة عمل حقيقية تمكنني من توفير نفقات رسالة الدكتوراة دون أن أخبره بنيتي بطبيعة الحال لأنه كان يغضب لمثل تلك الأمور؛ أي استكمال الدراسة. وبمرور الأيام استشعرتُ ثقل العلاقة بيننا. وبدأتُ أعتبرُ الأجرَ الشهري الذي يمنحني إياه مجرد رشوة لأمر لا أعرفه. وظننت في بعض المرات أنه ربما كان معونة. وفي كل الأحوال عقدتُ العزم على تركه، والبحث عن طريق أخرى إلى أن ألقيتم القبض عليّ خارجا من المحطة؛ وهذا ما حدث.."-

-"أنت اقترحت عليه القيام بأنشطة تعرف أنها تخالف القانون الألماني؟"-

الإضاءة الخافتة التي تجلل القاعة، وتلك القوية المسلطة على رؤوس المحققين تدفعني للشك والريبة في كل من حولي.. أفكر أنني ربما سأقفز فجأة لأحطم كل ما أمامي.. كان السؤال غريبا.. ما أدراني بالأشياء التي تتعارض مع قانون هذه البلاد؛ فحتى عبور إشارة المرور بالخطأ قد يكون جريمة تستحق الإحالة للمعتقل.. انعقدَ لساني بالصمت بحثا عن إجابة.. وقف المحامي معترضا مقترحا على المحقق بلغة ألمانية يتحدثها كالألمان:

-"حدد السؤال من فضلك. أعني يجب وفقا للقانون الألماني إلقاء السؤال بشكل مباشر مستوضحا ما ترمي إليه بالضبط.."-

و على الرغم من أن المحقق بدا أنه لم يأبه كثيرا لصوت المحامي، إلا أنه كرَّرَ استجوابه بطريقة مختلفة:

-"هل بحثتَ معه كيفية اختطاف طائرة اللوفتهانزا وتفجيرها في ألمانيا أو البلدان الأوربية أو الولايات المتحدة الأمريكية أو غيرها من البلاد.. أنت، و.."-

و سَرَدَ قائمة من الأسماء معظمها لعرب مِنْ أمثال موهاميد اليواني، وأبداس سلامو هسّن، وغيرهما. وأخذتْ الثقة تعود لتدفئ جنبات جسدي المرتعش، ولأقاطع المحقق نفسه:

-"يوجد في الحقيقة لبسٌ في هذه النقطة.. أولاً أنا في الواقع لم أذهب إليهم كما أنني لم أكن أعرف أيا منهم، لكن الطبيب هو الذي أخذني هناك.."-

و حددتُ لهم مكان الشقة وعنوانها واصفا ما رأيته فيها حينذاك محاولاً زرع الثقة واستقطاب الجالسين بالقاعة لصفي:

-"المعلومات المثبتة هنا تؤكد أنك التقيت بهم أكثر من مرة، وتحدثتم عن تنفيذ أعمال تتنافى مع القانون الألماني؛ هذا كله مسجل هنا.."-

-"هناك فارق بين أنني التقيت بهم بمحض إرادتي وبتخطيط مسبق مني، وبين أنني أجبرْتُ على اللقاء معهم.. لقد كنت مع ذلك الطبيب كما قلت لكم. والحال، إذا سمحتم، يشبه أن تكون مع صديق لـك، فتجبـرك علاقتك به على المرور عَرَضا بأصدقائه.. فهل يعني ذلك أنني أصبحتُ صديقا لأصحاب صاحبي.. هذا إذا سلّمتُ بأن الطبيب كان صاحبي؛ فلم يكن أبدا كما أسلفتُ.."-

-"إنه يناور. يلف ويدور.."-

هكذا نهض أحد المحققين المساعدين كأنه ينهرني بينما هدّد رئـيس الجلسة باتباع أساليب أخرى في الاستجواب لمعرفة الحقيقـة؛ ولا شـئ غيرها. وشعرت للحظة بالرهبة. يبدو أنه يقصـد بالأسـاليب الأخـرى الضرب والصعق والتعليق من القدمين في السقف.. قلت فلأصـمت.. لا أرد عليهم حتى لا تتفاقم الأمـور، إلا أن المحـامي المصـري وقـف غاضبا.. ألقى محاضرة لم أفقه منها حرفا، وكانت تدور حـول حقـوق الإنسان وضمانات التحقيق وأشياء من هـذا القبيـل كمـا فهمـتُ مـن الشذرات التي تـُـرْجِـمَـتْ لي تطوعا.. لقد ردعهـم حتـى أثلـج صدري.. التقط الرجال المتحفزون أنفاسهم لتدور الأسئلة مجددا:

-"بالتحديد.. أنت اجتمعتَ معهم، ولو مرة واحـدة، أم لا؟ الإجابـة بنعم أو لا فقط لا غير.."-

-"نعم؛ أجبرت على اللقاء بهم، ولـم أتبـادل مـع أي مـنهم أيـة معلومات أو اتصالات أو.."-

-"هل كان من بينهم عاصم أو كرم.."-

و احتجّ المحامي لأن السؤال خارج الموضوع لكني أجبتُ بعفويـة وسُـرْعَة:

-" لا أعرف أيا من هذه الأسماء.."-

-".. وماذا عن محمد علوان، وعبد السلام حسن، و.."-

-"لم أسمع بأسماء المجموعة التي كانت في ساربروكين إلا من تليفزيون الزنزانة صباح اليوم في نشرة الأخبار.. رأيتُ صورهم معروضة، وكل منهم يحمل الاسم الفلاني. أما عندما أخذني إليهم الطبيب فلم ألحظ الفرق بين اسم هذا من ذاك.. لم أكن معنيا؛ أي أنني.."-

-" أنت تدبرت معهم الفكرة، وأثنيت على مَنْ يمكنه اختطاف طائرات وتفجيرها.."-

-"هم الذين تحدثوا، وهم الذين تناقشوا، وأنا رفضت مثل تلك الأفكار رفضاً قاطعاً.."-

-"أ تعني أنك لم تبدِ أي رأي؟"-

-"رفضتُ رفضاً باتاً.."-

هنا تدخَّلَ محققٌ آخر من المساعدين:

-".. وتطرقتم لصدم الطائرات الملغومة بمبان حيوية هنا في ألمانيا. أو غيرها من البلدان الغربية كما تؤكد المعلومات.. مثل مقار البرلمانات، وحتى مقر الفاتيكان.."-

وانبرى المحامي مدافعا:

-"لا تقل تطرقتمْ أو تحدثتم. لا تضعه في صيغة الجمع، إذا سمحت، وفقا للقانون.."-

وأشار لي بالاستمرار على هذا الأساس:

-"إن الذي تطرّقَ، والذي اقترح، والذي تحدثَ هو الطبيب الـ....، إنْ كان أردنيا من الأصل أو ما أدري.."-

وتسلم كبير المحققين طرف الحبل ليضيق على رقبتي الخناق:

-"السؤال لا يتحمل تأويلاً.. هل اقترحتَ، أنتَ نفسك، اختطاف طائرة وتفجيرها في مبانٍ عالية بألمانيا، أو غيرها؟ أجب.."-

-"لا.. لم أفكر، ولم أقترح، ولم يخطر ذلك ببالي أبدا.. أنا كنت في جلسة تـُطرح بها آراء، و.."-

-"و هل أبديت لهم رأيك؟"-

-"لا.."-

-"و ما رأيك أنت؟"-

و صاح المحامي ملوحا بأوراقه رافضا السؤال الذي اعتبره تدخلا في حرية الرأي، وإجحافا غير مبرر، واعتداءً على حقوقي المكفولة بالقانون الألماني بطبيعة الحال. زعق تحت سقف القاعة:

-"التحقيق لإثبات التهمة من عدمه، وليس لمعرفة الرأي الشخصي للمتهم، هذا إذا أردتم معاملته كمتهم رسمي، وهو أمرٌ غير صحيح إلى الآن، فلنتعاون تجاوزا لتعقيد الأمور. خلاصة القضية أن هذا المواطن المصري، ابن الفراعنة المسالم، وقع ضحية للمدعو فاكس فيشر، الضابط بالمخابرات، وسيلفيان ويزمن الذي يعمل لحساب الجهاز لديكم، فلنتحدث بصراحة.. ويزمن، ويمكنكم استدعاءه الآن، قدَّم نفسه للمتهم على أنه طبيب أردني يحمل الجنسية الألمانية، واستغل حاجته للعمل، وزجَّ به ضمن مجموعة من المهاجرين أو مجموعة إرهابية كما تقول المعلومات هنا.. المهم أن الطبيب المزعوم غرَّرَ بأولئك جميعا؛ لكن هذا المتهم استشعر خطر ويزمن، ويمكنكم طلبه للشهادة الآن، واستشعر المتهم الخطر من الأفكار التي يصيد بها العرب الهاربين من القمع والتعذيب في بلادهم، وهذا الرجل الماثل للتحقيق بين أيديكم الآن لم يستسلم له، وكان على وشك إبلاغ السلطات الألمانية عنه. لقد عرض على موكلي تمويل أعمال إرهابية في مصر بلد الفراعنة، ورفض، ولم يستسلم لعميلكم ويزمن، وهذا أمر جد خطير، ويمكن للصحافة أن تتحرى كم من المهاجرين اللاجئين لبلادكم قد ألقى بهم خلف الجدران بلا جريرة غير تقارير ملفقة ابتدعها، ليتقاضى من خزانة الشعب الألماني أجرا لا يستحقه، ولا ينتفع من ورائه غير سيده فاكس فيشر. نحن نخشى على رعايانا يا قوم؛ فهل الحكومة الألمانية الصديقة تقر التلاعب هذا، وهل البرلمان يوافقها على ما يكابده موكلي لمجرد اختياره الدراسة في بلادكم.. هو يقول لكم ما حدث؛ قُل.."-

و كدتُ أصفق له إذ أربَــكَ القاعة بمن فيها من أشخاص وبما بها من مقاعد ومناضد وأوراق.. وعلى ما أذكر، وقد أسهو فأخطئ، أن المحققين لم يكن يخطر ببالهم أن المحامي المصري على علم بكل التفاصيل التي ما كان يجب أن يعلمها أحد من خارج هذا المبنى الحصين. وعلى ما أذكر، وقد أسهو فأخطئ، أن المحقق الكبير نفض ذراعيه مشدوها كأنه يستمع لأصل القصة للمرة الأولى. وعلى ذلك، وقد أنسى كثيرا من التفاصيل، توتَّرت القاعة دون أن تثبت لرأي.. ثم لفَّها صمتٌ ينذر بعاصفة قد تطيح بي لا غير؛ فبادرتهم بكلمات غيَّرت الموضوع:

–"هل تريدون معرفة الرأي حول فكرة اختطاف الطائرات.. سأقول لكم.. إنني رَجُلٌ عربيٌّ مسلم، والإسلام ينظر لأصحاب الديانات الأخرى من ثلاثة مستويات. الأول، إذا سالمونا سالمناهم، ولم نناصبهم العداء. وإذا عادونا بمالهم بدون أنفسهم عاديناهم في أموالهم بدون أنفسهم. وإذا عادونا بأموالهم وأنفسهم عاديناهم بمثل ما عادونا به.."–

و انخفضتْ درجة الحدة في الأسئلة. واستوضحني المحقق العجوز:

–"هل أطلعــكَ سيلفيان ويزمن على أية أوراق تثبت أنه طبيب عربي؟"–

–"لا.. هو قال إنه كذلك، وأنا صدقته.. وكان يزعم أنه مسلم أيضا.. صلَّى معي أكثر من مرة في مسجد المركز الإسلامي هنا بفرانكفورت. وطلب مني هو والمستر فاكس بالتهديد والوعيد جمع معلومات عن العرب الذين يترددون على المركز.. نعم.. ولما لاحظ عزوفي عن المهمة، وتململي من كثرة اللقاءات التي يعقدها مع المهاجرين، حاول إغرائي بنصف مليون مارك بزعم مساعدة المعارضين على ضرب المصالح الأجنبية في مصر.. يعني إزهاق

أرواح الألمان أيضا.. فهم كسياح لدينا، ما أكثرهم؛ يزورون الأهرامات، والمتحف المصري، وأشياء من هذا القبيل.. المهم أنني صددته؛ فورطني في هذه القضية.. لقد كنتُ الهدف رقم نول نول تراي، أي صفر صفر ثلاثة، هذا أنا الذي يدور مفلسا جائعا في الشوارع نهاراً ملقىً بأنفاق المترو ليلاً حينما كنتم تضبطون الآخرين متلبسين.. أليس كذلك. إن هذا ما تنطق به التقارير لا بد، ولا يزيد لأن كل ذلك هو ما قمت به بالضبط.. كنتُ أسمعهم ورائي يتبعونني خطوة بخطوة، وإذ أجلس الآن بينكم هنا فأنا في ملاذٍ آمن!"-

تراجعتْ حدة الأسئلة رويدا رويدا، لدرجة أنها تحولت في نهاية المطاف، أي عند منتصف الليل، إلى ما يشبه الحوار الصريح بين مجموعة من الأصدقاء. المحقق الكبير الجالس في الوسط يبدي إعجابه بالطريقة التي أدرت بها أنا والمحامي المصري دفة الاستجواب. وكان يريد أن يعرف مدى العلاقة بين الجماعات الإسلامية في الشرق الأوسط، والخلافة العثمانية القائمة على فكرة غزو أوربا وذبح أهلها مستفسرا:

-".. يعني كيف يختلف الأمر؛ إذا كانت الدولة العثمانية تقوم على كلام الله وتعليمات محمد، وفي الوقت نفسه تستند الأصولية الإسلامية على الشيء نفسه.. أي أن النتيجة واحدة، وهي أن الأصوليين الإسلاميين يريدون عودة الخلافة العثمانية ومحاربة المسيحية والعالم المتحضر.. اشرح، وهذا خارج التحقيق.. كيف يختلف الأمر هنا؟!"-

الأمور اختلطت في ذهن المحقق؛ فيظنني من تركيا لا بلاد العرب.. وعلى ما أذكر، وقد أسهو فأخطأ أنني ردّدتُ ايات من القران فيها تقدير، وتكريم للمسيحيين وكنائسهم ورهبانهم وقسيسيهم.. تناولتُ أيضا موضوع زواج سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقبطية من أهل مصر..

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.. تقرر اســتكمال بعــض الإجراءات صباح الغد.. ولم تكن الأحوال تسير كما يريد المرء؛ فقد تــم رفض طلب المحامي الإفراج عني في الحال. وفــي اليــوم التــالي تــم القبض، أو قل الاستدعاء أو التحفظ، على الطبيب المزعــوم؛ ويــزمن.. لمحته داخل القاعة يجلس هادئا كأنه لا يعنيه من الأمر شيئا.. وتم خلال ذلك فحص وتبادل الكثير من الأوراق والأسئلة قبل أن يجففــوا عــرقهم ويواصلوا.. كان الحديث داخل القاعة متلاحقــا فــي لغــة كالنخنخــة، والبخبخة يسعى وراءها المترجم محاولا مساعدتي فيمسك بكلمة من هنا وأخرى من هناك؛ ولم أفهم شيئا محددا.. بيد أن الواضح أنهــم أخــذوا الآن يضيقون الخناق عليه. ينظرون إلــيّ حينــا، ويشــيرون تجــاهي بسباباتهم حيناً آخر.. سأله محقق الأمس العجوز، وقد عيل صبره:

-"هل تلقى هذا الرجل أي أموال منك أو من أي أحد آخــر تعرفــه في ألمانيا لتمويل أو لتنفيذ عمليات إرهابية على الأراضــي الألمانيــة أو خارجها؟"-

-"لا.."-

-".. أنت عرضت عليه المشاركة في تمويــل أو تنفيــذ عمليــات إرهابية في ألمانيا أو أوربا أو أمريكا أو الشرق الأوسط.. صحيح؟"-

-"نعم.."-

-"و هل وافق على تمويل أو تنفيذ عمليات إرهابية فــي ألمانيــا أو أوربا أو أمريكا أو الشرق الأوسط؟"-

-"لا.."-

-.. وهل قدمت اسمه للمخابرات الألمانية مع أســماء المتــورطين الاخرين؟"-

-"نعم.."-

-"و لماذا؟"-

-"أنا أولاً أتقاضى أجري لحماية المصالح العليا لهذه الدولة مخلصا.. أنتم تعرفون كم خلية إرهابية تم القبض عليها في الشهور الأخيرة. وهؤلاء العرب مثل الأتراك ينتشرون في كل مكان كالوباء.."-

و سرت همهمة في القاعة، ولغط المحامي المصري معترضاً. وزأر في وجه ويزمن منبها لإثبات تلك الكلمات العنصرية في محضر الجلسة. ومن جانبه عاد المحقق العجوز ليطرح السؤال نفسه بلهجة غاضبة كأنه سيخلع الحذاء، ويضرب به على رأس الرجل الذي أوهمني طيلة الشهور الماضية بأنه أخٌ يتباكى على حال العرب والمسلمين:

- "انظر هنا.. إذن لماذا قدمت معلومات أنت تعرف أنها غير صحيحة"-

فأجاب ويزمن:

-"التعليمات تنص على وجود تخطيط يعد له بعض المهاجرين من الشرق الأوسط.. أقصد أنهم يخططون لعمليات تخريبية ضد مصالح الدول الديمقراطية انطلاقا من ألمانيا.. وإذا أردتم الإطلاع على الحقيقية فإنني أؤكد لكم أن الشخص المؤهل للقيام بمثل تلك العمليات هو هذا العربي الخطير الماثل أمامكم. إن هذا الرجل مطلوب القبض عليه في مصر لقيامه بعمليات إرهابية. إنه أمكر الشيوخ الأصوليين الذين دخلوا الأراضي الألمانية في الشهور الماضية متخفيا.. هو ذاته لا سواه.. فهو المدرب على العمليات العسكرية وعلى حرب العصابات وقتال المدن.. إنه العضو النشط في الرابطة الإسلامية المعادية للديمقراطية والسامية.. أنا أخلصُ في عملي. وكل ما فعلته لم يأت من فراغ؛ بل من خلال التقارير.. اسألوه إن كان يُنْكِر تلقيه تدريبات من عناصر المافيا.. درسها بأفغانستان، وأقول لكم إنه يستطيع صنع قنبلة يدوية الآن مما سيجده في هذه الغرفة من أسلاك ومسامير.. إنه أشد خطرا من الآخرين الذين تعقبناهم وألقينا القبض عليهم متلبسين على اللوفتهانزا والإيجبتآير.. إن المشكلة مع هذا الشخص تكمن في أن أحدا لن يضبطه

متلبساً أبداً، لا في ألمانيا، ولا خارجها.. ولذلك فإن التوجس يظل قائمـاً ما دام يسعى حراً.."–

غرقتْ القاعة في بحيرة من الصمت. وكنت أسـتمعُ لمـا يقولـه مشدوهاً، ويبدو، كما أذكرُ، أن العرق بـلّـل وجهـي وظهـري.. استشعرت الخطر عندما رفض المحقـق الاعتراضـات التـي قـدمها المحامي. قـالَ إنهم استمعوا لمزاعم ويزمن الكلب وأكاذيبـه قبـل أن يعاودوا استجوابه بطريقة أثلجت صدري:

–"أنت إذن تتهمه بناء على افتراضات مستقبلية؟!"–

–"نعم.."–

–"و في نظرك هل يرقى الإفتراض إلى درجة الاتهام؟"–

–" قد يرى البعـــ.."–

–"هل يرقى إلى تلك الدرجة. نعم أم لا؟"–

–"قد يقول البعض لا؛ لكنه تلقى تدريباً، والمؤشرات.. هنا الأمـر، كما أوضحتُ، قد لا يكون.."–

36

في الجلسة التالية اختفى المحامي فيما كانت المعركة حامية الوطيس تحت سقف القاعة بين المحقق وعميلهم الأحدب.. تم استبعادي في منتصف الخناقة.. لم يستدعوني مساء بل تقرَّرَ أخيرا إطلاق سراحي؛ فإلى أين المهرب الآن، وأنا مفلس من المال والأخوة والأصدقاء..

رجعت لصنعاء بتذكرة العودة على خطوط اللوفتهانزا.. كانت المضيفة الشقراء تحدق في سحنتي.. لا بد أنها كانت تحاول تذكر ملامحي التي لا شك رأتها عند سفري على ذات الطائرة قبل عدة أشهر.. أو أنها رأت صورتيْ والبولتساي يلقي القبض عليَّ في محطة فرانكفورت منذ أسبوع أو أسبوعين.. التشديد الأمني في مطار صنعاء جعل أوصالي ترتعد.. أخشى أن تشي المضيفة بي.. أن يستوقفني اليمني القصير الأسمر فيمسك بتلابيبي منتصراً آمراً أنْ تعال.. مطلوب تسليمك للسلطات المصرية؛ فأنت الآن متلبس.. لن يفيدك الإنكار..

في الأيام الأولى التي جئت فيها لمرسى مطروح كنت أدرك أن الجالس أمامي هنا في الطابق الخامس هو الهواري.. يحكي لي وأحكي له.. لكن بعد أيام أو أسابيع من العزلة والظلام المقيم بين الجدران المعتمة بت أتكلم قليلاً فإذا مددت يدي للمقعد لا أجد الهواري.. أحيانا يخيل لي أن هناك شخصا ما يتحدث وينصت لما أقول.. لكن، في الحقيقة، أو هذا ما أظنه، كان ذلك الشخص هو أنا لا غير..

كنت أظن أنني إذا دخلت ألمانيا أو أي من الدول الأوربية لن أغادرها أبدا، أو على الأقل لن أرجع منها لأي من الدول العربية .. وأذكر ما أذكر الفتاة التركية، سلمى، التي تحمل الجنسية الألمانية، والتي حاول الطبيب الكلب أن يزوجها لي في سبيل تحويلي إلى مواطن ألماني.. حدث ذلك في الأيام الأخيرة.. وكم حاولت أن أعرف إن كان والدها قد شارك في مخطط الأخوة العرب والأفغان الذين تم القبض

عليهم من الشقق والمطارات أم لا.. كان والدها يحبني ويكرمني، ووافق على الزواج من ابنته، لكن، حين أعلن رغبته تلك كان رجال البولتساي يلاحقونني ويسلمني كل منهم للآخر بالرقم الذي أطلقوه عليَّ.. نول.. نول.. تراي..

ما معنى أن أكون مجرد رقم لا قيمة له.. صفر.. صفر.. ثلاثة، ولا شئ غير الخوف والتوجس.. هل يعني شيئاً خطيراً لهم.. آه.. تعرفت على والد سلمى في مسجد ساربروكين.. كانت ابنته متنقبة.. آه.. كم كنت أحب التطلع لعينيها.. تفيض منهما الأنوثة والدلال.. أو كما أذكر حين كنت أقطع إليها مسافة خمسة وأربعين كيلومتراً بالقطار من سار بروكين إلى سار لوي.. كان الطبيب المزعوم يعتقد أنني أتردد على سار لوي من أجل تعلم اللغة الألمانية في مدرسة صغيرة ذكرتها له مرة بشكل عرضي.. لكن، ابن الكلب، كان يتتبعني فهل كانت تعمل معه.. يعرف أنني أدور حول بيتها دورتين وأعود.. يعلم إنني دخلت بيتهم مرة.. هل كان يخطط لكي أقع في حبها.. ما زالت روائح المخللات في أنفي.. يخللون كل شئ.. الطماطم والجزر والخيار والفلفل.. أو كأنهم كانوا يدركون عشقي للمخلل.. لكن هل هي حقا تشبه هذه المضيفة التي تدور بين المقاعد وهي ترمقني في الرواح والمجئ أم ترى أن الأمور بدأت تختلط في رأسي.. لا أعرف غير أن الخطوات تتتبعني في إصرار.. خطوة.. ثنتان.. ثلاث..

حلقت اللوفتهانزا مودعة مطار فرانكفورت.. لا بد أن المضيفة الألمانية كانت تحاول تذكر ملامحي التي لا شك رأتها عند سفري على ذات الطائرة قبل عدة أشهر؛ فهل ستخبر الحراس اليمنيين الذين ينتظروننا بصنعاء.. اللعنة.. لقد تذكرتها توا.. إنها ذات الفتاة التي تظاهرت بالقراءة حين ركبت معي غرفة القطار الدولي المتجه لفرنسا.. يبدو أنها تعرفني وتعرف سيد والمخرج الأصلع أيضاً.. أنظر في عينيها وتنظر في عينيَّ.. سألتني إن كنت أطلب مشروبا أو إن كنت أعاني من

مشكلة ما.. أو إنني من الذين يخافون ركوب الطائرات.. هززت لها رأسي ووجهت بصري من خلف الزجاج نحو ركام السحاب الملتف حولنا.. وفوضت أمري إلى الله..

هكذا إذن تتباعد الشُـقـّة بيني وبين سيد سواء قبل أن أغادر إلى ألمانيا أو بعد أن عدت منها.. هو ليس في اليمن كما هو الحال.. هل ألقوا القبض عليه مع المجموعة التي وقعت في فخ تفجير الطائرات.. المضيفة تترقب هبوط الطائرة في مطار صنعاء.. هل هي تعرف أين يقيم سيد الآن.. هل سأجده مكبلاً في الأغلال حين يلقي بي المحققون اليمنيون في المعتقل.. كان لديَّ يقين بأن المحققين المصريين هم الذين سيتسلمونني من باب اللوفتهانزا.. لابد أن الرجل المصري الذي يعشق الإسكندرية كأنها شقيقته سيكمل المهمة التي فشل فيها زميله الطبيب الأردني المزعوم.. هل سينتهي بي المطاف إلى اسم مدون في صفحة الحوادث بجريدة الأهرام.. إلى مجرد قصاصة على مائدته يتطلع إليها متشفياً وهو يلتهم الدجاج المشوي.. ظل يسألني منذ التقطني من جوار التكايا حتى أرسلني للاجوس فألمانيا.. لماذا.. من الذي أرشده عني.. من هذا الذي يراقبني.. قلت إنني لم أذهب لأفغانستان ولم أتدرب على جيش العصابات أو قتال المدن أو حروب الشوارع.. لم أكن قائداً على أي من الجبهات المتقدمة في خوست أو غير خوست.. ولا أعرف أي أخوة من العائدين من هناك.. قلت له لكنه لم يسمع ولم يصدق.. ظل يرمقني بعينيه من وراء صدور الدجاج المشوي كأنه يردد داخل نفسه.. كذاب.. كذاب..

قلت فلأذهبهن من اليمن إلى السعودية دون توقف حتى إذا عثرت عليه خنقته وقطعت عنه الأنفاس.. ابن الكلب الواطي يسخر مني ويرسلني إلى التهلكة.. من هو ولحساب من يعمل.. وهل ينسق مع جماعة التبليغ والدعوة أم مع السفراء والملحقين العرب في لاجوس.. أم أنه مجرد عميل من العملاء التابعين لشبكة الطبيب الأردني المزيف..

إنه يعرف المصير الذي آل إليه سيد.. لطالما قرأت ذلك في حدقتيه المدورتين.. إنه يعرف كل شئ.. يعرف حتى مكان المخرج لأصلع.. قال كرم وعاصم قال.. أخسئ.. اعتقلوه في الرياض في نهاية المطاف، ولا بد أفرغوا جوفه من ما أكل من دجاج وفاكهة وما أدري..

في اليمن تم القبض على المعلم السوري.. ألقوا عليه شَرَك الصَّيد وهو نائم في حجرته بقرية عمران بعدما أدركوا كنهه كمقاتل سابق على الجبهة الإسلامية الأفغانية.. كان العسس في كل مكان.. الخطوات تقترب ورائي.. خطوة ثنتان ثلاث.. المشكلة كانت في الطريقة التي أعود بها لمكة.. المهم عدت.. والمهم أنهم في السعودية تلقفوني مطارداً فور تقديم أوراقي للعمل كمدرس.. جنزروني في السلاسل وشحنوني عبر البحر الأحمر إلى مصر.. الجيش الأمريكي يواصل حصاره للعراق.. أسرة الحكم الكويتية عادت لمرابعها.. صدام حسين يضم فرق المتطوعين للموت ويشكل داخل جيشه المتقهقر سرايا وكتائب جديدة باسم القدس وجيش محمد والرايات السوداء.. طائرات التحالف تضرب بغداد والرمادي والحلة.. تدمر عاصمة الرشيد وما حولها.. والجنود المصريون الذين رابطوا في حفر الباطن شبعوا من شمس الصحراء في الأطراف الشمالية من جزيرة العرب وعادوا منكسرين لا يجرؤون على ذكر وقائع حربهم الهزيلة لنصرة الأمريكان وأمراء الخليج الرعاديد.. بينما الرئيس الأمريكي يلوي شفتيه يمينا:

ــ"ذا أراب كانترز ماست دو إت.. ناو.."ــ

و يلتفت للجهة الأخرى من شاشة التلفاز متسائلا:

ــ"وات صداموهوسين وونت؟"ــ

لم تكن عند الهواري رغبة لسماع مثل هذه الحكايات عن لاجوس ورابطة العالم الإسلامي والخبز المصنوع من طحين الموز.. يجلس جواري ليذكرني بصوت أم الحبوني.. بصوت أمه وأم فايزة.. بأنين أم سيد.. يقول لو إن الجندي غريب وزميله الجندي بحيري قد خرجا من

نص المسرحية تلك وعرفا النهاية التي آلت إليها تجريدة أكتوبر.. هناك على طول حدود القناة والمياه الزرقاء ولهيب النيران يرتفع في عنان السماء وهو مع زميله بحيري يعبران التبة الرملية يجران المدافع والقنابل تدوي الطلقات لا يتراجعان يلاحقان جنود العدو الفارين.. أ كانت تلك هي اللحظات الأخيرة التي ماتا عليها أم ترى أن غريب لم يستشهد وما زال يدور بين مدن القناة بشعره الطويل كالمهزوم حيث لم يتمكن من الحلاقة في غزة.. صمت الهواري قليلاً ثم أردف وهو يتشفى في جسدي المسجى على الفراش:

-"أنت أيضا ما زلت مجرد جندي مهزوم أضاع زميله غريب في أتون القتال، من يوم تلبست بدور الجندي بحيري حتى الآن.. انتهت المسرحية؛ لكن أين سيد.. هل حقا ضيعته في أفغانستان كما يقولون..هل سيد اختفى إلى الأبد مثل غريب.."-

-"و من قال لك إنني ذهبت لأفغانستان.. أخبرتك من قبل إنني لم أسافر هناك أبداً.."-

أجاب الهواري:

-"طيب.."-

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي يزور فيها شقتي بزجاجاته الخضراء الباردة.. شعر أنني لم أعد أريده.. كرهته كأنه طبيب أردني مزيف.. كأنه مصري مريب يقيم بالسعودية أكول للدجاج المشوي مدعياً حبه للإسكندرية.. عرف أنني سئمت أسئلته الكثيرة.. سئمت حتى رغاوي البيرة وطعمها الممتزج بطعم الزيتون.. لكن في ثنايا العقل يبقى الهواري هو الهواري.. مازال يطير على شاطئ البحر.. يشرب ويرقص كأنه ما تزوج ولا أنجب طفلا.. كأن بروفات المسرحية ما زالت مستمرة.. كأن الانتخابات البرلمانية القادمة لن يتم تزويرها.. كأن المباحث في المرة التالية لن تمزق توكيله المعتمد كمندوب لمرشح الحزب في لجنة التصويت بمدرسة الشهيد المعناوي..

إذن هجرني زائري الوحيد؛ الهواري.. ولم تعد فايزة ترتقي درجات السلم.. يظل قدر المكرونة المطبوخة باللحم إلى أن يتعفن.. في ليال كهذه أنظر حوالي فلا أجد غير جسدي الطويل العريض يدور عاريا تحت السقف المعتم.. بدني الرخو يطوح بذراعيه الميتتين إلى جانبيه يخطو نحو المطبخ.. لدورة المياه.. إلى الشرفة حتى يتهاوى؛ فيسقط مثل كيس الطحين فوق السرير.. ينام جسدي مني وأنام بداخله.. أفتح عينيّ فأرى سيد في ملابسه البدوية البيضاء يقف عند الباب.. أشد أوصالي لأقول له أدخل.. لأسأله لماذا تأخر عند جده وجدته.. أنازع لأرفع رأسي عن الوسادة.. أنتظر اعتذاره المعتاد بأنه ذهب معهما في زورة سيدي يونس.. يا سيدي يونس خاطرك.. يرمقني من خلف ظهره ماشيا يجتاز الحصى والشوك والنباتات البرية الجافة حتى يشرف على الوادي.. يصيح بصوته الحاد مناديا على نفسه:

ـــ"يا سيياااااد.."ـــ

فيرد عليه الصدى بعد هنيهة بين جدران الشقة عاليا:

–"سيااااد.. ااااد.."ـــ

وحين حدقت في الظلام الملتف من حولي رأيت قبره مكتوب عليه باللغة العربية والبشتونية.. سيد المصري.. سميت باسم الله وسلمتُ عليه.. جثوت على ركبتي أدعو له؛ وفجأة انفجرتُ باكيا كطفل.. أتحدث إليه فلا يرد.. أسائله فيحرمني الجواب.. أحرثُ بأظافري كومة التراب أستصرخ قطعة الحجارة المكتوب عليها اسمه بلا جدوى.. توكأتُ على ماسورة الكلاشنكوف.. عدتُ أجرجر خطواتي؛ فإذا التفتُّ رأيتُ مدفنه يشعُّ نورا.. كانت الإضاءة الباهرة التي اقتحمت زنزانة الحبس الانفرادي.. زنزانتي المعهودة.. كأني ولدتُ بداخلها.. أصحو وأنامُ فيها.. الخبزُ الناشف أكله هنا.. وعلى الأرض أتبرز وأبول.. ابتسم الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض وحذائه الأسود اللامع.. أشار للجنود أن يجروني وراءه.. لكنهم بعد ذلك خلعوا عني بدلة الخيش

وتركوني أغتسل وأصلي وألبس ملابسي.. أدخلوني مكتبا حقيقيا في لاظوغلي وما أدراك ما لاظوغلي.. أفهموني منذ البداية إنهم منذ تسلموني مكبلا في الأغلال من السلطات السعودية في ميناء السويس وهم يتعاملون معي كمجرم دولي وليس كسياسي معارض، ولا يعرفون الطريقة التي تم بها نقلي من قسم ترحيلات الخليفة لمرسى مطروح مباشرة.. أو هذا ما أذكره من ذلك اللغو والمماطلة وفنون التعذيب التي لم أعد ألقي لها بالاً:

-"انت كنت فاكر إن احنا مكناش نقدر نجيبك؟"-

وبعد ثلاثة أيام من روقان البال والراحة والنوم على سرير بملآت نظيفة داخل لاظوغلي، وما أدراك ما لاظوغلي، بدأت المناورات الآتية على أيدي ذات الضابط ببنطلونه الأسود وقميصه الأبيض:

-"إنت عنيد.. مشكلة.. مش عايز تعترف.. دماغك ناشفة.. يعني إحنا عارفين اللي انت عملته.. كنا شايفينك في باكستان وأفغانستان.. في اليمن والسعودية في نيجيريا وألمانيا..و تحقيقات البوليس في قضية خطف الطائرات.. طلعت منها زي الشعرة من العجين.. إنت دايما تنكر.. إنت جامد يا شيخ.. عنيد.. المهم سيبك من كل اللي فات، وإن كان حد مننا زعلك فاحنا دلوقتي بنصالحك.. قولنا.. ناوي على إيه لما نفرج عنك وتطلع..؟"-

-"و لا حاجة.. أشتغل"-

-"تشتغل إيه..؟"-

-"سأحاول أمارس مهنتي كمدرس.."-

-"و مين قالك إنه حيشغلك..؟"-

-".. والله حمارس حقي القانوني وأرفع قضية.. أطالب بحقي كمواطن، وبإذن الله حاكسبها"-

-"يعني حتعمل شوشرة..و ناوي على إيه تاني؟"-

-"ناوي إني أطلع أحلق دقني وأبعد عن أي عمل سياسي.. أسيبلكم الجمل بما حمل.."-

-"تفتكر لما تحلق دقنك احنا حنسيبك.. ما انت عارف إن عناصر الجهاد بتحلق دقنها وبرضه بتعمل عمليات إجرامية.. وبعدين يرضيك يعني اللي بيعملوه الجماعات الإسلامية في الصعيد ومرواحهم للسودان..؟"-

-"لما أعمل حاجة إجرامية إبقى هاتوني.. وبعدين والله انتوا اللي عايشين مع الجماعات الاسلامية من زمان وعارفين إن كان اللي بيعملوه صح ولا خطأ..و أنا، إذا أردت أن تعرف لست مع قتال المسلمين.."-

-"يعني احنا في نظرك مسلمين..؟"-

-".. والله اللي يحارب فيكم الإسلام فهو كافر، واللي بيحارب منكم الإسلام وهو على جهل فهو مسلم جاهل.."-

سأل وقد شعرت أنه يريد أن يسوقني نحو فخ جديد:

-"يعني يجب قتاله..؟"-

فرددت عليه لأنقذ نفسي:

-"أرجوك.. لا تدخلني في تفاصيل لا لزوم لها.. أنا انتويت البعد عن كل شئ في الفترة القادم، وأي حاجة فاتت نحاول ننساها مع بعض.."-

يبدو أن هذا الضابط قد أصبح أكثر عنادا مني.. قال:

-"يعني تريدها هدنة لوقت معين..؟"-

-"مش موضوع هدنة.. بل موضوع ليس لها من دون الله كاشفة..!"-

-"يعني زهقت..طيب لما تخرج كيف ستتعايش مع الناس اللي اتعودوا يقولوا عليك الشيخ نبيل راح.. الشيخ نبيل جه..؟"-

-"سمّه زهق.. سمّه يأس.. سمّه قرف..أنا عندي القدرة على التكيف مع أي مجتمع بطريقتي.."-

كانت الأسئلة تجري سلسة وودية حتى أفصح عن نيته.. طلب مني ألا أحلق لحيتي.. قال خليك كما أنت.. نتعاون سويا.. فجاوبته:

-"يعني أكون خاين.. آكل مع ناس في صحن واحد وأشرب معهم في كوب واحد وآجي أبلغكم..؟!"-

و اقترح الضابط أن أستبدل اسم الخيانة باسم حب الوطن.. قائلا إن هذا العمل يصب في خدمة مصر.. مصر في حاجة إليك.. ثم أضاف:

-"إيه رأيك تبقى معانا زي ما أنت.. نعطيك مئة ألف جنيه ونجيبلك فيللا وعربية في مرسى مطروح.. تفتكر إحنا حنخليك مرشد عادي زي أي مرشد ابن وسخة خول؟.. انت غلطان.. انت مش فاهم.. إنت معاك ليسانس آداب.. هعملك معادلة سنتين في كلية الشرطة بجواب أكتبه دلوقتي عشان ما تفتكرش إن احنا حنبيعك.. وحتبقى ضابط أمن دولة مننا وعلينا.. وحنخليك تحكم محافظة مطروح كلها.. تتصرف فيها زي ما أنت عايز.."-

-"شوف.. أنا ممكن أشتغل الشغلانة دي بس مش في مرسى مطروح ولا في مصر.. ممكن في مكان واحد فقط هو إسرائيل..!"-

-"طيب لو مش عايز بتوع مطروح خليك معانا في القاهرة أو في الصعيد..وإذا كنت مصمم على عدم التعاون فيمكن أن تثبت للوزارة حسن النية.. تظهر بلحيتك في التليفزيون تقول إنك كنت غلطان وإنك تبت..ممكن أطلب كاميرات دلوقتي وتصورك وانت بتسلم على سيادة الوزير.. وبعدين يتعملك حوار في التليفزيون تتكلم فيه عن إن هذه الجماعات جماعات إرهابية.."-

رفضت كل شئ.. كنت متعبا.. وآثار التعذيب والحبس تأكل في لحمي وعظامي.. قلت له كلمة أخيرة اعتبرتها نهائية واعتبرها هو أيضاً كذلك:

-"من الآخر.. العملية كلها طالبة معايا بُعد.."-

كم يوما استمرت مثل هذه المداورات والمنـاورات والإغـراءات والعقوبات.. قل ثلاثة أو أربعة أيام.. في كل مرة يختتم حـواره زاعقـا مناديا الجنود بالخارج بكلمتين:

-"خذووووه.. فيشوووووه.."-

هذا معناه يوم آخر من الحرمان من النوم.. لأن حجرة الحبس بهـا حنفية تطرطش ماء الصرف العفن طول الليل على الـبلاط؛ مرقـدي.. ومعناه يوم آخر من الحرمان من الطعام والشراب.. كانت تلك هي الأيام الأخيرة للتحدي بيني وبين الضابط ببنطلونه الأسود ذاك.. لقـد اضـطر لإخلاء سبيلي.. قال لي صراحة:

-"إحنا حنتابعك.."-

طبعا هذا مفهوم، ومن غير أن يحتاج لتذكيري بأنني سأكون تحـت المراقبة لشهور طويلة قادمة قد تمتد لسنوات.. وحـين جـاء أصـحاب مركز حقوق الزفت ومناهضة القطران كنت أدقق فـيهم النظـر.. هـل كاتب الملاحظات الذي يسأل ويداور ويناور هو ذاته الضابط إيـاه.. وإلا من أين أتى بتلك المعلومات كأنه يحيط بكل التفاصيل علماً.. يقول واثقا:

- "أنت حاربت مع المجاهدين.. هذا معلوم، لكن جواز سفرك بـلا أية تأشيرة تدل على ذلك؛ فكيف.. لو فقط الترتيبات كيف كانـت.. لـن نسجل ذلك في التقرير إذا أردت..هه؟"-

انتظرتُ أسابيع عقب صدور التقرير.. أنْ تحاصر قوات الشـرطة العمارة.. أنْ يصيح الضابط في وجهي كعادته؛ المكان محاصر.. سـلّم نفسك.. إلا أن أحدا لم يحوّمْ حول المبنى، ولو حتى مخبر واحد.. لـيس غير أم الحبوني تربط حمارها في عامود النور وهي تعول نائحـة ويـن الحبوني يا صحرا.. لا بل كان بكاء أم ستيد تروح وتجـئ فـي شـارع الإسكندرية تنادي على وليدها الغائب.. تبحث عني.. قتلت سيد.. وليدي قتلته.. يبتعد أنينها ويقترب حتى يرقى ويتردد صداه في جنبـات منـور العمارة.. لن تجدني أنا غير موجود.. هذه مجرد كومة لحم ملفوفة فـي

الملاءات ملقاة فوق السرير.. جسد رخو فارغ من العظام يبلله العرق أو الدموع ينتفض من صعقات الكهرباء بين يدي الضابط فكأنني في سكرة الموت كنت.. وكنت أنا وسيد نحث الخطو إلى الأمام.. كان مجرد السير كيفما اتفق، والعرق ينزُّ حول ياقة قميصي وتحت عمامة سيد.. كان العرق والشمس والريق الناشف.. كنا نريد أن نصل أولاً إلى غدير مياه.. إلى بئر؛ وربما لهذا السبب ندفع بأقدامنا للأمام لا نبتغي غير مرضاة الله ربي .. رب السماوات والأرض وما بينهما؛ فاعبده.. واصطبر لعبادته.. هل تعلم له سميًا.. ويقول الإنسان أ إذا ما متُ لسوف أخرج حيًا.. ألا يذكر إنَّا خلقناه من قبل ولم يكُ شيًا.. فنمتُ إذن أم استيقظتُ.. بهذه الطريقة أهمدُ لا أعي نهاراً من ليل.. الماء داخل البراد يغلي.. يتحول الشاي لسائل أسود مثل العسل.. يتحول العسل لقرص متفحم داخل براد الشاي.. الدخان يتصاعد من المطبخ.. يتوهج البراد فوق النار.. يملأ الدخان الشقة.. من تحت الباب يخرج.. من النافذة.. طَرقٌ شديد.. خبط وخبط:

-"يا شيخ افتح.. افتح يا شيخ نبيل .. الشقة تحترق!"-

" تمت "

عبد الستار حتيتة

مرسى مطروح – القاهرة

ربيع ٢٠٠٠

email: hetieta@gmail.com

صدر للمؤلف

- ليلة في سجن المالكي (رواية) ١٩٩٩
- استراحة الشيخ نبيل (رواية) ٢٠٠٨

تحت الطبع

- أتباع الشيخ نبيل (رواية)
- لوزة (مجموعة قصصية)



تفاصيل هذه الرواية وقعت قب
أحداث الحادي عشر من سبتمبر عا
٢٠٠١ . ومع أنها تتخذ من مدينة
مرسى مطروح بمصر، حيث تترك
قبائل أولاد علي، محورا لأحداثها إلا
أنها تنطلق منها إلى آفاق وحدود
بعيدة.. من القاهرة للسعودية، ومن
اليمن وأفغانستان، إلى نيجيريا
وألمانيا..قصص من الحرب والحب
والجهاد والحنين.. هي رحلة مثيرة
استوحى الكاتب أحداثها من عدة
شخصيات حقيقية، أهمهما شخصية
الشيخ نبيل عبد الرحمن الشهير في
محافظة مطروح وغيرها.

ويكتب عبد الستار حتيتة كثيراً من
الروايات والقصص القصيرة، لكنه لا
ينشر ما يكتبه إلا نادرا، كأنه يعزف
لنفسه..

وانظر كيف تصادف فوزه بجائ
الرواية بهيئة قصور الثقافة عام
١٩٩٨ . أخذ أصدقاؤه نسخة من
روايته "ليلة في سجن المالكي" من
مرسى مطروح وأرسلوها للجنة
المسابقة بالقاهرة دون علمه
وبعد شهر من بحث الهيئة عنه
أخبروه بأن روايته فازت بالمرك
الأول.. واستغرق الأمر وقتاً ليدرك
بالفعل أن الأمر كان كذلك. يقول: "لن
اغفر لأصدقائي فعلتهم"

وقد لا يغفر لهم أيضاً سعيهم الجديد
لنشر واحدة من قصصه المثيرة، وهي
رواية "استراحة الشيخ نبيل" هذه.
فيعنفهم بلهجته التي تعود لقبائل
"أولاد علي": "ليش.. عيب عليك
هالكلام.. والله فضيحة!"

لكن أصدقاء "حتيتة" يرون أنهم هم
الذين سيردون عليه باللوم، لأن
الرواية الجديدة، بعالمها الغريب
ولغتها المختلفة، ونسجها المحير، كا
ينبغي أن تكون بين يدي القار
العربي منذ سنوات

الناشر

دار العالم الثالث